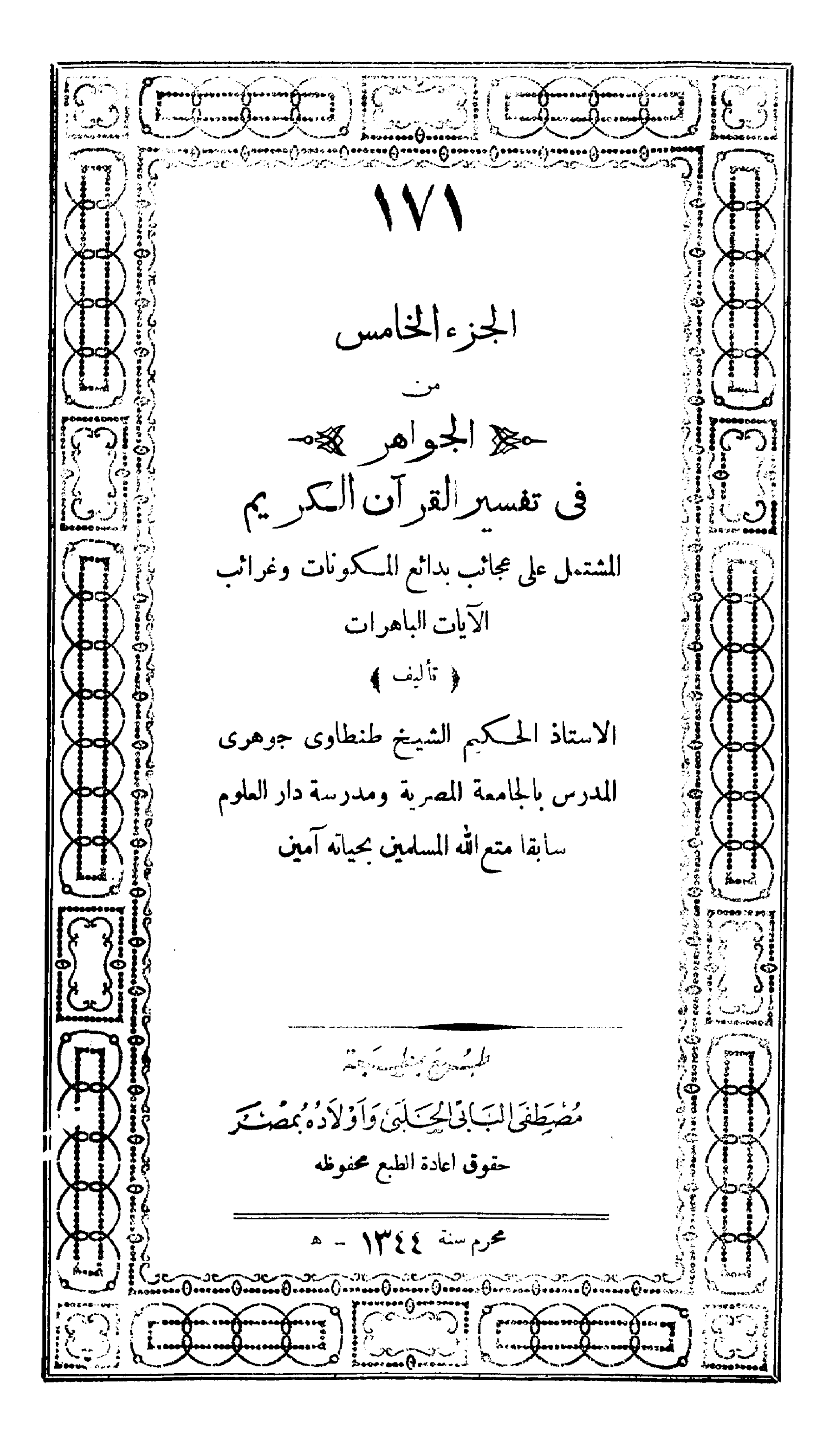


١٧١

الجزء الخامس

من

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

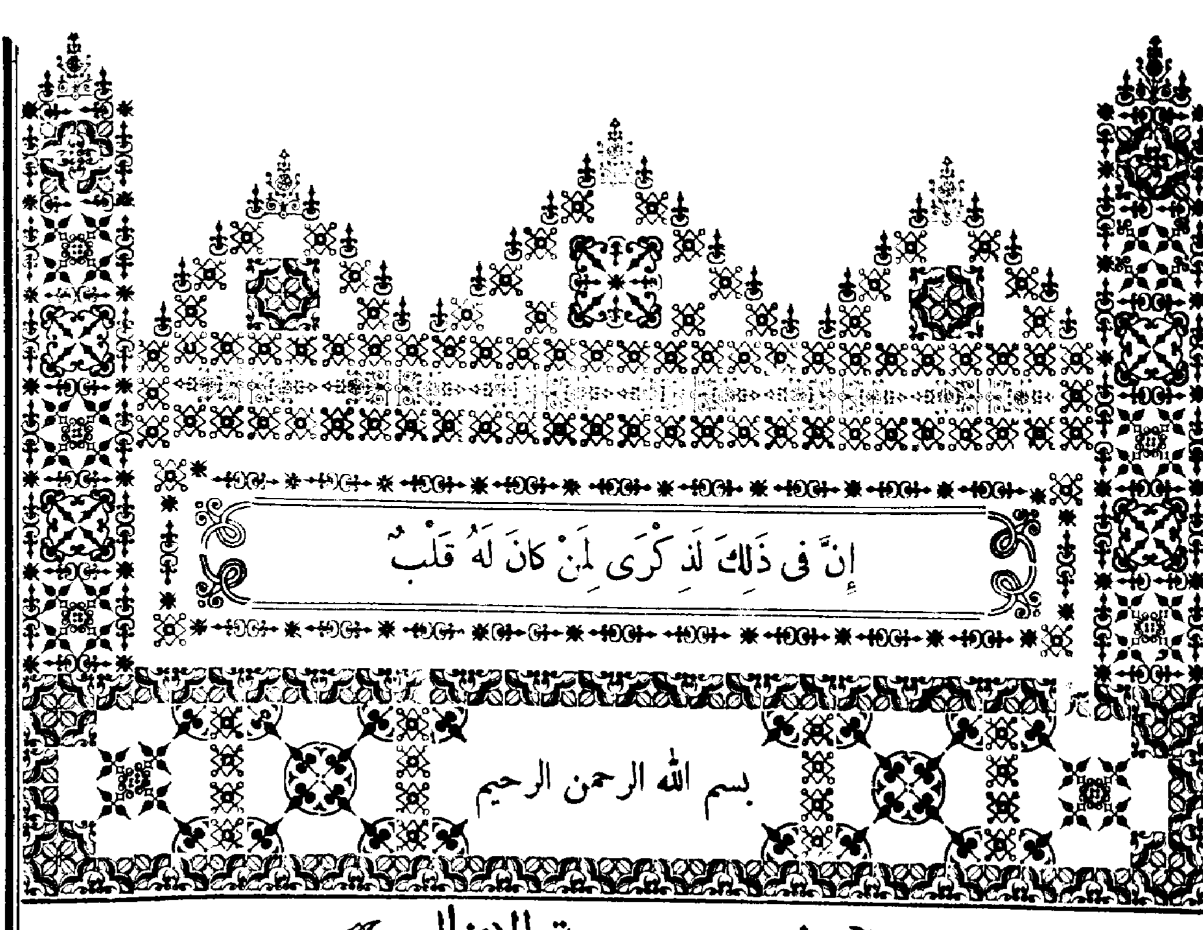
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب
الآيات الباهرات

﴿ تأليف ﴾

الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم
سابقا متع الله المسلمين بحياته آمين

الطبعة الثانية
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
حقوق اعادة الطبع محفوظه

محرم سنة ١٣٤٤ - ﻫ



تفسير سورة الانفال

﴿ وهى مدنية وهى ست وسبعون آية ﴾

﴿ وهى تشتمل على خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأوّل ﴾ من أوّل السورة الى قوله ـ ورزق كريم ـ فى صفات المؤمنين الكاملين

﴿ القسم الثانى ﴾ فى ذكر غزوة بدر من قوله ـ كما أخرجك ربك ـ الى قوله ـ وان الله مع المؤمنين ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ فى وصايا ومواعظ للمسلمين من قوله ـ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ـ الى قوله ـ والله ذوالفضل العظيم ـ

﴿ القسم الرابع ﴾ فى ذكر ضلالات الكفار وخباثتهم مع وعيدهم وزجرهم من قوله تعالى ـ وإذ يمكر بك الذين كفروا ـ الى قوله ـ نعم المولى ونعم النصير ـ

﴿ القسم الخامس ﴾ فى قسمة الغنائم • وكيف يعامل الأسرى • ووصايا عامّة فى الحرب والاحتراس من الأعداء من قوله تعالى ـ واعلموا أن ماغنمتم من شئ ـ الى آخر السورة

(مقدمة السورة)

اعلم أن الله عزوجل لما أبان فى سورة البقرة الأحكام الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وجعل آل عمران للدلالة على الله ولازالة الشبهات عن رسالة بعض الأنبياء وأكمل فى سورة النساء الأحكام التى فى البقرة فبين الميراث وأحوال الأزواج والأقارب وأتبعها بالمائدة ذات الفائدة مبينة مايحلّ من الصيد ومايحرم وجعل الأنعام ميدان الحكمة والعلم • والأعراف لتعريف زوال الملك وموت الممالك التى نام ملوكها وشذ أفرادها عن النهج القويم فهلكت مدنهم بعد أن بارت تجاراتهم • ولما انتهى الكلام الى هذا المقام ناسب أن يؤتى بعدها بسورة الأنفال ليؤسس مجدا اسلاميا جديدا ويرفع شأن أمة جديدة ويبنى لها صرحا

على

على انقاض الأمم السالفة فى (سورة الأعراف) • فهوعزوجل يقول ـ لقد أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ـ كما جاء فى سورة المائدة وذلك لم يكن إلا بعد أن شرح فى البقرة كثيرا من الأحكام الشرعية • وكذا فى (سورة النساء) • وأبان فى آل عمران النصرانية والاسلامية • وأبان فى الأنعام المحرمات والمحللات • وفى الأعراف ذكر القصة التى استبان فيها كيف تكون سيآت الأخلاق من أسباب الفضيحة والحرمان • وكيف تصبح ديار الأمم قاعا صفصفا متى زاغت عقائد أهلها وتولوا عن النصائح وأعرضوا عن القويمات الصحائح وبخسوا الناس أشياءهم وعثوا فى الأرض فسادا وبغوا وطغوا • هنالك تقرعهم القارعة وتنزل عليهم الصاعقة وتمحقهم الماحقة وتذرهم حصيدا خامدين • هذا هو المقصود من سورة الأعراف • واذا كان هذا هو المثل القديم للأمم الغابرة • فقد ذكر سورة الأنفال والتوبة بعد ذلك ليبين للمسلمين كيف تفنى الأمم وتبيد ويقول هاأناذا فعلت بالأمم السالفة وقد أنلتكم قوة وأعطيتكم خلافة الأرض ومكنت لكم فيها وجعلتكم خلفاء لأهلها فلكم فارس ولكم الروم فلأبين لكم فى سورة الأنفال والتوبة معاملتكم مع الأمم وكيف تحاربون وتعاهدون • واياكم أن يغركم أنى جعلتكم أقوياء فاذا تكبرتم وأبيتم فاقرؤا الأعراف ان شئتم ويونس وهودا ان أردتم ولا تغرنكم سورتا الأنفال والتوبة الدالتان على أن لكم شأنا وانكم منصورون • فالأعراف ويونس وهود المكتنفات للأنفال والتوبة تشهدان أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ وما مثلكم إلا كمثل الامم قبلكم وأنا الحكم العدل • ولذلك لما انصرم الزمان وذهبت تلك الأيام سلطت الفرنجة عليكم كما سلطت أمما ودولا وحوادث جوية وزلازل أرضية على الأمم المذكورة فى يونس وفى هود وفى الأعراف • ولقد تبين صدق هذا المعنى المأخوذ من الترتيب المذكور باجتياح الفرنجة بلاد الاسلام وغلبهم عليهم فصاروا فى ذل بعد عزهم • وفى شقاء بعد سعدهم • وفى شر بعد خيرهم • وفى ضر بعد نفعهم • ـ سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ • وقد آن أن أشرع فى تفسير سورة الأنفال • فأقول

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة مدنية كلها وهى (٧٦) آية • واعلم أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر كيف تقسم ومن الذين يستحقونها المهاجرون أم الأنصار • وورد أن الشبان تسارعوا الى الهيجاء فقتلوا سبعين وأسروا سبعين • ثم طلبوا الغنائم وكان المال قليلا • فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ لكم وفئة تنحازون اليها فنزلت الآية فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء فلم

يخص الشبان لقتلهم وأسرهم الأعداء ولا الشيوخ لمحافظتهم على رسول الله ﷺ ولا المهاجرين لسبقهم فى الاسلام ولا الأنصار لنصرهم الرسول ﷺ وايوائهم النبى والمهاجرين • وهذا قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال) أى الغنائم يعنى حكمها • وانما سميت الغنيمة نفلا لأنها من فضل الله وعطائه والنفل فى الأصل الزيادة (قل الأنفال لله والرسول) أى أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمر الله به • وقد علمت آنفا أن النبى ﷺ سوّى بين المحاربين فى القسم وقد نزل بيان القسمة بعد ذلك فى قوله تعالى ـ واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه الخ ـ فتلك الآية تبيان لكيفية القسم فتكون هذه الآية محكمة كما قاله عبد الرحمن بن زيد • ولما كان أمر الغنائم أمرا دنيويا والأمور المادّية تنزل بالنوع الانسانى الى دركات الأخلاق ونقائص الأعمال أخذ سبحانه يردعهم عن ذلك ويردّهم الى الفضائل الخلقية لأن التمادى فى المادّة يقطع الأرحام ويفرق الجماعات ويولد البغض فقال (فاتقوا الله) فى الاختلاف والمشاجرة والتنابذ والشقاق فى حوز الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) حقيقة وصلكم أو أحوال بينكم يعنى ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ولا تصلح أحوال الألفة إلا بالمساعدة والمواساة وتسليم الأمور لله تعالى لا بالمشاكسة والمشاجرة (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به فى الغنائم وغيرها (إن كنتم مؤمنين) كاملى الايمان * قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه نزلت فينا معاشر أصحاب بدر اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء * وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال لما كان يوم بدر قتل أخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأتيت رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله ﷺ سألتنى السيف وليس لى وانه قد صار لى فاذهب فخذه اهـ

ومقتضى هذه الآية أن كمال الايمان بطاعة الأوامر واتقاء المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والاحسان ثم أخذ يبين صفات كاملى الايمان فوصفهم بخمس صفات • وهاك بيانها

(١) أن توجل قلوبهم وتفزع لذكره استعظاما وتهيبا من جلاله • وهذا الخوف عند العصاة من العامّة يكون من العقاب • وعند الخواص يكون من الهيبة والعظمة لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه أشدّ خوف فالخوف على مقتضى المراتب • وفى آية أخرى ـ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ـ والاطمئنان انما يكون بالمعرفة المذكورة فى الصفة الثانية وهى

(٢) انهم اذا تليت عليهم آيات الله زادتهم ايمانا • فمن كانت الدلائل عنده أكثر كان ايمانه أقوى فالعامّة يكفيهم دلائل الدين والقرآن • والخاصة يفكرون فى ملكوت السموات والأرض وعجائب النبات والحيوان والانسان وعجائب هذا الوجود • ومما يزيد الايمان عند الطائفتين العبادات ومزاولة الأعمال الدينية • ومتى كان المرء وجلا من خشية الله موقنا به لتتابع الآيات الكونية والقرآنية على قلبه توكل عليه وفوّض أمره اليه • واليك بيان الوصف الثالث

(٣) وهو التفويض لله فلا يخشى إلا هو ولا يرجو إلا ربه

(٤و٥) صفتان عمليتان وهما اقامة الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها • وانفاق الأموال فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه كالزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البرّ • وهذا قوله تعالى (انما المؤمنون) الكاملو الايمان (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فزعت لذكره (واذا تليت عليهم آياته) أى القرآن (زادتهم ايمانا) لزيادة المؤمن به أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين • إما بالآيات القرآنية • واما بالأدلة الكونية التى يشير لها القرآن • واما بالعمل بما تقتضيه الآيات (وعلى ربهم يتوكلون) ومن رأى بوعد

الله

الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لاعلى غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة . وهذه الصفات الثلاث وهى ﴿ الوجل . وزيادة الايمان . والتوكل ﴾ من أعمال القلوب وقوله (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أى الذين يحافظون عليها ويؤدّونها كاملة تامّة حاضرة قلوبهم وينفقون المال لمستحقه فلا ترتبط قلوبهم كما حصل للذين تشاجروا لأجل الغنيمة فهؤلاء وأمثالهم خير لهم ألا يجعلوا المال مقصودا لذاته بل هو وسيلة والوسيلة للمحبوب غير المحبوب والمحبوب هو الكمال والفضائل والوصول لله بما قدّموا من أعمال مبرورة وأفعال مشكورة وقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) أى لأنهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والايقان والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح من الصلاة والصدقة وحقا مصدر مؤكد (لهم درجات عند ربهم) مراتب بعضها أعلى من بعض . وتلك المراتب والدرجات على مقتضى تلك الصفات فمن الناس من يعرف جمال الله فى السموات والأرض ولكنه غير واثق به قلق القلب . ومن العامة من هم متوكلون على الله واثقون به ولكنهم لايعرفون جلال الله ومنهم المتوكلون الموقنون . ولكن الأموال شغلت بالهم وقلوبهم لاتحضر فى الصلاة وان حضرت كانت غير تامّة الحضور . فبهذه المراتب المتفاوتة تكون درجات الانسان بعد الموت ويوم القيامة على مقدارها وهى الى الزهد فى الدنيا والولوع بالله وآياته أقرب فهؤلاء لهم درجات عند ربهم (ومغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) أعدّ لهم فى الجنة لامنتهى له

﴿ لطائف القسم الأوّل لسورة الأنفال ﴾

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أيها الذكى أن المسلمين اليوم قد نسوا حظا من هذا القرآن والا فكيف تخاذلوا وتنابذوا وتشاجروا فترى ملوك العرب فى الجزيرة ورؤساء القبائل فى بلاد المغرب وبعض عظماء المصريين متقاطعين متدابرين متكالبين على الأموال والعظمة والرئاسة جهالة ونذالة وقلة كمال

أومارأوا أهل أوروبا مع تباعد مذاهبهم الدينية . فهذا (كاثوليكى) وهذا (بروستانتى) ومع تباعد مطامعهم وتشعبها فانهم يتقاتلون على دول وممالك أفلاينظر رؤساء المسلمين الى هؤلاء وهم يجلسون على المنضدة ويتحاسبون ويصطلحون حقنا للدماء وحفظا للجوار وراحة للشعوب . أما هؤلاء الأمراء الاسلاميون فانهم يتقاتلون على أمور صغيرة . أوماقرؤا هذه الآية فاطلعوا على فعل الله ورسوله وكيف نزلت الآية عند التشاجر على الغنائم فقسمها ﷺ بين المجاهدين بالسوية فكيف لايفعل هؤلاء مافعله نبينا ﷺ وكيف لايقيمون الوزن بالقسط ولايجلسون مجلسا يدلى فيه كل بحجته ومتى ظهر الحق أطاعوه واتبعوه وان يفعلوا ذلك إلا اذا كانوا كاملين فى الايمان . فهؤلاء لا بالاسلام عملوا ولا بالعقل اصطلحوا ـ انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ . وقد شغل قلوبهم عرض الدنيا فغشى على قلوبهم غشاء كثيف واعلم أن الدنيا لاتنقاد إلا لنفوس عالية وقلوب واعية بعيدة النظر فان المواد والأعراض نتائج المعانى فلا عمل إلا بعد فكر . ولانتائج إلا بعد تعقل . فهؤلاء الذين ملكوا الممالك لهم آراء أدّتهم الى ذلك ولهم مواهب وعقول وجيوش فلامادّة إلاحيث يكون صدق وعدل وفكر وتكون المادّة على مقتضاه وهذا بأحد أمرين اما بدين يذكر المرء بصفات المؤمنين وهى هذه الخمسة وغيرها . واما بعقل كما اتفق لكثير من ملوك الفرنجة فبعض أمراء الشرق المسلمين لم ينالوا نصيبا من الحكمة ولاحظا من الدين فلذلك يتقاتلون على صغائر الامور ومحقرات الأشياء وهم ساهون لاهون والفرنجة من حولهم على أذقانهم يضحكون صم بكم عمى فهم لايرجعون . فهلا وجلت قلوبهم . وهلا ذكروا ربهم . وهلا نظروا نظرة فى المال الذى تعادوا لأجله فعرفوا أن اتصافهم بجميل الصفات يعطيهم ملكا أوسع ورزقا أشرف ـ والله هو الولىّ الحميد ـ اه

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اعلم أيها الذكى أن المتوكل على الله يستفيد فائدتين ﴿ الأولى ﴾ ألا يحزن فى الحال للمستقبل ﴿ الثانية ﴾ أنه يجد التوفيق عند حصول مأموله فى المستقبل . وليس يكون متوكلا حقا إلا اذا أتقن عمله اتقانا تاما وقام بشروطه على الوجه اللائق وفكر فيه وعمل ولم يدخر وسعا ولم يبق إلا أن تبعد عنه الآفات النادرة والأحوال العارضة . فهذا هو التوكل حقا . فأما الكسالى الساهون اللاهون الذين لا يعملون ويدّعون أنهم متوكلون فأولئك هم المغرورون وهم كثير من عامة المسلمين . اهـ

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدّمة على أعمال الجوارح . ألا ترى أن الايمان بالله وخشيته والاطلاع على عجائبه والتوكل عليه مقدّمات على الصلاة والزكاة وهذا من لطائف القرآن . ان أعمال القلب وتوافرها عند الناس تفيلهم خيرى الدنيا والآخرة . ولقد أجمع العلماء أن أثر القلب فى أحوال الانسان أقرب الى الثواب من أثر الجوارح ولولا النية وهى من أعمال القلب لكانت العبادات كلها باطلة وهكذا فى أحوال الدنيا . فانظر كيف أصبح الناس فى هذا الزمان وفى غيره لا صلح بينهم ولا اتحاد ولا التئام إلا بنظافة البواطن . ولذلك ترى أمم الاسلام المتخاذلة انما حصل لها ذلك بالجهل السائد بمصالح الدنيا والآخرة . والجهل من صفات القلب . ومن أعظم الجهل انهم أعرضوا عن عجائب هذه الدنيا ومافيها من البدائع واللطائف التى تزيد المرء ايقانا بربه وهى التى جاءت فى قوله ــ واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ــ فهذه الدنيا كلها من آيات الله ومعرفتها عمل قلبى ولا سبيل الى استثمار مافيها من معادن ونبات وحيوان إلا بعد العلم فهؤلاء الأمراء لما جهلوا آيات الله نقص ايمانهم ولما نقص الايمان انحصرت عقولهم فيما بين أيديهم من موارد ضئيلة فتقاتلوا وتحاسدوا وتعادوا وذلك لجهلهم بآيات الله وهى احدى الخصال القلبية الثلاثة . ولقد جعل الله صلح ذات البين واطاعة الله ورسوله معلقين على هذه الامور القلبية فمن فقدها فقد الطاعة والصلح ومن جمعها نال الصلح وهؤلاء المسلمون أعرضوا عن جمال الله فى هذا العالم فلم يدرسوا عجائب هذه الدنيا وفرحوا بما عندهم من العلم الضئيل والمال الكثير ــ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ــ فلا سبيل لرقيهم وصلحهم وطاعتهم لربهم إلا بما يأتى

(١) أن ينتشر العلم بينهم بعجائب هذه الدنيا وما علم أدب اللغة والتاريخ إلا مقدمة لذلك العلم الشريف

(٢) أن تهذب النفوس حتى يخشى الناس ربهم وذلك بذكر الآيات والأحاديث الزاجرة والمخوّفة ببطش المنتقم الجبار

(٣) اقامة الصلوات وبذل المال . فهذه هى المهذبة للنفوس وأهمها تعميم العلوم العصرية

﴿ حكم ظهرت فى هذه الآيات ﴾

قد يظنّ القارئ أن هذا العنوان كغيره مما يجعل للتشويق أو للمبالغة والاغراق . ولكن أقول ان المقام مقام علم وحكمة واذا كان صدق الكتب الدينية مرجعه العلم كان ذلك أثبت . ألا ترى الى ماذكره علماؤنا كالامام الغزالى إذ يقول ﴿ اذا أردت أن تعرف صدق هذا الدين فاعمل ببعض مافيه ثم انتظر النتيجة ﴾ مثل قوله تعالى ــ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ــ وكقوله ﷺ ﴿ من استعف يعفه الله ومن استغنى يغنه الله ﴾ فانه جعل صدق النتائج للحديث أو للآية هو المعيار لصدقهما

قد قدّمت لك هذا لتنظر فى تركيب هذه السور كما أشرت اليه سابقا . ولكن يجدر بى هنا أن أعطى المقام حقه وأبينه فأقول . قد قلت سابقا أن سورة الأعراف جاءت انذارا للكافرين وذكرى للمؤمنين بنص الآية فى أولها وها أنت ذا قد اطلعت على هلاك الأمم السالفة مثل قوم نوح وعاد وثمود الخ وختمها بثلاثة

أشياء (١) أن يصفح الانسان عن الجاهلين ولايتبع خطوات الشيطان فى العداوات (٢) وأن يسمع القرآن وينصت له (٣) وأن يذكر ربه فى نفسه مع المراقبة . هذان هما اللذان جاءت بهما سورة الأعراف مضمون السورة كلها ونصائح فى آخرها . فانظر فى سورة الأنفال والتوبة اللذين جاءا فى أمر الغنيمة والحرب والنصر . فههنا أمران (١) أمر مقاصد السورة العامة وهذا يطول الكلام على مناسبته لهاتين السورتين (٢) وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأول سورة الأنفال . فلأتكلم عن ثانى الأمرين أولا ثم أتبعه بالأول الذى هو المقصود بالحكم فأقول . المناسبة بين السورتين أى بين آخر الأعراف وأول الأنفال . ان آخر الأعراف كما اشتمل على الاعراض عن الجاهلين وترك العداوة والبغضاء وعلى الانصات للقرآن وعلى ذكر الله ذكرا بحضور القلب . هكذا أول سورة الأنفال ففيها الصلح بين المتخاصمين وهو راجع للأول وفيه قوله تعالى ـ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ـ وقوله تعالى ـ واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ـ وهما راجعان الى الثانى والثالث . فهذا هو تمام الكلام على ثانى الأمرين وهو المناسبة بين آخر الأعراف وأول الأنفال . أما الكلام على أولهما وهو ملخص الأعراف وملخص الأنفال والتوبة وهو المقصود من ذكر الحكم فأقول مفصلا بعد أن ذكرته مجملا فى آخر سورة الأعراف . اعلم أن هذا العلم لا يمكن معرفته إلا فى زماننا الحاضر لأننا جئنا بعد ١٣ قرنا فشاهدنا بأعيننا وقرأنا فى كتبنا وتاريخنا ما دلنا على حسن نظام هذا القرآن . ان سورة الأعراف فيها هلاك الأمم التى فسقت . وبماذا فسقت . فسقت بالترف والنعيم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والتعالى على الناس الخ كل هذا مع الكفر . هؤلاء هلكوا وقد أنذر الله الكفار به وذكر المسلمين بما ذكرهم . ذكرهم بأنكم أيها المسلمون يوما ما ستفتح لكم البلاد وستجوسون خلالها وستعمرون أرض ربكم . فلتعلموا أيها المسلمون أنى أنا الحكم . أنا العدل . أنا لا أبقى فى أرضى من لا ينفع الناس . ان الناس جميعا عبادى فكل من ساعدهم أحببته . وكل من حافظ عليهم ساعدته . أنا أساعد الطيور فى أعشاشها والاسود فى آجامها والحشرات فى مخابئها فكيف أترك الانسان سبهللا بلا نظام . فها أنتم أولاء أيها المسلمون قد ملكتم الأرض فى العصور الأولى فصدقتم ثم بعد ذلك فسقتم . أنا وعدتكم بالنصر فى سورة الأنفال وقسمت الغنائم بينكم وهى التى تأخذونها من عبادى وهكذا توالى النصر عليكم وذقتم البأساء والضراء وكانت الحرب سجالا . كل ذلك فى الأنفال والتوبة ثم كانت الغلبة لكم مع علمكم بأن سورة الأعراف لم تزل ماثلة أمامكم تقرؤنها بحيث اذا أخللتم بنظام عبادى أهلكتكم وأذللتكم ولن تجدوا لسنتى تبديلا

سورة الأعراف منذرة وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والغنيمة . مضى العصر الأول بعد نبيكم فاذا حصل . تفرقتم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض وأصبحت الخلافة ترفا ونعيما وصار الملك للعلو والفساد ومن أراد العلو فى الأرض أو الفساد أذللته وأهلكته فلما توالى الملك فى العباسيين أجيالا واستناموا الى مماليكهم سلطتهم عليهم فأخذوا يحبسونهم ويقتلونهم * وقال شاعرهم

خليفة فى قفص * بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له * كما تقول الببغا

فكيف تكون حال قوم خليفتهم عبد لعبدين من عبيدهم وهما وصيف وبغا . وسبب ذلك أنكم تركتم الشورى التى سميت سورة باسمها ولا قائمة للاسلام إلا بها . ولما تماديتم فى الضلال أرسلت التتار فأزالوا الدولة العباسية وهكذا فى الأندلس أستفحل ملككم ولما فسقتم واكتفيتم بالشعر والشعراء وتركتم مواهبكم وعقولكم سلطت عليكم الفرنجة فاحتلوا بلادكم . ثم ان الأمة التركية أصابها ما أصاب العرب فهى فى أولها حازمة وفى آخرها اضمحل ملكها بسبب الترف والنعيم وجهل الملوك وفساد النظام والظلم وهذا لترك

الشورى كما تقدّم التى هى أقرب الى اصلاح ذات البين المذكور هنا • أيها المسلمون ها أنتم أولاء ذقتم الأمرين وأصبحتم من أضعف الأمم • لماذا هذا • لأنى أنا الذى جعلتكم خلائف الأرض مريدا بذلك أن ترقوا النوع الانسانى وقد حصل فعلا ولما فشلتم وتنازعتم وتقاتلتم على الملك أذللتكم للفرنجة

أتدرون لماذا هذا كله لأن علماءكم وأدباءكم وحكماءكم لم يريدوا أن يدرسوا لكم القرآن وسرّه ولم يفهموكم لماذا وضعت سورة الأعراف قبل الأنفال والتوبة • ألم يقل رسول الله ﷺ لكم ﴿ ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ﴾ قد استخلفتكم فى الأرض كما قلت فى كتابى وكما قال نبيكم ونظرت كيف تعملون فرأيتكم فى الزمان الأخير لاتصلحون لقيادة أهل الأرض فنحيتكم عن الملك وأقصيتكم عن الرئاسة على عبادى • إن خليفتى لابدّ أن يتخلق بأخلاقى • ألم تدرسوا ماجاء فى سورة يونس بعد التوبة • ألم أقل لكم فيها _ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولاتطغوا إنه بما تعملون بصير _ فها أنا ذا استخلفتكم وأنا بصير بعملكم فنحيتكم عن السيادة فى الأرض • إنى أنا القائل _ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وماذلك على الله بعزيز _

قدّمت سورة الأعراف على سورتى الغنائم والحرب والنصر وذكرتكم بعدها بعدم الطغيان • فها أنتم إذن قد طغيتم و بغيتم فأقصيتكم عن قيادة خلقى • هذا هو الذى فهمته الآن من ترتيب هذه السور الأربعة سورة للانذار وسورتان للغنائم والحرب وسورة فيها الأمر بعدم الطغيان • انظر لم يقل الله لنا لاتطغوا فى سورة الأعراف وهى مكية بل أخرها بعد ذكر الغنائم والنصر فى السورتين لأنه هنا يمكن الطغيان

هذا هو السرّ فى ذكر النهى عن الطغيان فى سورة يونس لافى سورة الأعراف • فانظر أيها الذكى كيف كان ترتيب السور مفيدا معانى قد حققتها الحوادث وأظهرها الزمان

وقد كنت فى آخر سورة الأعراف ذكرت معنى حديث ذم الدنيا وها أنا ذا الآن أذكره بنصه

﴿ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال إن مما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل أو يأتى الخير بالشرّ فسكت رسول الله ﷺ ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء وقال أين هذا السائل وكأنه حمده فقال انه لايأتى الخير بالشرّ وان مما ينبت الربيع مايقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فانها أكلت حتى امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت و بالت ثم رتعت وان هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وان من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولايشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة ﴾ أخرجه الشيخان والنسائى • ويحسن أن نذكر تفسير بعض ألفاظ هذا الحديث الشريف فنقول (زهرة الدنيا) حسنها وبهجتها (الرحضاء) العرق الكثير (الحبط) النفخ يقال حبط بطنه اذا انتفخ فهلك به (يثلط) (١) اذا ألقى رجيعه سهلا رقيقا • وفى الحديث مثلان أحدهما للمفرّط فى جمع الدنيا والآخر للمقتصد فى أخذها والانتفاع بها • انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الاصول

﴿ دواء هذا الداء ﴾

علىّ أنا وعليك أنت وعلى كل مطلع على هذا التفسير أن نجعل كل حياتنا وقفا على ارشاد الأمم الاسلامية فى قرانا و بلادنا وأممنا فنقول لهم لترجع مجد الاسلام ومجد أممنا السالفة وأن نسلك سبيلا أخرى غير مايسلكها المتأخرون من المسلمين فلنعمم التعليم ولنعلم الصغار كيف ينظرون فى هذه الدنيا واذا أسمعناهم القرآن فلنعطهم نماذج من الطبيعة جميلة حلوة سارة شارحة للصدور فاذا قرأ التلميذ _ والشمس وضحاها _ رسمنا له صورة الشمس وذكرنا له منافعها وجمالها وشرحنا صدره بالجمال والحكمة التى أبدعها الله فيها وأريناه

(١) يثلط بوزن ينصر

سبل العلم فيها كما ستراه ان شاء الله فى سورة (الشمس) عند تفسيرها هناك وكيف كان الفحم والنبات والماء والرياح كلها مسخرات بضوء الشمس وهى التى سخرها لله فيخرج الطالب من تلك الصور بعلم وحكمة لاحفظ مجرد ولامعان مدمجة لاتثير فى النفس اعجابا وتشويقا . هكذا فليكن القرآن ودرسه أى انه يكون مصحوبا بجمال العلم حتى يعشقه و يعشق النظر والبحث الطلاب من صغرهم . فبهذا يستوى صغار المسلمين على عرش الحكمة فى ابان صغرهم فيدربون على النظر والجمال فيشبون على البحث عاكفين وعلى الدراسة مجدّين . وهذا أوّلا شكر لله والشكر واجب وجوبا عينيا . وثانيا زيادة فى التوحيد . وثالثا زيادة فى حب الله . ورابعا زيادة فى نمو عقولهم للبحث فيما خبأه الله فى هذا العالم من المنافع التى يكون استخراجها فرض كفاية ليقوم بها أمر المعاش فى هذه الدنيا . هذا هو الذى قصر فيه المسلمون فناموا . وهذا هو الذى سيكون العمل به بعد انتشار هذا التفسير وستكون التعاليم الاسلامية مخالفة كل المخالفة لما عليه المتأخرون من قديم بال و يصبح فى الاسلام جيل هو خير الأجيال ويكونون رحمة للعالمين لأنهم ورثة من خصه الله بهذا الوصف الجميل . انتهى

﴿ الحكمة العامّة فى هذه الآيات ﴾

ان هنا مراتب ﴿ ثلاثة ﴾ وجل عند ذكر الله . وزيادة الايمان بزيادة الدلائل . وتوكل على الله بحيث يفوّض أمره اليه ولايرجو ولايخاف غيره لعلمه أن العالم نظام تام وهو سبحانه وتعالى قد تكفل بالجليل والحقير من خلقه . هذه أعمال القلوب وهناك ﴿ عملان ﴾ للجوارح وهما اقامة الصلاة وانفاق المال فى الوجوه المطلوبة . فمن اتصف بهذه الصفات الخمسة فهو المؤمن حقا * قال الواحدى من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان ايمانه أزيد لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوّتها يزول الشك و يقوى اليقين فتكون معرفة الله أقوى فيزداد اليقين . انتهى والدلائل المذكورة سمعية وعقلية على حسب درجة المستدل . ثم ان المؤمن يخاف الله لعصيانه أولهيبة جلاله وتطمئن نفسه باليقين متى كثرت الدلائل . فالايمان اذن يشمل الأعمال القلبية والأعمال الجسمية ويؤيده حديث الشيخين * عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ ﴿ الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة ألا لااله إلا الله وأدناها اماطة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الايمان ﴾ اه فالايمان يزيد وينقص على مقتضى أعمال العبد

قال عمير بن حبيب وكان له صحبة ﴿ ان للايمان زيادة ونقصا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه ﴾ اه

أقول ولما كانت هذه الآيات بهذه المثابة بحيث تجمع جميع فروع الدين من العقلى والعملى و بها و بحديث الشيخين صار المؤمن حقا عزيز الوجود فان اتصف بوصف نقص آخر . أقول لما كانت كذلك أورثت خلافا بين المتقدّمين الأجلاء من أئمة الاسلام . هل يقول المسلم أنا مؤمن حقا كما فى هذه الآية أم عليه أن يحترس وأصحاب أبى حنيفة رحمه الله لايمنعون المسلم أن يقول ﴿ أنا مؤمن حقا ﴾ وأصحاب الشافعى رضى الله عنه يقولون ﴿ الأولى للمسلم أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله ﴾

وسأل رجل الحسن رضى الله عنه . فقال أمؤمن أنت . فقال الحسن ان كنت سألتنى عن الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن وان سألتنى عن قوله تعالى ـ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ـ فلا أدرى أنا منهم أم لا

هذه جملة صالحة من مجامع أقوال ساداتنا وآبائنا المتقدّمين فهل تحب أن ألقى اليك مانتيجة هذه الأقوال للمسلمين فى المستقبل أقول لك ان آباءنا السابقين قد أحضروا لنا الحجارة والآجر والجص والزجاج والخشب والحديد وجميع مايلزم لبناء البيت العظيم وهو الايمان وقالوا انا هذه تركناها لكم فابنوا مساكن الايمان

وأسسوه . وهانحن أولاء قد مهدنا لكم الطرق وسهلنا لكم السبل فعلينا الأساس وعليكم البناء

هذا ملخص ماذكروه فى هذا المقام . اجتهد أبوحنيفة واجتهد الشافعى فى هذه الآية وهكذا الحسن وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين فاسمع ماوقر فى نفسى مفصلا وموضحا

اعلم أيها الذكى أنى مسؤل عن العلم وعن الأمة وأنت وجميع من قرؤا هذا الكتاب وأمثاله عن هذه الأمة مسؤلون . المسؤلية مشتركة بين أهل العلم لافرق بين متقدم ومتأخر . أقول اعلم أن الانسان فى أول أمره يجول بخاطره أمور مجهولة عمومية وهو يحاول فهمها فلايقدر حتى اذا كشف الحجاب كان ذلك اطمئنانا للنفس والاطمئنان هو سعادة الدنيا والآخرة . يسمع الوعيد ويخاف ربه من ذنوبه فاذا أكثر الاستغفار والاعتبار والنظر فاستبصر عرف الحقائق فاطمأن قلبه . وللأول الاشارة بقوله ــ وجلت قلوبهم ــ وللثانى بقوله ــ زادتهم ايمانا ــ وقوله فى سورة أخرى ــ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ــ لانطمئن القلوب ولايكون الايمان حقا مستكملا جميع شرائطه إلا اذا قمنا بما جاء فى حديث الصحيحين فى الايمان وأتينا بشعب الايمان كلها . الله أكبر . ما الايمان الحق . الايمان الحق علم وعمل . العلم له فروع والعمل له فروع . فروع العلم كثيرة والعمل فروعه كثيرة . ذكر الله اجمالا لهذا كله فى هذه السورة خمسة أمور ولكن حديث الشيخين جعله جميع فروع الحياة صغيرها وكبيرها . جل العلم وجلت الحكمة ونصح العلماء وجد الأئمة وصدق رسول الله الذى هو أفضل من الجميع وكيف لايكون كذلك . انه جعل الايمان أشبه بانسان

الانسان له عقل يفكر وجوارح وحواس . الانسان لاتتم انسانيته إلا بجميع الحواس والعقل وسائر الأعضاء حتى الظفر والشعر . هكذا الايمان ان لم يستكمل هذا كله فانه لا يكون حقا كما اذا لم يستكمل الانسان جميع هذه القوى والقدر فانه لايكون تام الأعمال . ان النبوة أنارت الموضوع وشرحته ولكن الأئمة تحيروا واختلفوا وكل له حجة . الانسان اذا نقص ظفرا أوأصبعا أوعينا أوأذنا فانه لاتسلب منه صفة الانسانية ولكنه يكون غير متمكن من جميع مطالبه بل ينقصه بعضها مادام انه من نوع الانسان . هكذا الايمان لايقال انه قد ذهب من الانسان اذا نقصت بعض الأعمال ولكن لايكون مستوفيا جميع ما يكون به الكمال . ولكن هنا حكمة عجيبة وآية غريبة و بدائع مدهشة . يقول الله ــ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الخ ــ لم يقل المؤمن بل قال المؤمنون كأنه فتح لنا باب حل المشكلة التى حيرت الألباب بل فتح الباب على مصراعيه فعلا وهاأناذا أدخل معك فى ساحات العلم الواسعة وأشرب معك من رحيقها المختوم والشراب المعتق اللذيذ للشاربين

علم الله قبل أن يخلق الناس وقبل أن ينزل القرآن أن الحياة لا كمال لها إلا بالاجتماع والناس فى اجتماعهم أشبه بانسان واحد فكل واحد عليه عمل لايناسب الآخر فاذا لم يقدر صاحب العلم على عمل مما قدر عليه صاحب العمل . وترى النجار والحداد والزجاج وصانع الكهرباء وسائق القطار وصانع السفن ومحرك الطيارات والمنطاد كل واحد قام بعمل لايحسنه الآخر فباجتماع هؤلاء يكونون قد أكملوا الايمان فى الأمة

ثم ان علماءنا رحمهم الله هم الذين قالوا ان هذه فروض كفايات فمتى قصرت الأمة فى أمر منها عذب المجموع فى الدنيا بالذلة وفى الآخرة بجهنم على التقصير فالأمة كلها متضامنة هنا فى الدنيا والآخرة فأنا مكلف أن يكون فى بلاد الاسلام كل صناعة وكل علم ومعنى ذلك أن أكون مساعدا بالفكر أو بالمال أو بما أستطيع فعله ومتى قصرت كان ايمانى ناقصا على مقدار تقصيرى فى منفعة المجموع . فمتى استكمل فى الأمة أهبتها بما يطابق زمانها كان الناس فى حال تشبه حال تمام الايمان ولكل فرد من الأفراد قسطه من الكمال الذى يناسبه ويلائمه

فاذا سمعت أصحاب الشافعى يحترسون من قول القائل ﴿أنا مؤمن حقا﴾ واذا سمعت الحنفية لايمتنعون

ان

أن يقولوا ﴿ أنا مؤمن حقا ﴾ واذا سمعت الحسن يقول ﴿ أنا لا أدرى حالى فيما عدا الايمان بالله الخ ﴾

فاعلم أن ماذكرناه لك واف بما قالوه كاف . ان الحسن يعلم انه لايقدر أن يقوم بجميع الأعمال فنى حديث الصحيحين ﴿ الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله الخ ﴾ وقد تقدّم ذكره قريبا فى هذا المقام

إذن الايمان لايذر زراعة ولاتجارة ولاصناعة ولاسياسة ولاطرقا تمهد ولا أنهرا تحفر إلا دخلت فيه فاذا كان الكناس والزبال ومصلح الطرقات للقطرات ورجال مصلحة المجارى التى فى القاهرة التى لاعمل لها إلا اخراج المواد البرازية منها الى جهة الجبل الاصفر بالخانكة

اذا كان هؤلاء كلهم أعمالهم من الدين الاسلامى بنص نفس الحديث . فاذن الايمان فى ديننا قد ابتلع جميع الفنون والصناعات . هذا هو الدين . وهذا هو الذى أخاف الشافعى والحسن أن يقولا نحن مؤمنون حقا . وعلى هذا يكون المؤمنون فى هذا الزمان مقصرين حقا ولايقولون اننا مؤمنون حقا لأننا قصرنا فى الأعمال العامّة التى نص بعض علماء الاصول انها أفضل من فرض العين

هذا هو الجواب الذى فتح الله به فى هذه المسألة وصار الايمان حقا يرجع لشيوع النظام العام فى الأمّة فعلى مقدار استتباب النظام وكمال العلوم والصناعات يقال ان هذه الأمّة ايمانها حق وكامل وعلى مقدار النقص يكون النقص والأفراد فى الأمّة متضامنون لم يخلق الانسان وحده . يذكر النبى ﷺ فى الحديث اماطة الأذى ومعنى ذلك المحافظة على راحة الجمهور ورفاهيته وهذا لايتم بالأعمال الفردية ألبتة . اننا لم نقدر أن نخرج القاذورات من القاهرة الا برجال متعلمين . إذن علينا أن نجمع شملنا لسائر مصالح الحياة فتى كملت كنا مؤمنين حقا ويكون الفرد الواحد ايمانه على مقدار ما أثر فى هذه الحياة العامّة . هكذا يقول هنا ـ انما المؤمنون ـ ولم يقل المؤمن مشيرا بذلك الى الاجتماع العام كما فى قوله تعالى ـ إياك نعبد واياك نستعين ـ بالنون لا بالهمزة مشيرا للجميع واياك أن تظنّ أنى أريد ايمانا خياليا للمجموع كلا بل أقول ان كمال المجموع فى المصالح الدنيوية والاخروية يدعو لتكميل ايمان الأفراد وذلك بتعاونهم واتحادهم . فالمؤلف يعين القارئ على احداث الأعمال النافعة والقارئ يعاضده اخوانه فيحدثون أعمالا فى نظام الأمّة وهذه الأعمال ينتفع بها الكاتب وغيره من عباد الله

ومن أهم أعمال الايمان الصلح بين المتخاصمين عملا بقوله تعالى ـ وأصلحوا ذات بينكم ـ

﴿ الصلح فى بلاد الاسلام ﴾

يقول الله ـ اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ـ ان هذا من أهم شعب الايمان ولذلك ذكرها هنا . فاذا كان الايمان يدخل فيه اماطة الأذى من الطريق فما أحرى أن يدخل فيه ماذكره الله هنا من الصلح بين المتخاصمين فان اماطة الأذى من النفوس واحياءها بالمودّة والمحبة أفضل وأفضل وأفضل آلاف الآلاف من ازالة الأذى من الطريق . ان الأمّة المتفرقة المتباغضة لاترفع منارا ولاتدفع عارا ولاتورى نارا ولاتحفظ الحرث ولاالنسل بل يقربها البلا ويجرّ عليها أذياله الردى وتنغمس فى العداوات وتغرق فى بحر الضلالات ويحيط بها الأعداء ويستفحل الداء ويستعصى الدواء

ولعمرى ماقلل الايمان ولا أضعف شوكة أهله إلا الجهل الفاضح الذى غمر هذه الأمم المسكينة إذ جعلوا بأسهم بينهم شديدا فهم فى غمرة ساهون والجهل مرتع وخيم وأعشاش تبيض فيها وتفرخ نواعب الغربان ومنذرات الدمار

أمر الله عزّوجل بصلح ذات البين فى هذه السورة . ثم ذكر حقيقة الايمان أوالايمان الحقّ وحار العلماء فى وصفه وعرفت مقصود القرآن والسنة والأئمة أنه عبارة عن حقيقة جامعة لجميع أعمال الحياة الدنيا

والآخرة فالايمان أمر واحد كما ان الانسانية عبارة عن الجسم والروح من حيث الكمال فالجسم بلا روح ليس بانسان والروح بلاجسم نسميها جنا أوملكا فما دمنا فى الأرض فعلينا حفظ الأمرين ﴿ الجسم والروح ﴾ هكذا الايمان وهذه الحقيقة الايمانية التى شرحها النبى ﷺ فى معنى الايمان هى ماشرحته لك الآن من النظام العام فى الأمة . ولكن هذه الحقيقة لم يرد الأئمة رضوان الله عليهم أن يوضحوها مع ان النبى ﷺ أحاط بها فى حديث الشيخين لأنهم رأوا أن السائلين لم يستعدوا لفهمها . وهكذا الحسن رضى الله عنه فكل من هؤلاء الأعلام نحا نحوا فى الايمان يناسب زمانه وعصره . ولكن هذا هو الزمان الذى يلقى العلم فيه صريحا ولايوجه اليه طعن ولالوم ولاقدح . ان نور النبوة يظهر فى هذا الزمان حقا . حقا هذا هو نور النبوة ظاهر . نعم ظاهر فى هذا التفسير . ظاهر أشد الظهور . ان المسلمين اليوم مساكين متعطشون الى العلم يريدون الهدى والله لقد جاء الهدى ووضح الحق وجاء النصر وهذه بشائر بنت اليوم هى بشائر العلم والهدى والنور المبين

هذا هو الزمان الذى يحق لنا أن نكشف النقاب عن تلك الأنوار المحجبة التى منع ظهورها للناس فيما مضى نوازع الملوك فألجوا العلماء فخاطبوا الناس على قدر عقولهم ومايسمح به زمانهم فى حقيقة الايمان فالايمان حقيقته اليوم فى هذا التفسير مشرقة مسفرة ضاحكة مستبشرة . وخصال الايمان ترفع أعلام الدنيا والدين . وقد أوضحنا لك فيما تقدم أن أهم خصال الايمان صلح ذات البين ولذلك خصصها الله بالذكر فى هذا المقام

﴿ الكلام على صلح ذات البين ﴾

قد ذكرت فى المقام السابق مضار التفرق والشقاق . وأزيد الآن ايضاحا فأقول

ان المسلمين اليوم فى قراهم وفى مدنهم وفى أممهم ابتلوا ﴿ بأمرين ﴾ أولهما شر من ثانيهما وهما الجهل والشقاق . ان الشقاق يكون على مقدار الجهل . والعلم هو الذى يجمع القلوب . وأين العلم فى الاسلام الآن . فتش فى القرى وفى المدن لاتجد الاجهلا فاضحا وشقاقا شديدا وربما يقوم النزاع بين بعض الأفراد على شئ لايذكر وقد يؤدى الى مالاتحمد عقباه

﴿ القرى ﴾

لقد ولدت فى بلاد (الشرقية) من البلاد المصرية وكنت أرقب حركات الناس فى ابان صغرى فكنت أراهم يحقرون كل صادق ويمقتون كل صريح العبارة ويعدونه رجلا لاوزن له وعندهم الرجل العظيم هو الذى يخادع الناس ويخدعهم ويقول بلسانه ماليس فى قلبه

﴿ المدن ﴾

ثم انى وجدت أهل المدن الذين عاشرتهم عدة من السنين لايعيشون إلا بالمحاباة والمباجلة

ولما قلت سعادة القلوب لعدم الاخلاص اخترع الناس سعادة لفظية . أما للعظماء فألقاب الفخامة كقولهم ﴿ سعادة الباشا ﴾ و ﴿ معالى الوزير ﴾ ويلقبون سلاطينهم وأمراءهم بأصحاب الجلالة أو أصحاب الدولة أوما أشبه ذلك . كل هذا لكى يسمعوا باسم السعادة من جلسائهم وهذه قامت مقام ماكان الشعراء فى العصور الأولى يقومون به من مدح الملوك والأمراء . كل هذا ليستعيض الانسان عن اللذة والسعادة الحقيقية النفسية بالسعادة اللفظية . وليس معنى هذا أن كل من أطلق عليه لقب من هذه الألقاب لاعمل له أو لاسعادة . كلا . فكثير منهم يحسون فى نفوسهم بسعادة عظيمة لما لهم من الأعمال ولكن المقام مقام بحث وتنقيب فان قلة الاخلاص وعدم السعادة النفسية حلت بعض الأمراء فى الأزمان السالفة على اختراع هذه الألفاظ السمجة ليستظل فى ظلها الذى هو – من يحموم لا بارد ولايغنى من اللهب – بل هو له شرر

يرمى به عليهم ويورثهم ذلا ومهانة ويتحملون ذلك لأجل المظاهر الكاذبة ويسعدون سعادة لفظية أى ليقال لأحدهم ﴿ سعادتك ﴾

واذا كانت هذه حال المدن فان التقاطع والتدابر يحصل بين القلوب إذ لم يجتمع على فضيلة إلا قليلا فلذلك كثر الشقاق والنفاق . كل هذا للعلم الناقص أو للجهل المبين

﴿ الأمم الاسلامية ﴾

اعلم أيها الذكى أن الأمة من الفرد . فأخلاق الفرد هى أخلاق الأمم . فالذى رأيته فى قريتى ورأيته فى بعض المدن رأيته بين أمم الاسلام قاطبة

﴿ الأمم الاسلامية وجمعية الأمم فى أوروبا ﴾

أنظر رعاك الله نحن أولاء فى عصرنا الحاضر كيف نسمع أوروبا لها جمعية أمم وان لم تقم بواجبها بل ظهر انها تريد ابتلاع الشرق وهضمه . وأهم بلاد الشرق بلاد الاسلام . فلماذا نرى أمم الاسلام لا رابطة بينها ولاقوة تحفظ توازنها ولو صورية كجمعية الأمم الصورية فان هذه الجمعية وكذلك محكمة (لاهاى) ربما تأتيان بالغرض على طول الزمان وهم الآن يلجؤن اليها عند الاصطدام . فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات

﴿ الاصلاح العام ﴾

واعلم أن دواء هذا الداء فى الأمم الاسلامية يجب له الشروط الآتية

(١) أن كل من يعنّ له فكر يجب عليه أن يبديه باخلاص

(٢) يجب تعميم التعليم العقلى والدينى ولكن بشرط التعقل والتفكر فقد مضى زمن الحفظ بلا عقل وفى هذا التفسير بعض طرق التفكير مطوّلة

(٣) أن تلقى آيات الأخلاق والمواعظ للمسلمين بهيئة جذابة ولايتكل الناس على المفسرين بل يطبعون نفوسهم بطابع الكمال فيؤثرون فى السامعين

(٤) أن تلقى الى الناس آيات العلوم التى تبلغ (٧٥٠) آية بشرط أن يكون إلقاؤها بهيئة تعشقهم فى مخلوقات الله فيحبونه بجميل صنعه وبديع أفعاله كما ذكرنا فى هذا التفسير غير مرة

(٥) أن يبتعد الناس عن التغالى فى الألقاب فكل أمة ارتقت أقلعت عن هذه العادة العقيمة التى هى بالأطفال أولى منها بالرجال

(٦) أن يتعلم الناس التعقل والاخلاص والاستقلال الفكرى فكفى ما أضعناه

(٧) ويجب الاتجاه الكلى لتعميم التعليم

هذه هى التى تحدث فى العقول انقلابا وفى الأمم رجالا وههنا نقدر أن نقول ﴿ تؤلف جماعات فى كل قرية وفى كل مدينة وفى كل أمة لاصلاح ذات البين ﴾ واذن تقبل النفوس قول المصلحين . فأما الآن فحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ تحسر المؤلف على الأمم الاسلامية ﴾

فياليت شعرى متى نسمع بالتعليم العام (الاجبارى) فى الاسلام . ومتى نسمع اتحادا بين الأمم الاسلامية كاتحاد الأمم الأوروبية ضدّ الشرقيين . ومتى نسمع شيوع العلم والصناعات بينهم . ومتى يكون لهم جمعية عامة للفصل فى مشاكلهم المادّية والأدبية . بل متى يكون فيهم حكماء ناظرون وعلماء مدققون وخلفاء لله فى الأرض دارسون ينظرون فى أمر الأمم الاسلامية كلها شرقيها وغربيها

ان الله وضع المسلمين فى وسط الأرض بين الشرق الأقصى وأوروبا . فمتى يقومون بهيئة الوساطة بين

الطائفتين ويكونون حكما عادلا بين الشرق والغرب . هذا هو المركز العام لأمم الاسلام . هذا ماسطرته ليلة الجمعة (٣١) ديسمبر سنة ١٩٢٦ وسأتبعه بمقالة كنت كتبتها قبل ذلك فى بلدة المرج توضح مافى آخر هذا المقال ايضاحا شافيا فأقول

لله كتابان . كتاب كتبه بيده وهوعالم النبات والحيوان ونحوهما . وكتاب أنزله كلاما نسمعه وهو الكتب السماوية والكتابان متطابقان

﴿ تفسير القرآن فى الحقول والحشرات ﴾

هل لك أيها الذكى أن أحدثك حديثا عجيبا يطول شرحه ويحسن وضعه . ان جمال الطبيعة وبهاءها ونورها واشراقها وبدائعها شاخصات أمامنا ظاهرات بهجات ولكنّ أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا وهم عن التفكر معرضون . إن صلح ذات البين نتيجته الاتحاد وحسن النظام فى الأمّة بأسرها

وفى سورة الحجرات خاطب الله الناس جميعا لأنهم عباده فقال – ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا – . هاتان الآيتان فى القرآن صلح ذات البين بين المسلمين وتعارف بين جميع الناس . والمسلمون اليوم لم يقوموا بأولهما ولم يسمعوا وصية ربنا فى ثانيتهما – ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا –

فها أناذا أحدّث المسلمين المعاصرين لنا والذين من بعدنا وأذكر لهم نظرتى فى الحقول إذ توجهت الى ناحية المرج من ضواحى القاهرة بمصر لامور زراعية . خرجت وأنا كاره لأنى يزعجنى كل مايقطع النظر العقلى علىّ فركبت القطار فى الطريق الموصل من القاهرة الى بلدة المرج . فماذا حصل . عاودنى الله بعادة الاكرام ﴿ ذلك ﴾ أنه قابلنى بعض قراء هذا التفسير وهو مفتش من مفتشى الزراعة وقد توجه للمرج ليشرف على أعمال فرقته من العمال التى تقتل الحشرة الفاتكة بالأشجار المسماة (بق الهبسكس الدقيق) فقلت له صف لى هذه الحشرة . فقال ان (بق الهبسكس الدقيق) من الفصيلة النصفية الجناح وهى ذكور واناث والذكر أصغر حجما من الأنثى (١) وطوله من ملليمتر تقريبا الى ملليمتر ونصف (٢) له أجنحة (٣) وعدد أفراده أقلّ من عدد أفراد الاناث (٤) الأنثى لونها قرنفلى فاتح بيضاوية الشكل تعلو جسمها طبقة شمعية (٥) طولها من ملليمترين الى ٣ر٥ ملليمتر (٦) تضع الأنثى بيضا من ١٥٠ بيضة الى ٣٠٠ بيضة والبيضة لاترى إلا بالمنظار المعظم (٧) يكون البيض فى كيس شمعى يسمى كيس البيض وبعد (٦ الى ٩) أيام يفقس حسب حالة الجوّ وتخرج صغاره نشطة جدّا شكلها كشكل الحشرة الكاملة وتكون هذه الصغار فى أوّل أمرها ذات أرجل ثم تغير جلدها أكثر من مرة فتترك الأرجل معها . وهكذا الزوائد التى تحس بها وتكتفى بأن تضع خرطومها فى النقط المهمة فى الأغصان وتتعلق بها وتمتصّ العصارات ولاتزال تلك الصغار تتغذى أربعة أسابيع ثم تستعدّ للحمل كأمهاتها وهذه لاتحتاج الى الذكور فبعضها يلقحها ذكورها وبعضها يتكوّن البيض فيها ولاتحتاج الى ذكر وهذا من العجب فقد أطلعنى ذلك المفتش على الكتاب المطبوع فوجدته كما قال وقال ان الذكور أكثرها يموت (٨) ان هذه الحشرة تفرز مادّة كالدقيق على جسمها وقد رأيتها أنا بعينى رأسى وهذه المادّة تقيها المؤثرات الجوّية وهذه الحشرة تنام فى أوائل اكتوبر الى حوالى نصف مارس وبعد ذلك تستيقظ . فسألته فى أى تاريخ جاءت هذه الحشرة الى مصر . فقال من سنة ١٩١٢ ميلادية أحضرها رجل انجليزى اسمه المستر (براون) من الخارج . قلت وكيف ذلك . قال أحضر نباتا من بلاد أوروبا يسمى (الهبسكس) فسميت باسمه وقد كان مصابا بهذه الحشرة فأخذت تنتشر من هذا النبات الذى زرعه ببلادنا للزينة فقط الى أشجارنا من التوت والنبق واللبخ والخرنوب والقطن والباميا والتيل وانتشر فى القاهرة وضواحيها والجيزة وبنى سويف والفيوم وسوهاج ومركز جرجا والاسماعيلية والسويس . كل هذا حصل

بسبب ذلك النبات الذى أتى به المستر (براون) الانجليزى . فقلت وكيف تكون العدوى . فقال تكون بالماء وبالهواء وبالحيوانات ﴿ وذلك ﴾ أن الهواء يمرّ بالشجر فيحمل معه تلك الحشرات الى شجر آخر سليم وهكذا الماء والانسان والحيوان . فالماء تعلق به تلك الحشرة وكذلك يد الانسان وثوبه وهكذا الحيوانات يعلق بها اذا لامست هذا الشجر . ثم ان هذه الحشرات لاتمتص إلا فى النقطة التى فيها نموّ الشجر ومتى امتصت العصارة رأيت الورق بجانبها يتقلص ويتجعد وهكذا الغصن كله ثم الشجرة وهكذا الشجرات حولها ثم أخذنى المفتش وأرانى العمال يرشون الشجر والورق والأغصان بالماء الذى فيه (بترول ثقيل) أى لم يصف وهذا البترول مستخرج من البلاد المصرية بقرب السويس ومع هذا أيضا طين من طين (قنا) والأجزاء هى واحد من البترول و٢ من الطين و١٢ من الماء ومتى رشوا الماء على الورق غمر الحشرة فسدت المسام بالطين والبترول فمات الحيوان . هذا ملخص العمل الذى يقوم به المفتش وعماله . وقد كان معى صديق لى من أهل العلم . فقال مافائدة هذا الكلام . فقلت فيه تفسير آيات كثيرة والآية التى نحن بصددها . قال هذا شئ بعيد المرمى فأوضحه . قلت ألست ترى أن هذه الحشرة فى أكثر أحوالها أنثاها لاتحتاج للذكر بل يكون بيضها الذى قد يصل الى (٣٠٠) بيضة بلاذكر . قال بلى . قلت أفلست ترى أن الله قد أعطى هذه الحشرة وقاية من الحرّ والبرد وعوارض الجوّ بما تفرزه على ظاهرها مما هو كالدقيق . قال بلى . قلت أفلست ترى أن الأرجل اذا جاء وقت الاستغناء عنها خلعها الحيوان وعاش بلا أرجل كما ذكرناه قال بلى . قلت أفلست ترى أن العدوى تنتشر من هذا الحيوان كما تنتشر عوامل الالقاح فى النبات. فكما كان الالقاح فى النبات بالرياح وبالحيوان وبغيرهما كما ستراه فى سورة الحجر مفصلا . هكذا هنا نرى الالقاح فى الهلاك والتدمير يشبه الالقاح فى الاصلاح هناك . قال بلى . قلت ألست ترى أن الانسان يحارب هذه الحشرة ومع ذلك تنتشر بسرعة هائلة . قال بلى . قلت ان نظر الانسان للعلوم ﴿ قسمين ﴾ نظر يؤدّى الى المنافع المادّية ونظر يؤدّى الى مافوق المادّية . أما النظر الى المنافع المادّية فان الطبيب والمهندس وعالم الزراعة كلّ يبحث عن المنفعة المادّية التى هو بصددها . وليس يرتفع نظره الى ماهو أعلى كهؤلاء الذين يقتلون هذه الحشرة فى الحدائق المصرية فليس لهم مطلب وراءها . فأما النظر لما هو أعلى من ذلك فهو نظر يرتقى الى عالم أعلى من عالمنا . فهنا يرى الانسان أن الله تعالى هدى هذه الحشرة وحفظها ونحن نحاربها وهذا قوله تعالى ـ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ وقوله ـ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهدى ـ فالله أعلى واذا كان أعلى فيستوى لديه جميع خلقه فى النظام . ورأى المصلحة توجب أن تكثر الحشرات الملقحة للأشجار والحشرات القاتلة لها فأكثر منهما وجعل الانسان سعيدا بالأولى شقيا بالثانية وهذا قوله تعالى ـ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ـ علم الله أن هذه الحشرة سيحاربها الانسان بكل الوسائل فأمدّها بالذرية الكثيرة وجعل الأنثى لاتحتاج الى ذكر ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وهذا قوله ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وقوله ـ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزّله إلا بقدر معلوم ـ

قال هذا حسن ولكن لم نصل للمقصود هنا . قلت فلننظر الى الذكور والاناث من هذا النوع . أليس هذا الحيوان قامت فيه الأنثى مقام الذكر والأنثى وهذه أشبه بنوع من النبات يشتمل على الذكر والانثى معا ويسمونه خنثى كالداتورة والبنج كما تقدّم فى سورة الأنعام . قال ثم ماذا . قلت فاتحاد الذكورة بالانوثة ظاهر فى هذه الحشرات من الحيوان وفى بعض النبات وقد ظهر الخنثى فى نوع الانسان فهذا معناه أن الطبيعة تنطق قائلة ﴿ ان الذكران والاناث فى كل حى متحدة بحسب أصلها ﴾ ولذلك تجد النوعين يتجاذبان على تباعد الديار وجميع أحوال هذا الانسان كأحوال الذكور والاناث أى انهم متحدون متضامنون مشتبكة مصالحهم فكما نرى الذكور والاناث ظهر اتحادهما فى الطبيعة ونوادرها . هكذا نراهم متحدين غاية ونتيجة

ومقصدا . لذلك يتعارفون . هكذا سائرشؤن الحياة . فأهل الشرق وأهل الغرب جميعا يحتاج بعضهم الى بعض . قال ثم ماذا . زدني ايضاحا . قلت ان اتحادالذكر والأنثى فى أدنى النبات وأدنى الحيوان وشواذ الانسان رمز الى اتفاقهما مقاصد وغايات تجمعهما والذكورة والانوثة المذكورتان لافرق بينهما و بين سائر أعمال الحياة . فأهل الشرق والغرب يحتاج بعضهم الى بعض . ألا ترى أن الحشرة المذكورة وهى (بق الهبسكس) قد انتقل مع الشجرة من الأقطار البعيدة ونقل العدوى الى القطر المصرى فى أشجاره . قال ومافائدة هذا . قلت فائدته أن كل مصيبة تحل بأمة تضر بغيرها على هذه الأرض . فالطاعون والجدرى والحمى وأنواع كثيرة من الأمراض تأخذها الأمم بعضها عن بعض ولذلك ترى لكل أمة على حدودها مكانا تمتحن فيه القادمين لينظروا أفيهم مرض معد أم لا وهكذا . واذا حصل قحط فى أمة أثر فى غيرها من الأمم

ولقدكان للحروب الأهلية فى بلاد الصين فى هذه الأيام ولاعتصاب عمال مناجم الفحم فى بلاد الانجليز أثر سيء فى رخص أسعار القطن المصرى وساعده على ذلك كثرة القطن الأمريكى فانظر كيف صار الناس على الأرض متضامنين وهم يجهلون انهم متضامنون . متصلين وهم يجهلون انهم متصلون . بينهم علاقة كبيرة فى السراء والضراء وهم يجهلون . عمهم السلك الكهربائى وأحاط بهم من كل جانب نظام بريدى وآخر جوى واتصل الشرق بالغرب وحلقت الطيارات التى صنعها الانسان فى الجو . وفى هذه الأيام (فبراير ١٩٢٧) صنع الألمان طيارة تحمل جميع مايلزمها مدة بحيث تطير حول الكرة كلها وترجع الى مكانها من غير احتياج الى ذخيرة أخرى . أليس هذا بعض قوله تعالى — يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا — هاهوذا بعض التعارف قد ابتدأ . فقال ياسبحان الله قد كان أول الكلام لايشعر الانسان فيه بأن له مناسبة لهذه الآية حين ذكرتها . لم ندر أى مناسبة بين نبات (الهبسكس) و بين هذه الآية فظهر أن الذكورة والانوثة فى العالم الانسانى والنباتى والحيوانى قد اتحدتا فى بعض أفرادها وكان ذلك فى الانسان رمزا الى توثيق الروابط فى سائر مصالحه . فللأول الرمز بقوله — خلقناكم من ذكر وأنثى — وللثانى الرمز بقوله — لتعارفوا — فقلت إذن هذه الآية وردت لخطاب العقل الانسانى العام ومعنى هذا أن المسلمين يحسن لهم أن يقوم فيهم حكماء وفلاسفة ويدرسوا نظام الوجود ويعرفوه كالذى ذكرته فى كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ الذى عرفه أهل أوروبا أنه خطاب للأمم كلها ويبينوا للأمم أن العقل يبين أن الناس متحدون أصلا وغاية وانه يجب أن يكون هناك نظام عام يمنع الضرر والضرار من أى نوع ويسمون هذا النظام ﴿ التعارف ﴾ . قال لى ولكن المسلمين الآن ليسوا قادرين على ذلك . قلت نعم والسبيل الى ذلك أن يقوم فيهم مفكرون ويعمموا التعليم فى الأمم الاسلامية ويجعلوا لهم نظاما يسمى ﴿ اصلاح ذات البين ﴾ وهو المذكور فى هذه الآية — وأصلحوا ذات بينكم —

فههنا ﴿ درجتان ﴾ فى الاصلاح . درجة اصلاح ذات البين بين المسلمين . والدرجة الأخرى درجة التعارف العام بين أمم الأرض كافة . قال وما السبيل الى ذلك . قلت السبيل اليه هو ماذكرته فى هذا التفسير ومايذكره غيرى من علماء الأمم الاسلامية فى أقطار الأرض . أقول فليقم كل مفكر فى الاسلام بفهم المهم من هذه الآراء فى الاسلام وليعمم التعليم لأنه لاحياة ولاسعادة للأمم إلا بالعلم * وقيل فى المعنى

ما الفضل إلا لأهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء

وهناك يظهر المصلحون الذين يصلحون ذات البين بين أمم الاسلام حتى يكونوا على الأقل أشبه بالممالك المتحدة بأمريكا التى ليست عندها هاتان الآيتان أوكأمم الألمان الذين لايقرؤن هذه الآيات . اللهم انك أنت الذى زرعت النبات وخلقت الحيوان ونظمت الانسان وأعطيت كل شئ خلقه وهديته وجعلت الذكورة والانوثة فى الانسان رمزا الى اتحاده أصلا وغاية وألهمت أمما أن تعمل لهذه الغاية بالبريد الجوى والأرضى

والطرق

والطرق البرية والبحرية وأممت المسلمين قرونا وقرونا وقرونا ثم أنت الذى جعلت أمثال هذا التفسير فى الأمم الاسلامية والآراء التى تصدر من كبار الأمة فى عصرنا موقظات لشعوب الاسلام أن يدرسوا نظام الوجود ويعمموا التعليم كما قدّمنا ويبتدؤا بصلح ذات البين بين المسلمين

ومتى تعارفت هذه الأمم كانت سببا فى التعارف العام أوعلى الأقل قبلت هذا من المصلحين فى جميع الأمم فاصلاح ذات البين المذكور فى هذه الآية يتقدّمه دروس العالم • فاذا كنا نرى اننا قدطلب منا التعارف العام بآية الحجرات ونداء الله للناس جميعهم فبالأولى علينا صلح ذات البين بيننا الذى هو فى هذه الآية فانظر كيف كان التعارف العام لسائر الناس والصلح الخاص بين الأمم الاسلامية • ولاجرم أن الصلح والمودّة أخص من التعارف العام • وهذا عجيب إذ وضع فى كل آية مايناسبها فالتعارف للعموم والمصالحة للخصوص أى لخصوص الأمم الاسلامية • اللهم ان المسلمين لم يعملوا اليوم لأخص الأمرين فضلا عن أعمهما ولن يوقظهم إلا أن يتذكر عقلاؤهم فى أمثال مانكتبه فى هذا التفسير • اللهم انك أنت الذى حكمت على الانسان أن يحتاج الى الطيور فى أوكارها لتنتقى له الحشرات الآكلات لزرعه كأبى قردان والغراب وغيرهما مما مرّ ذكره فى سورة المائدة فى مقدّمتها وهكذا العنكبوت الآتى فى سورته إذ يأكل الحشرات أيضا ليبقى زرعنا سليما فكأنك جعلت هذه المخلوقات الحية كأسرة واحدة وقلت فى سورة الأنعام ــ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ ــ فجعلتها أمما أمثالنا ثم أبنت فى العلوم فى الشرق والغرب أننا ملزمون بالمحافظة عليها لتساعدنا فى بقاء نباتنا • فالطيور مساعدات وذوات الأربع من البهائم والأنعام مساعدات فهذه أمم أمثالنا فلنحافظ عليها لأجل حياتنا ومعاشنا • واذا كان هذا شأننا مع الحيوان الأعجم فهانحن أولاء مع الانسان العام علينا أن نسعى للتعارف معه كما نتعرف بالحيوان وندرسه ثم ههنا فى هذه السورة أتيت لنا بأخص من ذلك وهو صلح ذات البين بيننا

اللهم ان الأمم الاسلامية اليوم فى قصور معيب وتقصير مخجل • فلابينهم اتفقوا • ولامع الأمم تعارفوا ولا للأمم الحيوانية درسوا • ثلاث درجات جهلوها • درجة الحيوانية والاسلامية والانسانية المذكورات فى الأنعام والأنفال والحجرات على هذا الترتيب • وأخص هذه الدرجات مانحن بصدده الآن فى هذه السورة وهذا هوتفسير آياتنا التى نحن بصددها وهى ــ وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ــ وهذه أوّل الدرجات اعتقادا وعملا و يليها التعارف العام المذكور فى الحجرات و يليها دراسة الأمم الحيوانية على اختلاف أنواعها • هذا هو الذى يجب على المسلمين فليدرس ولينظر

﴿ مافوق المادّة ﴾

﴿ تذييل لهذا المقام ﴾

قال صاحبى لقد قلت ان هناك نظرا يؤدّى الى مافوق الامور المادّية فما معنى هذا وهل الانسان يرتفع عن المادّة فى هذه الأرض • قلت اعلم أننا نحسّ فى نفوسنا فى هذه الحياة بنزعة شريفة الى حال عالية وذلك كما فى هذا المقال يتعالى الانسان عن ملابسات الأجسام الى أقصى مرام • فخبرنى رعاك الله ألم أبين لك أن كل عالم بعلم قد حصر عقله فيه • فعالم الهندسة يبحث عن الأشكال ونتائجها • وهكذا علماء الزراعة لايدرسون إلا مايخص ماهم فيه كهؤلاء الذين يقتلون الحشرات • ان هؤلاء لايستلذون اللذة التى يجدها صاحب العلم العام • ان الانسان على الأرض مغلوب على أمره خاضع لهذا الجسم يسعى لنموّه ولحفظه فشغله ذلك عن النظر العام والتفكر فى بديع صنع الله • وهذا التفكر هو لبّ الدين الاسلامى قال تعالى ــ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات والأرض ــ

وقد اصطفى الله أناسا وهم الأنبياء والحكماء فلهم نزعة الى النظام العام فاذا نظروا فى أمثال هذه الحشرات

وفى سعادة الأمم وشقاوتها وفى نظام السموات والأرض . وفى الحياة والموت . وفى القحط والجدب والخصب كانوا عند ذلك النظر كالمجردين عن هذه المادّة . اللهم ان عقولنا التى غمست فى أجسامنا قد حبست عن عالمها الجميل

ان هنا نظاما أدركناه وهذا النظام استوى فيه مايؤلمنا وما يسرنا فان حشرات الهلاك وحشرات الحياة قد ساعدهما الله وحفظهما ورزقهما . إذن نظام هـذا الوجود الذى نعيش فيه تـكافؤ الخير والشر والضرّ والنفع ولذلك تجد عندنا موتا وحياة . امرأة تلد وملك يقبض الأرواح . فههنا تعاون بين الحياة والموت والخير والشرّ ونحن بذلك ممتحنون . لوكانت العاطفة الانسانية كاملة لاستوى عندها الموت والحياة والخير والشرّ . ان نظام الوجود ساوى بين الأمرين ونظام الوجود محكم . ان العقل الانسانى متى قرأ الحكمة عرف أن هذا النظام جميل وأن الموت والحياة والخير والشرّ ضروريان لنظام هـذا الوجود . ومع هذه الحكمة التى يعرفها نراه يحزن ويفرح وهذا نقص مشين مزر بنا دال على نقصنا فى هذا الوجود ولعلنا فى عالم بعد هذا يتساوى عنـدنا الخير والشرّ فتكون عواطفنا سائرة على نظام عقولنا . اللهم ان العواطف لا تـكون كاملة إلا اذا كانت جارية على نسق نظامك العالى ونحن اليوم على الأرض أطفال فى أحوالنا ونحن سائرون الى هذه الغاية حتى توازى عواطفنا نظامك ونـكون ــ على سرر متقابلين ــ لاهم ولاحزن ونـكون راضين رضاء تاما بنظام هـذا الوجود الذى هو على أتمّ نظام . ان الانسانية الجاهلة اليوم سـترتقى اما فى الأجيال الآتيـة واما فى عالم الأرواح . ولاسبيل لسعادة الانسان إلا بالاتحاد العام والوئام التام بين الأرواح بحيث يكونون فى العالم الروحى متحدين متحابين وتزول الفوارق بينهم . فليكن المسلمون اليوم مبتدئين بصلح ذات البين بينهم ثم يتبعون ذلك بالتعارف العام بقدر الامكان حتى يعم الاصلاح ويوم القيامة يوضع الناس فى مراتبهم وأحوالهم إما فى نعيم واما فى جحيم

ان صلح ذات البين والتعارف العام للأمم من الأنوار التى يقذفها الله فى قلوب الخواص من عباده لتهتدى الأمم ويستنير الوجود

قال صاحبى اضرب لى مثلا لهذه الصفة العالية . قلت ان مثلها كمثل الطبيب فانه أفضل راحم للمريض يقطع عضوه وهو رحيم فايس يكون المريض منتفعا بالطبيب حق الانتفاع إلا اذا أدرك الغرض من عمـله فالطبيب برحمته لايبالى بالآلام التى تعترى المريض من جراء تعاطى الدواء . هكذا الله تعالى والعوالم التى تتولى نظام هذه الدنيا يريدون الاصلاح العام ولايبالون بحشرة تأكل الزرع وطاعون عام وأمراض فاتـكة لأنهم يدبرون التدبير العام فالأرض كلها أشبه بانسان واحد . فموت أمّة وحياة أخرى وسعادة أمّة وشقاوة أخرى أشبه بما يعترى الانسان من حلق شعره وتقليم أظافره تارة وتطويلها أخرى ومرض عضو وصحة آخر . فنظر العالم الأعلى الذى يتلقى الأمر عن الله هو هذا النظر . فقال من أين أتى لك هـذا القول . فقلت أنا لم أقلد أحدا وانما هذه خواطر هجمت على النفس ونفوسنا لها اتصال بعوالم أخرى . فأنا أحسّ الآن بأن هذا المعنى حقّ وأن هناك عوالم أرقى منا نظرها للأرض هو هذا النظر لأنى أنا وأنا فى هذه الأرض أجد فى نفسى سرورا ولذة وانشراحا عند ادراك نظام هذه الحشرة الفاتـكة بأشجارنا المهلـكة لزرعنا فلماذا هذه اللذة وكيف أدركتها نفسى كما أدركت وسرت بنظام الحشرات اللاتى تـكون سببا فى القاح النبات . فاذا كانت نفسى على هذا النمط أى تسرّ بحسن النظام سواء أكان لشهوتها أولضدها فهذا دليل أن هناك عوالم هذا دأبها تشرف على عملنا وتجعله أمامها كأنه مدرسة أوحيوان لاتفعل فيه إلا المصلحة العامّة

ان سرورنا بالنظام العام وابتهاجنا به سعادة وبهجة وجمال . فقال وهل السرور بذلك واللذة تـكون لـكثير من أهل العلم وهل هذه دائمة . قلت . كلا . ان نفوس الحـكماء تشعر بها فى أوقات قليلة ثم تغلب

عليهم

عليهم العوالم الأرضية فيحزنون و يفرحون كبقية الناس وإنما يتسلون بالحكمة تارة و بالرضا أخرى . فاما عدم الاحساس بالألم فهذا غير معقول . اللهم اذا ذهل الانسان ذهولا علميا أودينيا أشبه بذهول المنوّم (بالفتح) المغناطيسى

ولقد شرح هذا الامام الغزالى فى الاحياء فاقرأه هناك فى ﴿ باب الحب ﴾ و يشير الى هذه المرتبة قوله تعالى — إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم — فمن أيقن أن الله هو الذى أعطاه ومنعه فان ذلك يخفف الألم ومع المداومة والصبر يصير الألم كالمعدوم . قال صاحبى ماملخص هذا الموضوع كله . فقلت نحن فى تفسير — وأصلحوا ذات بينكم — فدرسنا حشرة (الهبسكس) وهى تؤذى الأشجار وتعدى أشجار الأمم الشرقية بعدالغربية وقد حفظها الله لهذه الغاية وذلك يوجب تعاون الأمم جميعا لاشتراكهم فى الضراء . وأنثى هذه الحشرة لاتحتاج لذكر وكذلك بعض النبات فيه الذكورة والانوثة معا وهكذا الخناثى من بنى آدم فالذكران والاناث فى الامم متحدون أصلا وغاية والله يقول — ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا — فما فرقهم إلاليجمعهم فرق الشعوب والقبائل وهاهوذا الآن يجمعهم كما فرق الذكر والأنثى وجمعهم وهذا الآن واجب على حكماء أمة الاسلام وأخص من ذلك صلح ذات بينهم . ثم ان هذا النظر شريف وعال وحكيم إذ يجعل للانسان منزلة ملكية عالية لأنه ينظر للعوالم نظر الحكيم والملك و يحبه الله و يحب هو الله تعالى لأن الحب على قدر العلم والتفكر والتبصر . قال ان الحشرة المذكورة تفرز مادة على نفسها لتحفظها من الجوّ . فقلت فائدتها عظيمة جدّا . انها تعطينا درسا أن جسم هذه الحشرة قد اكتفى بنفسه فأفرز منه نفس المادّة التى تحفظه من الجوّ كجلود الأنعام وأشعارها وأو بارها فهى كلها نسيج أجسامها . هكذا الانسان له نفس معذّبة بالأطوار والأحوال والجهل فماذا يكسوها فيحفظها من الهوان . لاسبيل الى ذلك إلا بأن تفرز النفس مادّة تحفظها ولاافراز لها إلا العلم والعمل فكل عمل وكل علم يرجع الى النفس فيعطيها قوّة

ولاجرم أن النظر العام الحكمى الذى نحن فيه الآن هو السند الأقوى والمقام الأعلى وكلما زاد الانسان اتساعا فى النظر والحكمة اشتدّت قوّته الروحية ونزعاته الفكرية وأمياله الملكية واذن يصلح ذات البين ويكون سببا فى تعارف الأمم فى الأقطار

﴿ تذكرة ﴾

سترى أيها الذكى ان شاء الله فى سورة الحجرات عند قوله تعالى — يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا — كيف كان خلق الذكر والأنثى فى العالم الانسانى متساويين تقريبا وكيف كانت عقول الناس واستعدادهم موزعات على الأفراد بحسب الحاجة العامّة للنظام المطلوب . وكيف كان ذلك موجبا لتعاون الأمم عموما . وكيف كان اختلاف استعداد الأرض واختلاف استعداد العقول يوجبان ذلك وهكذا من المباحث التى وضعتها فى كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ ولخصه العلامة ستيلانه الفيلسوف الطليانى فى مجلة العلوم الشرقية . وهكذا ذكره الاستاذ البارون (كراديفو) فى كتابه ﴿ مفكرى الاسلام ﴾ وسترى ذلك التلخيص هناك ومابعده وما كنت لأعلم أن ذلك الكتاب كله داخل فى معنى تلك الآية

﴿ تبصرة فى كتاب (أين الانسان) الآتى فى سورة الحجرات ومناسبته لما هنا و بيان أنه ملخص الآية هناك . وكيف كانت سورة الحجرات فيها الأمران معا ﴿الصلح بين المسلمين . والتعارف بين جميع الأمم ﴾

اعلم أيها الذكى أنى أوّل ما خطر لى تأليف كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ كنت أفكر فى تعداد الذكور والاناث على سطح الكرة الأرضية فوجدت أن هذا العدد متقارب فى كل بلدة وقرية ومدينة وأمّة وشرق وغرب فأخذ نى العجب كل مأخذ وقلت فى نفسى كيف يتساويان ولم كانا على قدر الحاجة أليس ذلك بعناية

خاصة وعسى أن تكون جميع الصناعات والعلوم قد جعلت لها استعدادات فى الفطرة كما ظهر ذلك فى الذكورة والانوثة بحثت هذا الموضوع بحثا كثيرا ٠ ورأيت أن الاذكياء يقلون وأصحاب الاجسام العملية يكثرون على مقتضى المطلوب ٠ ثم نظرت الى نفس الارض فوجدتها مختلفة البقاع استعدادا للمنافع المختلفة فثبت فى نفسى أن هذه الدنيا وضعها عجيب من حيث الارض ومنافعها والناس واستعدادهم فألفت الكتاب وانتشر فى أوروبا بلاقوة منى لأنى ليس لى معينون فى هذا لأن الشرق ليس له عهد بعمل مثل هذا ٠ وذكرت فى الكتاب أن الناس لايهنأ لهم عيش إلا اذا استخرجوا جميع القوى فى الانسان وفى الأرض ولايتم هذا إلا بأن يكون الناس كأسرة واحدة ٠ ولما عرف هذا أهل أوروبا قرظوه ولخصوه كله وسترى فى سورة الحجرات ملخص الكتاب بقلم الكتاب الاوروبيين ٠ انظر الى سورة الحجرات تر هناك آيتين ﴿الأولى﴾ - انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون - ﴿والثانية﴾ - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ - فالآية الأولى تتفق مع ماهنا فالمسلمون يكون بينهم الصلح والمودة ثم هم بعد ذلك يتعارفون مع غيرهم ٠ ان فى الحجرات الأمرين معا فأولهما هو مافى هذه السورة من الصلح بين المسلمين ٠ وثانيهما هو التعارف العام ٠ وأهم مافى هذا المقال أن آية التعارف هى ملخص كتاب ﴿أين الانسان﴾

ألاترى رعاك الله أن مسألة الذكور والاناث التى فى أول الآية هى عينها التى كانت أول مافكرت لظهور الكتاب وأن مسألة التعارف التى فى آخرها هى بعينها التى قررتها فى آخر الكتاب ٠ أفلاتتعجب معى أن يكون هذا الكتاب تفسير الآية واحدة من القرآن وتلك الآية متممة للآية هنا ٠ فان السلام العام يحتاج ﴿لأمرين﴾ صلح خاص بين المسلمين واتحاد مع الأمم فى الأعمال العامة ٠ وانظر كيف كانت آية الصلح بين المسلمين جاءت فى هذه السورة التى هى مقدمة فى الترتيب على تلك السورة وأيضا هى فى الحجرات أيضا مقدمة ذلك هو العجب الذى ستراه واضحا هناك وهذا يدعو المسلمين الى ﴿أمرين﴾ صلح بينهم وتعارف مع الأمم وقد ابتدأ ثانيهما وشرع عقلاء المسلمين فى أولهما فليبشر المسلمون بعدنا ٠ وهذه من عجائب ومعجزات القرآن فى هذا الزمان اه

﴿ كيف قصر المسلمون فى قوله تعالى - وأصلحوا ذات بينكم - ﴾

ان المسلمين ينقصهم الرقى فى كل شئ ٠ ان المودة لاتكون إلا بعلم ومادام العلم قليلا كانت المودة ضعيفة بل هى معدومة ٠ لاترى بين المسلمين اليوم مودة كالتى نراها بين الأمم الأخرى ٠ نعم المسلمون مودتهم مخبوءة وليس يظهرها إلا الحركة العلمية والعملية ٠ وانى ليحزننى ألا أقرأ للمسلمين مثل ماقرأته اليوم ٢١ يناير سنة ١٩٢٧ أن أول محادثة جرت (بالتلفون) الذى لاسلك له جرت يوم ٧ يناير المذكور بين صاحب جريدة (النيويورك ورلد) و بين رئيس تحرير (الديلى اكسبريس) بلندن و بينهما ثلاثة آلاف ميل أى نحو ثمن الدائرة المحيطة بالأرض ٠ وقد تبادلا التحيات والاخبار عن جو البلدين (نيويورك ولندن) وأخذت صورة كل منهما وهو فى بلده وأرسلت صورة الأول حالا بطريق اللاسلكى وهكذا صورة الأمواج عند تكامه ونشر هذا كله فى جريدة (الديلى اكسبريس)

هذه هى مودات الفرنجة والأمريكان ٠ أيها القارئ لهذا التفسير فكر فيما أقول وقل لى هل سمعت مثل هذا بين مصر و بغداد أو بينهما و بين الاستانة والافغان أو بينهما و بين شمال أفريقيا ٠ كلا ٠ فهذه أمم أقعدها صغار العلماء عن العلوم وعن الصناعات فجهلوا العالم الذى نعيش فيه وجهلوا أنفسهم ٠ وسيكون هذا التفسير من مبادئ النهضة العلمية والعمل بعد العلم ٠ انتهى

﴿ فريدة

﴿ فريدة مشرقة فى سورة الانفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات ﴾

ومن عجائب القرآن أن ذكر الصلح جاء قبيل الكلام على القتال والنصر فى هذه السورة ﴿ ذلك ﴾ لان قتال العدو لايتم الا بعد اتفاق المجاهدين كما قدمنا فاذا تباغضوا فلا قتال ولانصر . وانظر الى سورة الحجرات التى بعد سورة القتال ثم سورة الفتح كيف ذكر فيها الصلح بين المسلمين والتعارف بين الامم . كأنه يقول هنا لا جهاد الا بعد اتفاق الامة واتحادها . ويقول هناك اذا جاهدتم وفتحت البلاد فعليكم ﴿أمران﴾ صلح فيما بينكم شامل كما كنتم قبل القتال ثم تعارف مع الامم وتكون النتيجة هكذا صلح دائم قبل الحرب وبعدها فى الامة . ثم انكم اذا ملكتم الأمم فتعارفوا مع دوام الصلح . هذا مايؤخذ من ترتيب السور والآيات والله على مانقول وكيل . انتهى الكلام على القسم الاول

(القِسمُ الثَّانِى)

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ * إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *

(مقدمة فى سبب غزوة بدر)

روى أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشأم فى عير قريش فى أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومعهم جمال تحمل عطرا وميرة وبزا (١) حتى اذا كانوا قريبا من بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة فبلغ النبى ﷺ خبرهم فقال لأصحابه هذه عير قريش فيها أموالهم وحرضهم على الخروج اليهم فخف بعضهم وثقل بعضهم فلما سمع أبوسفيان بمسير رسول الله ﷺ اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه الى مكة وأمره أن يأتى قريشا يستفزهم ويخبرهم أن محمدا فى أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فأخبرت بها أخاها العباس بن عبدالمطلب قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته قائلا ألا فانفروا يا آل غدر الى مصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر الى مصارعكم فى ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار من دورها إلا ودخلها منها فلقة فقال العباس والله ان هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولاتذكريها لأحد ثم ذكر العباس الرؤيا للوليد بن عتبة واستكتمه اياها والوليد ذكرها لأبيه عتبة وفشا الحديث . قال العباس فعمدت أطوف بالبيت وأبوجهل ابن هشام فى نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبوجهل قال ياأبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل الينا قال العباس فلما فرغت من طوافى أقبلت اليهم فقال لى أبوجهل يابنى عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم . قلت وماذاك . قال الرؤيا التى رأت عاتكة . قلت ومارأت . قال يابنى عبدالمطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال ﴿ انفروا فى ثلاث ﴾ فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك ماقالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت فى العرب . قال العباس فأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فشاع قول أبى جهل فى الناس فلم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع فأين الغيرة فاحتدم الغيظ فى صدر العباس وأقسم أن يتعرض له ويقتص منه قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى انى قد فاتنى شئ أحب أن أدركه منه . قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله انى لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . قال العباس فقلت فى نفسى ماله لعنه الله أكل هذا فرقا منى أن أشاتمه قال فاذا هو سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (تقدم معناها) هذه أموالكم مع أبى سفيان وقد عرض لها محمد فى أصحابه ولاأرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغله عنى وشغلنى عنه ماجاء من الأمر فخرجت قريش سراعا ولم يتخلف إلا أبولهب وقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له (ذافرد) فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله ﷺ حتى اذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم و بعث رسول الله ﷺ عينا له يدعى (اريقط) فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ فجاء الوحى ـ ان الله وعدكم احدى الطائفتين أنها لكم ـ اما العير واما قريش فكانت العير أحب اليهم فاستشار رسول الله ﷺ

(١) وهذا هو معنى اللطيمة

أصحابه

أصحابه فقال بعضهم هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له انا أخرجنا للعير فرد عليهم وقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبوجهل قد أقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فقال وأحسن وكذلك عمر والمقداد بن عمرو اذ قال يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله مانقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى ـ اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ـ ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون الخ فدعا له رسول الله ﷺ بخير ثم قال سعدبن معاذ من الأنصار فأحسن فى المقال فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عزوجل وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم * روى مسلم عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذى بعثه بالحق ما أخطؤا الحدود التى حدها رسول الله ﷺ حتى انتهى اليهم فقال يافلان بن فلان ويافلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فانى وجدت ماوعدنى الله حقا • فقال عمر يارسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها • فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لايستطيعون أن يردوا على شيأ فذلك قوله سبحانه وتعالى ـ واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ـ يعنى طائفة أبى سفيان مع العير وطائفة أبى جهل مع النفير • اذا عرفت أيها الذكى هذه المقدمة الوجيزة فما أسهل تفسير الآيات

يقول الله الأنفال ثابتة لله والرسول مع كراهتهم لذلك ثباتا مثل ثبات اخراجك ربك من بيتك يعنى بالمدينة لأنها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم وهذا قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون) أى أخرجك فى حال كراهتهم (يجادلونك فى الحق) فى ايثارك الجهادباظهار الحق لايثارهم تلقى العير عليه (بعد ماتبين) أنهم ينصرون أينما توجهوا باعلام الرسول ﷺ (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) أى يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد أسبابه وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم * إذ روى انهم رجالة وما كان فيهم إلا فارسان • وفيه ايماء الى أنهم كانوا فزعين رعبا (و)اذكر (اذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) وقوله ـ انها لكم ـ بدل من ـ احدى ـ (وتودون أن غيرذات الشوكة تكون لكم) يعنى العير اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا فتمنوها وكرهوا النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك (ويريد الله أن يحق الحق) أن يثبته ويعليه (بكلماته) الموحى بها فى هذه الحال (ويقطع دابر الكافرين) ويستأصلهم يعنى انكم تريدون أن تصيبوا مالا ولاتلقوا مكروها بملاقاة العير والله يريد اعلاء الدين واظهار الحق بملاقاة النفير فعل مافعل (ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون) ذلك • واعلم أن رسول الله ﷺ نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض فمازال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجزلك ماوعدك * وأيضا كان الصحابة يقولون ﴿ربنا انصرنا على عدونا أغثنا ياغياث المستغيثين﴾ وذلك لما علموا أنه لامحيص من القتال وهذا قوله تعالى مبدلا من قوله ـ إذ يعدكم الله احدى الطائفتين ـ (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم) أى بأنى (بألف من الملائكة مردفين) بكسر الدال وفتحها أى متبعين فهم على الأول كانوا ساقة الجيش وعلى الثانى كانوا مقدمته * ويقال ردفه اذا تبعه وأردفته اياه اذا اتبعته (وماجعله الله) أى الامداد (الا بشرى لكم) أى الا بشارة لكم بالنصر (ولتطمئن به قلوبكم) فيزول مابها من الوجل لقلتكم وذلتكم • وظاهر الآية يفيد أنهم لم يقاتلوا ﴿ولذلك﴾ قال بعض العلماء انما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين

والا فلك واحد كاف فى اهلاك أهل الدنيا * ويقول بعضهم انهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فى سواه من الأيام وهناك روايات وردت فى نزولهم يوم بدر وقتالهم لانطيل بذكرها هنا (وما النصر الا من عند الله) أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولاتتكلوا على قوّتكم وشدّة بأسكم وما كثرة الجيوش ولا امداد الملائكة ولاقوّتكم وكثرتكم الا وسائط لاتأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولاتيأسوا منه بفقدها (ان الله عزيز) قوىّ منيع لايقهره شئ (حكيم) فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء * ولما كان المسلمون قليلى العدد وكان أهل مكة كثيرا عددهم اعتراهم الخوف على أنفسهم أن يغلبوا ويقهروا * ومما زاد الطين بلة أن المسلمين نزلوا ذلك اليوم (يوم بدر) على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم الى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبىّ الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم * فهذه أمور خمسة ﴿الأوّل﴾ الخوف من غلبة العدو ﴿الثانى﴾ ما أصابهم من الحدث والجنابة والعطش ﴿الثالث﴾ وسوسة الشيطان لهم وكيف يكونون على الجوع وهم بهذه الحال ﴿الرابع﴾ عدم الوثوق وزلزلة القلوب ﴿الخامس﴾ أن الأقدام لاتثبت فى ذلك الكثيب الأعفر الذى لاماء فيه فلذلك أكرمهم الله بازالة الخوف فى قوله بدلا ثانيا من ــ يعدكم ــ (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) النعاس النوم الخفيف ــ أمنة منه ــ أى أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وهو مفعول لأجله ﴿وذلك﴾ أن الخائف على نفسه لايأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الامن وازالة الخوف وكان ذلك النوم نعمة فى حقهم لأنه كان خفيفا بحيث لوقصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم * وهذا كالمعجزة لاسيما اذا كان ذلك النعاس وقع دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم كما قيل * وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فهذا هو الأمر الأوّل من الامور الخمسة وهو الامن المزيل للخوف * وأشار الى الثانى وهو ما أصابهم من الحدث الخ بقوله (وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) فأنزل عليهم المطر فشربوا واغتسلوا من الجنابة والحدث * وأشار الى الثالث وهو الوسوسة بقوله (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته ﴿وذلك﴾ أنهم أمطروا ليلا حتى جرى الوادى واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤا وتلبد الرمل الذى بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة والاضطراب * وأشار الى الرابع بقوله (وليربط على قلوبكم) بالوثوق بلطف الله * وأشار الى الخامس بقوله (ويثبت به الأقدام) أى بالمطر حتى لاتسوخ فى الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى المعركة * فهذه هى الامور الخمسة التى أنعم الله عليهم بها لازالة ما ابتلوا به من نقائضها * واعلم أن هذه القصة اشتملت على ثلاثة أقسام ﴿الملائكة والمؤمنين والكافرين﴾ فههنا أخذ سبحانه يشرح لكل طائفة ما يناسبها * فقال فى الطائفة الأولى وهم الملائكة (إذ يوحى ربك) بدل ثالث من ــ اذ يعدكم ــ (الى الملائكة أنى معكم) فى اعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول يوحى (فثبتوا الذين آمنوا) بالبشارة وقوّوا قلوبهم * واقد تقدّم فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة أن السنة والعلم الحديث فى أمريكا وأوروبا على اتفاق أن الأرواح الشريرة وهى الشياطين لها قوّة تلقى بها الوساوس فى قلوب بنى آدم وتثير فيها الشرّ وهكذا للملائكة قوّة الالهام بالخير فى قلوب الناس * فالأوّل وسوسة * والثانى الهام فهذا هو التثبيت ومنهم التبشير بالنصر والظفر وربما تعدّى ذلك القلب الى الظهور عيانا نادرا كما فى هذه الغزوة * قيل كان الملك يمشى فى صورة رجل أمام الصف ويقول ﴿ابشروا فان الله ناصركم عليهم﴾ ومن صور التثبيت قوله تعالى للملائكة قولوا للمؤمنين (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الفزع ثم خاطب الله المؤمنين قائلا (فاضربوا فوق الأعناق) أى أعالى الأعناق التى هى المذابح أو الرؤس (واضربوا منهم كل

بنان

بنان) جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليـدين أى حزوا رقابهم واقطعوا أطرافهـم فضرب الرأس به هلاك الانسان والبنان به يتمكن الانسان من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله (ذلك) الضرب (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى بسبب مشاقتهم لهما واشتقاقه من الشق لأن كل من المتعاديين فى شق خلاف شق الآخر (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) وعيد لهم بما أعدّ لهم فى الآخرة بعد ماحاق بهم فى الدنيا (ذلكم) القتل والأسر الذى نزل بكم أيها الكفرة واقع (فذوقوه) عاجلا فى الدنيا وانه ليسير بالاضافة الى ما أعدّ لكم فى الآخرة من العـذاب (وأن للكافرين عذاب النار) منصوب على أنه مفعول معه كقولك مررت والنيل أى ذوقوا ماعجل لكم من العذاب مع ماعجل لكم فى الآخرة وقد وضع فيه الظاهر موضع المضمر دلالة على أن الكفرهو السبب فى جمع العذاب العاجل مع الآجل . ولما انتهى الكلام على خطاب الملائكة ومايتبعه شرع سبحانه يخاطب المؤمنين وهم الطائفة الثانية فقال (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيـتم الذين كفروا زحفا) وهـذا حال من الذين كفروا . والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كأنه يزحف أى يدب دبيبا من زحف الصبى اذا دب على إسته قليلا قليلا سمى بالمصدر . فالمعنى اذا لقيتم الذين كفروا كثيرا عددهم (فلاتولوهـم الأدبار) بالانهزام فضلا عن أن يكونوا مثلكم أوأقل منكم أى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلاتفتروا فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أوتساووهم . وهـذه مزية أولى الهمم العالية الذين يتكلون على ربهم ولايبالون بما يعترضهم من كوارث ومحن (ومن يولهم يومئذ دبره إلامتحرفا لقتال) يريد الكر بعد الفر وتغرير العدو فانه من مكايد الحرب (أومتحيزا) منضما (الى فئة) الى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها وهما حالان من فاعل يولهم المضمر (فقدباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) واعلم أن المتحيز يشمل من تحيز الى فئة بعيدة * لما روى ابن عمر رضى الله عنهـما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففروا الى المدينة قال فقلت يارسول الله نحن الفرارون قال بل أنتم الكرارون وأنا فئتكم . واعلم أن أكثر أهل العـلم يقولون ان المسلمين يحرم عليهم الفرار يوم الزحف اذا كان العدو مثليهم فأقل أما اذا كان أكثر من مثليهم فانه يجوز الفرار وذلك لأن هذه الآية مخصوصة بما يأتى فى قوله تعالى ـ الآن خفف الله عنكم ـ فأفادت الآية أن الواحد يغلب اثنين * قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر * وقال آخرون ان الفرار كان كبيرة يوم بدر . فأما يوم أحد ويوم حنين فقد خفف الأمر فى الآيات كقوله فى الأولى ـ انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ـ وفى الثانية ـ ثم وليتم مدبرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء . والقول بأن التولى ليس كبيرة بعد غزوة بدر وأن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فأما فى يوم بدر فلم تكن لهم فئة يتحازون اليها فلوا انحازوا انحازوا الى المشركين مروى عن الحسن وقتادة والضحاك . وأكثر أهل العلم على الأول كما تقـدم فاذا كان المسلمون على الشطر من عـدوهم لايجوز لهـم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وان كان العدو أكثر من مثلى المسلمين جاز لهم أن يفروا منهم * روى مجاهد أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزل قوله تعالى ـ ان افتخرتم بقتلهم ـ (فلم تقتلوهم ولـكن الله قتلهم) يعنى بنصره اياكم وتقويتكم عليهم وامدادكم بالملائكة يبشرونكم ويلهـونكم ويربطون على قلوبكم بل يكثرون سوادكم ويحاربون معكم على قول ثم ان جبريل قال للنبى ﷺ خـذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول ﷺ كفا من الحصباء عليـه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعنى قبحت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شئ فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهـم ويأسرونهم . ومعلوم أنه ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كفا من الحصى فى وجوه جيش فلاتبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شئ فصورة الرمى صدرت من رسول الله ﷺ

وتأثيرها صدر من الله عزوجل • فلهذا المعنى صح النفي والاثبات في قوله تعالى (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) يعني ان الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لورميتها لما بلغ أثرها إلا مايبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم وعليه يكون فعل العبد مضافا اليه كسبا والى الله تعالى خلقا فقد أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لله فقال ـ ولكن الله رمى ـ وانما فعل ذلك ليهلك عدوكم (وليبلى) وليعطي (المؤمنين منه بلاء حسنا) عطاء جميلا أي وللاحسان الى المؤمنين (إن الله سميع) لدعائهم (عليم) بأحوالهم (ذلكم) البلاء الحسن (وأن الله موهن) مضعف (كيد الكافرين) يعني مكرهم وكيدهم معطوف على ـ ذلكم ـ أي المقصود ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم ومكرهم

﴿ لطيفة ﴾

قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله ﷺ أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم وهو غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار وهو غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما رسول الله ﷺ فقال لهم ﷺ أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله ﷺ كم القوم قالا كثير قال ماعددهم قالا لاندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله ﷺ القوم مابين التسعمائة الى الألف ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البحتري بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر بن حرث وأبوجهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله ﷺ هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء الى الوادي فقال ﴿ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك • اللهم فنصرك الذي وعدتني ﴾ فكان ما كان من النصر والفوز والى هنا انتهى الكلام على خطاب المؤمنين

ثم انه سبحانه خاطب الكافرين وهم الطائفة الثالثة فقال (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أي ان تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا ﴿ اللهم ان كان محمد على حق فانصره وان كنا على حق فانصرنا ﴾ ولما التقى الجمعان قال أبوجهل ﴿ اللهم أينا كان أفجر (يعني نفسه ومحمدا ﷺ) قاطعا للرحم فأحنه اليوم • اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين • اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم ﴾ ويطلق الفتح على الحكم أي ان تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعني جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع * روى البخاري ومسلم أن عبد الرحمن بن عوف قال اني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فاذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أباجهل قلت نعم فما حاجتك اليه يا ابن أخي قال أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت الى أبي جهل يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا الى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله ﷺ الى السيفين فقال كلا كما قتله فقضى رسول الله ﷺ بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء رضي الله عنهما

فهاهوذا أبوجهل قد استفتح . وهاهوذا قد جاءه الفتح وحكم الله بقتله قال تعالى لكفار مكة (وان تنتهوا) عن الكفر ومعاداة الرسول (فهو خير لكم) لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين (وان تعودوا) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم (ولن تغنى عنكم) ولن تدفع عنكم (فئتكم) جماعتكم (شيأ) من الاغناء (ولو كثرت) فئتكم (وأن الله مع المؤمنين) أى ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من سورة الأنفال

وههنا خمس لطائف ﴿ الأولى ﴾ اقتحام الأخطار فى قوله تعالى ـ واذ يعدكم الله احدى الطائفتين الخ ـ ﴿ الثانية ﴾ أن هذا العالم المادّى خاضع لناموس العقول . وأن عمل القلوب مهيمن على الأجساد . وعلو الهمة به تذلل الصعاب فى قوله تعالى ـ وماجعله الله إلا بشرى لكم ـ . ﴿ الثالثة ﴾ دقة الملاحظة والبحث الصادق فى أمور هذه الحياة فى قوله ـ اذ يغشيكم النعاس أمنة منه ـ . ﴿ الرابعة ﴾ الثبات وقوة العزيمة أساس الأعمال فى هذه الحياة . ﴿ الخامسة ﴾ عدم الاعجاب بالنفس وترك الكبرياء فى قوله تعالى ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ . ولنبدأ بايضاح هذه اللطائف الخمسة فنقول

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

فيها استبان خلق اقتحام الأخطار ومقابلة الحوادث الجسام والأهوال الفخام والامور العظام بالجلد والصبر واختيار أعظمها قدرا وأشدها بأسا وأعلاها شأنا وأرفعها مقاما وأسماها نظاما وأبعدها سبيلا وأقومها قيلا ألا وهى التنائى عن العير والمسارعة الى النفير واصطفاء أشرف الامور . ولعمرى كيف يساوى ذلك الزاد والميرة و بعض البز والعطر الذى كان مع أبى سفيان ذاهبا الى مكة قتل صناديد قريش . لعمرى ما أبعد الفرق مابين رأس الأمر وأعلاه . و بين ذنبه وأدناه . فعلوّ الهمة فى النظر الى معالى الامور وأشرفها لا الى أخسها وأحقرها . فلتكن همنا فى حياتنا الدنيا متوجهة الى أعالى الامور والتنكب عما يكتفى به الجهور من العرض القليل والنفع المادّى اذا كان هناك ماهو أشرف وأجدر وأعلى وأكبر

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

لقد اطلعت على حديث الملائكة . وكيف أرسلهم الله فى غزوة بدر . وكيف اختلف العلماء هل هم حاربوا مع المسلمين وظهروا بصورة بشرية وأسلحة حديدية وملابس عربية وقطعوا الرؤس وأزالوا النفوس أم هم اكتفوا بتكثير السواد واهداء البشارة للمحاربين . أم كان نزولهم على القلوب بالالهام والتبشير وتقوية الهمم كما أنهم يثبطون همم الأعداء ويلقون فى قلوبهم الرعب . هذا كله قد تقدم ولكن الآية قد ذكرت قصارى الأمر وجاداه ومبدأه ومنتهاه وشرحت المقام وأزاحت اللثام وأذهبت الغمام . فماذا قالت . جاء فيها قوله تعالى ـ وما جعله الله إلا بشرى لكم ـ فذكر ذلك على سبيل الحصر والقصر كانه يقول انما خلقتم فى الأرض مختبرين وظهرتم عليها ممتحنين فعليكم مقارعة الأبطال والطعن والنزال

وما كان انزال الملائكة لتقعدوا وهم يعملون . وتنكصوا وهم يتقدمون . وتناموا وهم مستيقظون تالله لم تخلقوا سدى فلا تقتحموا الردى بل خلقتم ممتحنين وفى الأعمال مختبرين . وما انزال الملائكة عليكم إلا لتبشركم بالالهام وتثبيط همم الأقوام ولو ثبت انهم قتلوا معكم أناسى لم يكن ذلك إلا ليشجعوكم لا ليقعدوكم والا لذهبت فضيلة الاختبار ولخرجتم من الحياة بلا اعتبار فلامنازل فى الآخرة إلا حيث الجهاد فى الحياة . ولاجهاد والملائكة قائمون مقامكم . مقاتلون عدوكم . مبددون الأعداء وأنتم نيام . وكلما كان العمل أشق كانت النتيجة أرقى والعاقبة أبقى والسعادة أعلى

ألا وان النية تسبق العمل والأعمال لاقيمة لها إلا بعزمات القلوب . فكلما امتلأ القلب بالبشارة والآمال ابتهجت الأعضاء بالأعمال . ان القلوب لعظيم سلطانها قوية عزماتها فتى صلحت صلحت الأعمال

ومتى جهلت أوخمدت أوتشاءمت أوشكت أو يئست بطلت أعمال الجوارح . وكيف يعمل المأمور والآمر خامد الأنفاس كثير اليأس . وكيف تهيج الأعضاء للعمل اذا كان القلب قليل الأمل ضعيف الحيل خائر العزيمة حائدا عن السنن . هنالك لاعمل له يلقاه . ولا ثمر له يرضاه

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

أنظر الى الامور الخمسة المذكورة فى الآيات وكيف فصلها الله تفصيلا . فذكر هواجس القلوب وخواطر الضمائر ولم يدع قطرات السحاب الماطرات . ولاعطش القوم فى الفلوات . ولاثبات الأقدام فى الطرقات ولانعاس القوم فى الهجمات . فجعل لكل من هذه الحوادث حكمة إلهية ومنة ربانية انارة للعقول وتبصرة للأفهام . كأنه قيل انظروا فى أعمالكم اليومية وأحوالكم الانسانيـة وماينتابكم من أمور طبيعية فتفقدوا صغائرها وتأملوا كبائرها . واعلموا أن لكل منها نهجا صادقا وطريقا واضحا فاعتبروا بكل منها وتدبروه وتأملوا فيه واذكروه واعلموا أنه مامن صغير من الامور ولا كبير إلا وله نبأ ومستقر علمه من علمه وجهله من جهله . فاياكم أن تمر عليكم الحوادث مر السحاب فلاتقيمون لها وزنا ولاتعرفون لها معنى واذا كنت قد ذكرت النعاس فى غزوة بدر وجعلت لنزول المطر حكمة عملية ولثبوت الأقدام على التراب مكرمة ربانية ولزوال وساوس الهواجس الشيطانية مزية حكمية . هكذا فلتكونوا فى سائر أموركم مفكرين وفى جميع أعمالكم ناظرين ـ وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمـل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيـه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولافى السماء ولا أصغر من ذلك ولاأكبر إلا فى كتاب مبين ـ

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

هذه داعية الثبات مرقيـة المهمات . كيف لا وان تحريم التولى يوم الزحف من أجل الامور قدرا وأعظمها أثرا وأشرفها مقاما . وفيها احتقار الحياة فى عظائم المهمات . وعـدم التولى يوم الزحف يكون من آثاره قوة العزيمة التى هى سر الحياة ومناط الكمال ونهاية الفضائل . ولقد ذكر القرآن الصبر نحو (٧٠ مرة) وجعله مناط الأعمـال . وعليه مدار السعادة فى الحال والمآل . وأعظم الصبر ما كان فى بذل النفس فى سبيل المجد الاخروى والدنيوى وشرف المقام

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾

فيها التواضع وأن يعرف الانسان مقامه فى الوجود فلايغتر بما أتيح له من ظفر . وما أعطاه اياه القدر ولايلبس لباس الخيلاء . و يتبختر تبختر الحسناء . فاذا نال أمرا دينيا أودنيويا فليرجع الى الله تعالى ولا يكثر من الفرح بما آتاه ـ ان الله لايحب الفرحين ـ . وليعلم أن الله هوالذى أعطاه ولاحول ولاقوة إلا بالله ـ ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير ـ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ـ وهذا آخر الكلام على القسم الثانى من سورة الأنفال

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَيَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمنوا

آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

﴿ تفسير بعض الألفاظ ﴾

قوله (ولاتتولوا عنه) أى عن الرسول (وأنتم تسمعون) القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق (كالذين قالوا سمعنا) أى كالكفرة أوالمنافقين الذين ادّعوا السماع (وهم لايسمعون) سماعا ينتفعون به فكأنهم لايسمعون رأسا (إن شرّ الدّواب عند الله) شرّ مايدب على الأرض أوشرّ البهائم (الصمّ) عن الحقّ (البكم الذين لايعقلون) اياه • عدّهم من البهائم ثم جعلهم شرّها لأنهم أبطلوا ماميزوا به و به فضلوا (خيرا) أى سعادة كتبت لهم أوانتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع تفهم (ولوأسمعهم) وقد علم أن لاخير فيهم (لتولوا) ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول (وهم معرضون) لعنادهم (استجيبوا لله وللرسول) بالطاعة (اذا دعاكم) أفرد الضمير هنا كما سبق فى قوله تعالى ـ ولاتتولوا عنه ـ لأن ذكر طاعة الله والاستجابة له للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله واستجابته من طاعة الرسول • وأيضا ان دعوة الله تسمع من الرسول (لما يحييكم) من

(١) العلوم الدينية لأنها تحيي القلوب والجهل موت * قال الاول

لاتعجبن الجهول حلته * فذاك ميت وثوبه كفن

(٢) ومما يورثكم الحياة الأبدية فى النعيم الدائم من العقائد والأعمال

(٣) ومما يورث بقاءكم أحياء فى هذه الحياة الدنيا وهو الجهاد إذ لوتركناه لقتلنا العدوّ

(٤) ومما يورث حياتكم الاخروية وهى الشهادة لله بالوحدانية

فطاعة الرسول واجبة للعلوم الدينية والعقائد الاسلامية والجهاد والشهادة • فبالأول حياة القلوب • وبالثانى حياة الآخرة • وبالثالث حياتنا فى الدنيا • وبالرابع حياتنا حياة أرقى فى الآخرة بالشهادة

ثم قال تعالى (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وهذه الآية لها أربعة أمور أيضا

(١) فهو أقرب اليه من حبل الوريد • وهو عرق فى الرقبة شبه بالحبل • فهذا تمثيل لغاية قربه من العبد

(٢) وهومطلع على خفيات القلوب فيعلم ماقد يغفل عنه صاحبه كما سيأتى ايضاحه فى التنويم المغناطيسى

(٣) فليتجه الانسان الى قلبه فليخلصه من الشوائب قبل أن يحال بينه و بينه فلا يتسنى له تصفيته حين يحال بينه و بين قلبه بجنون أو بموت

(٤) وليعلم الانسان أن عزائمه تحلها الوساوس • وتفسخها المزعجات • وتنسيها الشهوات • وقد

يحكم عليه بالكفر فلايقدر على الايمان ويتم عليه بالايمان فلايكفر لشقاوته فى الأزل عند الأول وسعادته فيه عند الثانى

(واتقوا فتنة) الفتنة الذنب (لاتصيبن الخ) أى ان أصابتكم لاتصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم أى اتقوا ذنبا يعمكم أثره كأن يقرّ الناس المنكر . وكأن يداهنوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكأن تتفرّق الكلمة . وتظهر البدع . ويكسل الناس عن الجهاد . وهذا دلالة على أن المسلمين جميعا متضامنون والفرد منهم مثل جميعهم فليهتمّ كل امرئ بمجموعهم (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) أى واذكروا أيها العرب إذ كنتم أذلاء بين فارس والروم لتفرّقكم ويا أيها المهاجرون أيضا إذ كنتم مستضعفين فى أرض مكة تستضعفكم قريش (تخافون أن يتخطفكم الناس) أى فارس والروم للعرب عامّة وكفار قريش وغيرهم من العرب للمهاجرين (فآواكم) جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم فى الأوّل وفى الثانى (وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات) الغنائم (لعلكم تشكرون) هذه النعم (لاتخونوا الله والرسول) بأن تتركوا الفرائض والسنن . أو بأن يكون ما تبطنون خلاف ماتظهرون . أويكون منكم غلول فى المغانم (وتخونوا أماناتكم) فيما بينكم بأن لاتحفظوها (وأنتم تعلمون) تبعة ذلك ووباله والخيانة عن عمد ولستم بساهين . أوأنتم تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى سبب الوقوع فى الفتنة أى الاثم والعذاب . أومحنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده (وأن الله عنده أجر عظيم) لمن آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم . فليوجه الناس هممهم الى مراعاة حدود الله فان الناس جميعا متضامنون وليس أولاد الانسان وأمواله بمغنية شيأ اذا ماحاق الهلاك بقومه وأموالهم وكيف يعيش المرء منفردا هذا لايكون (يجعل لكم فرقانا) هذه تشمل خمسة معان

(١) هداية فى القلوب بها تفرقون بين الحق والباطل (٢) ونصرا تفرقون به بين المحق والمبطل

(٣) ومخرجا من الشبهات تفرقون به بين الحق والباطل (٤) ونجاة مما تخافونه فى الدارين

(٥) وظهورا واشتهارا بالصيت والذكر الحسن لأن من نجا مما يخافه فقد فرق بينه وبين المخوف منه . ومن اشتهر صيته فقد ظهر ظهور الصبح . تقول العرب ﴿ بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ﴾ أى الصبح

وهذه ﴿ المعانى الخمسة ﴾ حقة فان من اتقى الله هدى قلبه ونصر ونجا من الخوف وخرج من الشبهات لأن قلبه مرّن على الحقائق فتتضح له الطرق . وهذه المعانى الأربعة ترجع لمعنى واحد وهو التفرقة بين شئ وآخر . أما الخامس فهو معنى آخر وربما رجع الى الأوّل لأن الصبح يفرق بين الليل والنهار (ويغفر لكم) بالتجاوز والعفو (والله ذوالفضل العظيم) تذكير للمؤمنين أن ما أعدّه الله لهم بسبب التقوى انما هو تفضل واحسان . انتهى التفسير اللفظى . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ ـ إن شرّ الدواب عندالله الصم البكم الخ ـ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ ـ ولوعلم الله فيهم خيرا لأسمعهم ـ

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ـ

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ ـ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ـ الآية

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ ـ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون ـ

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ ـ يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ـ

﴿ اللطيفة السابعة ﴾ ـ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن الانسان أرقى من عالم الحيوان وأقل من عالم الملك على سبيل الاجمال باعتبار المجموع ولم تكن

له هذه المنزلة الرفيعة والمقام الكريم وتكريم الله له لما اتصف به من قوّة الجسم أوشهوة الأكل أوالقدرة على التناسل أوالقوّة العضلية أوالتزين بالزينة كالطاووس فان ذلك كله شاركه فيه الحيوان وانما امتيازه بالعقل والعلم والحكمة • ولاجرم أنه اذا تنزّل عن مرتبته ألحق بمراتب الحيوان • فمن غلب عليه طبع القتال لذاته والغلبة عدّ من الآساد • أوالسفاد عدّ من العصافير • أوالزينة عدّ من نوع الطاووس • وهكذا تعدّ الحيوانات نوعا نوعا • فمتى غلب على الانسان طبع من هذه الطباع عدّ كأنه منها • وقد ذكرنا فى سورة البقرة نحو أربعين طبعا من طباع الحيوان عند قوله تعالى ــ واذ قال ربك للملائكة الخ ــ

ولاجرم أن الحيوان الذى اتصف بصفة خاصة لاعار عليه ولاعيب بل هو قائم بأمره عامل على شاكلته فأما ذلك الانسان الذى تنزل عن مرتبته والتحق بالأفق الأدنى فانه مذموم مدحور كما قال تعالى ــ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ــ وهذا هو سرّ قوله تعالى ــ إن شرّ الدّواب عند الله الصمّ البكم الخ ــ • انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اعلم أن هذا العالم كله ما ظهر إلا على علم سبق ونظام أسس على مقتضاه • ومن هذا النظام هذه النواميس التى نراها ونقرؤها فى هذا الوجود وعلم الله يشمل الواجب والجائز والمستحيل ولا يكون العلم إلا على مقتضى المعلوم • فاذا اقتضى النظام العام والأحوال الخاصة بمقتضى النظام أن يكون زيد كافرا لا يعقل لأن مزاجه لم يتأهل لذلك • كما ان الحيوان ليس أهلا لمراتب الانسان فانه لامحالة يكون فى علم الله لايقبل الايمان وهو لامحالة اذا جاء فى الأرض لايقبل الايمان • فالعلم يكون على مقتضى المعلوم • كأنه يقول لوسبق العلم بأن فيهم خيرا لاستعدادهم له لأسمعهم سماع تفهم ولم يرتدّوا بعد • وكيف يرتدّون وهم أهل للايمان بفطرتهم ولوأسمعهم سماع تفهم فى أوّل الأمر لتولوا عنه وهم معرضون لأن فطرهم غيرمستعدّة للبقاء على مافهموا فرضا • وعلى هذا يكون هناك فرق بين قوله ــ لأسمعهم ــ و بين قوله ــ ولوأسمعهم ــ ﴿فالأوّل﴾ سماع تفهم مع الدوام عليه ﴿ والثانى ﴾ سماع تفهم فى أوّل الأمر فليس بينهما التقاء فتأمّل • انتهت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

اعلم أن الله قد خلق الانسان ولم يمكنه من الاستيلاء على جميع قواه فجعله أشبه باليتيم الذى يملك مالا • ألاترى أن الانسان يحال بينه و بين مايعلمه فى أحوال

(١) كالنوم فالنائم ربما لايتذكر شيأ من أحوال يقظته و يرى أنه فى أحوال أخرى

(٢) المجنون (٣) المغمى عليه (٤) الذى شرب الخمر (٥) الذى تعاطى الأفيون والمخدّرات الأخرى

(٦) أحوال المرض فقد ينسى فى المرض ماكان يتذكره فى الصحة

(٧) و يتذكر عند الاحتضار أمورا لم يكن يتذكرها فى صحته (٨) وفى العقائد كالايمان والكفر

(٩) والذنوب والأعمال الصالحة • فكثيرا مايقصد الانسان الامتناع عن الذنب فيقع فيه • وكثيرا مايقصد الخير فيقع فى الشرّ • أو يقصد أن يفعل سوأ فيصرف عنه

(١٠) تأثير الخطباء والشعراء فانها تصرف الانسان بما تهيج به فؤاده بالأقوال الخلابة والأبيات الموزونة فتصرفه عن غرض الى غرض مهما حاول التملص وأراد الامتناع

(١١) الوسط والبيئة • والتعليم والديانات • والعادات الموروثة والمكتسبة • كل هذه تجرّ الانسان الى طبائعها مهما حاول الانسان التخلص منها والتملص من أذاها • ناهيك ماقرّره العلامة (جوستاف ليبون) فى مؤلفاته من أن الوسط والبيئة وآراء الشعب تؤثر فى العلماء والجهلاء على حدّ سواء • فتجد للشعب كله هزة

واحدة ورجة واضطرابا واحدا مسوقين الى ذلك . لاسلطان للمنطق على عقولهم . وانما السلطان لذلك المؤثر العام الذى استحوذ على العقول فجمعها كما حصل فى فرنسا وتركيا ومصر والهند من القوّة الوطنية والقيام كأنهم رجل واحد للاستقلال . وترى الشاب وهو أحرص الناس على لذاته قد حيل بينه وبينها فيقدّم نفسه للهلاك والموت الزؤام فى سبيل انقاذ بلاده . وهذه الحيلولة نعمة عليه وعلى الناس وبضدّها تتميز الأشياء *

(١٢) ومن هذا المقام ما أظهره العلم الحديث وأرانا الجمال . والعجب العجاب . والسحر الحلال . والجواهر اليتيمة . والعقود النظيمة . والبدائع الشائقة . والمحاسن الرائقة . والدرّ والمرجان . وغرائب الانسان ﴿ ذلك ﴾ فى التنويم المغناطيسى . وما مثل الانسان فى أطواره الأربعة الآتى ذكرها فى ذلك العلم إلا كمثل العامّة والعلماء . فأما العامّة فلا يعرفون من هذه الدنيا إلا ظواهر وهم عن بواطنها معرضون . وأما الخاصة فهم على ثلاث درجات ﴿ الأولى ﴾ المتعلمون فى المدارس الابتدائية ﴿ الثانية ﴾ المتعلمون فى المدارس الثانوية ﴿ الثالثة ﴾ المتعلمون فى المدارس العالية . فهذه أربع درجات العامّة والابتدائيون والثانويون والعالون

أفلا ترى أن من لم يتعلم فى المدارس العالية يجهلها و يعرف الدرجات الثلاث قبلها وأيضا المتعلم الابتدائى يجهل الدرجتين فوقه و يعرف ماقبله . والعالى يجهل الطبقات الثلاث فوقه ويعرف درجته هو . اذا عرفت هذا المثال فاسمع ما أقول لتعرف سرّ الله فى القرآن وحكمته فى الفرقان

يقول علماء (التنويم المغناطيسى) ان له ثلاث درجات كما تقدّم فى هذا التفسير ﴿ الأولى ﴾ أن يفقد الاحساس ويكون قابلا لكل مايلقيه اليه المنوّم بكسر الواو ﴿ الثانى ﴾ أن يفقد الاحساس فقدا تاما ولكنه يتكلم و يسمع ويبصر ولكن لاسلطان لحواسه عليه ﴿ الثالث ﴾ أنه يعرف نفسه معرفة تامّة ويصف علله وعلاجه و يعرف أحوال الناس من بعد سحيق وينبئ عن حوادث مستقبلة ويتكلم بلغات شتى ويرى أرواح الأموات و يصف هيئتها وينقل الى الجالسين أقوالها . ولقد قال علماء هذا الفنّ ان النائم فى الحال الأولى يتذكر كل ماعمله فى اليقظة . وفى الحال الثانية يتذكر كل مافعله فى اليقظة وفى الحال الأولى وفى الحال الثالثة يتذكر كل ما فعله فى اليقظة وفى الحال الأولى والثانية . وهكذا اذا رجع القهقرى يحجب عنه علم مافوقه ويكون عالما بما هو تحته . أفليس هذا عجيبا جدّا وأصبح تمثيلنا بالتلاميذ فى المدارس و بالعامّة تمثيلا صحيحا . أفلست ترى أن هذا من العجب العجاب وأن الانسان منا فى هذه الدنيا يجهل نفسه كل الجهل وأن الله حال بينه و بين قلبه وانه قادر فى حال من الأحوال أن يرى الأرواح ويخاطبها و يعرف مستقبل الامور و يعرف البعيد عنه . وهذا أصبح أمرا معروفا قد شاهدناه بأنفسنا . ولقد حضر فى مصر قوم من أور وبا ونوّموا هذا التنويم فى هذه السنة وساعدهم رجال الحكومة والشرطة وهناك دبرت سرقة فلما أناموا رجلان منهم بحث عن السارقين وسرقاتهم وأحضرهم من أماكن مختلفة وهو مغمض العينين . فهذه العلوم أصبحت معروفة للعامّة والخاصة أى لمن اطلع منهم عليها . أفلست ترى اننا قد حال الله بيننا فى الدنيا و بين مالدينا من علوم ومعارف وجمال وكمال ليزيدنا كمالا بهذا الجهاد و بهذا الجهل الذى لولاه لكسلنا عن أعمال شريفة . ولكم غطى علينا وستر عنا عيوبا وكمالات فى أنفسنا ننعم ونشقى بها وهى ستكشف عند الموت قال تعالى ــ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ــ ﴿ وهنا أسمعك الحديث ﴾ فقد روى مسلم عن عبدالله ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ ان قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ﴾ ثم قال ﷺ ﴿ اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك ﴾ اهـ

أوليس من المعجزة القرآنية والعجائب الحكمية أن يقول الله فى هذه الآية ــ واعلموا أن الله يحول

بين

بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ــ فهو يقول هاأنا ذا حبستكم فى الدنيا وحلت بينكم و بين عالم الأرواح وما انطوت عليه نفوسكم فاذا سلمتكم من عالم الأجسام وخلصت أرواحكم من هذه الأحلام حشرتم الىّ وأنتم مطلعون على جميع مااتصفتم به من خير وشرّ وكمال ونقص واذن يقال ــ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ــ و يقال ــ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا * وماعملت من سوء تودّ لوأن بينها و بينه أمدا بعيدا * و يحذركم الله نفسه ــ

فكأنه قيل فى هذه الآية قد حلت بينكم و بين مكنون أعمالكم وأخلاقكم وعلومكم لكى تثابروا على الأعمال التى تزيدكم رقيا كما حلت بين نهر النيل مثلا و بين انتشاره بلا ضابط ولا نظام كيلا يتفرّق الماء بلامنفعة وانما حفظته ليسقى الزرع و يدرّ الضرع . فهكذا أنتم لم أمكنكم من عوالم الغيب والأرواح الجميلة اشفاقا عليكم وحبا فى كمالكم كى تزيدوا استبصارا واستنارة بالأعمال والجهاد والكمال . وهذه هى الحيلولة فاذا انكشف الغطاء وقد صرتم فى الدرجة الثالثة وذلك بالموت حشرتكم الىّ . فاذن الحياة حجاب والحشر كشف ولا يكون ذلك إلا بعد الموت . فتعجب من بدائع القرآن وغرائبه . وكيف ذكر المتقابلين الحيلولة بالحياة والكشف بالموت والحشر . ان فى القرآن لعجائب و بدائع ومايدركها إلا العالمون بكسر اللام

﴿ لمحات الأنوار و بواهر الأسرار فى قوله تعالى ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه الخ ــ ﴾

هذه الآية هى السرّ الذى ظهر فى هذا الزمان بما حصل للمسلمين من الضعف والانكسار . ان الله عزّوجل يحول بين الناس و بين قلوبهم وهذه الحيلولة تنحصر فى ثلاثة أقسام ﴿أوّلها﴾ الاصول الصناعية الدنيوية ﴿ثانيها﴾ الاصول الخلقية ﴿ثالثها﴾ الاصول العلمية

أما الاصول الصناعية التى بها يقوى الناس فى سيرهم فى حياتهم الدنيا وبها يؤدّون ما فرض عليهم منها للمنافع العامّة فذلك ﴿نوعان﴾ نوع عام فى المسلمين وغيرهم ونوع خاص بالمسلمين . أما النوع العام فى المسلمين وغيرهم فذلك هو البخار والكهرباء والطيارات فى الجوّ . هذه صناعات كانت مجهولة للأمم كلها شرقيها وغربيها . مسلمها وغيرمسلمها

(١) كان الناس يرون بأعينهم البخار فى قدورهم وهم يطبخون طعامهم صباحا ومساء فى الشرق والغرب وأعينهم تنظره وهو يعلو الى الجوّ واذا وضعوا الغطاء على القدور أخذ البخار يضغط عليه ضغطا شديدا ولوسدّوه سدّا محكما لتحرّك القدر بما فيه . كل ذلك كان الناس يشاهدونه . ولاريب أن الذى يضغط على القدر هو نفسه الذى يحرّك القطار فى البرّ والسفن فى البحر بطريق العقل ولكن الله حال بين الناس شرقا وغربا و بين هذه النتيجة حتى آن وقتها فأبرز هذا السرّ على يد قوم من ضعاف خلقه فى أوروبا وأدركوا اليوم أن هذا البخار أخفّ من الماء (١٧٢٨ مرة) كما أن الهواء أخفّ من الماء (٨٠٠ مرة فقط)

(٢) وما من امرئ غالبا فى الشرق والغرب إلا وقد علم أن الكهرباء يجذب مايقرب اليه من موادّ خفيفة ولكن الله عزّوجل حال بين الناس و بين قلوبهم فلم يتبعوا هذه الظاهرة حتى يستخرجوا منها تلك القوّة التى بها نصنع كل شئ من سقى لأرضنا وطحن لحبنا الخ وأبقاها حتى أظهرها فى هذا الزمان لما كثر نوع الانسان

(٣) (ا) وما من امرئ إلا وقد شاهد أن الدخان الخارج من أفراننا ومطابخنا يعلو الى الجوّ وأن الموادّ الخفيفة كالريش تطير فيه وهكذا يرى الناس الأطفال أيام العيد يلعبون بكرات تطير فى الجوّ

(ب) وهكذا يرى الناس الطيور تطير فى جوّ السماء وأجسامها أثقل من الهواء . فهذان النوعان من الأجسام أى الخفيفة التى لاقوّة ترفعها وتحركها والثقيلة التى لها قوّة ترفعها وتحركها . أظهرها الله للناس فى الشرق والغرب ومضت آلاف السنين وقد ستر الله هذا العلم عن قلوب الناس وان كانت أبصارهم مفتحة حتى

اذا جاء الأوان وأراد اظهار السرّ أوعز الى أناس بالالهام فاخترعوا النوعين من الطيارات النوع الخفيف الذى يسمى مراكب الهواء باللسان الافرنجى (ايرشيب) و يسمى بالعربية (منطاد) والنوع الثقيل الذى وضعت فيه القوى المحركة وله لوحان كجناحى الطائر وهو المسمى (عربية) بالطيارات . وسترى ايضاح هذا فى سورة النحل ان شاء الله مع صور تلك الطيارات وفى سورة تبارك لتعجب من صنع الله عزوجل الذى حال بين قلوب الناس و بينه فى الشرق والغرب فلم يفطنوا للبخار والكهرباء وللطير وغيرها الى أجل مسمى

هذا هو القسم الأوّل من الأصول الصناعية التى حجبها الله عن الناس قاطبة وحال بين قلوبهم و بينها وان كانت أعينهم مبصرة وقلوبهم مفكرة فهو بقدرته وحكمته لمصلحة حال بينهم و بين ذلك السرّ العظيم الذى يرونه بعيونهم . وهذا معنى قوله تعالى ـ فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ فههنا أبصر الناس جميعا ولكن الله أعمى القلوب عنها لحكمة حتى جاء الأوان

وهذا ونحوه هو السدّ الذى قال الله فيه ـ وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لايبصرون ـ وهو الحجاب فى قوله ـ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ـ فالحجاب والسدّ لايريان ولكنهما موجودان عند أكثر النوع الانسانى

﴿ النوع الثانى من الاصول الصناعية التى حال الله بين المسلمين خاصة و بينها ﴾

ان المسلمين فى أقطار الأرض مهما كانوا لاتراهم إلا على وتيرة واحدة جهل تام بأكثر الصناعات ونوم عميق وذل متراكم إلا قليلا منهم . لماذا هذا لأن الله حال بين أكثرنا و بين المعارف . لماذا والقرآن طافح بالنظر والفكر . ذلك لأن أكثر رجال الدين ورثوا علوما خاصة عن أشياخهم فعلموها للناس ولم يشوّقوهم لغيرها وصار هذا خلقا يتوارثه الخلف عن السلف . والانسان ابن عادته وابن بيئته فظنت الأجيال المتتابعة أن ديننا ليس له دخل إلا فى أمور العبادات ونحوها . وهجر الناس كل علم وكل فنّ لحظى بها أمم غيرنا وأصبحنا فى أخريات الأمم . فهذا لما حال الله بيننا و بين تلك الصناعات بسبب الأمراء والجهلاء و بعض العلماء المقلدين النائمين على فراش الراحة الوثير بما اكتسبوا من العادات وما ورثوا بالتقليد عن أشياخهم فهم لايعلمون . كل هذا والمسلم يرى ويسمع أن الأجانب لهم الكلمة العليا فى الصناعة والتجارة والقول الفصل فى السلم والحرب بما نالوا من قوّة الصناعات ولكن حال الله بين المرء وقلبه

فترى المسلم يرى بعينه الخطر المحدق ولكن التقليد وسوء الملكة والعادة ملك عليه مشاعره فأصبح كالأعمى كما اتفق للمصريين القدماء إذ عبدوا الهرة فلما حاربهم قنبيز ملك الفرس وضع الهرر بين الصفين فامتنع المصرى عن الضرب فدخلها الفرس وملكوها . هكذا حال المسلمين اليوم . وبهذا تمّ الكلام على الاصول الصناعية وهى القسم الأوّل من الثلاثة

﴿ القسم الثانى الاصول الخلقية ﴾

يعيش الانسان فى بيئة ووسط فيه مخالفات خلقية وآداب منحطة فتراه بسبب الممارسة المتتابعة و يمارى من أساتذته واخوانه يتنزّل الى أخلاقهم وان لمس الضرر بنفسه . ألاترى رعاك الله أن الناس شرقا وغربا يشربون الخمر ويدخنون (الطباق) و يتعاطون مالايبيحه الطب وهم يعلمون أنه ضارّ كقهوة البن والشاى بل ان بعض الأطباء الذين يعلمون ضرر المسكرات هم يشربونها . لماذا هذا . لأن العادة غلبتهم وحال الله بين الناس و بين قلوبهم . فههنا الحيلولة بسبب الشهوات والغباوة وفى الطيارات والكهرباء والبخار التى تقدّمت بخلق الكسل والتقليد واعتقاد المتأخر أن المتقدّم قد أكمل كل شئ فى الوجود

﴿ القسم الثالث الاصول العلمية وهى فصلان (الأوّل) فى العلوم العامّة (والثانى) فى معرفة الله تعالى ﴾

الفصل

﴿ الفصل الأوّل ﴾

درج المسلمون فى العصور المتأخرة على كتب اعتادوها وعلوم مارسوها كالفقه وعلم التوحيد وظنوا أنهم بهذا ارضوا ربهم فحال الله بين كثير منهم و بين قلوبهم بسبب المخالطة والمعاشرة والتقليد الأعمى واعتقاد التلميذ أنه ليس وراء علم أستاذه علم . وقد فرحوا بما عندهم من العلم — وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن —

يرى المسلم الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال وقد أكمل دراسة علم الفقه وعلم التوحيد على الطريقة التى ورثها عن أسلافه من سنين وشيعيين . يرى جمالا فى هذا الوجود . يرى حكمة عالية . يرى نور الله ظاهرا يكاد يذهب بالأبصار . يرى تقلب الليل والنهار . يرى جمال الأنهار و بهجة الأشجار ونور الأقمار وجمال الوجود فيروعه ولكنه يحجب عن التفكر فيه لأنه اكتفى بما قرأ فى الكتب الموروثة فكأنما هذه الكتب لجام له . أوكأنها سجن سجن فيه . وقد أشير لها فى الحديث الصحيح المفيد أن العالم الذى لايعمل بعلمه يدور فى النار كما يدور الحمار فى رحاه . فأكثر المتعلمين يدورون فى كتب مخصوصة فى الدنيا كأنهم يشاكلون بذلك ما سيحصل والعياذ بالله يوم القيامة لغير العاملين بعلمهم فى جهنم . فالمتعلم الذى غشى بصره عن الحقائق يدور فى الكتب التى قرأها ويرجع اليها كرة بعد أخرى ويحبس فيها حبسا مستمرا و يموت جاهلا بهذا الحبس نفسه . حبس المسلمون عن العلوم وهذا الحديث الذى ذكرت لك ملخصه كأنه يشير لهذا الزمان . ولعلك تقول ان هذا جرأة منك وكيف تصرّح بهذا القول . أقول لك لست أنا المبتدئ به فاسمع ماجاء فى الاحياء . فقد أورد المؤلف فى الجزء الأوّل اعتراضا على نفسه ملخصه ﴿ كيف جعلت حدّ المتكلم أنه يحرس عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة فهو أشبه بالحراس فى طريق الحاج يحفظون الأقمشة أن تتخطفها الأعراب وجعلت حدّ الفقيه أنه يحفظ القانون الذى به يستعين السلطان على كف الأشرار مع ان المشهور بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وقد جردتهما من الصفة الدينية . كيف هذا ﴾

هذا ملخص الاعتراض الذى أورده صاحب الاحياء على نفسه . ثم أجاب عن هذا الاعتراض بما يطول شرحه وملخصه ﴿ ان ماهو مشهور يخالف الحقيقة فعلى الانسان أن يعرف الرجال بالحق لا العكس ﴾ وأشار الى أنه ﷺ مات عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كأبى بكر وعمر ولم يكن فيهم أحد يحسن صفة الكلام ولانصب نفسه للفتيا منهم إلا بضعة عشر رجلا . ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود مات تسعة أعشار العلم . فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة . فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام وانما أريد العلم بالله تعالى . قلت أفترى انه أراد صفة الكلام والجدل ثم ذكر أن الشهرة عند الناس بالفقه وبالكلام غير الشهرة عند الله . وأفاد أن شهرة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه بالخلافة وفضله بالسرّ الذى وقر فى نفسه . وشهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وفضله بالعلم الذى مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرّب الى الله فى ولايته وعدله وشفقته . وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل من القسم الثالث فى الاصول العلمية

﴿ الفصل الثانى من الاصول العلمية فى معرفة الله تعالى ﴾

وذلك أن الانسان يجول بنفسه خواطر وتتوارد على عقله وساوس فيقول كيف يكون الله واحدا وهو مع كل انسان وحيوان صغير وجليل . وكيف يسع هذا العالم كله . وكيف يطلع على مافى قلبى وقلوب كل مخلوق . ثم كيف يكون قريبا منى مع انه عظيم كبير متعال فكيف يكون قريبا بعيدا . يقول المؤمن أنا آمنت بالله ولكن الذكى يريد أن يتضح ذلك له ولو بضرب مثل . أذكر لك أيها الذكى ماجال بنفسى يوم الاثنين ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ أثناء تقديم هذه السورة للطبع إذ جلست ضحى فى ضوء الشمس وهو سبب هذا الموضوع كله

{ الله والشمس }

اعلم أن الله عزوجل ضرب للناس مثلا محسوسا لنفسه { ذلك } أن الشمس (١) كبيرة جدا (٢) كثيرة الضوء (٣) بعيدة عن الأرض بعدا شاسعا و يراها الانسان (٤) قريبة منه (٥) واذا جلس للاستدفاء بها يراها فى مقابلته كأنها لاتقابل غيره وهى قدر اطار المنخل (٦) والضوء الذى ترسله له خاصة لاحصر لعدد ذراته . هكذا الله الذى ليس كمثله شئ (١) كبير عظيم (٢) كثير الانعام (٣) بعيد المرتبة والعظمة من الانسان (٤) وهو قريب علما وقدرة منه (٥) وكأن النعم التى فى الأرض وفى السماء لم تخلق إلا لتكون لك أنت وحدك لأنك لاتعيش إلا بهذا النظام العام (٦) والنعم التى يرسلها لك لاتحصى

هذا هو المثل المحسوس الذى يراه الناس والحيوان وهم لايفطنون

{ ايضاح بعض صفات هذا المثل وهوالخامس }

وذلك أن الانسان اذا استدفأ بنورالشمس شتاء مثلا يرى انها تقابله كأنها دائرة الطبل و ينظر يمينا و يسارا فلايرى شمسا إلا هذه . واذا كانت هى المقابلة لك فكأنها لاتقابل غيرك . ثم ان كل انسان على سطح أرضنا يرى هذا الرأى وهكذا كل حيوان أرضى أوطائر فكل هؤلاء انما ينظرون ما يكاد يخيل لهم أنه خاص بهم . هذه حال كل حى على الأرض يجلس والشمس بحذائه لاسواه وهى فى الحقيقة بحذاء كل واحد من سكانها حيوانا وانسانا . ثم مايقال فى أرضنا يقال فى سواها من السيارات وتوابعها وما أكثرها دائرات حولها وما أصغرأرضنا وأحقرها بالنسبة لغيرها من السيارات وهى صغرى وكبرى ومجموعهايعدّ بالمئات لأن هناك سيارات صغيرات دائرات حول الشمس كما هو مدوّن فى هذا التفسير كثيرا . وهكذا حولها ذوات الأذناب التى يقولون عنها انها كسمك البحر عدّا . فالشمس حولها ما لايعدّ من توابعها والسكان فى تلك الكواكب والتوابع والأقمار اذا وجدوا تكون هذه حالهم بحيث يخيل لكل أنها خاصة به عند مقابلتها . وهذا المثل يوضح لنا قوله تعالى (١) ــ ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ــ وقوله تعالى أيضا (٢) ــ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ــ وقوله (٣) ــ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هومعهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم ــ وقوله (٤) ــ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ــ وقوله (٥) ــ وهومعكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ــ (٦) وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ــ (٧) ــ هوأعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض الخ ــ (٨) وقوله ــ إن الله سريع الحساب ــ (٩) وهكذا قوله هنا ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ــ

لهذا المعنى يشير قوله تعالى ــ الله نور السموات والأرض ــ وستقرؤه فى سورة النور وتعجب من أن هذا المعنى قد ظهر ظهورا جليا فى أحاديث رؤية الله تعالى . ففى حديث الشيخين عن جرير بن عبد الله قال كنا عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته (أى لاتزدحمون اذا شدّدت الميم أولاينالكم ضيم اذا خففت) فان استطعتم أن لاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ــ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ــ

وذكر فى حديث أبى داود أيضا الشمس ليس دونها سحاب . ولم يذكر هذه الزيادة الترمذى

وان تعجب فعجب ما تسمعه من حديث أبى رزين العقيلى قال قلت يارسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك فى خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله أعظم انما هو خلق من خلق الله يعنى القمر فالله أجل وأعظم أخرجه أبوداود * وفى حديث مسلم أن رسول الله ﷺ قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيأ أزيدكم

فيقولون

فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى اهـ

فتأمّل حديث أبى رزين . واعجب كيف ضرب مثلا يشبه مانحن بصددالكلام عليه من أن الله يتجلى لكل أحد كأنه له خاصة بحيث يناجيه الانسان والحيوان وكل حشرة ودابة . فكل هذه تسأله الرزق وشؤون الحياة كأنه خاص بها . وتأمّل كيف كانت هذه الحال مشبهة مثل الشمس والقمر معنا . فأما الرؤية فخاصة بأقوام من نوع الانسان بخلاف السؤال فهوعام . ان هذا التشبيه لايخطر ببال شاعرولا كاتب وانما هو من مقام أعلى وهو مقام النبوّة

واعلم أن الوصول للحقائق العلمية بعد التخلى من الأخلاق الشائنة هو الوسيلة لرؤية الله تعالى والرؤية بالبصر أمر حيوانى . أما الرؤية بالاحاطة بالعلوم فهو الموصل لذلك المقام . ومن لم يجد فى نفسه شعورا بالنظام الجميل فى هذه الدنيا فكيف يتصوّر أن يرى موجد هذا النظام . ان الله خلق الجمال فى صور الانسان والمخلوقات ليعلم الناس الهيام والغرام بالظواهراذا كانوا جهالا . ويرتقى العلماء بالهيام بما هو أجمل وأكمل وهو النظام العام والاشراق التام والحكمة الباهرة والأنبياء فوقهم جميعا . اقرأ مقام الحبّ فى سورة البقرة عند قوله تعالى ــ يحبونهم كحب الله ــ . ان من لم يدرك جمال هذا الوجود فى هذه الحياة فليس له حظ من رؤية ربه التى تنال بالعلم وان مانكتبه فى هذا التفسير يعين على ذلك . فاذا كنت أيها الذكى به مغرما فاعلم أنك قد فتح لك باب الوصول ولانكوص لك بعد الآن وخرجت من الجماهير الذين دخلوا فى قوله تعالى هنا ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ــ فهؤلاء تكون العلوم حاضرة أمامهم وهم لايعقلونها

تبين لك من هذا كله أن مثال الشمس واضح جلى ولكن الله يحول بين الانسان و بين قلبه فلا يكاد أكثر الناس يعقلون سبب هذه الحيلولة . ان الله قريب منا مع بعد مرتبته عنا وانه أقرب الينا من الوريد الذى هو عرق فى الرقبة . بهذه الحيلولة يمتنع الانسان عن تعقل ماهو محسوس ومحيط به من كل جانب . لولا هذه الحيلولة ماتعاطى الناس مايضرّهم من مطعم ومشرب . ان الناس فوق الأرض يكادون يكونون مخلوقين من النور والجمال بل هم فى الحقيقة جمال ونور . ان المادّة التى منها خلقنا ماهى إلا كهرباء مدمجة كما هو آخر رأى للعلماء أو روح مجمدة كما هو رأى العلامة (استوارت ميل) وكلاهما نور

هذا بالنسبة لأجسامنا . أما أرواحنا فأمرها ظاهر . والانسان مع هذا كله حيل بينه و بين ادراك حقيقته الجميلة البهية الساطعة وهذا من سرّ هذه الآية فان الله حال بيننا و بين نفوسنا ولولا هذه الحيلولة لكنا فى نور مشرق وجمال باهر يجعلنا فى جوّ من النور والجمال والبهاء الى الأبد . فهذه الحيلولة جاءت لسكنانا هذه الأرض المظلمة لتتربى فيها عقولنا مدّة ثم تنتقل الى عوالم أخرى

﴿ شفاء الصدور ومشرق النور من شموس بازغات ومعان باهرات فى هذه الآيات ﴾

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون الخ)

ان قوله تعالى ــ دعاكم لما يحييكم ــ وقوله ــ يحول بين المرء وقلبه ــ فتح باب على مصراعيه للعقول أن تلج الحكمة لتحيا والا حيل بينها و بين السعادة بموت القلب والقلب هنا هى اللطيفة القدسية المنبعثة من العالم الالهى . فلنذكر هنا وصف العوالم المشاهدة من كوكب وقمر وشمس وسحاب مطرّز بقوس قزح ثم نقفى بعجائب الجسم ثم النفس التى هى المقصودة بالحياة . وكيف كشف الناس انها تعتريها حال تصبح فيها عالمة بالمستقبل وتتكلم بلغات شتى حال الانخطاف الروحى بالتنويم والله حال بيننا و بين ذلك كله وهو اليوم

يدعونا لطاعته ليكشف عنا الغطاء يوما ما ولو بعد الموت فنقول الدنيا قصر منيف عالى الأكناف واسع الأطراف • نظرت الى سقفه اذا هو مجمع العجائب ومثار الغرائب قد وشى بطرائف التطريز ونقش بكل جميل عزيز • ازدان بالدر والمرجان • وتلألأ بمختلف الألوان • نور وهاج • وسراج يتلوه سراج • فبينما تراه حالك السباسب • مسود الجوانب • مرصعا بالدرارى البهجات • المشرقات فى الظلمات • اذا بملاءة بيضاء قمرية منسوجة من الفضة قد نشرت على وجوه تلك المشرقات • وتارة يخيل لى أن ذائب اللجين سال فى جنبات القصر وصار الجو به كالنهر • ذلك هو نور القمر • أقول فبينما أنا على تلك الحال اذا حادث غير تلك المعالم ونسخ تلك العوالم وهى عرائس الصباح ونواعس الطرف الصباح راقصات فى مشارق النور تتلألأ بهجات • وتزدهى ساحرات • بألوان مختلفات • وتتجلى سافرات • وقد يخيل للرائى أن أمواج النور جحافل • وجيوش بواسل • بأسنة لوامع • ومهندات قواطع • برزت فى المشارق وتراءت فى المطالع • احتفالا بقدم ملكة الكواكب • وسيدة المشارق والمغارب • ذلك هو وصف الصبح

فبينما نحن نرقب مجتلاها • لنشاهد محياها • اذا بالغزالة برزت كالذهب الابريز • زينة للناظرين وبهجة العالمين • فنشرت على السماء جلبابا لازورديا • فبرقعت وجه القمر والنجوم • وفرشت على الأرض بساطا ذهبيا منمقا بجميل الأشجار وبديع الأزهار • مزخرفا بما فى الحشائش والزروع من بدائع الألوان المختلفات الأشكال المزدهرات البهجات

﴿ وصف السحاب وقوس قزح ﴾

وتارة تنسج أيدى الرياح فى الجنوب أوالشمال مطارف مدهامات وحللا داكنات مدليات من الأعلى الى الآفاق • فى سمت الرأس أعاليها • وعلى الأرض حواشيها • وقد طرزها قوس السحاب بأصفر فوق أخضر يتلوه أحمر وأصفر

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا * على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر * على أخضر فى أحمر تحت مبيض
كهيئة خود أقبلت فى غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض

تلك حال هذا الوجود الذى نعيش فيه • فدنيانا جميلة المحيا باهرة المناظر • ساحرة الطرف • رشيقة القد • غيداء • هيفاء • كحلاء • عيناء • ازينت للناظرين • زينها رب العالمين • فهى غادة لعوب • وفاتنة طروب • من عادتها الدلال والتبختر فى الغلائل لا الأغلال فهى كما قال كعب بن زهير

فما تدوم على حال تكون بها * كما تلون فى أثوابها الغول

﴿ الكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكمية ﴾

هذه صفات العوالم المشاهدة التى لأجلها نزلت الكتب السماوية كالتوراة والزبور والانجيل والقرآن وألفت الكتب وخلقت الحكماء وتتابعت العلماء • فههنا وحى يوحى لذوى النفوس الشريفة وكتب تؤلف على أيدى حكماء ذوى جد وتشمير ونفوس منقوشة بتلك العوالم مزدانة بأجمل تلك الجواهر

إن الله أبرز لنا هذا الوجود كتابا نقرؤه • هذا الوجود كتاب مسطور فى رق منشور • كتاب كتبه بيده • وما أحسن كتابه • وما أجل عمله • وما أبدع صنعه • كتبه وزينه وأحسنه • كتب الله هذا الوجود بحروف كبيرة ثم أوحى الى الأنبياء فكانت الديانات بألفاظ نسمعها وحروف نكتبها ومعان نعقلها تدل على نظام هذا الوجود ثم ألهم الحكماء من كل أمة والأولياء من كل دولة فدونوا وألفوا لاظهار أسرار الديانات بمختلف اللغات لاجتلاء تلك المشاهدات وفهم الغائبات عن الحس والابصار

﴿ الجسم الانسانى ﴾

ثم انه أسكن نفوسنا فى أجسامنا ونقش الأجسام بنقوش تضاهى نقوش هذا العالم الكبير فنظم الهيكل الانسانى وأبدع فيه من كل سرّ خفىّ ومظهر جلىّ • فنظم الأعضاء ووزنها وزوّق الوجوه وحسنها ونقش الألوان وزوّقها وسوّى المفاصل وأحكم الأعضاء وأبدع الحواس وفصل الحواص ورتب الأحشاء ونظم مجرى الغذاء وطريق النفس وموارد الدم ومصادره • كل ذلك شرحته فى سورة آل عمران شرحا جميلا ونسقته هناك تنسيقا قويما

فههنا كتب الدين يسمعها الناس كلمات فى الهواء بآذانهم أو يبصرونها فى الكتب بعيونهم ونظام هذه الدنيا حروف كبيرة يقرؤها المفكرون و يعرفها العالمون (جمع عالم) بكسر اللام ومختصر هذه الدنيا هو الجسم الانسانى ففيه معنى العالم كله كما مرّ فى آل عمران • اذن النفس لها لوحان لوح كبير هو هذا العالم ولوح صغير هوهذا الجسم • ولها دلالتان دلالة الكتب السماوية ودلالة العلوم الحكمية • هذه هى علوم الأولين والآخرين • فاقرأ كتب الدين وتأمل نظام هذه الدنيا وادرس عجائب جسمك • بهذا تكون حكيما وصديقا تابعا لنبينا ﷺ بل وارثا من كبار الوارثين

﴿ النظر فى النفس ﴾

واياك أن تغفل عن أفضل الامور وأجلها قدرا وأعظمها خطرا • ألا وهو القلب • وقد ورد فى الآثار ﴿ قلب المؤمن عرش الرحمن ﴾

ان ماقلته لك فى هذا المقال املاء من القلب فلا كتاب لدىّ ولامنظر أمامى • فأنا الساعة لست أنظر الى السماء ولا الصباح ولا الليل والنهار ولا أمامى الأشجار ولا الأنهار • ولكنى أكتب من لوح القلب • ان الكتب السماوية والدروس الحكمية وعجائب هذه الدنيا وغرائب الأعضاء الجسمية • كل ذلك يقصد به تكميل النفس بتلك النقوش واسعادها بما فى الطروس

كل مافى هذه الدنيا عيان ولسان و بنان وجنان • فالعيان كل مانعاينه من السموات والأرضين وغيرهما والكلام باللسان والكتابة بالبنان معبران عن ذلك العيان والقلب هو الذى ترسم فيه تلك النقوش

﴿ غفلة الناس عن القلب ﴾

يعيش الناس و يموتون وأكثرهم لايعلمون أن هناك عالما كبيرا كامنا فى نفوسهم • الانسان يؤمن بانه يرىٰ ولكنه لايصدّق أن نفسه عالم كبير لايراه الناس وانما يراه هو • أنا أكتب هذا وكأنى أشاهد فى لوح نفسى النجوم والسماء والشمس والقمر والصباح والمساء وأشاهد رسوم الأعداد من الواحد الى العشرة الى الألف وهكذا وألاحظ كل مابقى من المحفوظ من علم أونظم أونثر وكل محفوظ يخيل للنفس أن له مكانا رسم فيه وكأن هذه النفس عالم واسع قد ابتلع عوالمنا التى نعيش فيها وزاد عليها • أنا أكتب هذا وكأن نفسى هى التى تملى علىّ

يقول العلماء اذا عرف الانسان هذا الوجود كله وجهل نفسه فقد جهل كل شئ • ان النفس هى الباقية لنا فى سفرنا وحضرنا وموتنا وحياتنا وهى التى فيها رسمت كل هذه المناظر فصارت لوحنا الذى نقرؤه

أنظر الى رسوم نفسك ترها عجيبة وأضرب لك مثلا بالأعداد و بالكلام المحفوظ و بالكواكب • أنت أيها الذكى تحسّ فى نفسك بالأعداد مرتبة منظمة بترتيبها ولولا هذا الترتيب ماعرفت العدد ولا كونت الحساب وتسمع الجمل العلمية فترسم صورتها فى نفسك حتى اذا احتجت اليها عرفتها ونفعتك • وتفكر فى الشمس والقمر فتراهما حاضرين فى قلبك • هذه ثلاثة أمثلة ﴿ فالأوّل ﴾ وهو العدد لا وجود له فى الخارج وانما وجوده فى نفسك فقط وليس فى الخارج إلا المعدود ﴿ والثانى ﴾ وهى الجمل ماهى إلا ألفاظ والألفاظ صوت

والأصوات حركات فى الهواء والحركات تضمحل حين بروزها وتختفى وقت ظهورها ﴿والثالث﴾ وهو الشمس والقمر باقيان فى السماء . فههنا حفظت النفس لنا مالا وجود له وهى الأعداد وما وجد واضمحل بسرعة وهى الجمل وماهو باق وهو الشمس والقمر . اذن النفس أرقى من هذا العالم فان فيها موجودات لاتوجد فيه وفيها تبقى الموجودات التى اضمحلت فيه . ألاترى انك ترى انسانا جميل الطلعة يوما ما ثم يدور الدهر دورته فيصبح قبيحا ضعيفا وهو لايزال فى نفسك على ما كان عليه . فكأن نفوسنا صادقة حافظة والمادة لاتصدق ولاتحفظ بل فيها تتغير الموجودات وتتبدل والنفس تحفظ . ان نفوسنا هى المقصود من هذا العالم ويقول بعض العلماء ﴿ ان الغذاء فينا يلطف حتى تكون خلاصته سمعا و بصرا وفكرا وهذا الفكر أشبه بسنابل القمح التى دلت بظهورها على أصل بذرها فلولا أن البذرحب قمح ما كان الناتج قمحا ﴾ إذن أصل العالم فكر أو نفس ونفوسنا تسيطر على هذه المواد وتحكم وتحلل وتركب . اذن هى من عالم أسمى من عالم الحس وكأنها خلقت هنا للتمرن والتعلم وكأن هذا الوجود وهذه الأجسام لوح تقرؤه حتى اذا أتمت عملها فارقت الأرض حاملة معها زادها فى هيئتها

ان هذه العلوم الفلسفية والدينية والنظام والطبيعة والهيكل الانسانى بالتشريح رسوم ونقوش تغذى النفس كغذاء الطعام للأجسام . وكلما زادت النفس غذاء فكريا ازدادت كمالا حتى تقرب من العوالم القدسية . ان هذا العالم صنع بحساب ونظام وعلى مقدار تعقله تقترب النفس من صانعه . وكلما استكملت بالعلم ازدادت الى ذلك الصانع شوقا . واذا غفلنا عن تلك القوة القدسية المعبر عنها (بالقلب) ابتعدنا عن السعادة . وأمثال هذا هو المقصود من آية ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ــ

ولما كان الحشر اليه وهو لطيف خبير منزه عن المادة وجب أن تكون النفوس القريبة منه بعد الحشر مغرمة بالعلم والحكمة حتى تستعد للقائه وهل يجالس الصعاليك الملوك

وفى بعض الأخبار ﴿من عرف نفسه عرف ربه﴾ وفى القرآن ــ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ــ وقوله تعالى ــ والشمس وضحاها * والقمر اذا تلاها * والنهار اذا جلاها * والليل اذا يغشاها * والسماء ومابناها * والأرض وماطحاها * ونفس وماسوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ــ ان هذه الآيات هى نفس الموضوع الذى ذكرته الآن وان هذه الصورة المرسومة لك تبيانا لهذا العالم . ما كنت وقت كتابتها ملاحظا هذه الآيات اذا هى كالتفسير لها فان هذه العوالم كلوح للنفس

ان نفسك هى جنتك وهى نارك . هى جنة العلوم والمعارف وهى نار الجوانح بالشهوات والعداوات والذنوب . ان النعيم الأوفى انما يكون بجمال النفوس ومتى جلت بالعلم والحكمة استغنت عن جميع العوالم بلقاء ربها ولايلقى الله ويشاهده إلا نفوس مشرقات . أما النفوس التى حال الله بينها و بين قلوبها واستعدادها فقد حرمت النظر اليه

ان النفس تصوّرت الجائز والواجب والمستحيل . الجائز كجميع هذا العالم المشاهد كأن تجعل (٤٠) من ضرب (٤ فى ١٠) أو من ضرب (٥ فى ٨) والواجب كالاله وكالملك وكأن تتصوّر أن (٢٥) من ضرب (٥ فى ٥) والمستحيل كشريك البارى وكأن تتصوّر أن (٤٠) من ضرب (٥ فى ٥) أى انك تحكم أن أربعين مستحيل أن تكون حاصل ضرب هذين العددين فهى تصوّرت الواجب وحكمت بثبوته والمستحيل وحكمت بعدمه وهى تتصوّر للمجرّدات عن المادة صورا فيها ولذلك تنوّعت طرق الوصول الى الله وأعان النفس على استحضار معبودها ظهور الشعائر والمنابر والمساجد والمنائر ومناسك الحج وأمكنة الطواف والوقوف والمشاهد المعلومة . كل هذه وأمثالها لتعين النفس على استحضار من هو مجرّد عن المادة ولو كان مشاهدا كما تشاهد الشمس وهو حاضر دائما عند حواسنا لم تحتج الى جميع هذه الشعائر

النفس أدركت العلوم الطبيعية التى تحتاج فى تعقلها الى المادّة فى الخارج وفى الذهن • وأدركت العلوم الرياضية المحتاجة فى تعقلها الى المادّة فى الخارج لا فى الذهن • وأدركت العلوم الالهيـة التى لاتحتاج الى المادّة لافى الخارج ولافى الذهن • والعلوم الالهية هى العلوم العامّة كتقسيم العلوم وكالمقولات الخ

﴿ النفس فى حال النوم تعطيك صورة من الدنيا والآخرة ﴾

ألاترى انك فى اليقظة تفكر وتحسّ وفى حال النوم كذلك تحلم وتفزع وتفرح وتحزن ثم يمرّ عليك وقت فى النوم لايكون لك احساس بهذا الوجود البتة • ولامعنى لحياتى إلا أنى أحسّ وأفكر فأنا إذن عند فقد الشعور والادراك صرت كالميت فتشابهت الحالان حال الميت وحال النائم الذى لايشعر فما هوأشبه بالموت أصبح من لوازم الحياة • لاتتمّ الحياة إلا بنوم • وقد يكون فى النوم زوال الحسّ والشعور • والمعنى المخوف منه فى الموت عند الناس كافة هو فقد ذلك الشعور وقد حصل فى نفس الحياة وحينئذ يقال اذا حصل فقد الشعور فى حياتنا الدنيا ولم يكن سببا فى الفناء فربما يكون فقد الشعور بالموت ليس سببا فى الفناء بل الحياة ربما كانت كامنة وتظهر بحال أخرى

﴿ استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت ﴾

ان الناس فى كل يوم وليلة يموتون ويحيون تمرينا على الموت الأكبر والحياة الكبرى • ولقداستدل (سقراط) بتعاقب هاتين الحادثتين على أن الحياة ستكون بعد الموت كما قدّمناه فى سورة الأنعام • النفس ترسم فيها صور الآثار الواصلة اليها بالمرض فتتخيل فى الأحلام الحمى نارا متأججة تحيط بها • و يتصوّر الذى اعتراه البرد أوالأمراض الباردة أنه فى بحر لجىّ كما يعرفه أكثر الناس فى أنفسهم • وهكذا السوداوى يزاول أعمال الموتى وسواد الأجسام وهكذا النفس تجعل لكل ماتدركه صورة تتخيلها له • ان النفس بحر لجىّ لاساحل له • النفس يحكم وهمها على من يمشى على الحائط بالسقوط • ان الانسان اذا مشى على الأرض لايشغل مقدار عرض الحائط ولكن الوهم يجسم للماشى عليه أنه ساقط لامحالة فيسقط ذلك لأن وهم النفس صوّرله السقوط فسقط • الوهم أبرز لصاحب الشهوة البهيمية صورة ما يشتهيه من صور النساء والأغذية فتمتع بها فى المنام • وصوّر لذى القوّة الغضبية صور الأعداء فجندلهم فى ميدان الأحلام والأوهام

النفس هى التى اذا أدّبت وهذبت ورببت لم تؤثرفيها الأوهام. فترى أولئك اللاعبين الذين دربوا على المشى على الحبال أوالجلوس على كرسى موضوع فوق عمود مرتفع لايسقطون كما يشاهد فى هذا الزمان ذلك لأن الوهم اتجه الى النجاة وضبط الأفكار • النفس أثرت فى جسم المحتلم فأفرز مادّة من جسمه • والنفس بالتهذيب والرياضة تؤثر فى غيرها إما بالعلم واما بالآثار الظاهرة • كل ذلك اشارة الى أنها فى هذا العالم قوّة الهيـة أنزلها الله الى الأرض لتكون مظهر جلاله وجماله ـ ومايعقلها إلا العالمون ـ ولايحجب عنها إلا المغفلون • هذه قطرة من بحر قوله تعالى ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ـ • انتهى

﴿ ياقوتة فى عقد هذا المقال ﴾

بعدأن كتبت هذه المقالة تبين لى أن هذا الموضوع لا آخر له ومنه يتفرّع علوم الأمم القديمة والحديثة فى النفس ولوانى أطعت البنان والقلم لطال بى الأمد ولكنى أقتصرعلى هذه الياقوتة فضعها أمامك فانهاتضىء لك هذا الوجود وتشرق اشراق الكواكب والشمس والقمر • ليس المدارعلى كثرة العلوم وانما المدارعلى حسن التصرف والتعقل • وقليل يكفيك خيرمن كثير يلهيك • فهاهى ذه الياقوتة أهديها اليك فأقول

أنظر فى سورة البقرة عند تفسيرآية ـ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ـ فانك تقرأ هناك انهم فى التنويم المغناطيسى فى الأكاديمية الطبية الفرنسية أمروا المسيو (فرواساك) فنوّم المسيو كازو

المصاب بداء الصرع وقد كان فرواساك فى حجرة والمسيو كازو فى أخرى ولم يعلم الأخير بحضور الأوّل وحصل ما حصل من اخبار المسيو كازو المريض عن مرضه ومستقبله وكيف تمكن مداواته وعين اليوم والساعة والدقيقة التى سيأتى فيها المرض ثم ترى هناك قبل ذلك الدرجات الثلاث المتقدّمة فى هذا المقام قريبا

هذا هو الذى تقدّم فى سورة البقرة واذا كانت هذه الامور أصبحت الآن معروفة فى أوروبا وان من ننوّمه تنويما تاما تكون هذه حاله فاذن أمر النفوس البشرية عظيم جدّا مدهش ونفسى ونفسك فيهما هذه القدرة وقد حال الله بيننا و بينها وهو يدعونا ليحيينا بالطاعة حتى يردّ الينا ملكنا العظيم فى هذه النفس واذن نفهم هذه الآية فنحن فى هذه الحياة قد حال الله بيننا و بين قلوبنا • فاعجب للقرآن واعجب للتعبير بالحيلولة وكن ماعشت مفكرا ذاكرا تعش حكيما تقيا وترقب هذه الحال التى انطوى قلبك عليها

ان الآية تشير الى أننا فى هذه الحياة أموات لأنه حال بيننا و بين قلوبنا • ولقد وجدنا أن قلوبنا تعلم عجائب لانهاية لها وتقدر على مالا نقدر عليه فى حال التنويم • فهذه الحياة كأنها موت وهو يدعونا للحياة فانعكست القضية فحياتنا موت وموتنا حياة وهذا مايفسر ماورد فى الآثار ﴿ الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ﴾

ياسبحان الله و ياسعدانه • ان هذه المقالة فتح باب لفهم قوله تعالى ــ و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ــ

ومن قرأ كتب علماء الأرواح فى العصر الحاضر واطلع على علوم الهنود وماتضمنه كتاب (راجا يوقا) المؤلف باللغة الانجليزية مترجما من اللغة الأوردية أدرك بعض سرّ ــ قل الروح من أمر ربى ــ • ان ماجاء فى تلك الكتب هو الذى أشار له قوله تعالى ــ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ــ وقوله ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ فهاهوذا الله قد أطلع الأمم اليوم على بعض سرّ الروح الذى هو بعض آيات الله فى الأنفس وعجائبها فاذا كان أهل الديانات قديما والمسلمون يؤمنون بأمر الروح ايمانا فان الذين اطلعوا على كتب الأمم يؤمنون يقينا • وكيف لايوقن المرء بسرّ الروح والروح قد تبدّت عجائبها فى المجالس الروحية و بدا جمالها ونطق الأبكم وأبصر الأعمى و برع فى العلم الغبىّ الجاهل و برز فى الفلسفة من لايحسن خطابا ولايقرأ كتابا ولايحير جوابا اعلانا لاسرا • ومتى فارق تلك الحال رجع الى سيرته

ان رجال الصوفية فى الاسلام قد ظهر لهم بالرياضات نفس ماظهر بالتنويم المغناطيسى اليوم • وذكر زهاد الهند وعبادهم من تلك الأسرار مالا يكاد يتخيله العقل وأتوا جميعا بالعجب العجاب من اخبار بالمغيبات وأعمال عجيبات • وقد يدفن التلميذ فى قبره ستة أشهر ثم يخرجونه ويكشفون الغطاء عنه ويخرج من الصندوق فى جمع حافل ثم يتحرّك ويتكلم • ولقد صنع بعضهم هذه العجائب على ملأ من الناس فى هذه السنة والتى قبلها فى انكلترا وقد شهدها القوم فى المسارح العامة وقد أغمى على السيدات عند مشاهدتهم تلك الظاهرة فأمرت الحكومة بعدم تكرارهذا رفقا بالنساء والضعاف منهم • هذا كله من سرّ قوله تعالى ــ قل الروح من أمر ربى ــ • ان النوع الانسانى مقبل على سعادة لايحلم بها الآن • وهذه السعادة وهذا الملك العظيم هو الآن كامن فى أنفسهم و يظهر تارة بالعبادة وأخرى بالرياضة وأخرى بالتنويم المغناطيسى لحظة فاذا استيقظ ذلك النائم لم يدر شيأ مما كان يعرفه مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من النعيم المذكور فى قوله تعالى ــ واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ۞ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ــ فى تلك الحياة التى جاءت فى قوله تعالى ــ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ــ فقوله ــ لوكانوا يعلمون ــ اشارة الى أن الناس حجبوا عنها

حصر الله الحياة فى تلك الحال مؤكدا بان و باللام • فلاحياة إلا تلك الحياة التى ظهرت طلائعها فيما ذكرناه وحال الله بيننا و بينها • وهذا هو المعنى المنطوى فى قوله تعالى هنا ــ لما يحييكم ــ فهذه هى الحياة

المذكورة

المذكورة فى آيتنا ومانحن عليه فى الدنيا موت . فأهل الأرض اليوم ميتون فى حياتهم الحيوانيـة التى بسببها حال الله بينهم و بين تلك الحياة

و يقول علماء الهند فى الكتاب المتقدّم . ان سرّ هذا العالم كله فى الانسان مخبوء فى عجب ذنبه وان هذا العجب فى نظرهم مرآة للوجود كله وان الرياضة والعبادة والذكر والعلم والفلسفة كل هـذه تمنع الحجاب الحاجز للنفس بين عجب الذنب وعلومه و بين الدماغ الانسانى . وان علوم أهل الأرض التى وقفوا عليها من طريق الحواس والعقل تصل للمخ من طريق أعصاب الحسّ والحركة والفكر . أما أسرار الملك والملكوت المحجوبة فى عجب الذنب فانها تتراءى للعقل بطريق الانطباع من عجب الذنب فى المخ . وانما ذكرت هذه التى لابرهان عليها ولا أى دليل لأن عجب الذنب مذكور فى الأحاديث انه هو الباقى الذى لايفنى كالروح

فهذا هو العجب العجاب أن يكون كلام الهنود منذ آلاف السنين بطريق العلم المكتسب بالرياضة هو الذى جاء به نبينا ﷺ وهـذا معجزة له ﷺ ذكرتها استطرادا لمسألة الحياة فى قوله تعالى هنا ــ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبـه وأنه اليه تحشرون ــ . انتهى

﴿ ضوء الياقوتة وازدياد فى عجائبها ﴾

ان تعجب فعجب ماجاء فى كتابى المسمى (كتاب الأرواح) صفحة ١٩٢ من ذكر حادثة مدهشة فى سنة ١٨٧٣ ذكرتها جرائد أوروبا وأمريكا . وهى أن المؤلف الانجليزى ديكنس فاجأته المنية فى مدينـة لندن سنة ١٨٧٠ قبل أن يتمّ روايته المدعوة (أسرارادو ين برود) فأتمها بعد موته على يد الوسيط الأمريكى (جيمس) فى مدينة (بوستون) وجيمس هذا لم يكن إلا غلاما صانعا قليل العلم يقضى أيامه فى اتقان حرفته واتفق انه حضر سنة ١٨٧٢ فى احدى ليالى (تشرين الأوّل) جلسة روحانية تجلى فيها روح ديكنس وطلب أن يكون جيمس المذكور وسيطا يتمّ به روايته فقبل جيمس وصار يجالس فى كل ليلة وتتحرّك يده وهى تكتب القراطيس أقوالا لايعلمها ودام على ذلك سبعة أشهر أكمل فيها الرواية بألف ومائتى قرطاس ولقد شهد رجال الصحافة عموما أنه يستحيل على القارئ أن يميز بين ماكتبه ديكنس قبل موته و بين ماكتبه الوسيط جيمس بعد موته أقلّ اختلاف لافى الانشاء ولافى الخط ولافى نسق الرواية حتى ان الأغلاط الاملائية التى كان المؤلف فى حياته يعتادها بقيت كما هى . اهـ

وفى صفحة ١٩٣ من هذا الكتاب نقلا عن علماء الأرواح فى عصرنا مانصه

ولقد جاءت مقالات فى الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبتها الأرواح على أيدى فتيان حديثى السنّ أوفتيات ساذجات لايحسنّ القراءة . اهـ

وجاء فى صفحة ١٩٨ من الكتاب المذكور نقلا عن المشترع الفقيه (سارجان كوكس) ماتعريبه

كثيرا ما رأيت غلاما صيرفيا وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب يجادل عند استيلاء الروح عليه قوما من الفلاسفة فى مسائل المنطق ومعرفة الغيب والارادة والقدرة وغالبا كان يفحمهم بأجو بته السديدة وأنا نفسى ألقيت عليه يوما بعضا من معضـلات علم النفس فحلها لى ببراهين قاطعة وألفاظ فى منتهى الرقة والفصاحة مع انه فى حاله الطبيعية لايدرى ما الفلسفة ولايجد ألفاظا يعبر بها عن أفكاره الصغيرة

وجاء فى صفحة ٢٨٠ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) انه ليس كل ماجاء فى الكتاب المذكور مسلما به بل حال البرزخ مشكلة فلاتتخذ الأقوال الروحانية كلها دليلا إلا ماورد عن أرواح نقية وساعده الدليل

﴿ آراء علماء الاسلام فى النفس الانسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب ﴾

وقد جاء فى صفحة ٢٨١ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية)

اعلم أن مناجاة الأرواح هي الصفة الخاصة لأئمة الاسلام لاسيما رجال الصوفية . وهذا شائع ذائع ولكن الناس يكذبون مالايعلمون . وهاك ماقاله الامام الغزالي في كتابه (كيمياء السعادة)

اعلم أنه مامن أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم و بيان الحق على سبيل الالهام وذلك لايدخل من طريق الحواس بل يدخل في القلب لايعرف من أين جاء لأن القلب من عالم الملكوت والحواس مخلوقة لهذا العالم . ثم قال ولاتظن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة . فاذا جلس في مكان خال وعطل طريق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وقال دائما الله الله بقلبه دون لسانه الى أن يصير لاخبر معه من نفسه ولامن العالم ويبقى لايرى شيأ إلا الله انفتحت له تلك الطاقة وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة وانكشف له ملكوت السموات والأرض ورأى مالايمكن شرحه ولاوصفه كما قال النبي ﷺ (أزويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها) وقال عز وجل — وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض — الى آخر ماهنالك فاقرأه ان شئت

فانظر في هذا القول الجامع إذ جعل الانكشاف في النوم وفي الموت وفي صفاء النفس . ولاجرم أن النوم (قسمان) نوم طبيعي ، ونوم صناعي . والصناعي هو الذي استعمله اليوم علماء أوروبا المسمى (التنويم المغناطيسي) الذي تقدم في هذا المقام كالغلام الصيرفي الذي يجادل في الفلسفة والمنطق في تلك الحال وكالغلام الصانع جيمس الذي أتم رواية ديكنس بعدموته . فهذان وغيرهما ممن يعدون بالآلاف كشف لهم العلم في نومهم الصناعي . وهكذا تجد العلامة (أوليفرلودج) أكبر علماء الانجليز في الطبيعة وهومعاصر لنا يقول اني حادثت الأموات وعرفت أن هناك أرواحا أعلى منا تهتم بنا وتحيط بنا من كل جانب فعرفت أن ما كان يقوله الأنبياء والقديسون من مساعدة الملائكة ومساعدة الله نفسه لنا هوكلام حق وليس مجازا ولاموارية . ولكن هؤلاء عرفوا ذلك بصفاء نفوسهم . أما أنا فلم أوفق لطريقهم وانما طريقي علمي لاغير ولكنه مؤد الى ما أدت اليه طريقهم من حيث النتيجة واليقين . اه

وههنا تبدى من جليسي هذا السؤال فقال . هذا بيان جميل جامع علوم الشرق والغرب في هذه المسألة وأنت اذا لم تذكر كلام علماء الاسلام لم يهتم بما تنقله عن الفرنجة أمم الاسلام . فمن أجل الحكمة وأعجبها أن وفقك الله لجمع الرأى الشرقي والغربي في مقام واحد مع الايضاح . ولكني أريد أن تفصل القول بعض التفصيل في طرق الصوفية في الاسلام ثم بيان الكشف هل نهتم به ونجعل حياتنا وقفا عليه أم ماذا تكون السبيل . فقلت له أما طرق الصوفية فاما واسعة النطاق لاحد لها . الطرق لله بعدد أنفاس المخلوقات وكما اختلف النبات وتعدد اختلفت الطرق لله وتعددت . ويقولون ان الجوع والسهر والصمت والعزلة هي الأركان الأربعة لها . وترى في الاحياء للامام الغزالي شرح طريقة الجوع (وذلك) انهم يأمرون التلاميذ باقلال الطعام تدريجا حتى يصل الى أقصى حد في القلة . ومن أسهل تلك الطرق أن يتناول الانسان الطعام في مواعيد خاصة ثم يؤخر الميعاد كل يوم دقائق معلومة بحيث لايضر بصحته ولا يشعر بتعب وجوع ولايزال يؤخر كل يوم ذلك الموعد حتى يأكل كل يوم مرة ثم يزيد الى يومين ثم ثلاثة وهكذا الى عشر ثم الى ٢٠ ثم الى ٤٠ وهناك يفتح له هذا الباب وذلك بشروط خاصة . ثم ان هذه الطريقة وأمثالها مما لايحصى اعترضها قوم فقالوا آمنا أن العلوم تفتح أبوابها بهذا ولكن أكثر الناس لا يقدرون عليها واذا قدروا كان ذلك خطرا عليهم إذ لاعلم عند المريد يصون به فكره من الوساوس بل ربما جن . ثم قالوا وخير الآراء أن يتعلم المريد أولا ثم يهذب نفسه آخرا . هذه هي ملخص آراء علماء

الاسلام . وأمّا قول صاحبي هل نهتمّ بالكشف ونجعل حياتنا وقفا عليه . فجوابه أن المدار على تهذيب النفس تهذيبا على قدر الامكان حتى نكون أمّة وسطا فالتطرّف يضيع الأمم . فلما سمع ذلك قال لم أفهم ماتريد . فقلت يقول علماء الصوفية ان الكشف للمريد يحدثه الله له فى فترات ليثبت به عقيدته فأماإذا اطمأن المريد وعرف أن هذه المجاهدات لها ثمرات فان دوام الكشف له يعوقه عن ارتقاء نفسه فمادام ناقصا تكشف له أحوال بعض اخوانه أو بعض الامور المستقبلة فاذا كمل علم هو نفسه أن ذلك نقص . فاذن يستعيذ بالله منه وينفر . وخير الفتح والكشف انما هو الكشف العلمى ومعرفة الحقائق التى يزيدها جلاء صفاء النفس . فهذا هو الكشف المحمود . فاذا سمعت أن رجلا صوفيا يخبر بما فى قلوب الناس أوأحوالهم أومستقبلهم فاعلم أنه ان اغترّ بهذه الحال وفرح بها فانها تصدّه عن العلوم والمعارف و يصبح شيطانا رجيما والناس يظنونه من الأولياء وما هو بولى إن هو الا رجل اتجهت نفسه لأمر شهوانى لجمع الناس حوله ليفرح بهم و يأخذمالهم ويشاركهم فى العرض الزائل ولافرق بينه و بين أرباب الأموال وأرباب الجمال وأرباب الصيت والشهرة فى علم أوفنّ . فكل هؤلاء لهم حظ دنيوى ناقص ويكون هؤلاء أشبه بالمنوّم (بالفتح) المغناطيسى الذى يخبر بما لا يعرف

ولقد قرأت فى بعض كتب الامام الشعرانى مامعناه أن الرجل السوقى أفضل من المجذوب الذى لاعمل له فانه ينفع الناس . وفيه أيضا أن الانسان قد يكون من أولياء الله لاجتهاده ولكن الله يؤخر له كشف الحقائق الى مابعد الموت . اه

هذا هو الذى فتح الله به فى هذا المقام وأنا قد أفضت الكلام فيه لدقته وعظم شأنه ولأنه هو الذى فتح الله به علىّ ــ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ

واعلم أن الأمم اذا اتجه أكابرها لفتح الحسّ الباطنى اتجاها كليا انحدرت الى الانحطاط كما فى أهل الهند وبعض أمم الاسلام المتأخرين . وانما السبيل التوسط فى الأمر فيكون الناس وسطا يهذبون نفوسهم ويقرؤن العلوم و يأخذون من كل فنّ طرفا . وهذه طريقة الاسلام كما تقدّم عن الامام الغزالى ولذلك سموا أمّة وسطا فلاهم فى الشهوة وحدها مغمورون . ولاعلى الباطن وحده عاكفون . وفى القرآن ــ قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة ــ . هذا ذكرته لتعلم تفسير قوله تعالى ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ــ اه صباح الأحد ٢ رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية

﴿ اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ﴾

هذه اللطائف الأربع ذات علاقة ومناسبة للطيفة الثالثة . ذلك أن هذه اللطيفة الثالثة قد شرح فيها كيف كان الانسان محجوبا عن عالمه مغمورا فى حمأته تائها فى بيداء المادّة الجرمانية وشهواته الجثمانية كما اتضح فى قوله تعالى ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ــ فانظر كيف أتبعها بالنهى عن الأعمال التى توجب أذى الجمهور وضياع الأمّة وتمزقها وضرر المجموع . ألا وان النوع الانسانى اليوم على هذه الأرض مغمور فى جهالته تائه فى بيدائها ظالم جهول . فكما جهل نفسه فى اللطيفة قبلها جهل اتصاله بالمجموع وأصبح يتلمس فى الظلام السعادة وما هو والله بسعيد وأنت لوفتشت فى أهل الشرق والغرب لرأيت مسألة النوع الانسانى واتصال بعضه ببعض واحتياج أهل الشرق الى الغرب والعكس قد أصبحت واضحة ظاهرة

فترى أهل الروسيا اذا قلّ القمح من بلادهم تهتاج لذلك أعصاب الانجليز . وقل نظير ذلك فى القطن والذرة والصلح والحرب والمرض وما أشبه ذلك . فالأمم الأرضية اليوم متصلة اتصالا حقيقيا لاشك فيه . كل ذلك معلوم ولكن القوى العاقلة فى النوع الانسانى لم تبلغ منزلتها السامية ومقامها الرفيع فهم كالأطفال فترى كل أمّة فى حاجة الى أختها ثم هى تحاربها وتناوئها لتحصل على مافى يدها . هذا فى الأمم ومثلها الأفراد

فكل أمة أفرادها محتاج بعضهم لبعض وبارتقاء المجموع يرتقي الفرد وبضدها تتميز الأشياء ومع ذلك نرى الرجل يبحث على حتف أخيه ويود لو يصبح فقيرا سائلا أومريضا . كل ذلك للجهالة العمياء والضلالة الكتعاء . وقد يقدر الرجل أن يصلح المجموع فيكسل أو يبخل . وإنما كسله وبخله على نفسه لأن المجموع اذا سعد فقد سعد مثله . واذا شقي فقد شقي مثله . وهكذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كل ذلك مضعف للمجموع والفرد عضو من هذا الهيكل الكبير وهو الأمم كما فى معنى الحديث الشريف ﴿ مثل المؤمنين فى تعاونهم وتعاضدهم كالجسد اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ﴾

فاذا جهل الانسان نفسه فى قوله تعالى ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ـ فهو يجهل المجموع وواجبه لتراكم الشهوات حتى أصبح الأفراد والأمم يجهلون أنهم لاحياة لهم إلا بالمجموع فيلعن بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا . فالجهل فى المجموع كالجهل فى الأفراد

وأما ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فانها تابعة للتين قبلها وهى ثمرتهما ونتيجتهما اذ استبان فيما تقدم فى الرابعة أن ترك معاونة المجموع ضرر كبير وجهل عظيم . فالتعاون اذن يورث السيادة والسعادة فى الدنيا والآخرة ولذلك قال هنا ـ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ـ لتفرقكم وعدم اهتمامكم بمجموعكم ـ فآواكم وأيدكم بنصره ـ لما اجتمعتم . وأما ﴿ اللطيفة السادسة ﴾ وهى ـ يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول الخ ـ فهى كسوابقها النظر فيها للمجموع لا للأفراد يقصد بها التحاب والتعاون وعدم الخيانة فيكون الناس كأعضاء أسرة واحدة * وقد نزلت هذه الآية كما قال السدى فى جماعة كانوا يسمعون السر من النبى ﷺ فيفشونه حتى يبلغ المشركين . وقال جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فأخبر به جبريل النبى ﷺ فأخبر النبى أصحابه وقال اخرجوا اليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل هذه الآية * وأيضا نزلت فى أبى لبابة ﴿ وذلك ﴾ أنه ﷺ حاصر بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صالح اخوانهم بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم باذرعات واريحاء بأرض الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل لنا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله فى أيديهم فبعثه اليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار الى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية فى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولاشرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده فقال ان من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال عليه السلام يجزيك الثلث أن تتصدق به

وأما ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ فهى من نتائج السابقات إذ جعل الأموال والبنين فتنة بهما يشغل الانسان عن مجموع الأمة وعلى قدر التهاون بالمجموع يبتعد الانسان عن الله عز وجل ويقل نصره فى الدنيا والآخرة فالمال والبنون فتنة وامتحان للمرء فى هذه الدنيا فيختبر المرء فان جمع بين المال والولد ولم يشغلاه عن المجموع كان عبدالله حقا ومن طمست بصيرته فاكتفى بما لديه فانه جهل المجموع ولم يعرف نظام الانسانية العامة ولا الانسانية الدينية وكفى بالجهل بابا للعذاب فى جهنم وبئس القرار

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن الله عزّ وجل لما ذكر نعمه على المؤمنين بقوّتهم بعد ضعفهم وبنصرهم بعد ذلهم وبأمنهم بعد خوفهم أعقبه بذكر ما أنعم به على النبيّ ﷺ فيما اتفق له فى مكة وكان وقت نزول هذه الآيات بالمدينة . ومحصل ماذكره المفسرون فى سبب هذه الآيات أن قريشا خافوا لما أسلم الأنصار أن يعظم أمر رسول الله ﷺ فاجتمع نفر من كفار قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمره فاعترضهم ابليس فى صورة شيخ نجدى فدخل معهم فقال أبو البحترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدّوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت . فقال الشيخ النجدى بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم . فقال هشام بن عمرو رأيى أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ماصنع . فقال بئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرّق دمه فى القبائل فلا يقوى بنوهاشم على ضرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه . فقال صدق هذا الفتى فتفرّقوا على رأيه . فأتى جبريل النبيّ ﷺ وأخبره الخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله عنه فى مضجعه وخرج مع أبى بكر رضى الله عنه الى الغار * وذكر بعضهم انه أخذ قبضة من تراب وأخذ الله عزّ وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ — إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا — الى قوله — فأغشيناهم فهم لايبصرون — وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله ﷺ ويحسبون انه النبيّ ﷺ فلما أصبحوا ثاروا اليه ليقتلوه فرأوه عليا فقالوا له أين صاحبك قال لا أدرى فاقتفوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لودخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث فى الغار ثلاثا ثم خرج الى المدينة

قال القاضي رحمه الله ان هذه القصة موافقة للقرآن ولكن حديث ابليس وظهوره بصورة انسان باطل ولقد ردّ عليه العلامة الرازي • أما أنا فأقول ان العلم الحديث جعل مثل هذه الامور جائزة فان الأرواح الشريرة تظهر بأشكال شتى ولامانع من ذلك وليس المقام مقام تحقيق فانه ليس يهم في تفسير الآية

وهذا هو قوله تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) أصل المكر الاحتيال في خفية (ليثبتوك) ليحبسوك وهو رأي أبي البحتري (أو يقتلوك) وهو رأي أبي جهل (أو يخرجوك) طردا وهو رأي هشام ابن عمرو كما تقدم (ويمكرون ويمكر الله) يعاملهم معاملة الماكرين بأن أخرجهم الى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا (والله خير الماكرين) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا •

ثم اعلم أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار كان يختلف الى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم وأسفنديار وأحاديث العجم وكان يمرّ بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبيّ ﷺ قد أوحي اليه وهو يقرأ ويصلي فقال النضر بن الحارث (قد سمعنا) يعني مثل هذا الذي جاء به محمد (لو نشاء لقلنا مثل هذا) الخ فقال له رسول الله ﷺ ويلك انه كلام الله فقال (اللهم ان كان هذا هو الحقّ من عندك فامطر علينا حجارة من السماء) أي فعاقبنا على انكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل (أوائتنا بعذاب أليم) نوع آخر من جنس العذاب الأليم وقد أجاب الله دعاءه فقتل صبرا يوم بدر • والمقصود من هذا القول التهكم واظهار اليقين على كونه باطلا

وروى أيضا البخاري ومسلم عن أنس أن أبا جهل قال كما قال النضر فنزلت (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية فلما أخرجوه نزلت (ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام)

﴿ ايضاح المقام ﴾

قالوا نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون فأنزل الله (وما كان معذبهم وهم يستغفرون) ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم * وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه فقال الله ــ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ــ يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله ــ ومالهم ألا يعذبهم الله ــ وهذا هو قوله تعالى ــ واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ــ الى قوله ــ وهم يستغفرون ــ ثم قال تعالى ــ ومالهم ألا يعذبهم الله ــ أي أيّ شئ يمنعهم من أن يعذبهم الله بالقتل والأسر بعد خروجك من بين أظهرهم ــ وهم يصدون عن المسجد الحرام ــ أي وحالهم ذلك ومن ذلك الصدّ الجاؤهم رسول الله ﷺ والمؤمنين الى الهجرة واحصارهم عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) مستحقين ولاية أمره مع شركهم وذلك ردّ لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء (ان أولياؤه إلا المتقون) من الشرك (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) أنه لاولاية لهم عليه وأما أقلهم فانه يعلم أن دين الاسلام حقّ ولكنه يعاند ويكابر كبرياء وخيلاء • وكيف يكونون ولاة البيت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) أي صفيرا وتصفيقا • وكيف يكون الصفير بالفم والتصفيق باليدين صلاة وذلك لأنهم كانوا على دين الخليل عليه السلام وقد مضت الأحقاب تلو الأحقاب والقوم قد خلوا من الحكمة فانقلبت صلاتهم مدعاة للضحك والسخرية من صفير وتصفيق كما يفعل بعض جهلاء الصوفية من ضرب على الدفوف ورفع الأصوات في الطرقات وفي المساجد • ولقد تفنن القوم في هذه الجهالة العمياء ونسوا الصلاة الاسلامية والتوجه لذي الجلال والا تزام فيها والتوجه بالقلب لله في العبادة شأن كل دين نام عنه حكماؤه وغاب عنه علماؤه وذهبت دوله وضاع مجده وتبدل شأنه وغابت شمسه وأقبل ظلامه وذهب ضياؤه ومضاؤه واستبدل بسعوده نحسا وبرفعته خفضا وبأوجه حضيضا وبشرفه ضعة • ساء مثلا القوم

الجاهلون

الجاهلون * قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون • ويقال مكا الطائر يمكو اذا صفر • وقال حسان بن ثابت صلاتهم التصدّى والمكاء ولذلك عذبهم الله فقال (فذوقوا العذاب) أى القتل والأسر يوم بدر وعذاب الآخرة يوم القيامة (بما كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا

هذه هى عبادتهم البدنية وهى المكاء والتصدية • وأما عبادتهم المالية التى لاجدوى لها أيضا فذلك أنه لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبوسفيان بعيره الى مكة مشى عبدالله بن أبى بن ربيعة وعكرمة ابن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا ففعلوا ذلك يوم أحد فقال الله فيهم (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله) أى كان غرضهم فى الانفاق الصدّ عن اتباع محمد ﷺ وهوسبيل الله (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) ثم تكون عاقبة انفاقها ندما وحسرة (ثم يغلبون) آخر الأمر وقد تمّ ذلك كله وهذا من دلائل النبوّة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر (والذين كفروا) أى الذين ثبتوا على الكفر منهم لأن بعضهم قد أسلم (الى جهنم يحشرون) يساقون وانما يحشرون (ليميز الله الخبيث من الطيب) الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين (ويجعل الخبيث) الفريق الخبيث (بعضه على بعض فيركمه جميعا) فيجمعه (فيجعله فى جهنم) أى الفريق الخبيث (أولئك) الاشارة للفريق الخبيث (هم الخاسرون) أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) أى أبى سفيان وأصحابه (إن ينتهوا) عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الاسلام (يغفر لهم ماقد سلف) لهم من العداوة (وان يعودوا) لقتاله (فقد مضت سنة الأوّلين) باهلاك أعداء الأنبياء فى الدنيا ونصر الأنبياء والأولياء • وقد أجمع العلماء أن الاسلام يجبّ ماقبله واذا أسلم الكافر لم يلزمه شئ من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته أمه فليس عليه ذنب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) لايوجد فيهم مشرك (ويكون الدين كله لله) أى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره (فان انتهوا) عن الشرك وايذاء المؤمنين والصدّ عن سبيل الله (فان الله بما يعملون بصير) فلايخفى عليه شئ (وان تولوا) يعنى أعرضوا عن الايمان وأصروا على الكفر وعادوا الى القتال (فاعلموا أن الله مولاكم) وليكم وناصركم وحافظكم فثقوا به ولاتبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لايضيع من تولاه (ونعم النصير) لايغلب من نصره فمن كان فى حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ـ وفى بقية الآيات ﴾

اعلم أن هذا المقام مقام اظهار الحقائق وابطال الأباطيل وأن الله ناصر الصادقين وخاذل المبطلين ولم يقصه علينا لمجرّد التلاوة ولالمجرد القصص ولكن أنزله الله وقرئ على طول الأزمان ليكون ذلك عبرة لنا • واعلم أيها الذكى انى ماكتبت فى هذا التفسير حرفا ولاخططت بقلمى كلمة إلا وفى قلبى استشعار النصر ورجاء الرحمة واعتقاد النعمة ألا وان هذا زمان العلوم والعرفان وأن الله قد قلب الكرة الأرضية فجعلها أمما ودولا تجدّ فى العلم وتبحث فى هذه العوالم المحيطة بنا وانى قد انبعثت همتى من ابان صغرى لتدوين الحقائق العلمية مع الآيات القرآنية وقد وجدتها فى نفسى كالفطرة وكالغريزة فلم أقدر على مكاوحتها ولم يمكنى دفعها * وقد قال علماء النفس الاسلاميون والصوفية منهم أن فكر الطاعة اذا كان ثابتا فى النفس هادئا دائما فانه من الله وضده ما كان من الشيطان وفكرة الشرّ التى تحدث باستفزاز من الشيطان وفكرة الخير المستفزة للمرء الوقتية أيضا تكون من الملائكة • ولقد وجدت نفسى تائقة لهذه المباحث عاكفة عليها • وكم شدّ علىّ النكير قوم وكم أوذيت فى هذه السبيل ولكن النصر وجدته حليفى واعانة الله كانت تكلؤنى والمشجعات القلبية والأخبار

الواصلة من الآفاق وآلاء الله المترادفة واعاناته المتتابعة وعرفانه المتوالى والهامه الصادق وولاؤه الدائم • كل ذلك قد حلّ فى نفسى محلا جعلها تثق بعون الله وبأن هذه الأمة الاسلامية ستتبوّأ مكانها اللائق بها وتحلّ محلها الرفيع ومقامها البديع ومجدها الباذخ وعزها الشامخ وسعادتها المستقبلة وأن الله سيغير أطوار هذه الأمة من الجهل الى العلم • ومن السكون الى الحركة • ومن الذل الى العزّ • ومن الضعة الى الشرف • وسيظهر فى هذه الأمة حكماء صادقون وعلماء محققون ويكونون شرف الانسانية وذخر الأمة المحمدية ويكون لهم القدح المعلى فى احقاق الحقّ وازهاق الباطل • وسيكون فيهم من يتتبع صنعة ربه وبدائعه وسيقرؤن هذا التفسير وما ماثله من كتب علماء الاسلام فى بلاد الشرق • وبهذه الصفة يدرسون الوجود وماحواه ونظام الكواكب وما والاه وعجائب النبات وماسقاه وبدائع الحيوان وماغذاه وغرائب الهواء فى مجراه وأنواع الماء فى مسراه وفى باطن الأرض ومنتهاه

وهذا سرّ قوله تعالى ـ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ـ • اللهم انى وثقت بوعدك وقد وعدتنا فى القرآن • اللهم أتم النعمة على هذه الأمة التى استذلها الطامعون وحقرها الأوروبيون • • اللهم أعزها وانصرها وعلمها وانشلها من الجهالة العمياء الى نور العلم المبين • انتهى الكلام فى القسم الرابع

(القِسْمُ الخامِسُ)

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

وَاللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّٰهَ
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ
اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى
قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا
ظَالِمِينَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ
خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّٰهَ
لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّٰهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا
تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ *
وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ
يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ
أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّٰهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ

لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

﴿ مقدمة لتفسير هذه الآيات ﴾

اعلم أن الغنيمة ما أخذ من مال الكفار على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب والفيء ما أخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولاركاب . وقد ذكر حكم الغنائم هنا ﴿وملخصه﴾ انها تقسم خمسة أقسام أربعة منها للمقاتلين وواحد يقسم على خمسة أقسام . قسم لرسول الله ﷺ وهو خمس الخمس . وقسم لأقاربه وهم بنوهاشم و بنوالمطلب دون بني عبد شمس و بني نوفل وقد استحقوه لما روى أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان النبيّ ﷺ فيما يقسم من الخمس في بني هاشم و بني المطلب قال فقلت يارسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله ﷺ انما بنوهاشم و بنوالمطلب شئ واحد * وفي رواية انا و بنو المطلب لانفترق في جاهلية ولااسلام وانما نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه . وقسم لليتامى . وقسم للمساكين . وقسم لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله . وأما الأخماس الأربعة الباقية فيعطى للفارس منها ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا * وقال أبوحنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم و يرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال وحكم العقار كحكم المنقول * وعند أبي حنيفة يخير الامام بين أن يجعل العقار مقسما بينهم و بين أن يجعله لمصالح العامة ومن قتل مشركا استحق سلبه والسلب كل ما كان على المقتول من ملبوس وسلاح وهكذا الفرس الذى كان يركبه

ثم ان خمس الخمس الذى لرسول الله ﷺ والآخر الذى لذوى القربى قد سقط بوفاته ﷺ وصار الكل مصروفا الى الثلاثة الباقية عند أبي حنيفة * وقال مالك الأمر في سهم رسول الله ﷺ مفوض الى الامام يصرفه الى مايراه أهم

وأما الفيء فمذهب الشافعي في أحد قوليه انه لمصالح المسلمين و يعطى أوّلا للمقاتلة ما يكفيهم ثم الأهم فالأهم

من

من المصالح والأكثرون على هذا . واعلم أن النبيّ ﷺ وان كان له خمس الخمس فانه كان يعطيه أحيانا لمن يراه أهلا * روى عبادة بن الصامت قال أخذ رسول الله ﷺ يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال أيها الناس انه لايحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائى

اذا عرفت هذا فما أسهل أن تعرف قوله تعالى (واعلموا أن ماغنمتم) أى الذى أخذتموه من مال الكفار قهرا (من شئ) مما يقع عليه اسم الشئ حتى الخيط (فأن لله خمسه) أى فثابت لله خمسه وإنما ذكر الله للتعظيم لأن الله له ملك السموات والأرض لاسدس الخمس المذكور فى الآية (وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) ولقد تقدّم تفصيل القول فى هذا آنفا . وأزيد عليه هنا أن سهم النبيّ ﷺ كان الشيخان أبو بكر وعمر يصرفانه الى مصالح المسلمين عامّة كما كان يفعل ﷺ وهناك أقوال غير هذه ضربنا عنها صفحا ثم قال (إن كنتم آمنتم بالله وماأنزلنا على عبدنا) محمد من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر الذى به فرقنا بين الحقّ والباطل (يوم التقى الجمعان) المسلمون والكفار . يقول الله — إن كنتم آمنتم الخ — فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية . فالمقصود بالذات هنا العمل بالأمر لامجرّد العلم (والله على كل شئ قدير) فيقدر على نصر القليل على الكثير والامداد بالملائكة . ثم إن الله قد أظهر فى هذه الغزوة من الحكم الباهرة مايؤيد النبوّة ويثبت قلوب المؤمنين ﴿الحكمة الأولى﴾ ان المؤمنين لما نزلوا بدرا كانوا بشفير الوادى الذى هو أقرب الى المدينة والشفير هو الشط وهو العدوة مثلث العين وكانت هذه العدوة رخوة تسوخ فيها الأقدام ولايمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء ﴿الثانية﴾ أن كفار مكة كانوا بالعدوة التى هى أبعد من المدينة وأقصى منها وفيها الماء ولاتسوخ فيها الأرجل ﴿الثالثة﴾ أن ركب أبى سفيان المعبر عنه بالعير كان فى مكان أسفل أى عند شاطئ البحر فكان قريبا من كفار مكة يستظهرون به عند الحاجة . والمسافة بين الركب وبدر ثلاثة أميال ﴿الرابعة﴾ ان المؤمنين لما خرجوا ليأخذوا العير خرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد فكيف تمكن المحاربة إذن بين عدوّين قوىّ مستعدّ وضعيف غير مستعدّ ولوأن الضعيف أعدّ القوى للقتال ثم علم حقيقة الأمر لتخلف طبعا فكيف به وهو لم يواعده . فهذه ﴿الحكم الأربعة﴾ هى الآتى ذكرها فى الآيات على الترتيب والحكمتان الأوليان فى حكم الواحدة فكأنهما ثلاث حكم وهذا قوله تعالى (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) بدل من يوم الفرقان (وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم) أى فى مكان أسفل منكم والجملة حال من الظرف قبله (ولوتواعدتم) أنتم وهم القتال (لاختلفتم فى الميعاد) هيبة منهم ويأسا من الظفر . كل ذلك دلالة على أن هذا النصر انما هو من الله وانه من دلائل النبوّة وهومما زاد المؤمنين إيمانا (ولكن) جمع بينكم على هذه الحال (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) حقيقا بأن يفعل وهونصر المؤمنين وخذلان الكافرين ثم علق بقوله — مفعولا — قوله (ليهلك) ليكفر (من هلك عن بينة) من كفر بعد حجة قامت عليه (ويحيا من حىّ عن بينة) ويؤمن من آمن على مثل ذلك . فالهلاك هو الكفر والحياة هى الايمان . أوليضلّ من ضلّ على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة . أو يموت من يموت على بينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات العجيبة الواضحة (إن الله لسميع) لأقوالهم (عليم) بكفر من كفر وعقابه وبايمان من آمن وثوابه

وهنا أخذ يذكر حكمة أخرى فقال تعالى (إذ يريكهم الله فى منامك) الى قوله (والى الله ترجع الأمور) وحاصله أن الله سبحانه وتعالى أرى النبيّ ﷺ المشركين قليلا فأخبر أصحابه بذلك فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوّهم ولوأن النبيّ ﷺ رآهم كثيرا فى المنام لفشل أصحابه أى جبنوا عن القتال وتنازعوا فى أمر القتال وتردّدوا (ولكنّ الله سلم) أى عصم المسلمين من التنازع والمخالفة فيمابينهم وسلمهم من الهزيمة

ثم انه لما التقى الجمعان أرى الله المسلمين أعداءهم قليلا فى أعينهم حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة وذلك ليثبت الله قلوبهم وليصدّقوا رؤيا النبيّ ﷺ

وكما قلل الكافرين فى أعين المسلمين قلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال أبوجهل ان محمدا وأصحابه أكلة جزور فلاتقتلوهم واربطوهم فى الحبال استقلالا لهم واستصغارا لشأنهم اقلتهم فى عينه . ثم قال سبحانه (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى أمرا كائنا وهو اعلاء كلمة الله ونصر أوليائه واذلال المشركين وتكرير هذه الجملة لسببين مختلفين فهناك القضاء المبرم باستيلاء المسلمين وغلبتهم على الكافرين مع اختلاف القوى وتباعد الأحوال وهنا القضاء بتقليل الكثير فى الأعين ليكون ذلك باعثا على القتال . فهما قضاآن بأمرين مختلفين أحدهما سبب والآخر مسبب

﴿ لطيفة ﴾

إن قصة بدر قد فصلت تفصيلا فى مواضع مختلفة بحيث حللت تحليلا منفصلا ولكل جزء منها حكمة . ألاترى أنه ذكر فى أوّل السورة (١) النعاس الذى اعتراهم (٢) ونزول الماء عليهم (٣) وتطهيرهم به (٤) وزوال رجز الشيطان عنهم (٥) وتثبيت قلوبهم . وهناك سادس وهو الهام الملائكة لهم بالتبشير وبعضهم شاهدهم . وههنا زاد كونهم بالعدوة الدنيا وهو السابع . وكون العدوّ بالعدوة القصوى وهو الثامن . وكون الركب جهة ساحل البحر وهو التاسع . وكونهم حاربوا على غير استعداد وهو العاشر . وكون النبيّ ﷺ رآهم فى منامه قليلا وهو الحادى عشر وكون المسلمين رأوهم لما التقوا قليلا وهو الثانى عشر وكون الكفار رأوا المسلمين فى أعينهم قليلا وهو الثالث عشر وجاء فى سورة آل عمران أن الله كثر المؤمنين فى أعين المشركين أى بعد احتدام وطيس الحرب كما قال ــ يرونهم مثليهم رأى العين ــ فصار المؤمنون الذين هم ثلث المشركين تقريبا فى أعين المشركين مثلى عدد المشركين وهذا هو الرابع عشر

فانظر أيها الذكى كيف ذكر القرآن (١٤) مسألة فى غزوة بدر بحيث لم يذر نعاسا يغشاهم ولامطرا يسقيهم ولاخاطرا فى نفوسهم ولارؤيا فى منام نبينا ﷺ ولارؤية أعينهم ولامنزلهم الذى ينزلون فيه ولاترابا يمشون عليه إلا ذكره وأظهر حكمته . أليس هذا من العجب . أليس هذا التحليل يدلنا أن نفكر فيما يحصل لنا من العجائب فى حياتنا الدنيا وأن نفكر فيما ينزل بنا من خير أوشرّ ثم نعرف حكمة الله فيه . ان أحوالنا كلها سلسلة متصلة شرّ وخير ومرض وصحة وآراء تعرض لنا . فعليك أيها العاقل أن تفكر فى كل مايصيبك وماتناله وأن تحللها كما حلل الله غزوة بدر وتلتمس لكل حال حكمة وتسأل الله أن يعلمك حكمة ماحصل لك فان هذا يفتح بصائرنا . وينوّر قرائحنا . ويشرح صدورنا . ويدلنا على عيوبنا . ويبصرنا بذنوبنا ويرشدنا الى طرق الصواب . ولربّ حادثة واحدة فى حياتنا مزعجة تنير بصائرنا اذا تأملناها . وتفكر أيها العاقل فيما مرّ عليك فستجد من حكم الله فيها ومن العجائب مالايشاركك فيها سواك فلكل امرئ تاريخ لحياته مستقل عن سواه وإياك أن تستهزئ بتاريخ حياتك فلتعلم أنه مملوء من العجائب متى فكرت فيه كما ان الزهرة الواحدة تحمل كنزا من العلم للتفكرين ولايعرف لها معنى من لايعقلون . وانظر الى أحوالك وكيف تجد نفسك يوما قد أحببت انسانا حتى عشقته ووثقت بامرئ حتى جعلته قائما بشؤنك كلها ثم ترى بعد حين أن هذا المحبوب المعشوق ليس أهلا للمحبة ولاللعشق وأن هذا الموثوق به ليس أهلا للثقة فتنقلب الحال وتتبدّل العواطف والأخلاق ويصبح المحبوب مكروها والأمين خائنا حقا أوباطلا . وهكذا كل ماحولنا ومانسمعه من القول والسير ومانشاهده من الامور والصناعات . فترى زيدا تزين له صناعة الحدادة فأما عمرو فانه يزدريها وهكذا نرى جميع أحوالنا كذلك الأغذية والملابس والمساكن . ولذلك ترى الناس لايزالون يتقلبون وينتقلون من حال الى حال ويخترعون . وبهذه الآيات أظهر الله انه غالب على

أمره لافرق بين الصالحين والطالحين والأنبياء والمرسلين • فهاهوذا سبحانه أرى النبيّ ﷺ فى المنام أن القوم قليل ثم أراهم للمؤمنين كذلك نهارا فظنوا أن الألف مائة أوأقل ورأى أهل مكة أن المؤمنين لايصح أن يقاتلوا بل يربطون بالحبال و بعد أن دارت المعركة رأوا أن عدد نحو ثلثمائة يبلغ ألفين فانهزموا

كل ذلك ليتمّ أمره و ينفذ حكمه فى خلقه ونحن نشاهد ذلك فى أحوالنا • فترى زيدا يؤثر بقوله فينا وهو كاذب فأصبح القليل كثيرا فى أعيننا ثم نعمل به و يسمعه آخر منا فيقول هذا كاذب فى دعواه فيرى كثيرا ادّعائه كاذبا فيحجم عن آرائه وكل هذا كالتطبيق على قوله تعالى ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ـ • ألاترى أنه حال بين المشركين و بين قلوبهم لما أراهم المؤمنين قليلا جدّا و بين المسلمين وقلوبهم حين أراهم المشركين مائة و بين المشركين وقلوبهم لما رأوا المسلمين ضعفيهم فنفذ أمره بهذه الآراء التى أحدثها فى النفوس • هكذا حال بين زيد وقلبه حينما صدّق عمرا لما كثّر القليل وخدعه وغشه فى معاملته وانما فعل الله ذلك بزيد ليهذبه ويبصره بالعواقب فان لم يتبصر بذلك توالت خطيئاته فى أعماله

بل الحياة الدنيا كلها وشهواتها ولذاتها وأموالها وجنودها وجيوشها وممالكها وحب الاقامة فيها من باب تكثير القليل إذ نراها أضعاف أضعاف ماهى عليه من المنفعة و بعد حين نعرف حقيقتها • ويرى الزهاد أن عظيمها حقير وكبيرها صغير • كل هذا لتكثير القليل وتقليل الكثير ـ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ـ ويظهر أن هذه الحياة كمسرح التمثيل وحواسنا وشهواتها تكبر لنا صورها والحقيقة مختفية وراء هذه الصور المزوّقة والنتيجة من هذه الصور والأشكال والحيرة وخداع الأعين والأبصار وتوالى الغفلات علينا وتزيين الشهوات لنا والحيلولة بيننا و بين قلوبنا • كل ذلك لنتبصر ونتذكر أمر هذه الحياة وتتنوّر بصائرنا وترتقى عقولنا ونعرف أن الحياة الدنيا لعب ولهو ونستنبط الحكمة والعلم من هذه الأشكال كما تستنبط أجسامنا من المواد الغذائية حاجتها وترمى باقيها خارج الجسم فاننا تعاطينا الهواء والماء والخبز وحرارة الشمس فان أجسامنا تعمل فيها أعمالا كيمائية عجيبة وتصطفى من ذلك مادّة الغذاء الصافية وتوزعها على جميع أعضاء الجسم وترمى بالباقى من الماء والهواء خارجه وان زادت الحرارة فينا تداوينا منها • هكذا هذه الصور والأشكال المحيطة بنا يجب أن تدرك العقول حقائق المقصود منها ولانعبأ بها • فالموت والحياة والغنى والفقر والصحة والمرض والمحبة والكراهة والعزّ والضعة • كل هذه صور تمثل فينا ونحن الممثلون لها لنعرف حقائقها وتهذبنا بوقائعها وندوّنها فى نفوسنا ونرتفع بها الى الملأ الأعلى حتى اذا فارقنا هذه الدار كانت لنا سلاحا وجناحا نطير به فى العلا ولانبقى مع الجاهلين الذين يتسكعون فى الطريق الى الله بعد الموت

والمتأمل فى أحوالنا يجد اننا أشبه بالمنوّمين تنويما مغناطيسيا فقد رأينا أن المنوّم (بالكسر) يعطى المنوّم حنظلا ويقول هوسكر فيستلذه و يعطيه سكرا فيقول هوحنظل فيتأذى منه وهكذا يجعله يتكيف بما يقوله ويظنّ نفسه كما يوحى اليه المنوّم • هكذا نجد أحوال الناس فى الدنيا • فترى نفوسنا تتقلب تقلبا كثيرا كما تقدّم فى الحديث ﴿ ان قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ﴾ وهو متردّد أبدا بين المتضادّات والمتناقضات وكأننا فى هذه الحياة نيام • فاذا انحلت أربطتنا من هذا الجسد صعدنا الى عالم أعلى وتيقظنا من غفلتنا ويقال لنا ان بصرنا حديد • ومما يعترى أنفسنا ما يكثر القليل ويقلل الكثير كما فى غزوة بدر • فتقليل الكثير هناك نظيره عند الناس قاطبة المنظار المقرّب فقد قلل المسافة بيننا و بين المنظور وهكذا نظير تكثير القليل المنظار المعظم فانه يرينا الصغير كبيرا وهذا قوله تعالى ـ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ـ • انتهى

ثم أخذ سبحانه وتعالى يعظ المؤمنين فأمرهم أوّلا أن يثبتوا فى الحرب ولاينهزموا و يلاقوا الأعداء بقلوب واثقة بالنصر ووعد الله والدار الآخرة وثانيا أن يذكروا الله فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين

به داعين على عدوّهم ﴿ اللهم اخذلهم ﴾ وذلك يكون سبب الفلاح والظفر والنصر والثواب فينبغى للعبد ألا يشغله شئ عن ذكر الله وأن يلتجئ اليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال واثقا بأن لطفه لاينفك عنه فى سائر الأحوال . وثالثا أن يطيعوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه على كل حال . ورابعا أن لا يتنازعوا باختلاف الآراء كما اختلفوا ببدر فان ذلك يورث الفشل والجبن والضعف ويذهب ريحهم أى قوّتهم ونصرتهم . وخامسا أن يصبروا عند لقاء العدوّ فى كل حال فان الله ينصر الصابرين ويعينهم * روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدوّ انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال أيها الناس لاتمنوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال رسول الله ﷺ اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم * وروى الشيخان أيضا أن رسول الله ﷺ قال لاتمنوا لقاء العدوّ فاذا لقيتموهم فاصبروا . وسادسا نهاهم أن يكونوا كأهل مكة الذين خرجوا من ديارهم أى من مكة (بطرا) فخرا واشرا (ورئاء الناس) ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ﴿ وذلك ﴾ انهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبوجهل لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات ونطعم بها من حضرنا من العرب ويسمع بنا الناس فلايزالون يهابوننا أبدا فامضوا فوافوها ولكن ماذا شربوا شربوا كأس المنون وذاقوا العذاب الهون وبكت عليهم الباكيات ورمّلت نساؤهم ويتمت أطفالهم (ويصدّون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس عن الدخول فى دين الله فنهى الله عباده أن لا يكون عملهم للرياء ولا لالتماس ماعند الناس وأمرهم الله أن يخلصوا لله النية وأن يكون قتالهم حسبة فى نصر دينهم ومؤازرة نبيهم ﷺ وأن لا يعملوا إلا لذلك ولايطلبوا غيره (والله بما يعملون محيط) وهذا وعيد وتهديد يعنى انه تعالى عالم بجميع أعمال العباد فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسىء باساءته وهذا هو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا) الى قوله (والله بما يعملون محيط) ثم أخذ سبحانه فى اتمام الكلام على المشركين وكيف قلبت الحقائق عندهم وحيل بينهم وبين قلوبهم فقال (وإذ زين لهم الشيطان) أى واذكر (أعمالهم) فى معاداة النبىّ ﷺ بالوسوسة (وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) وذلك بما يوسوس فى نفوسهم فيرون الفخر والعز والشرف وبعد الصيت والسمعة فيما تخيلوه من أنهم يغلبون المؤمنين وانهم لايطاقون لكثرة عددهم وعددهم وان ذلك كله قربى الى الله والله يجير من ينصره (فلما تراءت الفئتان) أى تلاقى الفريقان (نكص على عقبيه) رجع القهقرى أى بطل كيده وأصبح ماتخيلوه فخرا وشرفا سبب الهلاك والضعة والذلة (وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون * إنى أخاف الله) أى تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى امداد الله المؤمنين بالملائكة وهذا المعنى قاله الحسن واختاره ابن بحر * وقيل ان الآية على ظاهرها ﴿ وذلك ﴾ أن قريشا لما اجتمعت على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة وكان ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس بصورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم وانى مجيركم من بنى كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكانت يده فى يد الحارث بن هشام فقال له الى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال ـ إنى أرى مالاترون ـ ودفع فى صدر الحارث وانطلق وانهزموا فلما بلغوا مكة قال هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا انه الشيطان فيكون على هذا قوله ـ إنى أخاف الله ـ إنى أخافه إذ يصيبنى بمكروه من الملائكة أو نحو ذلك (والله شديد العقاب) لمن كفر وطغى واذكر (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) أى الذين هم مؤمنون ولكن بقيت عندهم شبهة (غرّ هؤلاء) المؤمنين (دينهم) فتعرضوا للهلاك وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا يقاتلون نحو ألف فأجاب الله قائلا (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز) لايذل

من استجار به غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي كما سلط البعوض على الفيل فلا يقدر على التخلص منه وكما يسلط الذرات المسماة مكروبا على الانسان والحيوان (حكيم) يفعل بحكمته البالغة فى هذا العالم ماتستبعده العقول وتعجز عن ادراكه أولو الألباب ويجعل من الفحم الحجرى الذى كان من أمد قديم فى باطن الأرض نارا ونورا وأنواعا من الأصباغ والألوان والعجائب مع ان منظره ليس فيه إلا أنه فحم أسود اللون لاشية فيه . وهكذا يفعل بحكمته العجب العجاب قال تعالى (ولوترى) ولوعاينت وشاهدت فان لو تجعل المضارع ماضيا وان بعكسها (إذ) ظرف لترى (يتوفى الذين كفروا الملائكة) ببدر أى ولو رأيت الكفرة حين يتوفاهم الملائكة أى يقبضون أرواحهم ببدر حال كونهم (يضربون وجوههم) اذا أقبلوا (وأدبارهم) أى ظهورهم اذا أدبروا (و) يقولون (ذوقوا عذاب الحريق) أى ذوقوا مقدمة عذاب النار وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا (ذلك) الضرب والعذاب (بما قدمت أيديكم) بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهوخبر ذلك ثم عطف على لفظ ما قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى بذى ظلم * يقول ذلك العذاب ﴿ بسببين ﴾ بسبب كفركم ومعاصيكم و بأن الله ليس بظلام للعبيد لأن تعذيب الكفار من العدل والمراد باليد هنا القدرة ثم قال (كدأب آل فرعون) أى دأب هؤلاء وعادتهم كدأب آل فرعون وعادتهم وطريقهم (والذين من قبلهم) من قبل آل فرعون ثم بين دأبهم فقال (كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم) كما أخذ هؤلاء (إن الله قوى شديد العقاب) لايغلبه فى دفعه شئ (ذلك) أى ماحل بهم (بأن الله) بسبب أن الله (لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يبدلوا مابهم من حال الى حال أسوأ وذلك أن الله أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف و بعث لهم رسولا من أنفسهم فقابلوا هذه النعم بالكفران فلم يشكروها وكذبوا رسوله وقطعوا الرحم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله النعمة وأخذهم بالعقاب * قال السدى نعمة الله هو محمد ﷺ أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله الى الأنصار (وأن الله سميع) لما يقول مكذبو الرسل (عليم) بما يفعلون فيجازيهم بما فعلوا (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد يعنى أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) فبعضهم أهلكناه بالرجفة و بعضهم بالخسف و بعضهم بالحجارة و بعضهم بالريح و بعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعنى الأولين والآخرين . واعلم أن هذه الآية كما كررت للتأكيد كانت لبيان أن آل فرعون أهلكوا بالاغراق وانهم جحدوا نعم التربية . وأهم من ذلك كله حكمة عالية وآية عجيبة ﴿ ذلك ﴾ أن هذه السورة مدنية ولقد نزلت سور كثيرة من القرآن فى مكة وجميع السور المكية فيها اهلاك الأمم بالكفر . ولقد ذكرت قصص الأمم وأخبارها كثيرا فى سور مختلفة بحيث أصبح ذلك مألوفا معروفا لقراء القرآن وفى تلك السور كلها اشارات وتصريحات أن المكذبين للنبى ﷺ سيكونون مثل الأمم السابقة يصيبهم ما أصابهم . ألاترى الى قوله تعالى ــ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم ــ والى قوله ــ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلاناصر لهم ــ وقوله تعالى ــ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ــ الى قوله ــ وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ــ وهكذا كانت السور المكية مشحونة بهذا الانذار والتخويف وهو ﷺ إذ ذاك لاجيش له ولاحماية ولاقوة ولاسلاح ولايظن أنه يكون كذلك ممن كانوا حوله فلما هاجر الى المدينة ونصر فى غزوة بدر وهزم أهل مكة ذكرهم الله فقال ــ كدأب آل فرعون ــ وكررها منبها على حصول ما كانوا ينذرون به وهذا هو السبب فى تكرارها تنبيها على المعجزة . ولعمرى ان هذه هى المعجزة حقا . وكيف لاتكون من أهم المعجزات وقد حصل المنذر به

وأهلكوا كما كانوا ينذرون اه

ثم قال تعالى (إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا) أصروا على الكفر (فهم لا يؤمنون) فلا يتوقع منهم إيمان (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) بدل من الذين كفروا بدل البعض تبيينا وتخصيصا • وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد يهود بنى قريظة ألا يحاربوا ولا يعاونوا عليه أحدا فنقضوا العهد وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ • والمراد بالمرة مرة المعاهدة والمحاربة (وهم لا يتقون) أى لا يخافون الله فى نقض العهد ولا سبة الغدر ومغبته ومن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شرّ الدواب (فاما تثقفنهم) تصادفنهم وتظفرن بهم (فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) * قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم • والتشريد تفريق على اضطراب (لعلهم يذكرون) أى لعلّ ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (واما تخافنّ من قوم) معاهدين (خيانة) نقض عهد بأمارات تلوح لك (فانبذ اليهم) فاطرح اليهم عهدهم (على سواء) يعنى على طريق ظاهر مستو يعنى أعلمهم قبل حربك اياهم انك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم وهذا اذا ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح من غير استفاضة كما يفهمه لفظ تخافنّ فحينئذ يجب على الامام أن ينبذ اليهم العهد و يعلمهم الحرب وذلك كما اتفق لبنى قريظة إذ عاهدوا النبيّ ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه فظاهروهم على النبيّ ﷺ فخاف النبيّ ﷺ الغدر به و بأصحابه وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للامام الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة وقد علل سبحانه الأمر بنبذ العهد واعلام الأمر واظهاره قبل الحرب لما أنه لم يكن مستفيضا بقوله (إن الله لا يحبّ الخائنين) الذين يحاربون قبل أن ينبذوا العهد حينما تظهر أمارات نقض العهد (ولا تحسبن) يا محمد (الذين كفروا سبقوا) الذين كفروا مفعول أوّل وجملة سبقوا مفعول ثان أى ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم * وفى قراءة ـ ولا يحسبن (من خلفهم) الذين كفروا سبقوا ـ والمفعولان كما هما (انهم لا يعجزون) أى انهم لا يعجزون الله فلا ينتقم منهم وفيه تسلية للنبيّ ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمه الله انهم لا يعجزونه قال تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه • والقوّة قال العلماء انها جميع أنواع الأسلحة والآلات التى تكون قوّة فى الحرب على قوّة الأعداء والحصون والمعاقل والرمى وقد وقف رسول الله ﷺ على المنبر يقول ـ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ـ ألا ان القوّة الرمى • أخرجه مسلم

والمقصد أنه من جملة المأمور به وسيأتى تفصيل هذا المقام قريبا • قال تعالى (ومن رباط الخيل) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فهى فعال بمعنى مفعول وهو معطوف على قوّة كما عطف جبريل وميكال على الملائكة (ترهبون به) أى تخوفون بما استطعتم (عدوّ الله وعدوّكم) يعنى كفار مكة (وآخرين من دونهم) من غيرهم كاليهود والمنافقين والفرس والروم والأمم الاوروبية الحالية الذين لا يخافون إلا اذا تأهب الناس لحربهم وقاموا لمقاطعتهم وهبوا لمناجزتهم (لا تعلمونهم) لا تعرفونهم بأعيانهم وانما هم أمم من الكفار تقابل وتعادى أمما من المسلمين على توالى الأزمان فكل يعلم من يعاديه ولا يعرف سواه والله يعلم الجميع لأنه يحيط علما بمخلوقاته وهو قوله (الله يعلمهم) ثم حرض على الانفاق فى الحرب ليعدّوا ما استطاعوا من قوّة

ومن رباط الخيل الذى لايتمّ إلا ببـذل المال فقال (وماتنفقوا من شئ فى سبيل الله يوفّ اليكم) ثوابه (وأنتم لاتظلمون) لاتنقصون من ثواب أعمالكم شيأ • لما ذكر الله المعاهـدة ونبذها وانه يجب اعلان الحرب اذا كانت هناك أمارات لنقض العهد وكذلك أعداد العدّة والكراع والسلاح إذ يقول ان هذه العدّة لايقصد منها أن يكون المسلمون دائما مهاجمين محاربين وانما الاستعداد لقصد الارهاب فيهابونكم وهذا الارهاب هوالذى يجعل الناس تحترم دولتكم وتخشى جانبكم فيرغبون فى صلحكم والسلم معكم ولاسعادة فى الدنيا بغيرالسلم مع الاحتراس واعداد العدّة ولذلك أعقبه بقوله (وان جنحوا للسلم) مالوا للصلح والاستسلام (فاجنح لها) وعاهدهم (وتوكل على الله) فوّض أمرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك ولاتخف من ابطانهم خداعا فيه فان الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم (إنه هو السميع) لأقوالهم (العليم) بنياتهم (وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله) كافيك ✱ قال جرير

انى وجدت من المكارم حسبكم ✱ أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

(هوالذى أيدك بنصره) قوّاك بأسباب النصر الباطنة (وبالمؤمنين) وهم الأسباب الظاهرة ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم) ومنهم الأوس والخزرج فقد ألف الله بين قلوبهم بعد تعاديهم مائة وعشرين سـنة • ومعلوم أن العرب كانت فيهم الحمية الشـديدة والانفة والعصبية القوية والضغينة والعداوة الموروثة عن الآباء والأجداد ولاتزال هذه الامور مشاهدة فى أبناء العرب قومنا بمصر والشام وبلاد المغرب والعراق لم تفارقهم فهم ينقادون لحمية الجاهلية وكلما كانوا أقرب الى البداوة كعرب مصر كانوا أغرق فى هذه الحال • فانظر كيف ألف الله بينهم لما جاءهم رسول الله ﷺ فأصبحوا اخوانا وهذه معجزة للنبىّ ﷺ فان اجتماع قلوبهم أمر لايعهد له نظير مع هذه العداوة والحمية ولذلك قال تعالى (لوأنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولـكنّ الله ألف بينهم) جمع بين قلوبهم وكلمتهم بالاسلام (إنه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك • ويا ليت شعرى أليس هذا هوالنبى العربى • أليس هوجدّنا وعم أقاربنا ودينه بين ظهرانينا • وكيف ألف الله بين قلوب العرب فى الجاهلية ولم يؤلف بين أبنائهـم فى الاسلام • ياليت شعرى مالى أرى أبناء العرب فى بلاد مراكش وفى الجزائر وتونس وطرابلس والشام والعراق والحجاز لايكادون يعرفون انهم أبناء أولئك الأمجاد الـكرام • ياعجبا كيف يتقوّى رجال أسبانيا بالعرب على العرب فى مراكش • وكيف تقوّى أهل فرنسا على العرب بالعرب فى مراكش والجزائر • كيف وكيف • كيف أصبح أبناء العرب أشتاتا حتى أذلتهم أوروبا • أليس ديننا هو ديننا • أليس القرآن هوالقرآن • أليس هؤلاء أبناء أولئك • أقول نعم انهم أبناؤهم ولـكن لم يظهر فى الأمّة من يجمع الـكلمة فلكل قائد رغبة فى الرئاسة على قومه وأ كثرهم يأخذ النقوذ من الفرنجة ويحاربون اخوانهم وذلك لشدّة جهالتهم وقلة تربيتهم وانه لم يظهر فى الاسـلام مصلح عام الاصـلاح يقوم خليفة عن الرسول ﷺ بل هم جميعا يتحاربون ويتعادون على حطام الدنيا القليل دلالة على أن العقول ضـعيفة والنفوس ذليلة • أوماعلموا أن اتحادهم يكسبهم عزّة وقوّة ومنعة • أوماعلموا أن أمم أوروبا مع اختلاف لغاتهم وأجناسهم يتحالفون ويتحدون ويأتلفون على ابتلاع المسلمين وأبناء العرب نائمون • ياعجبا كل العجب تتحد الذئاب على اقتناص الشياه ولاتتحد الشياه على الفرار على الأقل فضلا عن انها تستأسد وتصدّ العدوّ المغير والآساد المفترسة

ولئن رأينا آباءنا فى الصـدر الأوّل قد تعادوا واقتتلوا ليـكونن الاجتهاد هوالذى أداهم الى ذلك وكان لهم ملك عظيم يخافون أن يضيع فلما تعادوا لم يضع ملـكهم ولو رأوه آيلا للزوال بالتقاتل لم يتعادوا كما قال معاوية رضى الله عنه فى خطابه لملك الروم لما طلب منه الجزية ﴿ لئن لم تـكف عن طلبك الجزية لأصالحنّ صاحبى (يعنى عليا) وأ كون أوّل جندى يحاربك بأمره ﴾ فـكف ملك الروم عنه • أما أبناء العرب الآن فانهم

ساهون لاهون جاهلون يتقاتلون ليستعبدهم الفرنجة وهم فى غيهم يعمهون

فهذا دليل على أن الله لم يؤلف بين قلوبهم وهذا دلالة على أن دين الاسلام عندهم ليس فى المنزلة التى كانت له عند أسلافهم • هذا تحقيق المقام فلينظر أبناء العرب اخوانى فى أنفسهم وليتفكروا ولينظروا لهم مخرجا فاما حياة سعيدة واتحاد ايمانى واما أن يصبحوا عبيدا للفرنجة خاضعين • ثم قال الله تعالى (يا أيها النبيّ حسبك الله) كافيك (ومن اتبعك من المؤمنين) فى محل نصب مفعول معه * قال الشاعر

اذا كانت الهيجاء واشتجر القنا * فحسبك والضحاك سيف مهند

والمراد بالمؤمنين المهاجرون والأنصار فيدخل فيها عمر وغيره فلالزوم لتخصيصها به وهى مدنية

وقوله (يا أيها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال) بالغ فى حثهم عليه * وقرئ — حرص — من الحرص (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) * وفى قراءة — وان تكن منكم مائة صابرة — (بأنهم قوم لا يفقهون) بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقلّ ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته * روى البخارى عن ابن عباس قال لما نزلت — ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين — كتب عليهم ألا يفرّ واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت — الآن خفف الله عنكم — الآية فكتب ألا يفرّ مائة من مائتين * وفى رواية أخرى عنه قال لما نزلت — ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين — شقّ ذلك على المسلمين فنزلت — الآن خفف الله عنكم — الآية فلما خفف الله عنهم من العدّة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قبلها وهى قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة * ويقال ان قتال الواحد للعشرة كان فى يوم بدر فثقل ذلك وعلم الله أن فيهم ضعفا فى قتال الواحد للعشرة قال العلامة الرازى ما ملخصه • واعلم أن جمهور العلماء ادّعوا أن قوله — الآن خفف الله عنكم — ناسخ للآية المتقدّمة • وأنكر أبو مسلم الأصفهانى هذا النسخ وبينه بأن وجوب مقاومة العشرين للمائتين مشروط بأن يكونوا قادرين على الصبر فى مقابلة المائتين وقوله — الآن خفف الله عنكم الخ — يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل فى حقّ هؤلاء فصار الحكم دائرا مع وجود الشرط وجودا وعدما ويصير المعنى ان حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم واذن فلا نسخ وليس ذكر التخفيف يدل على حصول التثقيل قبله لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا وفى القرآن — يريد الله أن يخفف عنكم — وذلك عند الرخصة للحر فى نكاح الأمة وليس هناك نسخ • انتهى ملخصا مختصرا

وعلق عليه العلامة الرازى فقال ان ثبت اجماع الأمة على الاطلاق قبل أبى مسلم على حصول هذا النسخ فلا كلام عليه فان لم يحصل هذا الاجماع القاطع فنقول قول أبى مسلم صحيح حسن اه من الرازى

﴿ عجائب القرآن فى هذا العصر ﴾

انى وايم الله لفى عجب من هذه الحكم العجيبة • وآيات الله الحكيمة • فبينما أن أفسر فى أوّل هذه السورة إذ وردت الأخبار فى الجرائد يوم الثلاثاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ ما يفيد أن العشرين يغلبون مائتين وأن المائة يغلبون ألفا فى حرب المسلمين بمراكش مع الاسبانيين فعجبت كل العجب وأيقنت بهذا وبتكرار أمثاله فى الآيات السابقة ان هذا التفسير ملحوظ بالعناية الالهية والمساعدة الربانية فقد وردت الأخبار أن القبائل الجبلية بمراكش انضموا الى جماعة المحاربين بالريف القائمين بمحاربة الأسبان ليتخلصوا من استعبادهم وأن رجال القبائل تنبهوا الآن وكثير منهم قتلوا رؤساءهم الذين أغراهم الأسبانيون بالمال أى انهم يريدون الرجوع الى العصر الأوّل عصر الاتحاد بالدين وأن هناك معركة فى (وادى نوه) هجم فيها الاسبانيون

بثلاثين ألف جندى على رجال عبد الكريم فنشبت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية وفقد الاسبانيون فيها ثلاثة آلاف جندى بين قتيل وجريح ثم ارتدوا على أعقابهم خاسرين وكانت قوات الأمير الريفى ثلاثة آلاف مقاتل وهؤلاء هم الذين قتلوا قائدهم المسمى سعد بن مرزوق الذى أسبغ عليه الاسبان نعمهم ليحارب المسلمين (انظر الاهرام المؤرخ ١٢ أغسطس المذكور)

ثم أقول ها أناذا الآن فى ليلة الأربعاء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ أحضر التفسير للطبع وأقرر أن الأخبار وردت أن عبدالكريم سلم نفسه للفرنسيين ولاتزال الحرب كما هى بعد أن ظن الناس أنها قد انتهت وهؤلاء لايزالون يحاربون الفرنسيين والاسبان معا . أفليس من العجب أن تكون هذه الواقعة مذكورة بنصها أن ثلاثين ألفا قاتلهم ثلاثة آلاف مسلم . أليس هذا هو ماذكرته الآية . واذن نقول الأمة الاسلامية اليوم تجدد مجدها وعهدها . وكيف قاوم ثلاثة آلاف ثلاثين ألفا . وكيف تصادف أن يكون وقت تفسير هذه الآيات

ان مانصت عليه الآية الأولى أصبح موجودا فى الاسلام فهل نقول لاتجب عليهم المقاومة . كلا . بل نقول تجب لأن هؤلاء ثلاثة آلاف صابرين قادرين على القتال . ولوأن ذئابا دخلت قريتنا وهى ٣٠٠ ذئب وعندنا ثلاثة رجال أقوياء وهم قادرون على طردهم لوجب على هؤلاء الرجال طردهم و بعض أهل أوروبا ذئاب فهل اذا وجدنا عندنا رجالا ذوى قوة قادرين على طردهم . نقول لايجب عليكم . كلا . بل هو واجب فالوجوب تابع للقدرة . ولوأن ثلاثين مريضا دخلوا قرية ليقاتلوها ووجدنا ثلاثة أقوياء أفلايؤمرون بقتالهم على فرض أن لا قادر سواهم . ان كلام أبى مسلم لاغبار عليه كما قاله العلامة الرازى وقد أيده الواقع الذى شاهده الناس فى هذا الاسبوع . ولقد تكرر ذلك كثيرا فى حرب الأندلس وحرب الترك وغيرهما فتعجب من الحكمة والعلم والقرآن

﴿ لطيفتان ﴾

(الأولى قوله تعالى — إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم —)

ان علم النفس وتأثيرقواها فى أحوالنا اليومية وأخلاقنا الشخصية أصبح منتشرا فى أوروبا وأمريكا ولهم الفصول الطوال فيه . يقولون ان النفس مخزن كقوة مودعة سموها القوة المغناطيسية وقد ذكرت هذا المقال فى سورة البقرة فارجع اليها هناك فعلى العاقل اذا أراد السعادة أن يحفظ اللسان والشهوات والرغبات ومدح النفس وكثرة الضحك . وأن يكون رزينا ساكنا قليل الاعجاب . قليل الحركات . قليل التلهف على مطالبه واثقا بما يريد موقنا به حافظا لكل كلمة وحركة وفكرة . ويقولون ان هذه القوى تحفظ للانسان ذخيرة وتجعله وقورا . ويقولون أيضا أن قوة العزيمة وتوجه النفس للمطلوب والثقة بحصوله لها أثر فى الخارج ولهم أدلة خطابية سفسطية فى ذلك ولكنهم يعتمدون على التجارب . فالتجارب عندهم هى محور الأعمال . وبالجملة ان النفس الانسانية لها آثار فى الناس حقا . ومن أراد الخير فليجعل النفس متوجهة اليه ولاحاجة الى الاطالة فى هذا بعد مابينا فى سورة البقرة

ولا أدل على ذلك فى القرآن من قوله فى هذه الآية — ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم الخ — وقوله تعالى — إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا — الى قوله — ذلك بأنهم قوم لايفقهون — فجعل الفقه النفسى والفكر الوجدانى والشعور الانسانى منشأ الانهزام فى الحرب وكذلك قوله تعالى — انى معكم فثبتوا الذين آمنوا — وقوله — وما جعله الله إلا بشرى لكم — ولذلك يقول هؤلاء العلماء الاوروبيون ان المرء اذا استشعر فى نفسه حصول مطلوبه وهو ثابت العزم قوى الارادة حصل له مطلوبه * وفى الحديث ﴿ أنا عند ظن عبدى بى ﴾ وفى الآية — من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع

فلينظر - الآية . فهذا على أحد وجهيه يرجع لسوء الظن بالله وهو اليأس . فكل هذه ترجع الى شعور الناس بالخير والشر مؤثر فى أخلاقها وأحوالها و يبرهن على ذلك الفلاسفة قائلين ﴿ ان الانسان يمشى على الحائط فيسقط لتكرار الوهم والحاحه عليه انك ساقط فيسقط ولكنه فى العادة وهو على الأرض لايمشى على ماهو أوسع من ذلك الحائط ﴾ وقد جعلوا هذا الدليل المعلوم عند العموم مقدمة للاعتراف بما يحدث فى النفوس البشرية من آثار أفكارها من حب و بغض وسعادة وشقاء وما تجلبه تلك الآراء من أحوال الانسان المادّية فان استحضاره فى نفسه أنه من التجار أوالعلماء أو العامّة يلزمه أن يتزيا بزيهم . فههنا الفكر ألبس الجسم ملبس من فكر أنه منهم . هكذا ينقلون عن بعض علماء اليونان أنه يقول ﴿ ان الدجاجة اذا اعتادت أن تقاتل الديكة نبتت لها (صيصية) كالتى للديك ﴾ و يقول علماء العصر الحاضر ﴿ إن كل تهيج دماغى ناتج عن أحد الآراء كثوران التعصب أوالهيام أوالغضب أوالرعب يمهد السبيل الى فقد الحس ﴾ وترى الجندى فى الحرب يصاب بجراح بليغة ولايشعر بها ومن المحكوم عليهم بالموت من لايضرب الجلاد فيهم وقت الاعدام إلا جثة باردة تركتها الروح لشدّة الرعب . و بعض المحكوم عليهم بالاعدام عصبوا عينيه وصبوا ماء دافئا على رقبته أوهموه انهم فصدوه فمات معتقدا أن دمه قد استنزف كله

وروى أن (موتيوس شيفولا) فى ثوران حبه للوطن وضع يده على جمرة متقدة ولم يشعر بألمها * وقد روى مثل ذلك عن بعض العاشقين

وهذا بعض مايدل عليه قوله تعالى - ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - جاء فى مجلة (المرشد) مايأتى

﴿ امرأة تلد ضفدعا ﴾

فى مجلة الجالية (برازيل) ماخلاصته

فى ضاحية (اربول غراندى) من بلاد المكسيك مناجم زيت الكاز يعمل فيها عدد كبير من العملة بينهم رجل اسمه (البينو زونيغا) وزوجته (حنه كونتراراس) وكان لاينقصهما لتمام سعادتهما سوى ولد يكون محط آمالهما . ومنذ أشهر أخذ (زونيغا) يعدّ المعدّات لولادة زوجته حتى اذا حانت الساعة المنتظرة خرج الطبيب وعلى يده (ضفدع) كبيرة خضراء اللون ضخمة البطن بارزة العينين طويلة اليدين والرجلين وقال له هذا هو ابنك يازونيغا فذهل الرجل لدى رؤية هذا الحيوان القبيح الشكل وقال لا يمكن أن يكون هذا ابنى وتراجع خائفا من منظر المولود الضفدعى الذى لايقلّ طوله عن (٦٥) سنتيمترا

وكانت الأم توّاقة لترى ابنها البكر لكنهم منعوها من ذلك . ولما رأوا أن لامناص من أن تراه قدّموه اليها فلما شاهدته صرخت وأغمى عليها وتوافد الناس ليروا المولود العجيب

وقد فحص الأطباء الوالدين ليعلموا هل فيهما عيب خلقى أومرضى سبب هذه الولادة فلم يجدوا سببا إلا ماعلموه من أن الأم كانت تكره منظر الضفادع وتخافها وانها فى الليلة السابقة إذ كانت نائمة شعرت بشئ أملس بارد يمرّ على وجهها فاستيقظت مذعورة وأضاءت المصباح فاذا هو ضفدع فأصيبت بنوبة عصبية وفى المساء التالى وضعت الضفدع . اه

﴿ أثر الوهم ﴾

جاء فى مجلاتنا المصرية فى ٢١ يونيو سنة ١٩٢٦ ما يأتى

يفسر لنا الاستهواء عدّة مظاهر طالما حيرت عقولنا فى حياتنا اليومية و يكشف لنا الستار عن سرّ أوهامنا وآلامنا الخيالية التى كثيرا ماعكرت صفو حياتنا . وهكذا نكون مدينين بسعادتنا وهنائنا لعلم النفس الحديث . والاستهواء القاء فكرة أواعتقاد ما فى نفس الموحى اليه فيتقبلها دون معارضة . ولاتلبث أن

تتحوّل الى عمل أوعقيدة ثابتة دون أن يدرى الموحى اليه

والقابلية للاستهواء تكاد تكون غريزة فى الانسان إلا أنها تزداد كثيرا عند الأطفال والضعفاء قوّة والارادة والعصبيين والذين فى حالة غير عادية بوجه عام . كما ان بعض الناس يمتازون بقوّة الاستهواء مثل الرؤساء والزعماء فى العلم أوالدين أوالسياسة وأقوياء الارادة والجسم

والاستهواء إما ذاتى أوخارجى . فالذاتى هو الذى يستهوى فيه الانسان نفسه . والخارجى هو الذى يستهوى فيه غيره من الأفراد أوالجماعات

و يمارس البراهمة من الهنود نوعا من الاستهواء الذاتى إذ يستهوى الواحد منهم نفسه الى الزهد والتقشف فى الحياة فيخرج الى مغارة بعيدة و يجلس القرفصاء عاريا و يردّد جملا خاصة طول يومه مثل ﴿ يجب أن أزهد الحياة لأنها دنيئة ﴾ فلايلبث بعد بضعة أيام حتى يجد فكرة الزهد قد تملكت جميع مشاعره وتحوّلت الى عقيدة شديدة وبذا يصبح رجلا متقشفا زاهدا فى الحياة قلبا وقالبا

و يمكن لمن مارس أى عادة ضارّة أن يستهوى نفسه الى ابطالها . فالمدخن مثلا يمكنه ترك التدخين ونسيانه اذا ردّد فى نفسه كل صباح ومساء بلهجة العزم والحزم جملة خاصة مثل ﴿ يجب أن أترك التدخين لأنه مضرّ بصحتى ﴾ ولاشك أنه اذا واظب على ذلك تتحوّل هذه الفكرة التى تتردّد فى النفس الى عقيدة ثابتة ثم الى عمل و ينتهى الأمر بابطاله التدخين

وكثيرا ماكان الاستهواء وعلى الأخص الذاتى منه منبعا لأوهامنا وآلامنا الخيالية . فالانسان قد يكثر من التفكير فى مستقبله و ينظر اليه خلال منظار أسود فيساوره الخوف ويسود عليه روح التشاؤم فلايلبث أن يتحوّل هذا التفكير الى عقيدة ثابتة بل الى عمل وتصبح حياته سلسلة من الأحزان والهموم التى لاسبب لها ويعاوده الفشل فى جميع أعماله وتنحط قواه الجسمية فيظن أن تنبؤاته قد صدقت والواقع انه انما هو الذى جعلها تصدّق لأنه استهوى نفسه الى تحقيقها . وقد تأيدت هذه النظرية النفسية بالتجارب والبراهين المحسوسة فى الانسان والحيوان فمثلا فحص الجهاز الهضمى لهرة أثناء فرحها وأثناء حزنها فوجد انه فى الحالة الأولى يسير سيرا حسنا عاديا بينما يقف تقريبا عن العمل فى الثانية

وقد جرب أحد مشاهير الأطباء قوّة الاستهواء فى الجسم فاستأذن من حكومته فى قتل مجرم محكوم عليه بالاعدام بقوّة الاستهواء وأخذه معصوب العينين الى غرفة سوداء مظلمة وكان هوأيضا يلبس الملابس السوداء القاتمة وأخذ يعيد عليه كثيرا جملة ﴿ سأعدمك بقطع شريان من جسمك ﴾ بلهجة التأكيد والعزم ثم طرحه على سرير وكرر على مسامعه طريقة القتل وأوضح له ماسيشعر به ثانية وأخرى عند قطع الشريان من سيلان الدم الى الغيبوبة الى الموت ثم أمسك موسى عاديا وقطع به ذراع المجرم قطعا سطحيا ثم فتح صنبورا كان قد أعدّه فأخذ الماء يسيل منه على ذراع المجرم كأنه الدم فى حرارته العادية فلم يلبث المجرم أن مات تحت تاثير الاستهواء الشديد وتحققت الوفاة بواسطة مجمع من الأطباء فحصه فحصا دقيقا

ومن التجارب التى عملت أيضا لاظهار قوّة الاستهواء وتأثير الوهم على الجسم أن أحد علماء النفس فى انجلترا اتفق مع سكان بضعة منازل كان يمرّ عليها بائع لبن فى الصباح لتوزيع لبنه أن يبدى كل واحد منهم عجبه من الضعف الجثمانى غير العادى الذى يبدو على وجه هذا البائع بجملة خاصة بالترتيب كأن يقول الأوّل ﴿ مالى أرى وجهك اليوم شاحبا بخلاف عادتك ﴾ والثانى ﴿ لماذا ترتعش وأنت تعطينى اللبن ﴾ والثالث ﴿ أراك لاتقدرعلى المشى اليوم ﴾ وهكذا فما وصل البائع الى نهاية دورته حتى سقط على الأرض مغشيا عليه وقدكان بصحة جيدة عادية عند خروجه من منزله . وماذلك إلا لأن فكرة الضعف التى ردّدها زبائنه فى نفسه تحوّلت الى عقيدة بالتكرار ثم الى عمل فوقع على الأرض فاقد الرشد

ويبالغ (أميل كويه) الفرنسى فى قوّة الاستهواء ويقول انه يجب أن يتخذ كوسيلة لشفاء كثير من الأمراض ولاشك أن لقوله هذا نصيبا كبيرا من الصحة إذ اناكثيرا مانشعر بالصداع أوالضعف أوالانحلال الجثمانى وكثيرا مانصاب بالأمراض العصبية نتيجة الأوهام والمخاوف التى لاوجود لها والتى نلقيها فى روع أنفسنا أو يوحى الينا بها ماحولنا من بيئة محزنة أومن قوم ان قصدا وان عفوا

ولذا يمكن أن نؤكد أن الطالب مثلا الذى يفكر كثيرا فى الرسوب انما يستهوى نفسه للرسوب دون أن يدرى فيرسب . وكذلك العامل الذى يفكردائما فى الفشل غالبا مايفشل بقوّة الاستهواء الذاتى فابتسم أيها القارئ فى وجه الدهر يبتسم لك وافرح يأتك الفرح واعتقد فى الشفاء من أمراضك وآلامك لأنك تساعد بذلك نفسك على النجاة وتلهيها عن كل مايحزنك بالرياضة البدنية والنزهة والأعمال اليدوية وانظر الى المستقبل دائما نظرة المتفائل المسرور المؤمن بالنجاح تذهب عنك أوهامك الكثيرة القتالة وتسمو بنفسك الى النجاح المحتم . انتهى

﴿ المعالجة بالاستهواء وفيها أيضا فى تاريخه ﴾

(طريقة الدكتور أميل كويه)

فى أواسط هذا الشهر (يوليو سنة ١٩٢٦) توفى فى باريس العالم الفرنسوى الشهير الدكتور (أميل كويه) الذى يعتبره أعظم دعاة الاستهواء وأكبر القائلين بمذهب الشفاء بطريقة الايهام

توفى هذا العالم فى منزله بمدينة (نانسى) بعد عمر طويل قضى معظمه فى المباحث النفسية وفى مدى تأثير الوهم فى النفس . وقد طار صيته فى جميع أنحاء العالم وكان الانكليز والأمريكيون يعتبرونه زعيم الأطباء الروحانيين أوالاستهوائيين بلامنازع

لم يكن هذا العالم مبتكرا ولكنه تقح آراء علماء الاستهواء الفرنسيين بما أذاعه من النظريات الجديدة وهى نظريات تقضى بنبذ كثير من المذاهب العلمية البحتة وعدم التقيد بها حتى لايظل الاستهواء مجرد نظرية علمية بل يصبح من الحقائق التى هى فى متناول الجميع

وقد كانت شهرة (كويه) مبنية على ما أبانه من سلطة النفس على الجسد وماأثبته بتجارب عدّة أمام جماهير من الأطباء . وكان دائما يقول ان الأطباء يغلطون غلطا فظيعا لأنهم يعنون بالجسد دون النفس ولأنهم يهملون درس السلطة غير المنظورة التى للوهم على الجسد . فالطبيب الذى يستشار فى معالجة العليل لايفحص عادة سوى أعضاء الجسم وحالتها ولايعنى بحالة العليل النفسية وما يمكن أن يعطاه لانعاش تلك الحالة (وبعبارة أخرى) انه يتجاهل قيمة (المقوّى المعنوى) الذى يفعل فى شفاء النفس مالايفعله المقوّى المادّى . وقد أثبت الاستاذ (كويه) بتجارب عدّة أن للفكر قوّة عجيبة فى كلا العالمين المادّى والخيالى وأن تسليطه على الجسد يحدث تأثيرا عجيبا . وفى الواقع أن الفكر قد يكون سما زعافا أومصلا شافيا . وطريقة الاستعانة به على مداواة الأمراض ليست حديثة بل قد كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة وقد أهملها العلماء مدّة ثم عادوا اليوم الى ادراك أهميتها فى معالجة الأمراض

والحق يقال ان الدكتور (كويه) أبلغ طريقة المعالجة بالاستهواء أقصى الحدود وأثبت انها من الطرق التى يجب على الأطباء أن يضعوها فى مقدمة وسائل المعالجة فاذا كان المصل المادّى يفيد فى بعض الحالات فان المصل المعنوى أى التطبيب بالاستهواء يفيد فى جميع الحالات . واذا علمنا كيف نستعمله نكون قد أسدينا الى الجنس البشرى أعظم معروف يتصوّره الفكر . وليس ذلك فقط بل ان هذا (المصل المعنوى) يفيد أيضا فى شفاء الكثير من الأمراض الأدبية . فالشخص الذى هو رق لبعض العادات الرديئة يمكن شفاؤه من داء تلك العادات واصلاح مافسد من أخلاقه . وشفاؤه بالاستهواء أسهل فى هذه الحالة من

شفائه بالعقاقير . وفى هذه الحالة تصبح الهيئة الاجتماعية كلها مؤلفة من أفراد أصحاء البنية ، أصحاء الأخلاق ويصبح العالم فردوسا زاهرا تطيب الاقامة فيه

ان لكل امرئ ﴿ كيانين ﴾ أحدهما الوجدان الذى بواسطته يدرك كل مايقع حوله ويشعر بكل مايحدث . والآخر الوجدان الكامن الذى يدفع المرء الى اتيان أعمال كثيرة بطريقة أوتوماتيكية مجردة من عنصر الارادة وهذا الأخير أى الوجدان الكامن معروف بآثاره أو بنتائج الأعمال التى تدفع المرء الى اتيانها وهو المهيمن على كل حركة من حركات الجسم . فاذا استغرق المرء فى سبات أوذهول توقف ذلك الوجدان عن العمل وهو الواسطة التى بها يعمل الفكر عمل المصل المعنوى الشافى الذى فى امكانه أن ينقذ الجسم من أمراض كثيرة وآلام عدة

هذا وان مايحدث فى النفس فى أثناء عملية الاستهواء يشبه عملية الانبات تماما . ولذلك يصح تسميته بالانبات النفسى أو العقلى . ففكرة الشفاء هى البذرة التى يتمكن بذرها فى النفس لتنمو وتكبر حتى تتناول كل شئ وتأتى بالثمر المطلوب . وطريقة الاستهواء المنسوبة الى الدكتور (كويه) بسيطة جدا يستطيع كل امرئ أن يستعملها . وخلاصتها أن يردد كل يوم على مسمع من نفسه هذه العبارة وهى قوله ﴿ أشعر كل يوم بأنى أنتقل من حسن الى أحسن من كل الوجوه ﴾

ويجب ترديد هذه العبارة صباح مساء حتى تصبح فى النفس عقيدة راسخة . وكان (كويه) يلقنها لكل من يقصده مستشفيا ويشهد الكثيرون أنهم نالوا بواسطتها الشفاء ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان التفاؤل الحسن هو أساس طريقة (كويه) . فاذا تشاءم المرء من كل ماحوله فلايمكن أن يرى فى العالم إلا ظلاما دامسا . وبعكس ذلك اذا كان كثير التفاؤل شديد الثقة بحسن حالته فان النتيجة تكون خيرا لامحالة

وفى أوروبا اليوم جمهور كبير من أتباع (كويه) الذين خبروا طريقته بأنفسهم وهم يعملون على اذاعتها بين الناس . فكأن (كويه) علمهم أن يطببوا أنفسهم وينيروا عقول الغير . وبين الأطباء فريق غير قليل ممن يحاولون الجمع بين الطب الاستهوائى والطب المادى . والجمع بينهما ممكن لايحتاج إلا الى شئ من الخبرة . انتهى

كل هذا الذى نقلناه من سر قوله تعالى ـ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ وهذا من عجائب القرآن التى أبرزها العلم الحديث

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(ايضاح الكلام على قوله تعالى ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الخ ـ)

(١) اعلم أن الله عز وجل قد نظم هذا العالم على القوى المتضادة والأحوال المختلفة والوجوه المتعارضة والاصول المتناقضة . ولم يشأ أن يكون ساذجا قليل التركيب فسواه وهندمه وجعله مصقول الجوانب منظم الأطراف مكمل الأكناف

(٢) ثم انه كلما كان أكثر عناصر وأعظم تركيبا كان فى المنافع أبعد غورا وأعظم وقعا وأعجب صنعا ألم تر الى تفاعل الماء والطين والهواء والحرارة كيف نتج منها النبات المختلف الثمرات العظيم البركات والى الذكران والاناث من أنواع الحيوان وبنى الانسان كيف كان اتحادهما منتجا بقاء الأنواع وتكاثر الأشخاص ثم انه كلما كان المتحدان غير مقتربين كان التفاعل بينهما أعظم أثرا وأبلغ نفعا وأحسن صنعا

ناهيك ماترى من تفاعل الفحم المسمى بفحم (المعوجات) مع بعض المعادن كيف نتج منهما الكهرباء البديعة الصنع المدهشة اللب الموقدة النار السريعة الأخبار المنتجة للحرارة العجيبة الانارة والى الاكسوجين والكربون كيف أوجب اتحادهما ظهور النار وعجائب الآثار . وهكذا اتحاد الاكسوجين والادروجين

كيف نتج منه بفعل الصانع الحكيم وجود الماء العجيب الارواء الذى هو حياة كل حىّ من عاقل وجاهل ووضيع وخامل ونام وحيوان

(٣) على هذه القاعدة بنى تقاتل الدول وتصادم الأمم ومصارعة الأقران واحتدام الوغى فى الميدان • وكلما كان الاختلاف أشدّ ايغالا وأبعد فى العداوة كان الاصطدام أشدّ أثرا وأعظم وقعا وأظهر أثرا وأفتك بالأبطال وأغور فى النكال • ولقد تقرر فى الحكمة أن الأمم اذا لم توقد للحرب نارا ولم تشمر عن ساعد جدّها أدركها الخور واعتورها الضرر واستحلت طعم الكسل ونامت على وساد الراحة الوثير وذاقت من الوهن والضعف عذاب السعير كما ذكره الحكيم (أرسطاطاليس) فى رسالته الى الاسكندر وقد ضرب لذلك الأمثال وقرّره تقريرا • فكأن مثل الأمم فى ذلك كمثل العناصر المرماة فى الفلاة والهواء الهابّ فى مجراه والماء الجارى الى منتهاه فلاعشب يسقيه ولاحيوان يرويه وكمثل الذكران الذين اجتنبوا النسوان والنساء اللاتى أنفن الرجال فذهبت من بين هؤلاء ثمرات الاتحاد وباؤا بالخسران والحسرات • ان عالمنا الأرضى حكم عليه ألا يرتقى إلا بالمتناقضات ولاينشأ إلا بالمختلفات • فالقاعدة واحدة تباعد فى الصفات وتناف فى الأحوال ثم التقاء ينشأ منه أحوال جديدة وحوادث مفيدة وأعمال سديدة وأمور مفيدة

ولعلّ هذا العالم أقرب الى النقص وأبعد من الكمال • ولعلّ هناك فى العوالم ماهو أشرف مقاما وأعلى فى النظام كعبا • ولعلّ طبعه الغريب الذى ذكرناه قد قضت به الحكمة لنقص فى أصوله ووهن فى تركيبه بالنسبة لما هو أعلى منه وأبدع وأجمل • ولعلّ نسبته الى ماهو أرقى منه كنسبة تركيب الحشرات السامّة من القاذورات المحدثة فى الجوّ فسادا الى تركيب الانسان من العناصر الطيبة فكانت النتائج كالمقدمات والنهايات تابعة البدايات • لذلك كان الانسان فى أعماله وأخلاقه وأحواله تابعا لعالمه الذى تركب منه حذو القذة بالقذة تابعا لخطواته سائرا فى طرقاته دائرا على محوره ناهجا منهجه • فترى الجيوش فى الميادين تلتقى التقاء أو تصطدم اصطداما كالتقاء الاكسوجين والادروجين وخم المعوجات و بعض المعادن فيما تقدم فتراموا بالحجارة والرصاص والحديد والنيران واستعملوا أنواع المفرقعات وأعجب المركبات النارية من الديناميت والكرات المحرقة الملتهبة • المنزلة الصواعق • المهلكة للأمم • المزيلة الممالك • المخربة للبنيان • المبيدة للقلاع

ولو أنها أمسكت عن القتال وتركت النزال لأعياها الكسل ولعدمت الحيل ولأماتها الجبل والخلل فنامت العيون وهدأت الجفون وأمنت الطوارق وأصبح أهلها أقرب الى الحيوان الأعجم فبطؤت الحركات وهدأت الجماعات وبارت الصناعات وساءت الحال وضاع المآل وخابت للأمم الآمال

لذلك ترى أن الله قد هيأ للأمم عناصر للقتال وأصولا للحروب منها ظاهر يعلمه الخاص والعام كالحجارة والحديد والرصاص • ومنها ماخفى تركيبه وعظمت آثاره كالمفرقعات المركبة من القطن والموادّ الملتهبة

﴿ المفرقعات فى الحروب من القطن والموادّ الملتهبة ﴾

ان القطن مركب من شعور دقيقة قد بحثت بالمنظار المعظم فظهرت بصورة أنابيب مفرطحة ملتوية شفافة وهذه الأنابيب الشفافة جلبها شجر القطن من الموادّ الأرضية والهوائية تسمى (سيليولوز) وهذه المادّة تكون فى جميع النباتات • فهذه المادّة اذا خلطت بحامض النتريك و بحامض الكبريتيك تحوّلت الى مادّة تسمى (نيتروسيليولوز) أو (قطن البارود) واذا نظرت الى هذه وجدتها كالقطن العادى فى شكله ولكنه متى طرق أو سخن احترق من غير أن يترك بقية صلبة بل يتحوّل جميعه الى مادّة هوائية لالون لها وهذه المادّة اذا أذيبت فى الأثير وفى الكحول أوصنعت منها كتلة مرنة تصبّ فى قوالب أو تقطع قطعا صغيرة ذات أحجام متساوية فان هذه القوالب والقطع تكون موادّ مفرقعة وأوّل من كشفها العلامة (بول فيللو) فاستخدمته الحكومة الفرنسية سنة ١٨٨٧ م * وهذا هو البارود الذى لادخان له لأن ماله دخان يحجب رؤية العدوّ

الديناميت

﴿ الديناميت ﴾

اذا خلطنا الجلسرين بحامض النتريك المضاف اليه حامض الكبريتيك نتج سائل زيتى القوام أثقل من الماء ولايختلط به طعمه حلو ولكنه سام يستعمل فى الطب بمقادير قليلة • واذا سخن أوطرق فرقع بشدة متحولا الى غازات النيتروجين وثانى أكسيد الكربون والاكسوجين وهو سائل خطر لايؤمن له جانب و يصعب استعماله مفرقعا فى حالته السائلة وهو يسمى (نيتروجلسرين) فاذا مزج بالنشارة و بعض الأتربة صنعت منه قوالب الديناميت

﴿ الجلاتين المفرقع وغيره ﴾

فى سنة ١٨٧٥ خلط العلامة (الفرد نوبل) الكيمائى السويدى هذا السائل الشديد الفرقعة بقطن البارود المتقدم فخرج من هذا وذاك مفرقع مزدوج يسمى (الجلاتين المفرقع) • وهناك جسم صلب أصفر متبلور تصنعه جميع الحكومات من مادة تسمى (الفنول) وجسم آخر يصنع من مادة اسمها (تولول) وهما مادتان تستخرجان من الفحم الحجرى • واعلم أن صنع المواد المفرقعة المذكورة خطر للغاية ولذلك يبنون أبنية صغيرة بعضها منفصل عن بعض بحيث يكون بين كل بناء وآخر فضاء طلق واسع فاذا حصل انفجار فى احداها انحصر الخطر فيه فلايتعداه الى بقية المعمل و يصنع هناك مقادير معينة من المفرقعات فى زمن معين و يلبس العمال والعاملات ملابس خاصة خالية من الجيوب والأشياء المعدنية و يضعون فى أرجلهم أحذية خاصة خالية من المسامير الحديدية ولايجوز للأجانب دخول هذه الأمكنة إلا باذن خاص وقبل الدخول يفتشون تفتيشا دقيقا و يؤخذ منهم كل مايحتمل أن يحدث ضررا مثل علب الكبريت والدبابيس والأزرار المعدنية وغيرها ثم يلبسون أحذية خاصة وتضاء هذه الأماكن بالكهرباء وجميع الآلات البخارية والكهربائية المعدة لتوليد القوة اللازمة توضع خارج البناء و يمر من آن لآخر مفتشون لملاحظة النظام ومنع تجمع أتربة المواد المفرقعة • واعلم أن أقل خطا سواء أكان فى تقدير المواد أم فى تغيير أحوالها الخارجية كالضغط ودرجة الحرارة قد يؤدى الى انفجارها أثناء صنعها و يتبع ذلك ضرر جسيم أقله موت الصانع • وعليه فان صناعة المفرقعات تستلزم من الحيطة والحذر والعناية مالاتحتاج له صناعة أخرى • ولذلك قد يؤمن الصانع على حياته قبل الاشتغال بها حتى يعوض على ورثته مافقدوه من حياته

فانظر كيف كان القطن والكبريت والنتريك الحامضات قد حولت الى مادة محرقة • وكيف كان وضع هذه المادة مع الكحول والأثير يكون مادة مفرقعة • ثم انظر كيف كان الجلسرين اذا خلط بالحامضين المتقدمين مع نشارة الخشب و بعض الأتربة يصبح ديناميتا يهد الأبنية والقلاع الحصينة • ثم كيف كان الفحم أيضا مصدر مادتين مفرقعتين بأوزان معلومة ونظم خاصة

﴿ الله أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب ﴾

يقول الله — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة — فهنا القوة العقلية العلمية التى تتقدم القوة العملية الحربية • لقد كانت الحرب قديما بالحجر والحديد والرصاص ثم ارتقت اليوم فصارت بالعقول والأفكار • فأهل أوروبا ضعافو الأبدان بالنسبة لأهل أفريقيا وآسيا ولكنهم استخدموا العقول فأكسبتهم صناعات قامت مقام القوى الجسدية فصار هؤلاء فى باقى الناس أشبه بالانسان فى باقى الحيوان • فالحيوان قويت أجساده ولكن الانسان الذى هو أضعف منه قوة خلق أقوى حيلة ففضله فسخره • فأهل أوروبا اليوم ومن نحا نحوهم وكل من قرأ العلوم والصناعات الحديثة أصبحوا فى نوع الانسان سادته والبقية كأنهم عبيدهم • فاذا قال الله للمسلمين — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة — فمعناه لا تذروا قوة جسمية ولاقوة عقلية إلا استعددتم بها واذن أصبح علم الصناعات جميعها فرضا واجبا على المسلمين وعليهم حتما أن يدرسوا ماذرأ الله

فى الأرض من عجائب العوالم ومافى ذراتها من كامنات المنافع ومدفونات العجائب ومكنونات البدائع وجواهر الحكم المسنونة المحجوبة عن أنظار الجاهلين المتجلية للناظرين المكشوفة للمجدّين العاشقين بالله ما أجمل بهاء الطبيعة . وما أجمل نورها وأبهر سناءها وأحسن وجهها . لقد سترته عن الجاهلين وكشفته للعاشقين وازينت وابتهجت للناظرين . وقالت لمن ليس لها كفؤ ولم يعطها مهرا

* ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر *

فليتنافس فى تلك العلوم المتنافسون . وليقبل عليها المسلمون . وليطيروا فى الشرق والغرب سراعا لعلهم لها يدركون . فياعجبا للمسلمين كيف يعيشون بين أمم سلاحها (الديناميت) والموادّ المحرقة والمعمية والمهلكة وسلاحهم البارود والرماح . وكيف يفلح قوم أحاط بهم الاصلاح والعمران وهم جامدون

﴿ نظرات الفلاح الى شجرة القطن ونظرات علماء الحرب ﴾

هل يعلم الفلاح المصرى والبغدادى وأمثالهما حين يزرعون القطن و يضعون البذرة فى الأرض و يسقونها الماء وتمو فى الحقول و يعزقونها بالفؤوس و يزيدونها ريا . وحين يظهر الشعر فيها . وحين يأتون بالنساء والأطفال لجمع تلك المادّة الشعرية القطنية . وحين يحلجونها و يبيعونها للتجار بالاسكندرية وغيرها فيأخذون الدراهم والدنانير لقضاء حوائجهم . هل يعلمون إذ ذاك أن لهذا القطن نبأ عظيما . وهل يعلم حكماء الاسلام وعلماؤه والمتفقهون فيهم أن لكل ظاهر باطنا وظاهر القطن لباس وأكسية ورياش وفرش ومخدات وغيرها مما يتجمل به الناس وباطنه مايستخرجه علماء الكيمياء من البارود الذى لادخان له بخلطه بالأحماض . وكيف كان القطن من أسباب الظفر فى الحروب . وكيف كان من الفحم الذى يوقده الناس فى بيوتهم موادّ تؤخذ بطرق مخصوصة تكون مفرقعة قاتلة . فجل الذى خلق المادّة على هذا النظام وصوّرها على هذه الصورة البديعة العجيبة . ألا بعدا للقوم الجاهلين . وأف وتف لقوم لايعقلون . وهل يعلم هؤلاء أن أمثال هذه المسألة مما يوجب فتح المدارس على مصراعيها واتخاذها أساسا للرقى واستعدادا للطوارئ . وفيها تحلل عناصر كل يابسة وخضراء ورطب و يابس وجامد ونام وحىّ وميت وحيوان ونبات وانسان فلتحلل عناصر المخلوقات فلاحكم على مركب إلا اذا عرفت أجزاؤه كما لم تعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها . إن هذا الاستعداد والأمر به يرجع الى رقى العقول والآراء وانا انما أرسلنا الى هذا العالم وخلقنا فيه للوقوف على الحقائق ومعرفة أصوله . وكأن الله عزوجلّ يريد أن يطلعنا على عناصر ملكه وأصول خلقه وتركيب أجزائه وعجائب صنعه ووزنه ونظامه ومحاسنه حتى نرتقى الى ماهو أعلى مراما وأحسن نظاما وأبهى كمالا . وجعل من طرق ذلك نظام الحروب والقاء العداوات بين الناس ليتسابقوا الى المعالى ولاسبيل الى ذلك التسابق فى عالمنا الأرضى إلا بهذه . وما مثل الجيوش فى ميادين القتال . والقنا تقرع القنا . وموج المنايا متلاطم إلا كمثل اللاعبين (الشطرنج) أوغيره إذ يصبحون فى وجل وأمل وخوف ورجاء

وكأنما هذا الانسان وهو فى الأرض طائر على جناحين ﴿ أحدهما ﴾ الرجاء ﴿ والثانى ﴾ الخوف كما قال تعالى ـ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ـ فاذا لم يكن الخوف والطمع بالحروب القاهرة سعى الناس لهما باللعب ليطيروا مجتمعين فى عالم الخوف والرجاء وهم يلعبون وكأنهم اذ لعبوا (الشطرنج) أوالألعاب (الالومبية) المشهورة اليوم بين الدول يقولون اننا مجبولون على المسابقة مفطورون على المنافسة فان لم تكن بالحرب سعينا اليها باللعب . كل ذلك لتقوية الأبدان وتنشيط الشبان وتجديد البلدان وتقوية الأركان واسعاد المدن وتشييد العمران

﴿ تناسق آى القرآن وتلاحقها فى مسألة عدّة الحرب والقتال ﴾

فاذا قال الله فى سورة البقرة ـ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ـ وقال فيها ـ إن فى خلق

السموات

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الخ ـ

واذا قال فى آل عمران ـ إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولافى السماء ـ وقال ـ شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ وقال ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا ـ . وقال فى سورة النساء ـ ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا * إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ـ واذا قال فى سورة المائدة ـ ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ـ واذا قال فى سورة الأنعام ـ إن الله فالق الحب والنوى ـ الى قوله ـ وهوالذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ـ وقال ـ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ـ . واذا قال فى سورة الأعراف والوزن يومئذ الحق ـ وقال ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم الخ ـ

اذا قال ذلك كله فى السور المتقدمة على هذه السورة . فهاهوذا يقول فى سورة الأنفال ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ـ . فهذه القوة من القوى التى خلقت لنا فى الأرض كما جاء فى البقرة . فعجائب القطن وحمض الكبريتيك وحمض النيتريك والجلسرين والكحول والأثير والمواد المتخذة من الفحم الحجرى . كل هذه مما خلقها الله لنا فى الأرض وخاطبنا قائلا ـ هوالذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ـ فهذه خلقت لنا كما خلقت للفرنجة فحللوا الفحم الحجرى والقطن والكبريت واتخذوا منها تلك الآلات المهلكة ونحن تركنا واكتفينا بالشراء منهم وهكذا هذه الأشياء مما جاء فى قوله تعالى ـ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ـ لآيات لأولى الألباب ـ فانها من العجائب المدهشة والغرائب البديعة الدالة على حكمة الصانع المبدع . ولعمرى من ذا الذى يقف على هذه الأسرار ولايدهش لهذه الحكم العجيبة . والا فبالله كيف يكون هذا القطن الذى نلبسه بعد أن استخرجناه بالزراعة اذا أضفنا عليه بعض العناصر قلب لنا القلاع والحصون وخرت السقوف من فوقنا . أليس هذا من العجب . أليس هذا من دلائل التوحيد المذكورة فى آية البقرة المذكورة . ولعمرى كيف تصير المواد الفحمية مفرقعات . وكيف يكون القطن الذى يقينا الحر مهدما للمساكن مزلزلا للمدن . وكيف اجتمعت هذه الأسرار فى هذه المخلوقات التى تحيط بنا ولاندرى مافيها . أليس الانسان وهونائم فى سريره متغط بالحافه قد أصبح نائما فى وسط جهنمى . فالقطن الذى يحيط به من كل جانب إن هو إلا مواد مفرقعة ينقصها الكبريت والنتريك فتصير هادمة البنيان . ثم هذه الأشياء وهى متفرقة غير مجتمعة قد خفيت عن الانسان فى قديم الزمان فلم يعلم انها تخرب المدن وتهدم القلاع ولكن الله يقول فى آل عمران ـ إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولافى السماء ـ وعلى ذلك يعلمه لمن يشاء من عباده . وهذه العناصر المذكورة تصنع بحساب دقيق حتى تصير مواد مفرقعة فاذا اختلت الموازين أوالأعمال الصناعية اختلت تلك المصنوعات وهذا قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ فههنا لابد من القيام بالعدل فى وزن المقادير وهذا من دلائل الوحدانية إذ كيف كانت هذه الأشياء بموازين محدودة ومقادير معدودة ونظم قائمة وصناعات صادقة ولواختل الوزن لانفجر المصنوع فأهلك الحرث والنسل . وكذلك قوله ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ وهذا من نوع الفكر فى المصنوعات ونظامها ودقتها . وهكذا قوله فى سورة الأعراف ـ والوزن يومئذ الحق ـ فالقيام بالقسط فى آل عمران والوزن الحق فى الأعراف ظهرا فى مقادير الديناميت والمواد المفرقعة كما ظهرا فى غيرهما . وهكذا قوله فى سورة المائدة ـ ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ـ . فههنا يقال اذا كان ابن آدم يقول متحسرا على نفسه كيف أعجز أن أكون مثل الغراب وتأسف وندم على الجهالة فلتكن الحسرة والجهالة هنا أنكى وأشد تنكيلا . كيف لا والندامة فى قصة ابنى

آدم على الجهل بدفن القتيل مع علم الغراب به فقلده • وههنا تكون الحسرة والندامة على أمم تهلك وقصور تخرب • وجيوش تهزم • وأمم تموت • وبلاد تضيع • ونساء تسبى • وصبيان يصبحون ايتاما • وذلك كله بسلاح الأعداء وهم من الآدميين • واذا ندم ابن آدم على جهله بصنعة الغراب وهو من غير جنسه فهو بالندم على جهله بصناعة بني جنسه أجدر ∴ فانا نرى الانسان يعجز عن صناعة النحل فى خليته ولكنه قط لايعجز عن صناعة أخيه الانسان • فاذا أسف الانسان على جهله بصناعة غير بني جنسه فهو على جهله بصناعة أبناء جنسه أشد ملامة وأدنى الى الندامة وأبعد عن الكرامة وأقرب الى الاهانة • وهذا يناسب قوله تعالى فى سورة النساء ـ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ـ لجهالتكم بعجائب خلقي وتباعدكم عن التبحر فى علمى والشرب من مناهل فضلي ـ ويأت بآخرين ـ أعلم بخلقى قبلوا النعمة فشكروها وسقتها لهم فقبلوها وذلك أيضا قوله تعالى ـ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ـ • أوليس هذا من عجائب الملكوت فان الدقة المتناهية فى صناعة القطن حتى يصير مواد مفرقعة من أعجب العجائب وأبدع الغرائب واذا جاء فى الأعراف ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ـ • وقد جعل المفسرون من هذا اللباس القطن • فهاهو يقول هنا ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ـ فكان من تلك القوة القطن المذكور فى السورة قبلها وكأنه لما قال ـ ذلك من آيات الله ـ مشيرا الى قوله ـ أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ـ يرمز الى ما نحن بصدده أى يقول ان اللباس الذى أنزلته عليكم من آيات الله أى الدالات على عجائب الصنعة ومن ذلك اللباس القطن ومنه تكون المواد المفرقعة • فلذلك جاء فى سورة الأنفال هنا يقول ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ـ ومن تلك الاستطاعة استنباط المفرقعات من القطن الذى عد من آيات الله • وقيل بعدها ـ لعلهم يذكرون ـ

لعمرى ما أجمل العلم وأبهج الحكمة وأبدع القرآن • وما ألطف هذا المقام فلله الحمد اذ أنعم بفضله على عبده وألهمه أن ينظم هذه الآيات فى نمط ويجعلها مؤتلفة متتالية • قد التأمت فيها المصلحة الدنيوية بالعجائب الالهية • فبهذا وأمثاله فليفسر القرآن فى هذا الزمان • والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

واعلم أن هذا النهج من التفسير يبين اتحاد المطالب الدينية والدنيوية والآخرة والأولى • ولاتعجب من هذا ولا يكن فى صدرك حرج فنفس القرآن قد صرح بهذا فى سورة البقرة فقال ـ وزاده بسطة فى العلم والجسم ـ فههنا زيادة البسطة فى العلم تظهر فى المركبات الكيمائية ووزنها ونظامها • وكيف يكون القطن مع حمض الكبريتيك ومع حمض النيتريك بمقادير محدودة • وكذلك الكحول والأثير والنشارة والتراب والجلسرين فى صنع الديناميت • فمعرفة هذه المقادير وتركيبها أثر من آثار العلوم التى تدرس فى المدارس فى العالم الانسانى • ومتى صنعت هذه المقادير واستخدمها أقوياء الأجسام غلبت الأمة غيرها • ولاجرم أن رجال الشرق اليوم أقوى أبدانا وأصح أجساما من رجال أوروبا ضعافى الأبدان • فاذا صنعوا هذه المصنوعات غلبوهم لامحالة كما غلب جمع صغير من أهل مراكش دولة اسبانيا على جلالة قدرها وعظم خطرها فما بالك اذا عرفوا هذه الصناعات ودرسوها حق دراستها • فههنا يتم ﴿الأمران﴾ البسطة فى العلم والبسطة فى الجسم • ولذلك أعقبه بقوله ـ والله يؤتى ملكه من يشاء ـ ثم ختم الآية بقوله ـ والله واسع عليم ـ فالتفسير بأنه يؤتى ملكه من يشاء بعد ذكر البسطة فى العلم والجسم دال على أن الأولى بالملك العالمون الأقوياء • فقوة العقل وقوة الجسم هما مفتاح الممالك والسلطان عليها • والتعبير بأن الله واسع وأنه عليم اشارة الى أنه تعالى لانهاية لمعلوماته ومعلوماته متقنة واسعة المدى • ولذلك نرى الأمم تتسابق الى الاستفادة من سعتها • وكل من كان أسبق الى علمها كان أولى بالملك ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ

﴿ زهرة ناضرة بهجة في قوله تعالى ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الخ ـ ﴾

اعلم أن القوّة ﴿ نوعان ﴾ نوع مادّى ونوع معنوى • أما المادّى فظاهر مما تقدّم • وأما المعنوى فذلك هو مايحدث الثبات فى النفوس و يقوّى القلوب • ومن أهم ذلك كتمان الامور واظهار الجلد وعدم الاباحة بما فى البواطن والأسرار * قال أبومسلم الخراسانى الذى أباد الدولة الأموية وكان السبب فى ظهور الدولة العباسية فى الثلث الأوّل من القرن الثانى الهجرى

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت * عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ضربتهم ضربة بالسيف فانتبهوا * من رقدة لم ينلها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وفى الحديث ﴿ الحرب خدعة ﴾ وفى آيات هذه السورة سرّ الحرب بل أهم أسرار هذا الوجود • ألا ترى الى قوله تعالى ـ واذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا و يقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا الخ ـ قلل الله الكثير قبل الابتداء فى الحرب • وهكذا كثرا قليل فى أعين الكفار لينهزموا و بشر المسلمين بالنصر والفوز والملائكة • كل ذلك من القوّة المعنوية • ومن عجب أن أكابر رجال الحرب الكبرى التى حدثت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ قد أعلنوا فى الجرائد فى هذا الاسبوع من شهر (مارس سنة ١٩٢٧) سرا من أسرار الحرب ونبأ من أنباء التدبير وحسن النظام والتعقل وذلك انهم كتبوا أن فرنسا (يوم أن أعلن الألمان انهم راضون بشروط الحلفاء) كان جيشها فى غاية الانحلال • وقد اختمرت الثورة فى الرؤس وأخذ الضباط والجنود يتسللون لواذا طالبين الخروج من مأزق الحرب فكان رؤساء الفرق يحضرون هؤلاء أمام المدافع و يقتلونهم أفرادا وعشرات ومئات • وكان ذلك كله سرا بحيث لايطلع رئيس فرقة على ماعند غيره من الفرق حتى باتت رئاسة أركان الحرب فى حيرة وألم وخوف شديد من ذهاب الدولة وضياع البلاد فكان جهل الألمان بما هو داخل الجيش الفرنسى هو السلاح الأقوى الذى به كسب الحلفاء الحرب • ولو علموا حقيقة الموقف عند الجيش الفرنسى لضربوهم ضربة قاصمة فى بضع ساعات ولانتهى الأمر وجاء الفوز وانعكست الآية فأصبح الغالب مغلوبا والقاهر مقهورا وبدلت الحال والله عليم حكيم

﴿ مسامرة ﴾

ههنا أسامرك أيها الذكى • ههنا أحدثك عن الجمال والنور والعرفان والبهجة والعلم • أحدثك عن هذا السرّ البديع والنظام الجميل • هذا هو الجمال هذا هو النور • أنظر فى آيات هذه السورة وغيرها إذ يقلل الله الكثير و يكثر القليل • وتعجب من أن تقليل الكثير وتكثير القليل هو سرّ هذه الدنيا • رجال الحرب لايعقلون إلا ما أمامهم ولايفقهون إلا أن النصر حليفهم بكتمانهم وحزمهم وعزيمتهم • نعم هذا حسن ولكن هناك ماهو أحسن وأجمل من العلم والحكمة • أنظر هذا الوجود تره مبنيا على هذه النظرية نظرية تقليل الكثير وتكثير القليل • هذه هى السياسة التى نراها بأعيننا • ونسمعها بآذاننا ـ ولكن أكثر الناس لايعلمون ـ • ألا ترى رعاك الله مناظر النجوم والشمس والقمر • فانظر كيف قللها الله فى أعيننا • الشمس جرم صغير والقمر فى أعيننا والكواكب الثابتة والسيارة صغيرات جدّا نراها مقدار الليمونة تتلألأ فى جوّ السماء • وحقيقة الشمس والقمر والنجوم غير ذلك • حقيقتها انها أجسام هائلة عظيمة حتى ان أرضنا بالنسبة للشمس جزء من أكثر من ألف ألف جزء من الشمس والثوابت التى نراها صغيرة هى أجسام أكبر من شمسنا بما لاحدّ له حتى ان كوكب (السماك الرامح) يبلغ نوره (٨٠٠٠) ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وهناك ماهو أعظم وأعظم فلو أن الله جعل أعيننا تنظر الى الشمس والى تلك الكواكب نظرا يجلى حقائقها ويظهر صورها وأنوارها على ماهى عليه لعميت الأبصار فى لمح البصر أو أقرب • وكيف لاتعمى الأبصار وتلك أضواء تفوق الوصف • واذا كانت شمسنا الصغيرة لانطيق أن نحدق فيها على الأرض

وبيننا وبينها نحو ٣٦٥ سنة بسير القطر البخارية فى أرضنا (و١٢) سنة بسير قلة المدفع . فكيف بنا اذا رأيناها كأنها أمامنا . فهل يبقى لنا بصرا . ويبقى لنا وجود . واذا كان هذا فى شمسنا الضعيفة فما بالك بالشموس الأخرى التى نسميها كواكب ثوابت . ألست ترى معى أن سياسة الأمم فى حربها أشبه بما نرى فى هذا الوجود كما سمعت عن أبى مسلم الخراسانى وعن الأمم الاوروبية كالألمان الذين يكتمون مايخترعون من المدمرات وكاليابان الذين لما حاربوا الروس اختبأت سفنهم فى البحر بأن لونوها بلون يشبه لون الماء وزرقة الجو فلم يفرق الروس اذن بين الأمواج والجو وبين سفن اليابان فانقض الآخرون على الأولين فأهلكوهم وكسبوا قضية الحرب . فهذه من تقليل الكثير لأنهم أوهموهم ألا سفن أمامهم ثم انقضوا عليهم . إن الله عزوجل جعل نظامه واحدا . فاذا أرانا النجوم ضعيفة الضوء على حسب القانون المعلوم من أنه كلما طال البعد صغر الجسم فذلك ليسعدنا بالنظر اليها فندرسها ونعلم سيرها . وبهذا نسافر فى البر والبحر بأنواع التجارة . فاخفاء الحقائق هنا وكتمانها لمنفعة الناس . قلل الله فى أعيننا تلك الأنوار العظيمة لاسعادنا بالتجارة والسفر للعلم ولكسب الرزق وأخفى الألمان والفرنسيون والمسلمون وغيرهم فى حروبهم أحوال جيوشهم فنصروا . أخفى الله عظمة النور عن أعيننا بتباعد الأجرام المضيئة وأخفى اليابانيون سفنهم باعطائها لونا يشبه لون الماء . ونتيجة الأمرين واحد هو جهل الحقائق فيكون النفع العظيم

اللهم انك محمود على جهلنا كما انك محمود على علمنا . جهل الانسان أجله فعمر وزرع ونظم وهندس ودبر وأحكم وبنى . كل ذلك لتكثير القليل . ربما لايبقى من عمر الانسان الا أيام أوساعات ولكن الله وضع فى قلبه آمالا جساما . يطوف طائف الموت وينعب يوم الفناء وغراب الفراق والانطلاق من هذه الحياة ويدنو ملك الموت من المرء ولكن الله يكثر القليل فى عينه ليداوم على العمل ويقتطف الثمرات غيره

فهذا هو تدبير الله فى خلقه وقد قلده عباده لاسيما رجال الحرب ونحن فى هذا التفسير (اذا رأينا هذا الجمال فى العالم الذى نعيش فيه وأن مانسمعه فى حروب الأمم نشاهده أمامنا وقليلا مانعقله) أشد فرحا وأعظم نصرا وأعز نفرا وأكثر جندا من قواد الحروب لأن ولوج أبواب العرفان والنصر على جيوش الغفلة والجهالة أرفع مقاما وأوسع فناء وأرقى درجة وأقدس منزلة وأبعد مدى وأبقى أثرا

ان اللذات النفسية تكون على حسب المعلوم فكلما كان المعلوم أشرف كانت اللذة به أقوى . وأى لذة أقوى مما تلاحظه نفوسنا من جمال هذا العالم الذى ينظره أكثر الناس وهم لايعقلون ماينظرون – قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون – . ومن ذا الذى كان يظن أن تقليل الكثير فى الآية يحوى هذه المعانى ويجوس بلاد الألمان والروس واليابان وكواكب السماء ودنو الآجال . أم من ذا الذى كان يظن أن آية واحدة من القرآن تسطع أنوارها وتشرق فى ميادين الحرب والنضال ومشارق الأنوار فى عوالم السماء وتكوين الأجنة فى البطون إذ يكثر صانع هذا العالم القليل من الذرية فى أعين الأمهات والآباء فلاترى أبا ولا أما يستطيعان فراق طفل أمره هين ضعيف جسمه قليل أثره فيكبر فى أعينهما حتى يكون أعظم قدرا من الملوك والأمراء والعلماء والحكماء ويتجسم عندهما . فاذا قلل الله أمر الشموس والكواكب لنعيش بهذا التقليل وتقوى أبصارنا على رؤية النور الضئيل الذى يناسب عيوننا . فهو هكذا عكس القضية فى أمر الذرية فعظم الولد فى أعين أبويه حتى خيل لهما أنه سيكون أشجع من عنترة وأقضى من أبى حسن . وأخطب من قس بن ساعدة وسحبان . وأحلم من الأحنف بن قيس . وأوفى من السموءل ابن عادياء . وأسوس من (باسمارك) . وأدهى من سيدنا عمرو بن العاص . وأجمل من سيدنا يوسف عليه السلام . وأعلم من عالم قريش الذى يملأ طباق الأرض علما . وأرقى فى الفلسفة من سقراط . وفى الهندسة من اقليدس . وفى الفلك من (فلامريوس) . وفى الانشاء من ابن المقفع والصابى . وفى الشعر

من

من أبى العلاء المعرّى وشوقى بك المصرى

هذا ماجعله الله فى الأرض قانونا عاما ان كبر صغير الأبناء فى عيون الآباء رحمة بالأوّلين وتسخيرا للآخرين كما كبر بالآلات المكبرة الأجرام فعرفنا سرّها • ذلك كله من سرّ قوله تعالى فى هذه السورة ـ واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ـ فجلّ العلم وجلّ الله الذى أتقن كل شئ وأحسنه وقدّره تقديرا ووزنه بميزان عدل • فسخرنا بالتقليل والتكبير ونحن غافلون عما يراد بنا وكأن التقليل والتكثير المذكوران من أهم الأعمال الحربية والنظم العسكرية وتربية الذرّية ونظام هذا الوجود كالمجموعة الشمسية • انتهى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية • هذا نهاية الكلام فى قوله تعالى ـ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ـ والحمد لله على ما أنعم

﴿ ولنشرع فى الكلام على تفسير بقية السورة ﴾ قال تعالى (ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى الخ)

اعلم أن الغنائم لم تحلّ للأمم قبلنا فلذلك تجد التوراة التى بين ظهرانينا مصرحة بهذا فى مواضع كثيرة وكانت نار تنزل من السماء فتحرق ماغنموه من الأعداء ويحرم عليهم أن يتعاطوه • فلما كان يوم بدر وجىء بالأسرى وهم سبعون أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم أبا بكر رضى الله عنه فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعلّ الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوّة على الكفار • وقال عمر يارسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكنى من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر • وقال عبد الله بن رواحة أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم ثم دخل ثم خرج رسول الله ﷺ فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال ـ فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ـ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال ـ إن تعذّبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ـ • ومثلك ياعمر مثل نوح قال ـ ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ • ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى إذ قال ـ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ ثم قال رسول الله ﷺ اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أوضرب عنق قال عبد الله بن مسعود الاسهيل بن بيضاء فانى سمعته يذكر الاسلام ثم بعد هنيهة قال رسول الله ﷺ الاسهيل بن بيضاء ثم قال ﷺ ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم فقالوا بل نأخذ الفداء • قال عمر فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان فقلت يارسول الله أخبرنى من أىّ شئ تبكى أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبىّ الله ﷺ فنزل قوله تعالى (ما كان لنبىّ) * وقرئ ـ ما كان للنبى ـ (أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعزّ الاسلام ويستولى أهله • يقال أثخنه المرض اذا أثقله وهو من الثخانة إذ مقام النبوّة لنشر الدعوة وتثبيت الايمان وهداية الناس وهذه أوّل غزوة غزوتموها فما كان لكم أن تستبقوا الأعداء لأخذ الفداء بل كان الاثخان فيهم أحرى بكم (تريدون عرض) الحياة (الدنيا) واقتطاف الثمرة قبل أوانها بأخذكم الفداء (والله يريد الآخرة) يريد لكم سبب نيل ثوابها من اعزاز الدين وقمع الأعداء (والله عزيز) يغلب أولياؤه أعداءه (حكيم) فى تدبير مصالح عباده (لولا كتاب من الله سبق) لولا حكم من الله سبق اثباته فى اللوح وهو ألا يعاقب المخطئ فى اجتهاده • أولا يعذب أهل بدر أوقوما بما لم يصرّح لهم بالنهى عنه أوان الفدية

التى أخذوها ستحلّ لهم (لمسكم) لأصابكم (فيما أخذتم عذاب عظيم) وقوله من الله صفة وسبق صفة ثانية لكتاب وخبره محذوف أى موجود * قال محمد بن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا الا وأحبّ الغنائم الا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ . ولذلك قال رسول الله ﷺ لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ﴿وذلك﴾ لأن كلا منهما أشار بالاثخان

ثم اعلم أن قوله تعالى - تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة - تنبيه على ماتقرّر فى الدين والحكمة أن تراكم الأموال واقبال الدنيا مدعاة للتوغل فى اللذات والشهوات كما ورد فى حديث البخارى أن رسول الله ﷺ قال ﴿ان أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها فقال قائل يارسول الله أو يأتى الشرّ من الخير﴾ فشبه له رسول الله ﷺ حال الدنيا واقبالها بحال البهائم الراتعة فى الكلأ فهى ﴿قسمان﴾ قسم يأكل ويشرب وينام فى الشمس وهو صحيح سليم . وقسم منها يأكل مايضرّه من الحشائش أو يميته وان الكلأ والحشيش انما نبت بسقى الماء النازل من السماء . فالمطر خير والنبات منه ما ضرّ ومنه مانفع . فهذا هو مثل الدنيا وعلى ذلك كانت الغنائم وكثرتها من أسباب تأخر الأمم اذا نامت على وساد الراحة وبطرت وفرحت فيخرج جيل قليل القوّة لم يتعوّد العمل فتضيع الأمّة وتهلك شأن الكاسلين النائمين ولقد علم الله أن هذه الأمّة ستتوالى عليها الغنائم فذكرها بالعذاب وبكى الرسول ﷺ ثم أحلّ لهم ذلك واكتفى بوعظ الرسول لنا وتحذيرنا من الدنيا وغرورها وأن القرآن مملوء من التزهيد فى الدنيا وأن نبينا رحمة للعالمين ونحن تابعوه وهكذا فافهم . ولما نزلت الآية التى نحن بصددها كفّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء والغنائم فنزل (فكلوا مما غنمتم) من الفدية وبقية الغنائم (حلالا) حال من المغنوم (طيبا واتقوا الله) فى مخالفته (إن الله غفور رحيم) أباح لكم ما أخذتم (يا أيها النبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى) * وفى قراءة - الأسارى - (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا) ايمانا واخلاصا وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء بأن يعطيكم فى الدنيا أضعافه أوفى الآخرة ثوابا (ويغفر لكم والله غفور رحيم) * نزلت فى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيأ وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله ﷺ وقال أما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يامحمد تتركنى أتكفف قريشا مابقيت فقال رسول الله ﷺ فأين الذهب الذى دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها انى لا أدرى مايصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهذا لك ولعبدالله ولعبيدالله وللفضل وقثم (يعنى بنيه) فقال العباس ومايدريك يا ابن أخى قال أخبرنى به ربى قال العباس أشهد انك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وانك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل وأمر ابنى أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فأسلما قال العباس فأبدلنى الله خيرا من ذلك الى الآن عشرين عبدا ان أدناهم ليتجر فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم وماأحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم * وروى أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين وهو ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وماصلى حتى فرّقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ منى قال تعالى (وان يريدوا) أى الأسرى (خيانتك) نقض ماعاهدوك عليه (فقد خانوا الله من قبل) بأن كفروا ونقضوا ميثاقه المأخوذ عليهم من الدلائل العقلية (فأمكن) أى أمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر فقتلوا وأسروا فان عاد نقضهم العهد عاد الامكان منهم

(والله عليم) بما فى بواطنهم من خيانة أو نقض عهد (حكيم) يجعل العقوبة على الذنب والثواب على الحسنات (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) وهم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أى آووهم الى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار (أولئك بعضهم أولياء بعض) أى يتولى بعضهم بعضا فى الميراث وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة أو بالنصرة دون القرابات • وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى ـ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ـ (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعنى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) يعنى من الميراث (حتى يهاجروا) الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) أى ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر) أى فعليكم نصرهم واعانتهم (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد فلا تنصروهم عليهم لأن ميثاقهم يمنعهم من أن يبتدؤا القتال فكيف تعينون الذين لم يهاجروا على قوم لا يبتدؤن أذاهم (والله بما تعملون) من صلح وغيره (بصير * والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) فى الميراث • ظاهره اثبات الموالاة بينهم ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصادمتهم وان كانوا أقارب وأن يتركوا يتورث بعضهم بعضا (الا تفعلوه) أى الا تفعلوا الا ما أمر ربكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا فى التوارث تفصيلا لنسبة الاسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلاقرابة (تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) أى تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا كما هو حاصل اليوم فترى أمراء الاسلام وعظماءه يتقربون من الفرنجة ويقاتلون معهم المسلمين فى العراق والشام وبلاد الجزائر ومراكش ولولا اعانة المسلمين فى الحرب العامة لأوروبا على المسلمين ما أخذوا بلاد الاسلام ولولا اعانة المسلمين للحلفاء لانتصرت ألمانيا على الحلفاء ولكن المسلمين ضيعوا مجدهم وقاتلوا فى صفوف الأعداء ضد اخوانهم فانقلب الفرنجة عليهم وقسموا بلاد الاسلام بينهم فأخذ الانجليز العراق وفلسطين وأخذ الفرنسيون الشام كما أخذت فرنسا قبل أربعين سنة تونس وقبلها الجزائر وأخذت انكلترا مصر واقتسم الفرنسيون والأسبان مراكش • كل هذا لتقاطع المسلمين وجهالتهم ومصداق لقوله تعالى ـ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ـ فهذه هى الفتنة وهذا هو الفساد الكبير وأى فساد أعظم من هذا أن يصبح المسلمون وممالكهم كقطع الشطرنج تنقل فى الرقعة بلاعبها ويساقون للعذاب الهون • ذلك لقلة العلم فيهم وغلبة الجهل وأن الطمع قد غشى على العقول والنفوس فلا ينظرون إلا بشهواتهم ولا يسمعون الا بأطماعهم القصيرة النظر العديمة الجدوى (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) • ولما بين الله أحكامهم من حيث المعاملات أخذ يبين حقائق ايمانهم وما أعد لهم تبيينا لأحكام الآخرة بعد أحكام الدنيا • وأيضا لما جعل الله فى أول السورة المؤمنين حقا هم الذين يوجلون عند ذكر الله ويزيدون ايمانا بتلاوة آياته ويتوكلون على ربهم ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة أبان فى آخرها هنا أن المهاجرين والأنصار قد استوفوا شروط المؤمنين حقا ولذلك أعقبه بقوله (لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) فى الجنة (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) يريد اللاحقين بعد السابقين الى الهجرة (فأولئك منكم) وذلك للترغيب • واعلم أن المهاجرين الأولين هم الذين هاجروا من مكة الى المدينة قبل صلح الحديبية والمهاجرون الهجرة الثانية هم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية الى فتح مكة فقوله ـ والذين آمنوا وهاجروا الخ ـ يقصد به الهجرة الأولى وقوله ـ والذين آمنوا من بعد الخ ـ يراد به والله أعلم الهجرة الثانية فأما بعد فتح مكة فقد صارت دار اسلام لقوله ﷺ ﴿ لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ﴾ أخرجاه فى الصحيحين • وقال الحسن الهجرة غير مقطوعة أى من بلد يخاف المؤمن على اظهار دينه فيه

من كثرة الكفار فهذا يجب عليه أن يهاجر الى بلد لايخاف فيه على اظهار دينه وفى هذا افهام أن المهاجرين الأوّلين أفضل من الذين بعدهم فألحقوا بهم قال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) * قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية فبهذا تبين أن سبب القرابة أولى وأقوى من سبب الهجرة والاخاء فهذا نسخ لما تقدّم • وكتاب الله أى حكمه أواللوح المحفوظ • وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية فى توريث ذوى الأرحام • أما الشافعى رضى الله عنه فقال كتاب الله حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التى ذكرها فى سورة النساء من قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم (ان الله بكل شئ عليم) يعنى انه سبحانه عالم بكل شئ لاتخفى عليه خافية

﴿ لطيفة ﴾

بينما أنا أكتب فى تفسير هذه الآية وأنقل آراء الامامين الجليلين أبى حنيفة وامامنا الشافعى رضى الله عنهما واختلافهما واجتهادهما لمصلحة الأمّة • وكيف يقول أحدهما لاتوريث لذوى الأرحام ويورثهم الآخر ويحتج كل منهما بحجة على مافتح الله عليه • فهذا يقول أولوا الأرحام يشمل من فى آية الميراث وغيرهم • والآخر يقول حكم الله الذى ورد فى سورة النساء يقيده – ولكل وجهة هو موليها – رأيت أنه مما يجب علىّ فى هذا المقام • لقد اجتهدا فأحسنا الاجتهاد وحافظا على حقوق الأقارب بقدر طاقتهما البشرية • ولوأنهما كانا حيين ورأيا أوروبا وانتهازها الفرص لاضطهاد الأمم الاسلامية وارتقاءها بالعلوم والمعارف والغنى والثروة والعلوم الطبيعية وماسخر الله لهم من العوالم المادّية فأصبحوا ولهم مشارق الأرض ومغاربها • لوأنهما كانا حيين لقالا معا بصراحة ان قوله تعالى – قل انظروا ماذا فى السموات والأرض – وقوله – انظروا الى ثمره اذا أثمر – وقوله – هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا – وقوله – وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين * وسخر لكم الليل والنهار – وقوله – هوالذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب – من الآيات التى تبلغ سبعمائة وخمسين آية من القرآن

أقول لوكانا حيين ونظرا مانظرناه لقالا ان هذه العلوم يجب دراستها فى جميع أقطار الاسلام دراسة كما تدرس الأحكام الشرعية بعناية أتمّ واهتمام أكمل • ولقدأوجبت المذاهب كلها العلوم والصناعات على سبيل فرض الكفاية • ولكن علماء الاسلام لم يعطوها العناية الكافية ولوأن فى المسلمين مجتهدين الآن متيقظين لأحيوا العهد الأوّل ولحرّضوا المسلمين على علوم الكائنات وسبق المسلمون الفرنجة ولقال لهم علماؤهم من عرف فنّ الطبيعة والفلك والكيمياء فله ثواب من قرأ الميراث والوضوء والصلاة لأنها كلها علوم دينية

لوأن هذين الامامين كانا حيين لرأينا خلافهما فيما يجب على المسلمين من تلك العلوم ولرأينا حرصهما الشديد على أمّتنا المسكينة

حرام على علماء الاسلام أن يناموا • حرام عليهم أن يذروا الأمّة تتخبط وهم نائمون • حرام على الحكماء فى مصر وفارس والعراق والشام والترك وشمال أفريقيا وبلاد نجد أن لا ينشروا وجوب العلوم على المسلمين ليسابقوا الفرنجة وليقاوموهم • فانظر كيف بلغ من اجتهاد امامينا أن بالغا فى مبحث أولى الأرحام هل هم خاصون بمن ذكروا فى الآية • أم هم أعمّ منهم مع ان المال الموروث لايزيد بهذا التقسيم سواء أكان للعموم أم للخصوص • ان المال الموروث لم يزد بعد هذا كله ولكن المسألة فى أن يعطى كل ذى حقّ حقه من أقارب الميت • هذا هو الخلاف فى الآية

فانظر لجهالة المتأخرين من المسلمين وقد رأوا بأعينهم أن الغربيين قدسخروا الطبيعة فاستخرجوا منها أموالا وأموالا حتى أحاطوا بنا من كل جانب وفتحوا الممالك شرقا وغربا ودخل كل بيت من بيوتهم مكاسب ومكاسب ونالوا حظا عظيما مما رزقهم الله بهداية عقولهم وارشاد حكمائهم وتبيان رؤسائهم • كل ذلك رأوه

فلم

فلم يحركوا ساكنا ولم يقولوا يا أبناءنا المسلمين ويا اخواننا المحمديين هذه أرض الله لكم وعواله فاملكوها واستخرجوا كنوزها حتى تقوى أمة الاسلام ٭ وانظروا كيف كان أئمتنا يحافظون على القليل الموروث فلا يأخذ زيد مال عمرو ٭ فكيف لانحافظ على مال الأمة كلها الغنى والفقير والعظيم والحقير ذلك المال المستخرج من الأرض والجبال والهواء والماء ٭ دونكم وخواص الطبيعة وعجائب الكيمياء وكيف وصل الألمان الى استخراج النترات من الهواء وأصبح الهواء المحيط بالأرض كنزا للآلات الحربية وللسماد فى الزراعة ومكسبا عجيبا والمسلمون يتنفسون فى الهواء ويشربون الماء وهم غافلون عن استنباط الحيل فى استخراج كنوزهما ٭ وكيف أصبحت حركات الماء النازل من أعلى الى أسفل كما فى شلالات مصر أوالخزانات التى أنشئت على النيل مبدأ الكهرباء التى تبعث النور وتوقد النار وتجرى القطرات وتعطى الأمة من الفوائد مالاحصر له ٭ فاذا جدّ أئمتنا وبحثوا ودققوا حفظا لمال الأفراد ٭ فياليت شعرى كيف قصرت أنظار المتأخرين فناموا نومة أهل الكهف فلم يرفعوا أبصارهم الى الميراث العام الذى يملأ البيوت جميعها مالا ويورثها جلالا ويجعل للأمة جمالا وكمالا ٭ فالأرض كلها لله — ولله ميراث السموات والأرض — وهذا هو الميراث الذى سخره لنا فقال — وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه — فهو الوارث وهو المسخر ومن أعرض عن النعم فهو حقيق بالحرمان ومن كسل عن مواهبه باء بالخسران

﴿ الميراث ميراثان ميراث الحى وميراث الميت ﴾

ان ميراث الميت ميت وميراث الحىّ حى ٭ فالله هو الحى وهو الذى له خزائن السموات والأرض ٭ ان ميراث الميت فى علم الفقه انما ينفع أسرة واحدة بخلاف ميراث الحى فانه ينفع الأمم كلها ٭ وميراث الميت يجعل الوارث بطىء الحركات قليل الهمة ٭ وميراث الحى وهو الله يعطيه للناس على قدر أعمالهم لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم فهو عدل ٭ ولقد نجد الذين رقوا أممهم فى الزمان الحاضر من العصاميين الذين لامال لهم ورثوه جدّوا فى العمل فرفعوا شأن الأمم ٭ فأما الملوك الذين ورثوا ملكهم عن آبائهم فكثير منهم أصابوا الأمم بالنكبات وأحلوا بها الأزمات ٭ ولقد ترى الأمم الانجليزية ضربت على كل تركة مقدارا من المال يكثر كلما كثرت التركة ويقلّ كلما كان المال قليلا ٭ ونرى البلشفية منعت الملك وأمرت جميع الأمة بالعمل لترقى البلاد بأعمال أبنائها ٭ النوع الانسانى اليوم ولى وجهته شطر ميراث الله الذى له خزائن السموات والأرض فعلى المسلمين أن يوجهوا عنايتهم لذلك الميراث الذى يسع الممالك كلها ولم يضيق الله على أمة فيه ولم يمنعه عن أحد وانما يعطيه بالعلم فكلما كان الناس أكثر علما بمصنوعاته كانوا أكثر ثروة وغنى

ان الأنبياء لم يورثوا مالا ﴿ نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة ﴾ فالنبوّة فتحت باب العلم على مصراعيه ولكنها أقفلت باب المال من ناحيتها تنبيها على تلك الخزائن الالهية والمواريث الربانية ٭ ومن هذا المقام — يرثنى ويرث من آل يعقوب — ذلك ميراث العلم فالأنبياء يورثون الناس علما وذلك مفتاح خزائن السموات والأرض

وعسى الله أن يجدد لهذه الأمة أمرها ويرجع مجدها ويرفع عنها نيرها ويجعلها رحمة للعالمين ٭ اللهم انى لا أريد بكتابى إلا رقى النوع الانسانى وأن يكون المسلمون أرشد العالمين وأصلح بنى الانسان وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لايظلمون ولايظلمون ٭ انتهى تفسير سورة الأنفال

سورة التوبة

هى مدنية بالاجماع إلا آيتين فى آخرها ـ لقد جاءكم رسول من أنفسكم الخ ـ فانهما نزلتا فى مكة وهى مائة وتسع وعشرون أو ثلاثون آية وتركت التسمية فى أولها لأنها نزلت لرفع الأمان والبسملة أمان لأن الرحمة فيها وأى أمان فوق الرحمة والتسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود * وقيل ان الصحابة اختلفوا فى سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم هما سورة واحدة لأنهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال * وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة

وسأل ابن عباس رضى الله عنهما فى ذلك سيدنا عثمان رضى الله عنه فقال كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السور التى يذكر فيها كذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيها بقصتها وظننت انها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا انها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال • أخرجه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن اهـ

﴿ تقسيم سورة براءة ﴾

هى أربعة أقسام ﴿أولها﴾ الآيات التى قرأها سيدنا على بن أبى طالب يوم الحج الأكبر وهى أربعون الى قوله ـ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ـ ﴿ثانيها﴾ التحريض على الجهاد والانفاق فى سبيل الله ووصف اليهود والنصارى والأحبار والرهبان والجزية والأشهر الحرم من قوله ـ الا تنفروا يعذبكم ـ الى قوله ـ ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ـ ﴿ثالثها﴾ فى المنافقين وتوبيخهم وأحوالهم من قوله تعالى ـ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا ـ الى قوله ـ أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ـ ﴿رابعها﴾ الكلام على المؤمنين وأحوالهم من قوله ـ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ـ الى آخر السورة

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا
لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ
إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا
ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ
وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ
اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ
مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *
الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ

إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِي
مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ
اللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ
إِنْ شَاءَ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِكَ
قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً
وَاحِداً لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى
اللّٰهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمٰى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنِزُونَ * إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ

يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ *

اعلم أن هذه الآيات أربعون وهى التى قرأها سيدنا علىّ يوم الحج الأكبر (العيد) على الناس وملخص هذا المقام أن رسول الله ﷺ كان مأمورا أن لا يقاتل المشركين أوّلا والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة ثم بعد ذلك أمر أن يقاتل من قاتله * قال الحسن أمر الله عزّ وجل رسوله ﷺ بقتال من قاتله من المشركين فقال ـ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ـ فكان لا يقاتل الا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر اهـ

وقوله رضى الله عنه فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر أى إلا بنى حمزة وهم حى من كنانة أمر رسول الله ﷺ باتمام عهدهم الى مدّتهم وكان قد بقى من مدّتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا عهدا وكان ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر أى يوم العيد وكان ذلك فى العام العاشر من شهر ذى القعدة فآخر الأشهر الأربعة العاشر من شهر ربيع الأوّل وانما كان الحج فى شهر ذى القعدة لأجل النسىء الذى كان يحسبه العرب فلما كان العام الذى بعده صار الحج فى العاشر من ذى الحجة وفيها حجّ رسول الله ﷺ وقال ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض الحديث

وهذا لمن كان له عهد أقلّ من أربعة أشهر فأما من لم يكن له عهد فقد جعل عهده أربعة أشهر ومن كان عهده فوق الأربعة حط أجله الى أربعة ان كان نقص شيأ من شروط العهد فأما ان كان أتم شروط العهد كبنى ضمرة من كنانة فهؤلاء يوفى لهم بعهدهم

﴿ سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر ﴾

اعلم أن مكة لما فتحت سنة ثمان من الهجرة وجاءت سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا أحبّ أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذّن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولما كلم أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ فى ذلك قال أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وانك معى على الحوض قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحاج وعلىّ بن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر فى الناس وحدّثهم عن مناسكهم حتى اذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فأذن فى الناس بالذى أمر به وقرأ عليهم أوّل سورة براءة

وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا بأىّ شئ بعثت فى الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبىّ ﷺ عهد فهو الى مدّته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج ثم حج النبى ﷺ سنة عشر حجة الوداع فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه النبى ﷺ حجة الوداع مشرك وأنزل الله فى العام الذى فيه نبذ أبو بكر الى المشركين عهدهم ـ يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ـ الآية وانما أمر سيدنا علىّ بالنداء فى الناس لأن عادة العرب

جرت أن لايتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أورجل من أقاربه وكان علىّ بن أبى طالب أقرب الى النبىّ ﷺ من أبى بكر لأنه ابن عمه • ومما ذكره المفسرون فى سبب هذا النداء أن رسول الله ﷺ لما خرج الى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم و بين رسول الله ﷺ فأمر الله عزّوجل بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى ـ واما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ـ فى سورة الأنفال فهاهوذا النبذ على سواء • ولما وقف سيدنا على ونادى فى الناس بالآيات من أوّل براءة عند جمرة العقبة وقال يا أيها الناس انى رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أوأربعين آية ثم قال أمرت بأربع وهى المتقدّمة فقالوا عند ذلك ياعلى أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا و بينه إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف • هذا خلاصة ماذكره المفسرون مع تشعبه فلنشرع فى تفسير الآيات • قال تعالى (براءة) أى هذه براءة (من الله ورسوله) البراءة التباعد مما تكره مجاورته * قال الزجاج أى قد برئ الله ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذا نكثوا (الى الذين عاهدتم من المشركين) أى هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) أى فسيروا أيها المشركون فى الأرض كيف شئتم مقبلين ومدبرين آمنين غيرخائفين والسياحة الضرب فى الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة والمعنى قل لهم سيحوا والقصد من الأمر الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الأمان وزوال الخوف والقتل والقتال و بعد الأشهر الأربعة التى شرحناها فيما تقدّم وبينا ما اخترناه من كلام المفسرين يقتل المشرك حيث أدرك و يؤسر إلا أن يتوب و يرجع الى الايمان • ولاتظنوا أيها المشركون انكم تفوتون الله فلايمكن المسلمين منكم • كلا فلتعلموا أنكم لاتفلتون من أيدى المؤمنين (واعلموا أنكم غيرمعجزى الله) يعنى ان هذا الامهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب ويؤمن • ومامثلكم فى أنكم فى قبضة الله وقد أمهلكم ثم اذا أخذكم وسلط المؤمنين عليكم لن تفلتوا بل تنقادون إلا كمثل ماقال طرفة بن العبد

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى * لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى مايشا يوما يقده لحتفه * ومن يك فى قيد المنية ينقد

فهكذا هؤلاء يسيحون أربعة أشهر كأنهم كالحيوانات المربوطة فى الطول وقد وضع الرجل ثنياه فى يديه فيرتع الحيوان كما يشاء ومتى أراد الرجل جذبه ارتدّ اليه حالا هكذا الموت مع الناس وهكذا المؤمنون مع المشركين بعد الأشهر الأربعة فهم لايفلتون بل هم فى قبضتهم هذا معنى الآية لأن الله خاذل الكافرين (وأن الله مخزى الكافرين) بالقتل والأسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (و) هذا (أذان من الله ورسوله) أى اعلام صادر من الله ورسوله (الى الناس يوم الحج الأكبر) يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمى وانما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر وجملة وأذان معطوفة على جملة براءة كأن الله يقول ـ واعلام من الله ورسوله ـ (أن الله) أى بأن الله وحذفت صلة الأذان تخفيفا (برىء من المشركين ورسوله) برىء على قراءة الرفع * وقرئ ـ ورسوله بالنصب ـ عطفا على اسم ان وقرئ بالجر

﴿ حكى ﴾ أن اعرابيا سمع رجلا يقرأ ـ ورسوله ـ بالجر فقال ان كان الله بريئا من رسوله فأنا برىء منه فلببه الرجل الى عمر فحكى الاعرابى قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية وهذه قراءة واردة أيضا والجرّ اما على الجوار أوعلى القسم فرسوله مثلثة اللام (فان تبتم فهو) أى فالتوب (خيرلكم وان توليتم) عن التوبة أى تبتم عن التولى عن الاسلام والوفاء (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) غير فائتين من عذابه (و بشرالذين كفروا بعذاب أليم) فى الآخرة ثم استثنى من قوله ـ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ـ فقولوا لهم سيحوا الى آخره قوله (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط العهد ولم

ينكثوه ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط كبنى ضمرة (ولم يظاهروا) أى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) يعنى من عدوّكم (فأتموا اليهم عهدهم الى مدّتهم) أى الى تمام مدّتهم ولاتجروهم مجرى الناكثين (إن الله يحبّ المتقين) الذين يضعون الامور مواضعها و يوفون بالعهود مع الموفين ولايجعلونهم كالناكثين (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) أى انقضت شهور العهد وانما سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها وهى التى أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها وهذا اختيار مجاهد ومحمد بن اسحق وهو الذى يناسب نظم الكلام واتزان المعنى (فاقتلوا المشركين) الناكثين (حيث وجدتموهم) من حلّ وحرم (وخذوهم) وأسروهم * والأخيذ الأسير (واحصروهم) واحبسوهم أوحولوا بينهم و بين المسجد الحرام (واقعدوا لهم كل مرصد) كل ممرّ ومجتاز ترصدونهم به وهومنصوب على الظرف (فان تابوا) عن الكفر وآمنوا (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) حتى تصدق توبتهم وايمانهم (فخلوا سبيلهم) فاطلقوهم بعد الأسر والحصر ان وقعوا فى قبضتكم أودعوهم ولا تتعرّضوا لهم ان لم تكونوا استحوذتم عليهم ومن ترك الصلاة ومنع الزكاة لايخلى سبيله (إن الله غفور رحيم) تعليل لتخلية سبيلهم فان الله يغفر بالاسلام ماقد سلف للكافر (وان أحد من المشركين) المأمور بالتعرّض لهم (استجارك) استأمنك وطلب منك جوارك (فأجره) فأمنه (حتى يسمع كلام الله) و يتدبره و يطلع على حقيقة الأمر (ثم أبلغه مأمنه) داره التى يأمن فيها ان لم يسلم ثم قاتله ان شئت. فعلى المسلمين أن لا يؤذوا مستأمنا وليس له أن يقيم فى دارنا وعلينا أن نمكنه من العودة (ذلك) الأمر بالاجارة (بأنهم) بسبب انهم (قوم) جهلة (لايعلمون) ما الاسلام وماحقيقة مايدعو اليه فلا بدّ من اعطائهم الامان حتى يسمعوا و يفهموا الحقّ (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) كيف استفهام فى معنى الاستنكار والتعجيب ومعناه الجحد أيضا أى لايكون لهم عهد عند الله ولاعند رسوله وهم يغدرون و ينقضون العهد (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) وهم بنوضمرة المتقدّم ذكرهم ولم ينقضوا شرطا من شروط العهد ولم يعينوا عليكم عدوّا كما تقدّم تفصيله فتربصوا أمرهم (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى فان استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهذا كقوله فيما تقدّم ــ فأتموا اليهم عهدهم الى مدّتهم ــ ولكنه مقيد هنا بأن يستقيموا على العهد وماشرطية (إن الله يحبّ المتقين) الذين يتربصون و يستيقظون فى هذه الأحوال وأمثالها و يميزون بين الخبيث والطيب (كيف) تكرار لتعجب واستبعاد أى كيف يكون بينكم و بينهم عهد (وان يظهروا عليكم) يغلبوكم أى كيف وحالهم انهم أن يظفروا بكم (لايرقبوا فيكم) لا يراعوا فيكم (إلا) قرابة (ولاذمّة) عهدا (يرضونكم بأفواههم) بالوعد بالايمان والوفاء بالعهد وهذا كلام مستأنف فى وصف حالهم وأن ظاهرهم بخلاف باطنهم وهو يقرّر استبعاد الثبات منهم على العهد وكأنه قيل لماذا يوصفون بذلك فكان الجواب ــ يرضونكم الخ ــ (وتأبى قلوبهم) الايمان والوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهود متمرّدون فى الكفر لامروءة تمنعهم عن الكذب ولافضائل تردعهم عن النكث وهذه حال أكثرهم أما أقلهم فهم وان كانوا كفارا فهم ثابتون على العدالة فى دينهم ولذلك لم ينقضوا العهد (اشتروا) استبدلوا (بآيات الله) بالقرآن (ثمنا قليلا) عرضا يسيرا وهو اتباع الشهوات ونقض العهود والمبالغة فى العداوات (فصدّوا عن سبيله) أى عدلوا عن دينه وصرفوا غيرهم أوصدّوا عن سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار (انهم ساء ما كانوا يعملون) والمقصود بالذم عملهم هذا ثم وصفهم هنا كما وصفهم قبلا بقوله ــ لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمّة) وهذا غير ماتقدّم لأنه قال هناك ــ فيكم ــ وهنا قال ــ فى مؤمن ــ فهنا أعمّ * ويقال ان هؤلاء نقضوا العهد بسبب أكلة أطعمهم اياها أبوسفيان بن حرب فذمّهم الله بذلك وعلى هذا يكون هذا خاصا بهؤلاء والأوّل أعم (وأولئك هم المعتدون) المجاوزون الغاية فى الظلم والشرّ (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) لافى النسب (ونفصل الآيات)

نبينها (لقوم يعلمون) يفهمون فيتفكرون فيها وهذه جملة معترضة يعني ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه كأنه قيل ان من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم وذلك للتحريض على أن يتأمل الناس مافصل من أحكام المشركين المعاهدين والمحافظة عليها * وقال ابن عباس رضى الله عنهما حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة * وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلاصلاة له * وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك ماذكره أبو بكر في حق من منع الزكاة وهو قوله ﴿ والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما ﴾ يعني الصلاة والزكاة * وفى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لومنعونى عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ماهو الا أن رأيت ان الله شرح صدر أبي بكر للقتال . ثم قال تعالى (وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم) أى وان نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان (وطعنوا فى دينكم) وعابوه (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم صاروا بذلك رؤساء مقدمين فى الكفر فهم أحق بالقتل (انهم لا أيمان لهم) على الحقيقة وانما أثبت لهم الأيمان فى قوله ـ وان نكثوا أيمانهم ـ لأنه أراد أيمانهم التى أظهروها ثم قال هنا لا أيمان لهم على الحقيقة والا لما طعنوا ولم ينكثوا وفيه دليل على أن الذمى اذا طعن فى الاسلام فقد نكث عهده . وهنا قال الحنفية ان يمين الكافر ليست يمينا . ويقول الامام الشافعى ان أيمانهم لايوثق بها ويجعل يمينهم يمينا حيث وصفت بالنكث . أقول ومتى كانت الأيمان معناها العهد لم يتأت هذا الخلاف ولا يكون الا حيث يجعل اليمين بمعنى الحلف فى الموضعين وقوله تعالى (لعلهم ينتهون) أى فقاتلوا أئمة الكفر لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ويرجعوا عن الكفر الى الايمان . ثم أخذ يحض المؤمنين على جهاد الكفار فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا صلح الحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة (وهم بدؤكم) يعنى بالقتال (أول مرة) يعنى يوم بدر اذ قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه و بدؤا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ (أتخشونهم) أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم (فالله أحق أن تخشوه) يامعشر المؤمنين فاخشوا ترك أمره (ان كنتم مؤمنين) أى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده فاخشوه وهل يكمل الايمان الا بحصر الخشية فى الله وعدم المبالاة بمن سواه . ولما انتهى من توبيخهم على ترك القتال أمرهم به فقال (قاتلوهم يعذبهم الله) الى قوله (ويذهب غيظ قلوبهم) فجعل المرتب على القتال خمسة أمور (١) التعذيب بالقتل (٢) والذل بالقهر ونزول الهوان (٣) والنصر عليهم والظفر بهم (٤) وشفاء صدور المؤمنين وشفاء داء قلوبهم بما كانوا ينالونه من الأذى منهم ولا ريب أن من آذاه خصمه أمدا طويلا ثم مكنه الله منه فانه لامحالة يعظم سروره (٥) وذهاب غيظ القلوب لما لقوا من المكروه . وكل هذا قد حصل وهذه من دلائل النبوة ثم استأنف قائلا (ويتوب الله على من يشاء) كبعض أهل مكة كأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو (والله عليم) بما كان وماسيكون ومنه علم القلوب الصالحة للايمان (حكيم) فى قبول توبتهم وايمانهم . ولما كان ما تقدم يرجع الى القتال واقامة الحروب واخضاع الأعداء وكان ذلك شاقا على النفوس صعبا على الناس أردفه بأن الناس فى الدنيا مخلوقون للأعمال مبتلون بأثقالها والجهاد فيها فمن جد وصبر فاز ومن سقط فى الامتحان نزل به الهوان وهذا هو قوله (أم حسبتم)

الى قوله (والله خبير بما تعملون) أى أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا فلاتؤمروا بالجهاد ولاتختبروا ليظهر الصادق من الكاذب . والغث من السمين . والجيد من الردىء . وهل تتركون ولم يتبين المجاهدون منكم ولم يتخذوا - وليجة - أى بطانة من دون الله ورسوله والمؤمنين * وملخص الآية أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولابراءة من المشركين - والله خبير بما تعملون - يعلم غرضكم منه . ثم انه هاهنا شرع الله عزوجل يبين فضل الايمان والجهاد ويعطى المسلمين صورة صادقة للمسلم الصادق فهو أوّلا يفضل الايمان والجهاد على عمارة المساجد لأن عمارة المسجد لافائدة منها اذا لم يكن المعمر مؤمنا وكيف يعمر المسجد وعبادته ملغاة أم كيف يعمر المسجد والعدو محيط به من كل ناحية . فعلى المسلم تصحيح العقائد أوّلا فان الجسم لاينشط إلا على مقتضى الارادة وأن يجمع الجيوش و يطرد الأعداء ويخيف الأمم حوله حتى لايطمعوا فى دياره

ولعمرى كيف يصلى الناس وهم خائفون . أم كيف يتعبدون فى المساجد وهم محاصرون . أم كيف يقومون بأعمالهم الدينية وهم لايعتقدون . وثانيا وضع الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمسكن فى كفة والايمان والجهاد فى كفة وفضل الكفة الأولى على الثانية * ذلك لأن من اكتنفه العدو وأحاط به الظالمون من كل صوب فأبناؤه وأهله وأقاربه وماله ومسكنه وجميع مايتمتع به فى حكم المفقود لأن العدو سيأخذه منه ويحرمه فاقتضت السياسة الحكيمة أن الجهاد والايمان يقدمان على سائر ماذكر . ان الجهاد به صيانة الأمة وحفظها . وقد هدد من أحب هذه الامور وفضلها على الجهاد والايمان بعقاب شديد وقد عرفت العقاب فهو الذى وقع فيه المسلمون اليوم فقد ضعف الايمان وقل الجهاد فأخذ الفرنجة المسلمين من كل جانب وهذا مصداق الآية وهذا هو قوله تعالى - ما كان للمشركين - الى قوله - والله لايهدى القوم الفاسقين - * وسبب نزول الآية أن أسرى بدر من قريش الذين تقدم ذكرهم فى سورة الأنفال ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيرونهم بالشرك وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم محاسن قال نعم نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى يعنى الأسير فنزل قوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) سواء أكان المسجد الحرام أوغيره (شاهدين على أنفسهم بالكفر) باظهار الشرك وتكذيب الرسول وعبادة غير الله وقد كان أهل مكة يطوفون بالبيت عراة وكانوا كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام (أولئك حبطت أعمالهم) التى عملوها فى الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العانى وكل عمل ليس لله فقد حبط و بطل (وفى النارهم خالدون) أى من مات منهم على الكفر فاذا كان أهل مكة قد عمروا المسجد الحرام فليس بنافع لهم لأمرين ﴿الأول﴾ أن أعمالهم حبطت بكفرهم ﴿الثانى﴾ أنهم مغتصبون لحقوق المسلمين . فالأول فى الآية السابقة . والثانى فى قوله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) أى انما تستقيم عمارة المساجد لمن جمعوا بين قوتى العلم المعبر عنه بالايمان الخ والعمل باقام الصلاة وايتاء الزكاة وعدم خشية أحد فى أبواب الدين إلا الله فهؤلاء وحدهم الذين يقومون بتزيين المساجد بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها فلو أوصى كافر ببناء مسجد لم تقبل وصيته وهكذا يمنع الكفار من دخول المساجد بغير اذن مسلم واذا دخل بغير اذن عزر . ثم ان الله لما خصص المؤمنين الموصوفين بما ذكر بعمارة المساجد لم يشأ أن يؤمنهم من حوادث القدر بل أبقى لهم خوفا فى نفوسهم لئلا يظنوا أن الاتصاف بما ذكر كاف للسعادة فان هناك من الامور النفسية والأخلاق السبعية والعوارض الشيطانية فى النفوس الانسانية مايبعث على الخشية المذكورة فى الآية فلذلك أعقبه بقوله (فعسى أولئك أن يكونوا من

المهتدين) بصيغة التوقع فهؤلاء مع كمالهم فى الايمان يتوقع لهم الهداية • ثم أخذ سبحانه يزيده ايضاحا ويؤكده فقال على سبيل الاستفهام الانكارى (أجعلتم الخ) السقاية والعمارة مصدران أى أجعلتم أهل ـ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ـ ثم قرر الحكم فقال (لايستوون عندالله) و بين عدم المساواة فقال (والله لايهدى القوم الظالمين) ولاجرم أن الكفر ومعاداة النبى ﷺ ظلم فكيف يساوى هؤلاء الذين هداهم الله وقبلوا الحق ثم بين طائفة أعلى من غيرها وأعظم قدرا من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وممن لم يستجمع الصفات المذكورة الآتية وتلك الصفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والجهاد بالمال فهؤلاء أعظم درجة من غيرهم (وأولئك هم الفائزون) بالثواب ونيل الحسنى عند الله لأن المجاهد بنفسه وماله فوق المصلى المزكى الذى لايجاهد ولذلك قال فى ماتقدم ـ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ـ وهنا خصهم بالفوز وأتبعه بالبشارة من ربهم بأنه يرحمهم ويرضى عنهم ويدخلهم جنات نعيمهم فيها دائم وهم خالدون فيها خلودا مؤكدا بالتأبيد وعند الله الأجر العظيم الذى يحتقر دونه نعيم الدنيا ولانسبة بين أعمال العاملين والأجر الذى استوجبوه • ثم أخذ سبحانه يبين أن الأمة مالم تجتمع أفرادها على رأى واحد تفرقت وحداتها وزالت جامعتها وأهم ذلك الاجماع على الايمان وقد يستبدله قوم بالوطنية وآخرون باللغة الى آخر مافى كتاب أهل المدينة الفاضلة للفارابى فنهى سبحانه أن يتخذ المؤمنون آباءهم واخوانهم أولياء يوالونهم ان آثروا الكفر على الايمان وأوعدهم قائلا (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) ثم بين أهم مايحبه الناس فى الدنيا وهى ثمانية وفضل الجهاد والايمان عليه (قائلا ـ قل ان كان آباؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أقرباؤكم (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (كسادها) فوات وقت نفادها وقوله (فتربصوا حتى يأتى الله بأمره الخ) وعيد وتهديد بضياع الأمة وتشتيت شملها

﴿ لطائف فيما تقدم من الآيات من هذا القسم من السورة ﴾

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى ـ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ـ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ـ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الخ ـ

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول ـ

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ ـ أجعلتم سقاية الحاج الخ ـ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ ـ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم الخ ـ

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ ونفصل الآيات الخ ـ والكلام على الأمم الاسلامية ونومتها ﴾

أنظر الى اجتهاد أبى بكر الصديق وكيف يقول بعض الأجلة الأعلام من صدر الأمة الاسلامية ما كان أفقه أبا بكر يريد بذلك أنه لم يفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة لما جاءه عمر رضى الله عنه قائلا يا أمير المؤمنين اكتف منهم بالصلاة ردّ عليه قائلا وقد أخذ بلحيته يارجل أجبار فى الجاهلية خوّار فى الاسلام والله لومنعونى الخ • فتعجب كيف كانت قوّة الاسلام ومنعته وبقاؤه وبهجته ورونقه وملكه لفارس والروم وحفظه الثغور راجعات كلها الى أمر واحد وهو قرن الصلاة بالزكاة وقد فهمها أبو بكر وعمل لحفظ بها الوحدة وبين الله أهمية ذلك بقوله ـ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ـ وقد قال بعض المفسرين انه بذلك يستثير الهمم ويحرض الأذكياء على الفهم فى أمر المعاهدات • وكأنه قيل من تأمّل تفصيلها فقد استحقّ منقبة العلم • وقد ظهر أن أوّل من استحق منقبة العلم فى هذا الباب أبو بكر الصدّيق فهو الذى فهم وهو الذى عمل • هذه هى المقدّمة التى أكتبها للنتيجة التى أطلبها وهى

﴿ العلوم المسماة بالعصرية من السموات والأرض وعجائب الحكمة الالهية ﴾

أنظر أيها الذكى كيف استقامت أمّة الاسلام ونجح الصدّيق فى أمره • بماذا • بماذا جمع الاسلام •

جمعه بقرن الصلاة بالزكاة وهو الذى تفطن لهذا وحده ثم اتبعه المسلمون وأذعنوا . وبماذا مدحه الله . مدحه هو وأمثاله بالعلم . بماذا . بانه عرف تفصيل هذه المسألة السياسية العمرانية الدينية فهل فطن المسلمون بعد ذلك فى هذه العصور . عصور العلم والعرفان . عصور الحكمة والنور . عصور الكشف الحديث . عصور الكهرباء والبخار . عصور الكيمياء والحديد . عصور المواد اللطيفة الهوائية التى بها تطير الطيارات وتحلق فى جو الفضاء . عصور انقلاب المعمورة وتغيير العالم الانسانى وانزال الصواعق من الطيارات . هل فطنوا على من تقع تلك الصواعق . على الجاهلين . من هم الجاهلون . الجاهلون بنظام الله . الجاهلون بما خلق الله . الجاهلون بهذا العالم المملوء جمالا وحكمة وبهاء وحسابا ووزنا . كل العالم موزون منظم بهج بديع . فواحسرتاه على أمة الاسلام . ووا أسفاه على هذه الأمة النبيلة التى خلقها الله فى الشرق مهد العلم والحكمة والفلسفة . فياليت شعرى كيف يكون الشرق مهد المدنية والعرفان وينزل فيه نبى صادق منهم ثم يكون ذلك الشرق نفسه مهد الغباوة والجهالة . وكيف أصبح فى ظلام دامس وجهل طامس . لعلك تقول انك بهذا القول خرجت من المقام ودخلت فيما ليس منه وأى مناسبة بين المعاهدات الاسلامية والنظامات الكونية . وانما أنت تريد أن تذكر العجائب الكونية بمناسبة وغير مناسبة لأن هذا تحيل فى الكلام وخروج عن سنن التأليف وهذا مما تنفر منه الطباع ويأباه العلماء الأعلام

أقول على رسلك ان هذا المقام به أليق وهو به حقيق . ألا ترى أن مناعة أمة الاسلام التى جاءت من اقتران الصلاة بالزكاة وقد مدح من يعرفها بالعلم . قد جاء فى القرآن فى سورة الأنعام نظير هذا المدح بل هو أبلغ منه فيمن يعرف علم النجوم وسيرها وعلم التشريح وعلم النبات وما أشبه ذلك . فاذا قال الله هنا ـ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ـ فقد قال فى سورة الأنعام ـ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ـ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ـ ثم شرع يذكر الجنات والأعناب والنخيل وقال ـ إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ـ فانظر كيف يقول هناك قد فصلنا ففيها قد للتحقيق وفيها فصلنا بصيغة الماضى وهى تفيد التحقيق وعبر فى جانب الامور الطبيعية وهو التشريح بالفقه وهو أبلغ من العلم لدلالته على شدة الفطنة وختم بأن هذه دلالات لقوم يؤمنون . فانظر كيف ابتدأ الله الآيات بأنه عزيز عليم وبأن من يعرفها عالم فقيه مؤمن فهذه الصفات الثلاثة التى ترتبت على معرفة هذا العالم المحيط بنا من النبات والحيوان والانسان والتشريح والفلك وجميع العلوم الطبيعية لم تذكر فى هذا المقام مقام المعاهدات والمعاملات المدنية بل قال ـ نفصل الآيات لقوم يعلمون ـ وهناك أكدها بقد وكون الفعل ماضيا

أفلا نتعجب من المسلمين كيف يتفطن الصديق لمسألة اسلامية جمع بها الأمة كلها وهى قرن الصلاة بالزكاة ولما جاء هذا العصر الحاضر وجدنا أنفسنا اليوم لا فى العير ولا فى النفير . فلا نحن حافظنا على ماورثناه من أولئك الأشراف الأكابر من العلوم العملية . ولا نحن رفعنا أبصارنا الى ماحولنا وحوّلنا وجهة الأمراء الاسلاميين ورؤساء العشائر من التخاذل الى الأمم التى حولهم وكيف سبقوهم فى العلوم واستخدموا الطبيعة فأعطاهم الله مما فى خزائنها . وكيف ناموا عن القرآن ولم يتفطنوا لما تفطن له أسلافنا الكرام

ولوأنهم نظروا نظرات صادقات لوجدوا من الحث على العلم فى الآيات السابقة مايبهج الصدور ويبعث الهمم الى حوز العلوم وفهمها . وكيف كان القرآن قد أعطى العلوم الطبيعية والفلكية من الأهمية فوق ما أعطى العلوم الفقهية التى منها أمر المعاهدات فى الآيات التى نحن بصددها . ياعجبا كل العجب هل غاب عنكم يامعاشر علماء الاسلام . ان هذه العلوم الكونية هى التسبيح وهى العبادة وهى التوحيد وهى الذكر وبها الفكر وبها محبة الله وبها فضلا عن هذا كله الجهاد العلمى والرقى الفكرى والغنى والثروة وغلبة الأعداء

لقد ظهر الآن سر القرآن • هذا هو السر المكنون • هذا هو العلم المخزون • هذا هو الذى خبأه الله فى القرآن ليظهره الآن على قلوب قوم يخلقهم لهذا فى هذه الأمة فيسوقون الأمة الاسلامية الى دراسة العلوم والعرفان و يقرؤن مافى الأرض والسماء من العوالم المحيطة بنا حتى يكونوا عباد الله حقا وحتى يكونوا خلفاء الله فى أرضه • وحتى يكونوا رحمة للعالمين • وحتى يظهر الله الاسلام على الدين كله

والا فماذا نرى الله يصف نفسه فى تلك الآيات بالعزة والعلم و يصف العالمين بها بالفقه و بالعلم وبالايمان تبارك الله رب العالمين • إن فرق مابين العلوم الفقهية والعلوم الكونية كالفرق مابين ذلك المدح العجيب بالعلم والفقه والايمان فى آيات الأنعام مع الصيغة المفيدة للتحقيق و بين مجرد الوصف بالعلم مرة واحدة بصيغة المضارع • ولقد وصف العالمون بهذه العلوم أيضا بأولى الألباب والمتقين والموقنين وانهم يعلمون • لجميع صفات الكمال من علم وايقان وفقه وانهم أولوا الألباب • كل ذلك وصفهم الله به • وكيف لايوصفون به وقد علمت أن قرن الصلاة بالزكاة وتوزيعها على الناس يفيد العدل فيما ملكه الناس فأما العلوم الطبيعية ونظام الله فانهما يفيدان الناس فوق معرفة الله مالا وغنى وثروة وقوة حربية • جل الله الذى ألبس المعانى الألفاظ التى تناسبها فدح عالم الزكاة بمدح أوجز من مدح العلوم الكونية لما يغدقه على الناس من نعمه بتعاطيها وجل الله الذى غشى على عقول المتأخرين من المسلمين فحرمهم ذلك وهاهوذا يريد أن يطلعهم على خزائن نعمته وألهمهم من الآن دلائل رحمته و بدائع حكمته ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

﴿ اللطيفة الثانية ـ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الآية ـ ﴾

لقد كثر الحض فى القرآن على الجهاد وهى قاعدة مقررة ألا سعادة فى دين ولادنيا إلا بنفس الجهاد فأما اللذات والشهوات والأمانى فانما هى وقتية والسعادة انما قرنت بالصبر والجهاد فى جميع الحياة فليجاهد الانسان فى العلم والعمل والصدق والأمانة فبهذا الجهاد وحده تكون السعادة وهذا المقام مستوفى فى سورة البقرة عندقوله تعالى ـ ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع الخ ـ

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى ـ ألاتقاتلون قومانكثوا أيمانهم الخ ـ ﴾

ذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشرسنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى وأخبر رسول الله ﷺ وجعل الخبر فى أبيات من الشعر كما يروى فقال رسول الله ﷺ لانصرت ان لم أنصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فهؤلاء هم الذين نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم البادئون بالأذى وقد حصل جميع مافى الآية وهو معجزة

﴿ اللطيفة الرابعة ـ أجعلتم سقاية الحاج الخ ـ ﴾

فى البخارى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس يافضل اذهب الى أمك فائت رسول الله ﷺ بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يارسول الله انهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون و يعملون فيها قال اعملوا فانكم على عمل صالح

وروى مسلم عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه اعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله مابنا من حاجة ولابخل انما قدم النبى ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال أحسنتم وأجلتم كذا فاصنعوا فلانريد تغيير ماأمر به رسول الله ﷺ اه

والنبيذ هو التمر ينقع فى الماء غدوة و يشرب عشاء أو ينقع عشاء و يشرب غدوة لكن ان غلى وحض حرم

﴿اللطيفة

﴿ اللطيفة الخامسة ـ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم الخ ـ ﴾

لقد تكرر فى القرآن الحض على الاتحاد فلا أمة تقوم إلا به والاتحاد انما يكون بالقلوب ومتى تفرقت وجهة النظر تفرقت الأمة وهذا المقام قد شرحناه مرات كثيرة فى هذا التفسير والله أعلم اه

ولما كان تفضيل الايمان على حب الثمانية المتقدمة فى الآية وهى الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن المحبوبة يؤدى الى اتحاد الأمة وضد ذلك يؤدى الى تقاطعها وتدابرها وتمزيقها لعدم الاتحاد والالتئام وكان ذلك قد توافر عند أصحاب النبى ﷺ وجيوشه الكماة أعقب ماتقدم بقوله (ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) يعنى مواطن الحرب كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وتبلغ غزوات النبى ﷺ تسع عشرة غزوة وقد قاتل فى ثمان منهن • ثم ان جميع غزواته وسراياه و بعوثه ثمانون وخص موضعا منها بالذكر وهو يوم حنين فقال (ويوم) أى واذكروا (يوم حنين) واد بين مكة والطائف بينه و بين مكة بضعة عشر ميلا * وقال عروة هوالى جنب ذى المجاز • أعلمنا الله بهذا انه هوالذى يتولى نصرالمؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلاغالب له فلأذكر مختصر الغزوة ومايهم منها ثم نأتى بالآيات بعدها * روى أن الغزاة فى حنين اثنا عشر ألفا منهم عشر حضروا فتح مكة وألفان انضموا اليهم من الطلقاء وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النضرى وعلى كنانة ابن عبدياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله ﷺ كلامه فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم تنادوا ياحماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون حتى بلغ فلهم مكة و بقى رسول الله ﷺ فى مركزه ليس معه إلا عمه العباس رضى الله عنه آخذا بلجامه وابن عمه أبوسفيان بن الحارث فقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى ياعباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس أى اشتدت الحرب والوطيس التنور • ثم أخذ ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم انسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم وأعطى المؤلفة قلوبهم مالا كثيرا كأبى سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن كل واحد مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس أقل من ذلك فأنشد شعرا فى ذلك فكمل له المائة ولم يعط الأنصار شيأ وأفهمهم أنه يتألف حديثى العهد وأنه هو نفسه معهم فرضوا بذلك • فلنفسر الآيات يقول الله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ) من الاغناء (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) أى مع رحبها وهى فى موضع الحال أى ملتبسة برحبها كقولك دخلت عليه بثياب العز أى ملتبسا بها * والمقصود انهم لم يجدوا موضعا لفرارهم عن الأعداء فكأن الأرض ضاقت مع ماهى عليه من السعة (ثم وليتم مدبرين) منهزمين (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الذين انهزموا والسكينة الطمأنينة فان الخائف يرتجف غيرمستقر والآمن فى سكون فالسكينة كناية عن الامن ﴿ ذلك ﴾ أن جمع هوازن و بنى نضر رشقوا الغزاة من المسلمين بالنبال وكانوا لايخطئون المرمى وكان رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وذلك حين حمل المسلمون على الغنائم فشغلتهم وكان ما كان (وأنزل جنودا لم تروها) بأعينكم يعنى الملائكة . وقد اختلفوا فى عددهم • ولقد سبق القول فيهم فى آل عمران والأنفال * وروى أن رجلا من نضر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبر بذلك رسول الله ﷺ

فقال تلك الملائكة * وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء فاذا هو رسول الله ﷺ قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت اياها انتهى • واعلم أن هذه الروايات لم ترد فى الصحيح وقد تقدم تحقيق المقام فى الأنفال فتفطن (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر والسبى (وذلك جزاء الكافرين) أى مافعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) وقد تاب على بعض هؤلاء بأن وفقهم للاسلام فان ناسا منهم جاؤا الى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا وكان السبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل والغنم مالايحصى فقال ﷺ اختاروا اما سبايا كم واما أموالكم فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيأ فقام رسول الله ﷺ وقال ان هؤلاء جاؤا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والأموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه فقالوا رضينا وسلمنا فقال انى لا أدرى لعل فيكم من لايرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا الينا فرفعوا انهم قد رضوا • ثم خاطب الله المؤمنين فى شأن المشركين قائلا (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) لما فى نفوسهم من الخبث والرجس ومافى عقائدهم من الزيغ ومافى أبدانهم من القذر فلايتطهرون وماعشدهم من الحدث الأصغر والأكبر كالجنابة فلايغتسلون ومافى أعمالهم من الأذى فيجتنبون كما يجتنب كل ذى مرض معد وكل حيوان مفترس • ويقول ابن عباس ان أبدانهم نجسة كالكلاب • ويقول الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ومثله الزيدية (فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) فلايحجون ولايعتمرون عند أبى حنيفة ويجوز للمعاهد دخول الحرم عنده أولايدخلون الحرم مطلقا فضلا عن المسجد الحرام عند الشافعى وأحمد ومالك ولايدخلون غير المسجد الحرام من المساجد قياسا عند مالك • والمراد بهذا العام السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على ببراءة وألايحج بعد العام مشرك كما تقدم • أما بلاد الحجاز فيجوز للكفار دخولها والاقامة فيها ثلاثة أيام • ففى مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما • وفى رواية لغير مسلم قال ﴿ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ﴾ فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا * عن ابن شهاب قال قال رسول الله ﷺ ﴿ لايجتمع دينان فى جزيرة العرب ﴾ أخرجه مالك فى الموطأ • ولما كان المشركون قد منعوا أن يقربوا المسجد الحرام وذلك يدعو الى عدم دخول الحرم فدخول الحرم اقتراب من المسجد كان ذلك داعيا أن يبقى أهل مكة جياعا فقراء لمنع التجارات والطعام التى كان يجلبها المشركون اليهم كل عام لذلك أعقبه تعالى بقوله (وان خفتم عيلة) فقرا (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه وقد صدق الله وعده وأرسل السماء عليهم مدرارا وكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة ومما أعطاهم الله الجزية أيضا وانما قال (ان شاء) ليوجه الآمال الى الله وانه متفضل (إن الله عليم) بأحوالكم (حكيم) فيما يعطى ويمنع (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق) الثابت الناسخ للأديان كلها (من الذين أوتوا الكتاب) وهذا بيان للذين لايؤمنون (حتى يعطوا الجزية) أى ماتقرر عليهم • وهذا مشتق من جزى دينه اذا قضاه حال كونها (عن يد) أى نقدا مسلمة عن يد الى يد أومواتية غير ممتنعة أى منقادين أومسلمين بأيديهم فلايبعثونها بأيدى غيرهم أوعن غنى لأنها لاتؤخذ من الفقراء عند بعضهم أوعن يد قاهرة فوقهم أوعن انعام لأن بقاءهم وأخذ الجزية منهم نعمة عظيمة • فهذه خمسة معان وكلها لاتنافى بينها لأنهم أذلاء

والقاهرون لهم أقوياء ويسلمون الجزية وينعم عليهم وهكذا (وهم صاغرون) أذلاء وانما كان هؤلاء لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر الخ لأنه سيأتى أن اليهود يجعلون عزيرا ابن الله والنصارى يجعلون المسيح ابن الله وهم يتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله فى التشريع فيحللون ويحرمون كما يشاؤن فهذا قوله - لايؤمنون بالله الخ - وأما قوله - ولايحرمون الخ - فانهم لايحرمون ماحرم الكتاب والسنة فلا يحرمون الخمر والخنزير

(١) ثم ان الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى من غير العرب بالاجماع

(٢) وتؤخذ من العربى كتابيا كان أومشركا عند أبى يوسف

(٣) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا أوعجما عند الشافعى

(٤) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أوعجما ومن مشركى العجم ولا تؤخذ من مشركى العرب عند أبى حنيفة

(٥) وتؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد عند مالك والأوزاعى

(٦) وتؤخذ من المجوس باتفاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

﴿ مقدار الجزية ﴾

(١) لاشئ على الفقير الذى ليس كسوبا

(٢) وعلى الفقير الكسوب ١٢ درهما

(٣) وعلى المتوسط ٢٤ درهما

(٤) وعلى الغنى ٤٨ درهما . وهذا مذهب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه

ولاتؤخذ الجزية من الصبيان ولاالنسوة ولا العبيد . وقد قدرت أيضا بدينار وديناريين وأربعة دنانير للفقير والمتوسط والغنى . وقال أصحاب الشافعى لاتجوز الزيادة على دينار إلا بالتراضى فالديناران والأربعة للمتوسط والغنى عند التراضى والافلا

﴿ مناكحة المجوس والصابئين وذبائحهم ﴾

اتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب ومن دخل فى دين اليهود والنصارى قبل النسخ فحكمه حكم اليهود والنصارى تحل مناكحتهم وذبائحهم . والصابئون والسامرة مثلهم مثل أهل الكتاب فهم كأهل البدع فى المسلمين . ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع ان لهم دينا وكيف يصفهم بأنهم لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر فقال (وقالت اليهود عزير ابن الله) وذلك لأن بختنصر قتل كل من يحفظ التوراة وكان العزير قد أماته الله مائة عام فلما أحياه الله قال لقومه أنا أملى عليكم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا ماهذا إلا انه ابن الله . ألاترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالتكذيب (وقالت النصارى المسيح ابن الله) لأن الولد الذى لا أب له مستحيل عادة ولأن ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى لايقوم بهما إلا من كان إلها . و يقال ان النصارى كانوا على الدين الحق بعد رفع المسيح إحدى وثمانين سنة يصلون و يصومون حتى وقع بينهم و بين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له (بولس) قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولس لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنارمصيرنا فنحن مغبونون ان دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه أتى الى النصارى فقالوا له من أنت قال أنا عدوكم بولس فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة

حتى نعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت من السماء أن الله قبل توبتك فصدّقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والاله ثلاثة . وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله . وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولايزال . فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له أنت خالصتى وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم إنى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسى تقرّبا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه . وتفرّق هؤلاء الثلاثة فذهب واحد منهم الى الروم . وواحد الى بيت المقدس . والآخر الى ناحية أخرى فتفرّق الناس فرقا بهذه المذاهب

واعلم أن هذه الحكاية وان كان لادليل يقطع بصحتها تقرّب الحقيقة لمن يريد أن يعرف اختلاف المسيحيين . ألاترى أن اختلاف المسيحيين بعد تلك الأيام كان على هذا المنوال تأمّل

﴿ حقيقة هذه المسألة فى التاريخ ﴾

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر ان بولس رجل فريسى ويعرف اللغة العبرية فاحتقر فى بادئ الأمر الرسل ولم ير المسيح ولاسمع كلامه ومع ذلك ادّعى أنه قدخصت به المعرفة وحده وأخذ يخاصم بطرس ويوحنا فتألف إذ ذاك أى بعد موت المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى صنف يتبع من بقى من الرسل فى أورشليم . والثانى تابع لبشارة بولس الذى ادّعى أنه أوحى اليه من المسيح ذاته . وبعد حين تمرّد اليهود على نيرون فنشبت الحرب فى اليهودية بقيادة فسباسيانوس الرومانى ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠ م) وخرب الهيكل وتفرّق اليهود أشتاتا ولم يبق من الرسل إلا يوحنا وفيلبس . ولم يبق إذ ذاك من الدين إلا أحاديث متفرّقة على ألسنة الأساقفة واختلطت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وماجاء آخر الجيل الأوّل حتى نشأت عدّة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصى منها فى الجيل الأوّل والثانى (٣٥) انجيلا وصاحب الاحصاء هو فابريسيوس . واختيار الأناجيل الأربعة كان فى الجيل الثانى ونسبتها الى متى ومرقص ولوقا ويوحنا من المشاكل التى تعذر على العلماء حلها

﴿ نتائج الخلاف فى النصرانية ﴾

فى سنة ٣٨٤ م أصدر البابا داماسيوس الى مارايرونيجوس أن يحرّر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والجديد وكان (تيودوسيوس) الملك فى ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات فأصدر أمرا أن يكون حق التولية لأسقف رومه وحده وعلى النصارى عموما اتباعه

﴿ تنازع النصارى فى أمر المسيح ﴾

كانت كنائس النصرانية فى أوّل الجيل الرابع منقسمة الى حزبين الواحد يقرّ بألوهية المسيح والآخر ينكرها . وفى سنة ٣١٢ ظهر اريوس فجعل أن للأب والابن جوهرين متميزين . والثانى خليفة الأوّل وإذن فهو ليس باله . وكان اريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير . ولما رأى اسكندر أسقف الاسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألفوا مجمعا لعنوا فيه اريوس وتعليمه فكثر النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمّة كلها واهتزّ عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد أوزيوس الى كل من اريوس واسكندر ويخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذى لاعلم لأحدهما بحقيقته . ودام الخصام والجدال واشتدّ ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بمجمع فى نيقية سنة ٣٢٥

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشاتمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لاحدّ لها . ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح ونفى الاريوسيين ثم رجعوا من المنفى منتصرين ودخلوا الاسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعا فى أنطاكية فأبطل مذهب اسكندر المسمى (أورثوذكس)

أى مستقيمى الرأى ومات اريوس فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والابهة ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنت وتوالت المجامع بعد ذلك على هذا المنوال

فلتنظر أيها الذكى كيف كانت الحكاية الأولى المنقولة عن المفسرين (وان كانت مخطئة فى التاريخ وفى الرواية) قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة . وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة . وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلا شاغلا للدولة الرومانية . وكيف أدّى الأمر الى أن الملك تيودسيوس القيصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن يخالفه يعاقب ولكن الأريوسيين كانوا كثيرا جدّا فلم يعاقبهم فاحتال القديس (أمفيلوك) بحيلة أوجبت أن الملك يعاقب من لايقول بالوهية المسيح . فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت المصائب وتقاتلت الأحزاب . كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته

ولما كان قول اليهود والنصارى لادليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ . قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) مجرد عن البرهان والتحقيق مهمل لامحل له سوى الأفواه كما قال القيصر للاسكندر ولاريوس وقوله تعالى (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أى يضاهى قولهم قول الذين كفروا من قبل . ومعنى هذا أن هناك ديانات فى الأمم السالفة قبل التاريخ فى مصر والعراق و بلاد المكسيك قبل افتتاح أمريكا كانت فيها هذه الخرافات . أنظر هذا المقام فى سورة البقرة فى أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث وكون الله له ابن ملأت المسكونة ووجدت فى الهند فارجع اليها إن شئت تر العجب العجاب وكذلك فى آخر سورة المائدة . وهذا أيضا من معجزات القرآن . ولعمرى لم يعرف الناس أن هناك دينا قبل الدين المسيحى يقول بابن لله و بالوهية ذلك الابن إلا فى هذا الزمان فتعجب من عجائب القرآن . وهذا واضح كل الايضاح فى آخر المائدة فيما تقدّم . قال تعالى (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من شناعتهم (أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق الى الباطل . ثم أخذ الله سبحانه يبين انهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير بل جعلوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله . والأحبار علماء اليهود . والرهبان أصحاب الصوامع فى النصارى . ومعنى كونهم أربابا انهم يحرّمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون * وعن عدى بن حاتم قال أتيت النبى ﷺ وفى عنق صليب من ذهب فقال ياعدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ فى سورة براءة ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ــ قال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيأ استحلوه واذا حرموا عليهم شيأ حرموه * قال عبد الله بن المبارك

وهل بدّل الدين إلا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

لقد وقع القوم فى جيفة * يبين لذى العلم انتانها

وهذا هو قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم) وهذا الأخير اعتقدوا فيه الالوهية كما تقدّم قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أى تعالى الله وتنزّه عن أن يكون له شريك فى العبادة (يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم) أى يريد رؤساء اليهود والنصارى أن يفعلوا فى الاسلام فعل من يعمد الى نور عظيم كالشمس ليطفئه بنفخة بفمه وماهو بمستطيع ذلك . فهكذا دين الاسلام ودلائله الباهرة ومعجزاته الظاهرة . وقد تصدّى هؤلاء لدحضه وماهم بضاريه شيأ لقوّته البرهانية وحجته القوية (ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولوكره الكافرون) أى ويأبى الله إلا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتمّ الذى أرسل به نبينا ﷺ وأن الذى يأبى إلا أن يتم نوره (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) القرآن (ودين الحق) الاسلام (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على سائر الأديان فيكون متبعوه لهم السلطان الأكبر فى الكرة الأرضية ويقهرون فارس والروم وهذا كله فى الزمان الأوّل أما فيما بعد فى مستقبل الزمان فسيظهر فى أمّة الاسلام أناس يحملون الأمّة على نبذ الجود والتحلى بحلى العلوم

والعرفان واذ ذاك يرقى المسلمون و يكون بأيديهم مقاليد الرياسة والسياسة والحكمة والعلم . وفى ظنى أن زماننا هو مبدأ ارتقاء المسلمين إذ يقومون بهمتهم فى العالم و يحكمون الناس بالحق بعد أن يرتقوا و يتسعوا فى المعارف . و يدل على هذا ماروى عن أبى هريرة فى حديث نزول عيسى قال قال النبى ﷺ و يهلك فى زمانه الملل كلها إلا الاسلام * عن المقداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لايبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الاسلام إما بعز عزيز أو بذل ذليل أى إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به واما أن يذلهم فيدينون له . وهذه الجملة كالبيان لقوله ـ و يأبى الله إلا أن يتم نوره ـ ولذلك كرر ـ ولو كره المشركون ـ غير أن الكفر هناك بدل بالشرك هنا إعلاما بأنهم ضموا الكفر بالرسول الى الشرك بالله . ولما كانت الآيات المتقدمة قد أبانت أن الأحبار والرهبان فى حكم الآلهة عند أهل الكتاب أخذ يبين هنا سبحانه وتعالى أنهم غير مؤتمنين فى أحكامهم التى يحكمون بها وأن أهل الكتاب قداستأمنوا من ليسوا بأمناء فقال (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون) أى ليأخذون لأن الأكل أهم مقاصد الأخذ فعبر عنه به (أموال الناس بالباطل) لأنهم يأخذون الرشا من سفلتهم فى تخفيف الشرائع والمسامحة فى الأحكام و يحرفون صفات النبى ﷺ المذكورة فى كتبهم استبقاء للرئاسة وحفظا لما ينالونه من المال ببقاء الرئاسة التى يذهبها اعتناق الاسلام (و يصدون عن سبيل الله) و يمنعون الناس عن الايمان بمحمد ﷺ (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله) سواء كانوا من الأحبار والرهبان أم من المسلمين . والمراد بالمال المكنوز ما لم تؤد زكاته ولولم يكن مكنوزا * قال عليه الصلاة والسلام ﴿ ماأدى زكاته فليس بكنز ﴾ أى ليس بكنز أوعد عليه * وقال بعض أصحاب النبى ﷺ لما علموا بنزول هذه الآية لوعلمنا أى المال خير لاتخذناه فقال رسول الله ﷺ أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه * وقد ورد فى حديث مسلم الوعيد الشديد على من لم يؤد زكاة الذهب والفضة وانها تصفح له صفائح من نار فيحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره كلما ردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما الى الجنة واما الى النار وهكذا قال فى الابل وجعل من حقها حلبها يوم ورودها وان لم يؤد حقها فانه يبطح لها بقاع قرقر فهى تطؤه جميعها بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليها أولاها رد عليه أخراها الخ وهكذا قال فى البقر والغنم والقاع القرقر هو المستوى من الأرض

وهكذا جاء فى حديث البخارى ﴿ من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (شدقيه) ثم يقول أنا مالك . أنا كنزك ثم تلا ـ ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ـ الآية ﴾ والشجاع الحية والأقرع صفة له بطول العمر فانه اذا طال عمره تمزق شعره وهذه صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان فى الشدقين . وهذا كله وعيد لمن لم يؤد الزكاة ولذلك قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) وهو الكى (يوم يحمى عليها) أى يوم توقد النار فلما حذفت النار فلم تكن فاعلا وأسند الفعل الى الجار والمجرور وهو عليها * قيل يحمى بالتحتية كما تقول رفعت القصة الى الأمير ومتى حذفت القصة قلت رفع الى الأمير (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) لأنهم اذا أبصروا الفقير عبسوا واذا ضمهم مجلس واياه ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم وهذا العذاب يشمل الجهات الأربع المقدم والمؤخر والجنبين * و يقال لهم (هذا ما كنزتم لأنفسكم) لمنفعتها قد صار مضرتها وعذابها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى وبال كنزكم . ولما كان المقام فى قتال الكفار إذ قال تعالى آنفا ـ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر الخ ـ وذكر الجزية واستطرد بذكر ما كفر به اليهود والنصارى وماتبع ذلك من حرص أحبارهم ورهبانهم على المال والرشوة أخذ يتمم المقام بذكر مسائل أخرى

من

من مسائل الحرب وهى الاشهر الحرم التى كان العرب يحرّمون فيها القتال اتباعا لدين ابراهيم عليه السلام وأخذ سبحانه يحقق الأمر فيها فأفاد أن الشهور العربية اثنا عشر شهرا . وأما الشهور الشمسية فليس المسلمون مكلفين بحسابها ولا باتباع نظامها فقال (إنّ عدّة الشهور عند الله) أى مبلغ عددها (اثنا عشر شهرا فى كتاب الله) وهو ما أثبته وأوجبه فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ (يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم) والأشهر العربية المذكورة أوّلها المحرم وآخرها ذو الحجة . والأربعة الحرم هى ذوالقعدة للقعود عن القتال فيه . وذو الحجة للحج . والمحرّم لتحريم القتال . فهذه ثلاثة سرد وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب إياه وتعظيمهم . فالأشهر العربية مبنية على سير القمر يعتدّ بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وأحكامهم . وهذه السنة ٣٥٤ يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامّة وهى ٣٦٥ يوما وربع يوم فبينهما نحو ١١ يوما . ولما كان هذا المقام علاقته بالحرب عظيمة ناسب أن يذكر من أجل النسىء الذى كانت تفعله العرب فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور كما سيأتى وانما سميت الأربعة حرما لأن العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرّم فيها القتال حتى ان أحدهم لو لاقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فى هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ولما جاء الاسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيما فالحسنات فيها مضاعفات والسيآت كذلك (ذلك الدين القيم) أى ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى . فالدين هنا الحساب كما قال ﷺ ﴿الكيس من دان نفسه (أى حاسب نفسه) وعمل لما بعد الموت﴾ (فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم) أى لا تظلموا أنفسكم فى الأشهر الحرم فالعمل الصالح فيها أعظم أجرا والظلم فيهنّ أكثر إثما أولا تظلموا فيهنّ أنفسكم باستحلال الحرام والغارة فيهنّ كما قال ابن عباس من جهة ومن جهة أخرى لا تجعلوا حلالها حراما وحرامها حلالا بالنسىء الآتى ذكره كما قال محمد بن اسحق . وعن عطاء أنه لا يحلّ للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا . وهذا خلاف ماعليه الأكثرون لأن النبى ﷺ غزا هوازن بحنين فى شوّال وذى القعدة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أى حال كونكم جميعا (واعلموا أن الله مع المتقين) بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم . فاذا قاتلوا المشركين مجتمعين لا متفرّقين نصروا على عدوّهم فان تخاذلوا فليس الله معهم بالنصر . والتقوى من لوازمها الاتحاد والتعارف فلذلك كان الله مع المتقين (إنما النسىء زيادة فى الكفر) النسىء لغة التأخير كالنسيئة فى البيع . والنسىء هنا تأخير شهر حرام الى شهر آخر بالهوى والغرض وقد كانت العرب تعظم الأشهر الحرم على دين ابراهيم وعامّة قريش كانت تمتنع فيها من الصيد والغارة . وقد تقع الحروب فى بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخيرها الى الأشهر الحلال فنسؤا أى أخروا تحريم شهر الى شهر . وكان يقوم بهذا بنو مالك بن كنانة وكان يقوم الموكل به منهم فى الموسم فاذا همّ الناس بالانصراف قام خطيبا وقال لا مردّ لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيفعل . فيقول مثلا صفر فى هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة من الرماح . وان قال حلال عقدوا القسى وركبوا الأسنة فى الرماح وأغاروا وفى أيام النبوّة كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين وفى المحرم كذلك وهكذا فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرّة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله ﷺ فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف ﷺ بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسىء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر الى ماوضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض وذلك قوله ﷺ كما فى البخارى ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة

وذوالحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ثم حرم الدماء والأموال والاعراض وحذر الناس من لقائهم ربهم وهم مذنبون وهو يسألهم وقال ﷺ ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وحذرهم من أن يضرب بعضهم رقاب بعض فى كل حال فليس التحريم خاصا بالأشهر الحرم بل عم سائر السنة فالتحريم أصبح فى الاسلام تحريما عاما لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها . ويظهر مما تقدم وهو أنهم كانوا كل سنتين يحجون فى شهر من أشهر السنة . انهم ضلوا السبيل لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية يقتضى أن يكون الحج فى كل شهر ثلاثة أشهر اذا كان لغرض أن يبقى الحج فى وقت معين من السنة كالشتاء أوكالربيع ولن يستقيم هذا إلا بما ذكرنا وتدور السنة فى ٣٣ سنة وأما على مافعله العرب فانها تدور فى ٢٤ سنة وهذا خطأ منهم وضلال فلاهم أقاموا على الأشهر القمرية ولاهم عرفوا كيف يوفقون الى الأشهر الشمسية التى تهدى الناس الى حقيقة الفصول . ولما كان أمر السنة الشمسية يحتاج الى حساب وكان الاسلام عاما للأمم الجاهلة والعالمة وأن الأمم الجاهلة اذا أرادت التوفيق بين الحسابين ضلت سواء السبيل

أمر الله جميع المسلمين أن يسيروا على السنن القويم وهى السنة القمرية التى هى أسهل لجميع الناس وان كانت أشق لأن الحج يدور فى الفصول الأربعة كل ثلاث وثلاثين سنة مرة ويحج الناس فى كل فصل تسع حجات تقريبا ويذوقون الحر والبرد لزيادة الثواب . فاذن محاولة التوفيق بالنسىء من الأمم الجاهلة ضلال فى الحساب وخطأ فلذلك قال تعالى (يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا) أى يوافقوا عدة الأربعة المحرمة وحدها من غير مراعاة الوقت (زين لهم سوء أعمالهم) حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا (والله لايهدى القوم الكافرين) هداية موصلة الى الحق . ولما انتهى سبحانه من تحقيق زمن التحريم وتبيان الأشهر الحرم وغيرها أخذ يحث المؤمنين على القتال ﴿وذلك﴾ أنه ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج الى الجهاد فتثاقلوا فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا) اخرجوا (فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض) تثاقلتم ادغمت التاء فى الثاء فصارت ثاء ساكنة فدخلت ألف الوصل . وضمن اثاقل معنى مال فعدى بالى أى ملتم الى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه فملتم الى الاقامة بأرضكم ودياركم (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) بدل الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة) فى جنب الآخرة (إلاقليل) يعنى ان لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد . وهذا يدل على وجوب الجهاد على كل حال وفى كل وقت لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها . وهنا لطائف ثلاثة

﴿ اللطيفة الأولى تحقيق الكلام فى الأشهر الحرم ﴾

اعلم أن علماءنا وان اختلفوا فى الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها هل هو منسوخ فانك عند التحقيق تجد الأمر أكبر من أن يختلف فيه فهم متفقون وان كان كثير من الناس لايعلمون . وبيانه أن دين ابراهيم الذى كانت العرب تزعم أنها متمسكة به جعل القتال فى الحرم محرما وكذلك فى الأشهر الحرم المتقدمة . فأما بقية السنة وبقية الأرض فالقتال فيها لاحرمة فيه فلما جاء الاسلام حرم الله فيه على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم كما جاء فى خطبة الوداع فصار التحريم راجعا الى نفس الأعراض والأموال والدماء فى كل زمان وكل مكان فلادخل إذن للزمان ولادخل للمكان وانما المدار على نفس الأعراض والأموال والدماء وهذا واضح جلى . هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه السورة قد استبان فيها أن العرب الذين هم متمسكون بالأشهر الحرم قد ألزموا باتباع الاسلام وأن بلاد العرب لايجتمع فيه دينان فأصبح هؤلاء محرما عليهم بطريق

الدين كل حرب وكل غارة فى الأشهر الحرم وغيرها . بقى أن نقول ماذا يفعلون مع الأمم الأخرى كفارس والروم فنقول ان هؤلاء لايعرفون ماهى الأشهر الحرم ولاماهودين ابراهيم بل لهم دين آخر لأن الأشهر الحرم عند العرب لدينهم والعرب أسلموا فبعد أن كان التحريم عندهم فى أشهر معينة أصبح فى جميع الدهر فاذن لامعنى لتحريم القتال فى الأشهر الحرم ألبتة فان كان فى بلاد العرب فهو تحصيل حاصل وان كان فى غيرها مع الأمم الأخرى فهو لاقيمة له لأن هذه الأمم لاتحترم إلا القوّة ولاتتقيد بزمان ولامكان . اذا فهمت هذا عرفت السرّ فى قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا الخ ـ ولم يقيدها بزمان لأن هذه أوّل غزوة غزاها المسلمون للروم بعد ما فرغوا من قتال العرب فوجب أن يضرب المسلمون الذكر صفحا مع الروم عن الأشهر الحرم و يغزوهم . وهذا هوالسرّ فى الاطلاق وقطع النظر عن الأشهر الحرم فتعجب من أسرار القرآن وحكمه الغريبة العجيبة . و بهذا تبين لك من يقول أن تحريم القتال فيها غير منسوخ ومن يقول انه منسوخ فكلاهما حق من وجه فمن قال انه غير منسوخ فهو صادق من وجه لأن الأشهر الحرم وغيرها يحرم فيها قتال المسلمين للسلمين من العرب وغيرهم ومن قال انه منسوخ فهو حق من وجه . وذلك أن قتال الفرس والروم مباح فى الأشهر الحرم وغيرها إذ لامعنى لتحريم القتال فيها معهم وهم لايحرّمون ذلك و بهذا اتضح المقام وزال الابهام . فالحمد لله الذى ألهم وعلمنا مالم نكن نعلم

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(الشهور العربية والأفرنكية والقبطية وعلة تسميتها بأسمائها المعروفة الآن)

﴿ الشهور عند العرب ﴾

اختلف المؤرخون فى أسماء الأشهر فى الجاهلية الأولى فقيل ان الأشهر العربية المستعملة اليوم وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبى ﷺ وكان ذلك قبل الاسلام بقرنين وعدّتها اثنا عشر شهرا . وقد وضعت أسماؤها أصلا لبيان الأحوال وأطلقت على الأزمنة وهى

(محرم) ـ سمى كذلك لتحريم القتال فيه حتى لمن له ثأر

(صفر) ـ سمى كذلك لما كان يعترى العرب من مرض فى ذلك الشهر تصفر منه ألوانهم * وقيل لاصفار مكة من أهلها اذا سافروا فيه الى الحرب أثر قعودهم عنها فى محرم

(ربيع الأوّل وربيع الثانى) ـ سميا بالربيع لأنهما كانا يأتيان فى الخريف . وكانت العرب تسمى الخريف ربيعا

(جمادى الأولى وجمادى الثانية) ـ سميا بذلك لاتيانهما فى الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد حيث تجف الأرض و يقلّ الزرع والنبت

(رجب) ـ سمى بذلك لأنه كان يقال فيه ارجبوا أى كفوا عن القتال فكانت العرب تعظمه وتهابه وسمى بالفرد لأنه منفرد عن باقى الأشهر الحرم المتوالية

(شعبان) ـ سمى بذلك لانشعاب القبائل فيه الى طلب المياه والغارات

(رمضان) ـ سمى بذلك لأنه كان يأتى حيث يبدأ الحرّ وترمض الأرض * وقيل لاشتداد حرّ جوف الصائم وهو ضعيف

(شوّال) ـ سمى بذلك لقولهم شولوا أى ارتحلوا * وقيل لقلة المياه فيه لأن شول الماء بمعنى قلّ * وقيل لأن الابل كانت تشول فيه بأذنابها لشهوة الضراب ولذلك لم تكن العرب تجيز فيه الزواج

(ذوالقعدة) ـ سمى بذلك لقعود العرب فيه عن القتال

(ذوالحجة) ـ سمى بذلك لاقامتهم الحج فيه

﴿ الشهور عند الافرنج ﴾

وضعت أسماء هذه الشهور فى أيام المملكة الرومانية الأولى وهى

(يناير) – مأخوذ من (يانوس) وهو معبود خرافى كانوا يمثلونه بوجهين ينظر بأحدهما السنة المنصرمة وبالآخر الى السنة المقبلة

(فبراير) – مأخوذ من (فبروا) وهى معبودة الطهارة عند الرومان

(مارس) – مأخوذ من مارس معبود الحرب عندهم

(ابريل) – مأخوذ من كلمة أبيريرى أى فتح بالرومانية لأن الزهور تفتح فيه

(مايو) – مأخوذ من ميا وهى احدى بنات المارد أطلس (خرافة)

(يونيه) – مأخوذ من يونون زوجة (جوبتر) رئيس المعبودات

(يوليه) – سمى بذلك تذكارا (ليوليوس قيصر) واضع التقويم اليوليانى

(أغسطس) – سمى به تذكارا لخلفه أغسطوس أوّل أمبراطرة الرومان

(سبتمبر) – معناها هذا الشهر السابع باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما

(اكتوبر) – معناه الشهر الثامن باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما

(نوفمبر) – معناه الشهر التاسع باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما

(ديسمبر) – معناه الشهر العاشر باعتبار أوّل السنة (مارس) كما كان قديما

﴿ الشهور القبطية ﴾

انتقلت أسماء تلك الشهور من قدماء المصريين واضعيها الى نسلهم من أمّة القبط . وقد سمى المصريون الشهور بأسماء آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى سالف العصور وكانوا يقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود المسمى به الشهر فى هيكله المكرس له

(توت) – هو رأس السنة القبطية وأصل اسمه بالهيروغليفية (تهوت) أى إله الحكمة وكان يسميه المصريون المتأخرون إله العلم والقلم ويحتفلون به عن بكرة أبيهم باقامة الاحتفالات الشائقة فى أنحاء القطر تعظيما لعيد هذا الاله الذى كان يقع فى أوّل يوم منه . وتستمر الاحتفالات هذه مدّة أسبوع . ولايزال الأقباط يحتفلون به الى الآن ويسمونه باسم (النيروز)

(بابه) – اسمه باللغة الهيروغليفية (بى تب د ت) أى إله الزرع حيث يخضر فيه وجه الأرض

(هاتور) اسمه باللغة الهيروغليفية (هاتور) أى إله الجمال حيث يزين فيه وجه الأرض بجمال المزروعات

(كيهك) اسمه باللغة الهيروغليفية (كاها كا) أى إله الخير أو النور المقدّس

(طوبه) اسمه باللغة الهيروغليفية (طوبيا) أى الأعلى أو الأسمى أى إله المطر ومن اسمه مدينة طيبة بالصعيد

(أمشير) لم يستدل له على أصل

(برمهات) اسمه باللغة الهيروغليفية (بامونت) أى إله الحرارة حيث تنضج فيه المزروعات لاشتداد الحر

(برموده) اسمه باللغة الهيروغليفية (باأماوت) أى إله الموت والفناء حيث ينتهى فيه أجل المزروعات ويقحل وجه الأرض

(بشنس) اسمه باللغة الهيروغليفية (باخنسو) أى إله الظلام لاعتقادهم أن هذا الاله يساعد الشمس على ازالة ظلام الليل فلذا يكون النهار فى شهره أطول من ليله حتى يبلغ ١٤ ساعة فى بدايته

(بؤنه) اسمه باللغة الهيروغليفية (باأونى) أى إله المعادن لأن فيه تستوى المعادن والأحجار . ولذا يسميه العامّة بؤنة الحجر

(أبيب) اسمه باللغة الهيروغليفية (هوبا) أى فرح السماء لأنه مبدأ أفراح المصريين حيث كانوا يزعمون أن (هوريس) أى الشمس انتقم فيه لابنه (أوزريس) أى النيل من عدوّه (نيفون) أى التحاريق

(مسرى) اسمه باللغة الهيروغليفية (ميثرا) أى ابن الشمس

(أيام النسىء) النسىء لغة المتأخر وكان قدماء المصريين يسمونه (كوجى أنافوت) أى الشهر الصغير

انتهت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم ـ ﴾

من معجزات القرآن التى تظهر فى هذا الزمان أن أكثر ما جاء فيه من علم اليوم الآخر يظهر فى مناجاة الأرواح . ومن اطلع على كتاب الأرواح الذى ألفته فى هـذا المقام أدرك هـذا العجب العجاب فان قوله ـ فتكوى بها جباههـم الخ ـ وقوله فى الحديث مامعناه أن البقر تطؤ صاحبها بأرجلها وهكذا الغنم وكذلك الابل تطؤه بأخفافها وتدور على ذلك خمسين ألف سـنة حتى يتم حسابه ويدخل إما جنة واما نارا فما تقدّم وكذلك حديث البخارى المتقدّم وأن أخبث الحيات المعبر عنها بالشجاع الأقرع تطوّقه وتقول له أنا كنزك أنا مالك . وتبيان الحديث أن ماله سيمثل له . كل ذلك دلالة أن ذلك عالم المثال وأن صور الأشياء تظهر هناك وتعذب صاحبها . فهذا بعينه هو المذكور فى الكتاب المذكور نقلا عن الجمعيات الاوروبية . ولقد حادثوا الأرواح فى أمريكا وانكلترا وفرنسا وغـيرها فى سائر الدول فأعربت الأرواح عن ذلك وأفصحت وقالت ان البخيل يعذب بماله . وهناك حكاية اليتيمين اللذين لما مات الحاكم الألمانى أخذا يعذبانه عذابا شديدا حتى استغاث بزوجته لما أحضرت روحه وهكذا . وهذا كثير فى كلامهم . فهذا بعينه هو الذى ورد فى ديننا . وتعجب كيف يظهر سرّ القرآن فى هذا الزمان و يؤيد الكشف ماسمعته الأذنان ولم تره العينان ـ فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ـ

فاذن عالم البرزخ وهو مابعـد الموت مملوء من الصور الحسنة والقبيحة . وأقرب شئ الى ذلك الصور التى تمثـل لنا فى المنام وظهور صور أعمـالنا بعـد موتنا أظهر وأبهر وأجلى وأوضح ـ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ـ يوم تجد كل نفس ماعملت من خـير محضرا وماعملت من سوء تودّ لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا ـ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ

فعلى المسلمين أن يقرؤا علم الأرواح أوّلا وأن يقوموا بمعرفة هـذا العلم فعلا ثانيا ليبين بمحادثة الأرواح حقائق دين الاسـلام فستحدثهـم الأرواح أنها تعذب بصور أعمـالها ويستبين للناس إذ ذاك حقائق العلوم الاسلامية . وهذا هو اليقين وفرق بين التقليد واليقين ﴿ جوهرة باهرة ﴾

﴿ هذه الآيات من قوله تعالى ـ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم ـ الى قوله ـ سبحانه عمـا يشركون ـ مظهران ﴾

(المظهر الأوّل) آثارها فى الأمم الاسلامية فى أوّل ظهورها واهمـال المتأخرين لشأنها وآثارها فى الانقلاب الاوروبى الحديث (المظهر الثانى) ماجاء عن علماء الأرواح حديثا ببلاد أوروبا

﴿ المظهر الأوّل وفيه مقامان (المقام الأوّل) آثارها فى أمم الاسلام ﴾

ذم الله عزوجـل الأحبار والرهبان وخاطب المسلمين بذلك . خاطبهم ليكونوا سببا فى تمزيق شـمل رجال الدين فى الأمم . إنّ رجال الدين فى كل أمّة من الأمم القـديمة كانوا يستبدون بالناس كالبراهمة الذين جعلوا الناس أربعة أقسام فهم أنفسهم كالرأس . ومن دونهم من الجند كالقلب . ومن دون هؤلاء كالمعدة والأحشاء . وأدنى منهم كالرجلين وهكذا دين المصريين القـدماء كان للكهنة السلطان الأعظم على الشعب فهم والفراعنة لهم السلطان الأعظم فى الدنيا والآخرة وكل مجد وكل شرف فى الدنيا والآخرة راجعان الى الملك

والى رجال الدين

جاء الاسلام بهذه الآية وقال الله فيها للمسلمين أيها المسلمون أنتم خلفائى فى أرضى فلاتجعلوا لأحد سلطانا على أحد وأهل الأرض كلهم عيالى وأنا ربهم وأنا كافلهم والأحبار والرهبان استبدّوا بعبادى وأوهموهم أنهم يغفرون لهم وسنوا لهم القوانين فانجدوا عبادى وأخرجوهم من هذا الذل

﴿ آثار هذه الآيات فى صدر الاسلام ﴾

ألاتعجب معى أيها الذكى • أنظر الى أبى بكر رضى الله عنه انه صاحب رسول الله ﷺ وهو أقرب الناس اليه فى الدين قد عرف مقصود القرآن بمعاشرة النبى ﷺ فانظر ماقال لعائشة رضى الله عنها وهو فى سكرات الموت ﴿أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولادرهما ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فىء المسلمين إلا هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة فاذا مت فابعثى بالجميع الى عمر • فلما مات بعثته الى عمر فلما رآه بكى حتى سالت دموعه الى الأرض وجعل يقول رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده و يكرر ذلك وأمر برفعه ﴾

وأمر أبو بكر أيضا أن يردّ جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته * ويروى أن زوجته اشتهت حلوا فقال ليس لنا مانشترى به فقالت أنا أستفضل من نفقتنا فى عدّة أيام مانشترى به قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شئ يسير فلما عرّفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فردّه الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له • قال ابن الأثير بعد مانقل هذا ﴿ والله هذا هو التقوى التى لامزيد عليها وبحقّ قدّمه الناس الخ ﴾

﴿ زهد سيدنا عمر رضى الله عنه ﴾

قال الحسن خطب عمر الناس وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة منها أدم • وقال أبوعثمان النهدى رأيت عمر يرمى الجمرة وعليه ازار مرقع بقطعة جراب • وقال علىّ رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه ازار فيه احدى وعشرون رقعة فيها أدم • ومن قوله رضى الله عنه ﴿أيها الناس انى ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولاليأخذوا أموالكم وانما أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه الىّ فوالذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ﴾ الى أن قال ﴿ وكيف لا أقصه منه وقد رأيت النبى ﷺ يقص من نفسه ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولاتحمدوهم فتفتنوهم ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ﴾ اه

ومثل هذا روى عن سيدنا علىّ وسيدنا عثمان رضى الله عنهم أجمعين

مضى الصدر الأوّل وأكثر القوم على هذا فانظر للأمم الاسلامية بعد ذلك ما كادت القرون الأولى تنتهى حتى أظلمت آفاق الأمم الاسلامية وتبعوا من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع واستبد صغار العلماء بالعقول وأفهموا الناس أن كثيرا من العلوم لاتنفع فى الدنيا والآخرة لأجل أن يتولوا هم القضاء والوصايا و يتصدّروا فى المجالس واستناموا نوما عميقا محزنا وشره الملوك على حطام الدنيا • وأنا أذكرك بما نقلته فى المجلد الثالث فى سورة المائدة من هذا التفسير فقد ذكرت هناك نص ماجاء فى الاحياء عند قوله تعالى ـ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ـ وهذا نص بعضه

﴿ واحترز من الاغترار بتلبيسات علماء السوء فان شرّهم على الدين أعظم من الشيطان ﴾ وهناك تجد بيان سبب ذلك إذ هم زينوا للناس بأفعالهم وأقوالهم الاقتصار فى زمانهم على علم الفقه وذلك ليتصدّروا فى المجالس و يتولوا القضاء والوصايا فالعلم اذن مصيدة لهم يصيدون به المال فرجع القوم إذ ذاك الى أخلاق الأحبار والرهبان الذين قال الله فيهم ـ انهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ـ فاذن يكون هذا يشبه أكل أموال الناس بالباطل وان لم يكن باطلا من كل وجه • وأيضا اذا صدّوا عن العلوم كما

يقول

يقول الغزالى فقد أشبهوا من يصدّون عن سبيل الله بعض الشبه فاذن تكون هذه الأمة قد تبعت من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع وأصبحت كما قال الله تعالى ـ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ـ وهكذا صار لبعض علماء الاسلام فى كثير من الأزمان من الأعمال ما اتفق للأحبار والرهبان المذكورين فى هذه الآية والله هو الولىّ الحميد ومنه التوفيق والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على المقام الأوّل لهذه الآيات فى الأمم الاسلامية قديما وحديثا

﴿ المقام الثانى آثار هذه الآيات فى الانقلاب الأوروبى ﴾

اعلم أن أكبر مظهر لهذه الآيات قد ظهر ظهورا واضحا فى أوروبا . ألا تعجب معى كيف كان مظهر هذه الآيات واضحا ظاهرا فى أوروبا ظهور الشمس . ألا تتأمّل فى حال المسيحيين كيف كان (الكاثوليكيه) الذين هم يسمون (ملكانيه) أيضا لهم رئيس دينى وهو الأسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الأفخم . من هو هذا . هو المسمى (البابا) ومقرّه وسكناه (روما) بدولة (إيطاليا) فهو رئيس أهل هذا المذهب وهو كالقطب عند المسلمين . ومن جهة أخرى هو ملك سياسى وأهل ايطاليا كلهم على مذهبه وقد جعلوا للبابا السلطان الأعظم عليهم سنة ٧٢٦ م الموافق سنة ١٠٨ هجرية . وصار البابا يترقى حتى صارت له مقاليد الدين والدنيا فكانت للبابوات ممالك واسعة فى الأرض . وكان لهم حق كبير فى تولية ملوك أوروبا وعزلهم كما يشاؤن . وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأما هم فكان لهم ثلاثة تيجان واحد فوق الآخر دلالة على كمال السلطة و بيدهم الحرب والسلم . وكانوا يحرقون من خالفهم بالنار وهو حى . وقد ألزم البابا مرة أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران . ورفس البابا مرة برجله تاج ملك (جرمانيا) حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران . ولما استفحل أمرهم انحطوا شيأ فشيأ الى سنة ١٨٧١ م الموافقة سنة ١٢٨٨ هجرية إذ ذاك سقط أمرهم بالكلية ودخل الايطاليون الى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثوليكية فقط ومقرّه فى الكنيسة الرومانية وليس له من الرئاسة غير ذلك

هذا هو ملك رجال الدين الذين أشار لهم القرآن هنا . يقول الله للمسلمين أيها المسلمون انشروا العلم فى الأمم وهذّبوا نفوسكم وكونوا للناس آباء رحماء ولا تكونوا كرجال الدين فى الأمم المسيحية واليهودية الذين جعلوا الدين مصيدة لجمع المال . يا أهل الأرض إياكم أن تأكلوا أموال الناس باسمى ولا تجعلوا دينى سبيلا لظلم عبادى فمن كان خليفتى فى الأرض فليكن نورا مبينا للناس كالشمس لا يريد جزاء ولا شكورا كما اتفق لنحو أبى بكر وعمر وعلىّ وأمثالهم . أما المتأخرون من علماء الاسلام فأكثرهم يجهلون مقصود القرآن وهكذا أهل أوروبا اتصل ملك البابا فيهم فوق ألف عام وهم خاضعون لسطوة رجال الدين فأخروا تلك الأمم ولم يستيقظوا إلا بعد أن خذلوا رجال الدين . أفنظروا أيها المسلمون آثار الأمم وآثار الاسلام فيها

(١) قال المؤرخ (كرنيوس اغريبا) عند وصفه ابتياع حلّ الخطايا فى عصره بالمال مانصه ﴿ ليس من ذنب فظيع إلا أمكن حله بالدينار حتى القتلة وسفاكو الدماء . كانوا يشترون الحلّ والعفو بالأموال الطائلة ﴾ انتهى . أليس هذا هو نص الآية إذ يقول هنا ـ ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ـ وأى باطل أشدّ من هذا ويقول تعالى هنا أيضا ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ وأىّ ربوبية أعظم من غفران الخطايا فهذه ربوبية جشعة بالأموال

(٢) ومن اطلع فى مدينة (أنفرس) يجد فى قبر (كرنيوس فان لاند شودت) ماتعريبه ﴿ تنسكب السماء بالاجتهاد أو تشترى بالمال ﴾

(٣) ليس من شئ مقدّس الا جعله رجال المسيحية متجرا فيتاجرون بالضمائر والايمان وضعف النفوس

وقد جعلوا دفن الموتى بابا للثروة فيقرعون للغنى الأجراس ويشعلون له الشموع ويحملون له البيارق والصلبان ويكسون الكنيسة برايات الحداد ويسيرون أمام جثته بالترتيل وهكذا . ومن أعمال البابا (أوربانس) الثانى انه لعن (أنريكس الرابع أمبراطور ألمانيا) مع أعوانه . وهذا بعض هذه اللعنة ﴿ انا نفصلهم عن حضن الكنيسة ونلعنهم أبدا ليكونوا ملعونين فى المدن والدساكر وفى كل أرزاقهم الخ وهى طويلة جدا مملة كلها لعنات

(٤) ومن أعمال نصارى الاسكندرية سنة ٤١٥ بايعاز أسقفهم وكهنتهم انهم اختطفوا العالمة (هيباتيا) ابنة (تيون الاسكندرى) الرياضى الشهير فى عصره ومزقوا جسدها إربا لأنها كانت تعلم الفلسفة وتحب العلم والفضيلة وتحث عليهما

(٥) وفى سنة ٧٨٢ قبض (شرلمان الكبير) بايعاز الحبر الرومانى على أربعة آلاف ساكسونى ونيف من مدينة (واردن) وضرب أعناقهم فى يوم واحد لأنهم أبوا قبول العماد

(٦) وفى سنة ١٠٠٧ أحرق أقواما فى مدينة (أورليان) وهم أحياء . وفى سنة ١١٣٤ أحرق حيا (بطرس برويس) فى مدينة (لانجدوك) لأنه انكسر صحة معمودية الأطفال ونحوذلك

وفى سنة ١١٥٥ قتل خنقا (ارنالدودى بريشا) لأنه نشر تعاليم أراتيكيا مآله وجوب عيشة الاكليروس من عطايا المؤمنين الاختيارية فقط . وفى سنة ١١٦٠ قام الكاثوليك على جماعة من (الفوبين) عصوا أمر البابا فأحرقوا منهم عددا كبيرا وقتلوا منهم فى فرنسا ثلاثة آلاف من جلتهم كثير من الصبيان . وفى سنة ١٢٠٩ اضطهد الكاثوليك أيضا (الألبيجيين) فى مدينة (بيزيه) فذبحوا منهم ثلاثين ألفا وأحرقوا منهم فى مدينة (لاڤور) أربعمائة انسان دفعة واحدة وخنقوا أمير (أراتيكيا) بعد أن أحرقوا امرأته وبنته وأخته معا ثم شنقوا أميرا آخر مع ثمانين شخصا من آل بيته ثم غزوا مدينة (لانجدوك) ومنح البابا (اينوشنسيوس) الثالث غفرانا كاملا لكل الذين اشتركوا فى هذه المذابح والغزوات . وفى سنة ١١٨٤ تأسس ديوان التفتيش فى مجمع (ڤيرونا) وصادق عليه البابا (اينوشنسيوس) الثالث سنة ١٢٠٤ وثبته نهائيا البابا (غريغوريوس) التاسع ببراءة خصوصية . ويقدّر المؤرخون بالملايين عدد الذين قتلوا بحكم هذا الديوان . قال المؤرخ (ميشيله) ان عذاب الناركان متنوّعا فيضعون تارة المحكوم عليه داخل (آتون مضطرم) فيموت حالا . وأحيانا يلقونه على نار ضعيفة ويقلبونه عليها بكلاليب من حديد مرارا عديدة الى أن يحلّ به الموت ببطء فينقذه من عذابه المهول

وتارة ينزلون بالمحكوم عليه فى دهليز تحت الأرض ويضعونه فى حفرة بقدر قامته ثم يسدّون ذلك عليه الى عنقه . وهذا هو معنى دفنه حيا ولايبقى الا متسع صغير أمام رأسه يأتيه منها السجان بالطعام الى أن يوافيه الموت بعد عذاب شديد . وتارة يأتون بالأسياخ الحديدية فيدخلونها تحت أظافر اليدين والرجلين وهكذا النعال من الحديد المنطبقة على باطن القدم المحماة فى النار . وهكذا الرصاص الذائب يسكبونه على الجراح الدامية . وهكذا خفاف جهنمية تشدّ على الأرجل الى أن يقطر منها الدم وتنفث اللحم وتتطاير العظام . وهكذا مسامير مجوّفة تصب فى الأحشاء زيتا غاليا . وهكذا كلاليب حامية بها يقطع الثديان . وهكذا من أنواع العذاب الشديدة الجهنمية . وذبح النصارى كثيرا من اليهود فى انكلترا أيام (ريكاردس الأوّل) ومن بعده وعذبوهم ونهبوا أموالهم الى أن طردوا تماما من البلاد سنة ١٢٩٠ م

وأحرق لويس الحادى عشر ملك فرنسا منهم فى مكدس ١٨٣ شخصا مع راعيهم . وفى عام ١٢٤٩ أحرق منهم ثمانون انسانا فى بلدة (آجين) . وفى سنة ١٢٦٧ حكموا على الراهب (روجر باكون) بالسجن (١٤) سنة لأنه أبرم عهدا مع الشيطان فى أبحاثه العلمية . وفى سنة ١٣٩٠ ذبح النصارى فى

مدينة

مدينة (سيفيلا) أربعة آلاف شخص من اليهود بايعاز كاهن اسمه (هرماندومارتيش) ولازال باقى اليهود يعانون العذاب حتى طردوا منها بتاتا أيام الملكة (ايزابلا)

وحكم فى انكلترا بنبش قبر (وويكلف) لأنه ترجم الكتاب المقدّس وذلك الحكم بأمر مجمع قسطانس سنة ١٤١٥ وطرحت رفاته فى النهر . ويقدّر المؤرخون المحكوم عليهم فى محكمة التفتيش باسبانيا ٥١٠٠ شخص أيام (توركويمادا) التى دامت ١٨ سنة وعدد الذين أحرقوا مابين ثمانية وعشر آلاف . وقتل فى الأندلس فى سنة واحدة ألفا يهودى وعذب منهم ١٧ ألفا وأحرق منهم عدد عظيم فى مدينة (بامبلونا) فى فرصة زواج أميرالبلد . والاحراق غالبا كانوا يتخيرون له فرصة زواج الملوك فيجلس الملك والملكة على دكة عالية ويؤتى بالمحكوم عليهم بين تصفيق الجمهور وعلى رؤسهم أكاليل من ورق نقشت عليها رسوم الشياطين وتصدح الموسيقى بالأنغام ورئيس التفتيس حامل فى يده كتاب الانجيل . وفى سنة ١٥٦٨ أصدر ديوان التفتيش الرومانى حكما باهلاك كل سكان (هولاندا) لاتباعهم الهرطقة وعدد الذين قتلوا فى (اسبانيا) أيام (كارلس الخامس) وابنه (فيلبس الثانى) خمسون ألفا . وفى سنة ١٦١١ طرد المسلمون من (اسبانيا) وعددهم ألف ألف . وقتل منهم مائة ألف بايعاز رئيس أساقفة (فالنا) الذى أمر بقتلهم كما قتل داود الفلسطينيين وشاول العمالقة . وفى سنة ١٥٧٢ حدثت مذبحة (سان بارتلمى) الشهيرة فذبح تلك الليلة فى باريس وحدها عشرة آلاف ونيف من البروتستانت من شبان وشيوخ وأطفال ونساء وحوامل وفى الأقاليم نحو أربعين ألفا . ثم ان (البروتستانت) فعلوا أكثر مما فعل (الكاثوليك) فارتكبوا فظائع مريعة فى ألمانيا وهولاندا وانكلترا خصوصا أيام (أنريكس الثامن) والملكة (اليصابات)

وقد قتل فى انكلترا وايكوسيا لدواع دينية فى مدّة مئتى سنة مليونى نفس . وفى سنة ١٦٠٠ حكم ديوان التفتيش الرومانى على (جورداتو برنو) العلامة الشهير بالاحراق حيا لأنه رأى مارآه (كوبرنيك) و (غاليوس) فى دورة الأرض وقوله إن النفوس ترتقى فى العوالم التى لاتتناهى منتشرة فى الفضاء . وفى سنة ١٦٩٩ حكم على (ڤانيين) بالاحراق حيا فى مدينة طولون لأنه ألف كتابا ونشره يسمى ﴿محاورات فى مسائل الطبيعة﴾ . وفى سنة ١٦٨٥ نقض لويس الرابع عشر بايعاز (الاكليروس) معاهدة (نانت) مع البروتستانت فتسبب عن ذلك مذابح شتى وامتلأت سجون فرنسا من أهل الاصلاح . ويقدر عدد القتلى بأكثر من ثمانمائة ألف أى من الذين قتلوا وسجنوا ونفوا . وقتل فى مدينة (لانجدوك) وحدها مائة ألف انسان حرقا وشنقا وتعذيبا فى القرن الثامن عشر وحكموا بايعاز أسقف (اميانس) سنة ١٧٦٦ على الفتى المسمى (دى لابار) بقطع يده وقلع لسانه واحراقه حيا لكونه لم يؤدّ الاكرام الواجب (لايقونة العذراء) وقت طوافها الاحتفالى وله من العمر ١٩ سنة . انتهى

هذه بعض أعمال رجال الدين فى أوروبا وأمامى الآن مئات الحوادث فى كتب مختلفة ضربنا عنها صفحا اكتفاء بالقليل المفيد عن الكثير . وانما الذى يهمنا الآن أن هذا الضلال لم يزله عن أوروبا إلا الاسلام فان القوم نازعوا المسلمين فى الحروب الصليبية وعرفوا الحقائق فأذلوا رجال الدين وصاروا أحرارا . ولا كتف لك أيها الذكى بايراد ماجاء أيام طبع هذا الكتاب من رسالة بقلم سيدة أوروبية أسامت وكتبت مذكرات ونشرتها فى بلادنا المصرية فهاك نصها لتعلم كيف كان قوله تعالى ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله الخ ـ ونداء الله للمسلمين بقوله ـ يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان الخ ـ قد ظهرت آثارهما فى أوروبا بأجمعها فى العصور المتأخرة كما ظهرت آثاره فى الاسلام فى العصور الأولى

فهاك نص ماقالته تلك السيدة الاوروبية بالحرف تحت عنوان ﴿ الحضارة الاسلامية والحضارة الاوروبية ـ رجال الدين ﴾ وهاهى ذه

﴿ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت ﴾

(الحضارة الاسلامية . والحضارة الاوروبية)

﴿ رجال الدين ﴾

لا أستطيع فى هـذه الأسطر القليلة أن أتعمق فى بحث الدور الهائل الذى لعبه رجال الدين فى سياسة أوروبا جمعاء فيما بين القرنين السادس والسابع عشر وماجره اسرافهم فى الأمر من حروب ونقم فانه يحتاج الى مجلدات . وأن كل من قرأ شيأ من تاريخ أوروبا يعلم كيف استفحل أمر رجال الكنيسة فى ذلك العهد . وكيف سلبوا أموال الأمّة واستحوذوا على أملاكها . واستبدّوا بالوظائف الحكومية والمكانات العالية . وكيف كانوا يعيشون فى مثل بذخ الملوك . لهم ماليس للناس . ولايجرى عليهم مايسرى على باقى أفراد الشعب حتى ضاقت الملوك ذرعا بما كانوا عليه من اسراف وظلم وتسلط على العقول والقلوب باسم الدين والكنيسة . وظلوا على تلك الحال الى أن أردوا أوروبا بأسرها فى هوة الخراب بتلك المجزرة الهائلة التى أطلق عليها التاريخ اسم (حرب الثلاثين) وما أعقبها من مطاردة (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا لطائفة (الهجنوت) مطاردة قضت على مائتى ألف منهم بالغربة والتشتيت فى أنحاء العالم

والحقيقة أن رجال الدين فى ذلك العهد أساؤا استعمال سلطتهم الروحية واتخذوا من الدين ذريعة لنيل مآربهم السافلة من سلب الأموال والعبث بالممتلكات والوظائف وسائر مرافق الحياة

ولقد عاشت أوروبا تحت تأثير هذه الطائفة وتضليلاتها فى ظلم وجهالة الى أن نبت فيها أمثال (فولتير) و (روسو) فحرّروا العقول من الأوهام التى كانت لاتزال عالقة بها وحطموا تلك القيود البالية التى غلغل بها رجال الكنيسة رقاب الشعب المسكين . وأخذت أوروبا فى دور النهوض والتقدّم وكانت كلما أعرضت عن رجال الدين وأهملت تعاليمهم المسممة ازدادت رقيا وتقدّما الى أن بلغت بفضل اهمالها التام هذه الطائفة مبلغها الحالى من الرقى والعمران

ولقد حدا بى كل ذلك الى الظنّ فى بادئ نشأتى أن كل الأديان فى هـذا سواء الا أنى تحققت بعد أن اعتنقت الدين الاسلامى أنه خير الأديان وأمتنها أساسا و بنيانا . وانه دين الاجتماع . دين الحكمة والفلسفة دين العلم . دين الحرّية والاخاء والمساواة

وانى لعلى يقين الآن أن أمثال (فولتير) و (روسو) وغيرهم من قادة الفكر فى أوروبا لم يأتوا بنظرياتهم الفلسفية وآرائهم فى الحرّية والديموقراطية الا بعد أن تشبعوا بفلسفة الاسلام واستقوا تلك المبادئ من روحه السامية مما عثروا عليه فى بطون الكتب المنهوبة من الأندلس ومصر وغيرهما . وانى لأتنبأ بأنه سيأتى يوم قريب تنبلج فيه أنوار هذا الدين وأسراره العالية فتكون أوروبا وأمريكا أوّل من يبادر الى اعتناقه هاشين باشين . وهم يزعمون أنه دين الجمود . ويساعدهم على ذلك نفر من بنيه . ولكن أسائلهم . هل دين الجمود يأمر بالحرية والمساواة . ويقرّر مبدأ المسؤلية الحكومية والمشورة و ينشر الديموقراطية . أوليس عمر أوّل حاكم ديموقراطى أسس ملكه على العدالة ونادى بالحرّية والمساواة

أوليس هو القائل ﴿ ان الناس ولدتهم أمهم أحرارا فبم استعبدتموهم ﴾ . أوليس هو أوّل من قرّر مبدأ مسؤلية الحاكم أمام الأمّة حين وقف قائلا ﴿ من رأى فىّ اعوجاجا فليقوّمه (فيجيبه العربى) لورأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بحدّ السيوف ﴾

أوليس القرآن أوّل نظام قرّر المشورة قال تعالى (وشاورهم فى الأمر) وعدم استئثار الزعيم أوالحاكم بالرأى . أوليس الاسلام أوّل من قرّر حق انتخاب الأمير أوالحاكم للأمّة . ذلك بان سيدنا محمدا ﷺ

مات

مات ولم يوص بالخلافة من بعده لأحد من أصحابه

أوليس القانون المدنى صورة محورة من نظم الشريعة الاسلامية وفلسفة ابن رشد . والأدلة على ذلك كثيرة ليس هذا الموضوع محلا لذكرها . والآن وقد أتيت فى هذه النبذة التاريخية على ما كان لرجال الدين من أثر فى سياسة أوروبا وأخلاقها . فانى أعوذ بالقارئ الى الشرق فى أيام عزه وسلطانه مستعرضة ما كان عليه رجال الدين فى عهد شروق أنوار الاسلام وكيف كانت أخلاقهم وصفاتهم وما تركوه من الأثر فى نفوس الأمم التى تغذت بلبان تعاليمهم وارتشفت من كؤوس علمهم وحكمتهم

نعم لقد كان للشرق عزّ وسلطان أيام كان للدين رجال يحمونه ويجلونه ويحافظون على تعاليمه ويمشون على سننه . ترخص أرواحهم وتغلو فى سوق الفضيلة ذممهم وضمائرهم . استلانوا ما استخشن المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون . لم يفتتنوا بحبّ المال والجاه ولم يركنوا لذوى العزّ والسلطان

نعم بمثل هؤلاء عزّ الاسلام وخفق على العالم لواء العدل وعمت الحرية وتآخى الناس على اختلاف طبقاتهم فى ظلال الامن والسلام . من ذلك ترى أن الشرق وان أخذت منه الخلافات المذهبية التى لا تزال حية حتى اليوم كالشيعة والسنية والروافض وغيرهم قد اقترن تاريخ مجده ورقيه بأيام تمسكه بالدين على يد رجاله العاملين . فالشرق والغرب عندى فى هذا الموضوع ككفتى الميزان . تركت أوروبا الدين وتخلصت من رجاله الظلمة المستبدّين فرقت وعزت وتحررت العقول ونضجت الأفكار وأهمل الشرق أمر دينه واحتقر تعاليمه واستهان بشريعته ورماه خطأ بأنه دين الجمود فتقاص ظله وزال سلطانه وانمحت دولته . وهنا أقف وقفة المحزون أناجى الشرق وأسأله . هل أنت حقا ذلك الشرق صاحب المدنية القديمة والتاريخ المجيد مهبط الوحى ومبعث العدالة ومخرج تلك العقول التى حيرت ببديع صنعها ورائع ثمرتها أفكار أهل أوروبا وأمريكا الذين كانوا يرتعون فى ذلك العهد فى مجاهل الظلم والجهالة

ان كنت أنت ذلك الشرق فلم أظلمت بعد ساطعة الأنوار ولم اكفهرّ جوّك وأظلم أفقك وزالت سطوتك وأضحيت مقهورا بعد أن كنت قاهرا ومستعبدا بعد أن كنت سلطانا عادلا . هل تغيرت الأرض والسماء أم جفت الأنهار وتعطل الليل والنهار . لا ان شيئاً من كل ذلك لم يكن . انما هو خراب القلوب من الايمان بعد عمارها وبيع الذمم والضمائر رخيصة فى سوق الدنيا ونبذ الدين وتعاليمه واقفار أهل العلم من صفات العلماء واستكانة الملوك والأمراء . وان شرّ ما أنعيه على الشرق اليوم وأكبر ما آخذه عليه من أسباب التدهور والانحطاط هو تغير أخلاق العلماء ومحل قلوبهم من العلم والعمل

أنظر الى ما فعله علماء بنى غازى . ألم ينادوا باسم عمانويل ملك ايطاليا على المنابر بعد خلع الخليفة والله يقول — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين — الآية

ألم يبايع علماء الحجاز والسودان الحسين بن على المؤيد من قبل الانجليز بالخلافة . ألم يقم سعيد الكردى باسم الدين فى وجه الكماليين أصحاب السلطة الشرعية على البلاد ارضاء لشهوته من الانجليز

ألم تر الى أعمال سادتنا العلماء فى مصر . وقد ظنوا أن الدين انما هو ارخاء اللحى وتوسيع الأكمام ولبس الفرجيات وان أقفرت بيوت الله وأظلمت وعمرت المواخير وبيوت الدعارة وازدهت . وهل تراهم مشتغلين بغير عمارة الجيوب وان خربت الذمم والقلوب . وهل تراهم الا صائحين ليل نهار بتضخم المرتبات وزيادة الجرايات وان فتكت بأهل البلاد حمى الخمر والميسر والمخدرات

أين سطوة العلم وعز الايمان . وقد حفت أقدام هؤلاء السادة من السعى الى القصور والعمارات والجرى وراء كل ذى لقب من أصحاب المراتب والمرتبات . أين تآليفهم النافعة . أين دعاياتهم ضد هجمات المبشرين واحتجاجاتهم ضدّ كيد المستعمرين . أين صيحتهم التى كانت تزلزل العروش وتهز القلوب

أين العلماء الذين كان يقصدهم الملوك والعظماء ولايقصدون . ويسألهم الكبير والصغير ولا يسألون
أين من قيل فيهم انهم ورثة الأنبياء . وان قطرات أقلامهم ترجح بدم الشهداء . قضت دولة أولئك العلماء وأصبحت لاترى الاكل حفيظ لبعض قشور من الشريعة وأصول الفقه يستثمرها ابتغاء قنص الفلوس لافى سبيل اصلاح النفوس . متهافت على الأمراء والعظماء . لايرى منفعة دنيئة . أوحظا عاجلا عند كبير الاطار اليه كالذباب لايقوى على رؤية العسل دون أن يهوى عليه
أما الدين . أما الضمائر والذمم . وعلو النفس والهمم . فذلك ماليس يعنيهم ما دام لايسد البلعوم ولايهيئ أسباب العيش الرضى الهنيء . وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر يحييها السادة العلماء فى دار المندوب السامى وتظلم الجوامع وتقفر بعد ذلك بيوت الله
أراح الله الشرق من شر المنافقين . وقيض له علماء عاملين يأخذون بيده وينهضون به فيعود الى ماضيه القديم ويسترد مجده التليد فانى لاأظن الأرض تخلو من هذا المثل الأعلى للعلماء . بل ان هذا الظن قد تحول منى الى تحقيق بعد أن تبين لى فى نفسى صدق علىّ بن أبى طالب حيث قال { اللهم لاتخلى الأرض من قائم لك بحجة اما ظاهرا مشهورا أوخائفا مقهورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته } وليس بضائر الشمس أن تحجبها عن الأبصار السحب السوداء أوأن لاترى نورها أعين الخفاش فانها بالرغم من كل هذا موجودة وهى تضيء وهى تنفع . أما أنا فأعتبر نفسى سعيدة السعادة كلها حيث قد منّ الله علىّ باختراق هذه السحب السوداء بنور البصيرة فعرفت من أنكره الناس وعثرت بمصباح (دياجونيس) على مالم يعثر عليه (دياجونيس) نفسه ذلك هو الرجل . وانى لست بالساذجة ولا بالجاهلة فان قلت انى عثرت وعرفت فعلى علم ونور وبصيرة . انتهى

مدام رئيفه كامل

وبهذا تم الكلام على المقام الثانى من المظهر الأول لهذه الآيات

{ المظهر الثانى ماجاء عن علماء الأرواح حديثا ببلاد أوروبا }

(معجزات القرآن فى هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا لهذه الآيات من قوله تعالى ـ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ـ الى قوله تعالى ـ فذوقوا ماكنتم تكنزون ـ)

ولنفصل الكلام فى هذا على ثلاث جواهر { الجوهرة الأولى } ملخص هذه الآيات اجمالا نبنى عليه مابعده { الجوهرة الثانية } فى مبحث عام فى النفس الانسانية وقواها وملكاتها وأخلاقها لأنها هى أس جميع الأعمال { الجوهرة الثالثة } فيما أعلنه بعض الذين خاطبوا الأرواح من علماء المسيحيين الكبار وحكمائهم وأنهم شاهدوا فى الجنة قصورا وفى النار ظلمات وسعيرا وأن بعض رؤساء الدين المسيحى من آباء الكنيسة الرومانيين فى أسفل جهنم الخ . وأن الدين الاسلامى قد ظهر له أحسن أثر فى الأموات الذين اعتنقوه الخ وهذا المقال من أعجب مافى هذا التفسير

{ الجوهرة الأولى مجمل هذه الآيات هو }

(١) ان من قدم النفس والمال لله فهو فى الجنة
(٢) ان الذى يقدم حب المال والأهل وغيرهما على حب الله فهو فى جهنم
(٣) ان النصر بيد الله لأن العالم فى قبضته
(٤) معاداة الكفار
(٥) ذم النصارى واليهود الذين جعلوا لله شريكا واتبعوا الأحبار والرهبان الذين يحللون ويحرمون
(٦) الأحبار والرهبان لشرههم على المال وحبهم للرئاسة يعذبون فى جهنم

هذه الأصناف الستة ترجع لأصل واحد وهو أن الشره على المال أوالرئاسة أوحب أمر من الامور يصد

النفس

النفس عن حب الله تعالى وهذا يوجب عذاب جهنم . فهذه الآيات جمعت ما بين مؤمن متثاقل عن الجهاد لأجل مسكنه أو ماله أو أهله و بين رئيس ديني مغرم بالمال والرئاسة الخ و بهذا تمت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في تحليل النفس الانسانية ومعرفة قواها وملكاتها حتى نقف على سرها المكنون المخزون الذي به ندرك بعض سر هذه الآيات . ثم نقفى في ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ بمصداقها من العلم الحديث اللهم انك أنت الذي تحيي القلوب وتخرج الحي من الميت . أنت الذي شرحت صدري لهذا التفسير وأنعمت علي بالتوفيق وأريتني بدائع الغرائب ومشاهد الحوادث حتى يظهر سر كتابك في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل . اللهم انك أنت الذي خلقت نفوسنا وأضأتها بنورك وأودعت فيها جواهر وأبدعت وزوقت وصورت وأحكمت فكانت نفوسنا (١) قابلة لمعرفة جميع الموجودات (٢) مشاركة لكل حي في صفات عامة فبهذا تود لو شملت جميع الأحياء بالرحمة والاحسان (٣) وحياتها متوقفة على العوالم العلوية والسفلية بوجه عمومي (٤) وهي من جهة أخرى تود لو تبتلع كل موجود اطاعة لشهوتها أو تهلك كل حي اطاعة لغضبها وسطوتها . وبيان هذه الأربعة أن نقول

هلم أيها الذكي أحدثك دقائق واعتزل عالم الأجساد وادخل معي عالم روحك وتفكر فيها فها أناذا أصف نفسي وهذا الوصف ينطبق على نفسك وقد أمرني الله وأمرك أن ننظر في نفوسنا فقال — وفي أنفسكم أفلا تبصرون — وهذا فيه توبيخ لنا وانكار علينا لعدم نظرنا لنفوسنا فامتثالا لأمره تعالى أنظر في نفسي وأنت تنظر في نفسك فأقول

قل لي ألست تجد انك تحب أن تعرف جسمك ومنزلك وقريتك وأمتك والكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وعالم المجرة الذي يحتوي على نحو (٢٤٠) ألف ألف من النجوم التي هي أكبر من شمسنا وأضوأ جدا . فمنها ما هو أضوأ منها (١٠٠) مرة . ومنها ما هو أضوأ ألف مرة . ومنها ما هو أضوأ ثمانية آلاف مرة وأكثر كما تقدم كثيرا في هذا التفسير . ثم وراء هذه المجرة مجرات أخرى قد وصلت الى ما يزيد على ألف ألف مجرة وكل واحدة من هذه فيها شموس كشموس مجرتنا . اللهم أنت القدوس . أنت العليم . أنت الحكيم . أنت الكريم . فمن كرمك أن أبدعت نفسي وأبدعت نفس قارئ هذا الكتاب وجعلتهما تواقتين الى هذه العجائب التي ذكرتها سابقا في سورة الأنعام وسأذكر بعضها في سورة يونس وغيرها . بل ان هذه النفس نراها تدرك أن هناك ما لانهاية له في الزمان والمكان والعوالم ولكنها حين تريد أن تتصور ذلك تبهر وتنكمش وتتقهقر وتقول لا قدرة لبصيرتي على تصور هذا واذن ترجع القهقرى وتقول ان ما لانهاية له يعلمه من وجوده لانهاية له وهو الذي دبر هذا الوجود فمن أنا حتى أقف على سر الوجود

فمن هذا يتبين أن نفسي ونفسك معا عاشقتان مغرمتان بالاطلاع على كل موجود . ومعنى هذا أنهما قابلتان لذلك كما قبلتا الطعام والشراب ويظهر لي أن كل ما تميل اليه النفس هو من جبلتها وطبيعتها والا فلماذا كان ميلها للطعام سببا لحياتها وميلها لاقتراب الرجل والمرأة سببا لبقاء الولد فهكذا فليكن ميلها لمعرفة العوالم وحبها سببا لسعادة كبرى مناسبة لهذا الميل كما سعدت سعادات صغرى بالميل للطعام وللتزوج . هذا هو ما قصدت من شرح ﴿ الأمر الأول ﴾ وهو قبول النفس لمعرفة جميع الموجودات ﴿ الأمر الثاني ﴾ ان الانسان لمشاركته لأبناء نوعه في عواطفه يحب حياة كل انسان متى خلي وطبعه . والبرهان على ذلك أنك ترى الانسان اذا شاهد قطارا دهم رجلا وقتله في مصر أو بغداد أو الاستانة أو كلكوتا أو باريس أو برلين فانه في الحال يفزع ويجزع وهذا دليل على أنه يفرق بين حالي هذا المقتول و يفضل حال الحياة على حال الموت ﴿ الأمر الثالث ﴾ ان نفسي التي تحب معرفة كل شئ وحياة كل انسان (اذا وصلت لليقين) تعرف انها متوقفة على جميع العوالم العلوية والسفلية . وهذا واضح في ثنايا هذا التفسير أفلا نعجب من هذا . ألا نعجب من

أن حبها معرفة العوالم وعطفها العام يناسبان احتياجها العام . اللهم ان نفسى لاتعيش فى هذه الدنيا الابجسم تحفظه قرية تحميها دولة يحيط بها هواء وأضواء مشرقات من العوالم العلوية والأمم جميعها والدول مشتركات فى الامور العامة كالأسلاك البرقية (التلغراف) وكالمسرة (التلفون) وكالقطرات فى البرّ والسفن فى البحر وهكذا . فالأمم على هـذه الأرض كلها متعاونات وان كنّ متعاديات وهـذا هو العجب . حبّ عام واحتياج عام واشتراك عام . وان كان هذا الاشتراك صوريا والقلوب مقفلة على الطمع والشره والعـداوة والبغضاء لنقص أهل الأرض أجمعين إلا قليلا منهم — وقليل من عبادى الشكور —

﴿الأمر الرابع﴾ انها مع هذا الحبّ وهذا الغرام بالعلم والاشتراك العام كنت فيها قوّتان ﴿احداهما﴾ جاذبة ﴿والأخرى﴾ دافعة . أما القوّة الجاذبة فهى الشهوات التى أعدّت لبقاء الحياة فى الدنيا . فهذه الشهوات نراها قوية هائلة فـكما رأينا عقولنا تودّ معرفة كل كوكب وكل شمس وكل أرض كما هو معروف من أخبار علماء أهل أوروبا الذين يودّون أن يسافروا للقمر أو يخاطبوا أهل المريخ الخ ونحن نتشوّق لذلك شوقا كبيرا . هكذا نرانا اذا ملكنا لانقف عند حدّ فنحن تـكفينا الأطعمة الحاضرة والملابس الساترة . لـكن هـذه النفس تندفع فى شهواتها كاندفاعها فى علومها يودّ الانسان لو يملك قرية أوأمّة أوأهل الأرض جميعا . والدليل على ذلك مانعرفه عن نابوليون و بختنصر وغليوم امبراطور الألمان وغـيرهم . وهكذا كل أحد منا يعرف فى نفسه انها لاتقف عند حدّ فى أمر الملك وحوز النعم الأرضية . واذا عارض أحد من الناس هذه القوّة فينا غضبنا عليه وكرهنا حياته ونسينا أن كل حىّ على الأرض رحمة لنا فالأمم وأفراد الأمم يساعد بعضهم بعضا . فـكل عنده من العلم والسلع ماليس عند الآخر فـكل لـكل مكمل ومرق ولـكن الناس لنقص أكثر نفوس أهل هذه الأرض بعضهم لبعض عدوّ . وهـذه هى القوّة الدافعة فنحن أهل الأرض بين قوّتين . قوّة جالبـة لما به الحياة . وقوّة دافعـة لما يضادّها . وهاتان القوّتان هما اللتان تظهران فى الجاذبية العامّة . فالشمس مثـلا تجذب الأرض ولـكنها تدفعها عنها الى بعد مخصوص بالقوّة الطاردة فالأرض كعاشقة للشمس لأنها مجذوبة اليها ولـكنها مطرودة عنها الى بعد مخصوص . هـذه هى القوى الأربعة التى فى نفوسنا فهى محبة لـكل علم متوقفة على كل العوالم (وهذا لايعرفه إلا من درس جميع علوم الـكائنات أوقرأ أكثر هذا التفسير)

تريد أن تعرف كل شئ . وتملك كل شئ . وتحسن لـكل حىّ . ولـكن يعارض هـذا شهواتها وأضغانها (وان كانت فى حاجة لأبناء نوعها) . إن رغبة العلم العام والمحبة العامّة طبيعتان أصليتان فى النفس . أما كونها تودّ البطش بأبناء نوعها وتودّ هلاكهم فهذا عارض من حيث حاجتها الى سدّ شهواتها ونتيجة هـذه الجوهرة الثانية أن الانسان لاتصلح حياته إلا على مقتضى أصول فطرته وأصول فطرته أهمها العلم والحبّ والتعاون . إذن حياة الفرد فى أمّة يتوقف كمالها على حياة الأمّة وكل ما توقفت عليه حياتنا أحببناه وهكذا فى الأمم على هذه الأرض

اللهم ان كمال الأفراد فى حب بعضهم من أمّتهم . وكمال الأمم فى حب بعضهم بعضا . ولقد حصل هذا فعلا فى أرضنا ولـكن حصوله ناقص فاننا نرى أهل المنزل يتشاركون وهم كثيرا مايتعادون . ونرى أهل القرية يتشاركون فى أمورهم العامّة وهـم يتشاجرون . ونرى الأمم تتعاون فى التجارة والبريد والقطرات وهم جميعا متعادون . الله أكبر ظهر الحق واستبان السبيل وظهر جمالك فى العالم الذى عشنا فيه

اللهم انك قد أبدعت هـذا الوجود وأرجعته لفطرنا . أنت عشقتنا فى المعرفة وجعلت حياتنا موقوفة على أبناء نوعنا فتشاركوا وتعاونوا ولـكن هذا التشارك وهـذه المعاونة ظاهريان لاباطنيان . اللهـم ان فطرنا صادقة لصدقها تحزن اوتألم فى هذه الحياة وهى لاتدرى ماسبب هذا الألم ولانعلم أن سببه أن هذا العالم

ناقص لايطابق فطرتها تمام المطابقة بل المطابقة لفطرتنا لفظية ظاهرية . ولذلك حكمت بموتنا لندخل فى عالم آخر تتوافرفيه معدّات الحياة الحقة فيكون التعاون بالقلب والقالب وتصبح النفوس متجاذبة تجاذبا صادقا لاعوج فيه ولاخداع . إن حياة الأرواح فى أجسامها يجب أن يكون بالحب العام الخالص كما أحبت الشمس الأرض والأرض القمر وأفاض الأعلى على الأدنى بلا منّ ولا أذى كما يفيض الأبوان على الولد . وهذه الصفة مفقودة فى أرضنا التى حياة الأمم وحياة الأفراد فيها مصحوبة بالخداع . اللهم انك سترت فى الدنيا بواطننا رحمة منك . أنت أردت أن تكون ظواهرنا متشاكلة متوادّة متجاذبة . وقد أقفلت على قلوبنا أقفالك حتى لاتظهر ولوظهرت لكان التنافر ولم تتم الحياة . وهذا النقص يتبعه عالم أكمل من عالمنا هذا تكون البواطن فيه ظاهرة واضحة وهو عالم الأرواح لأن الليل يعقبه النهار فحياتنا ليل مظلم لاتظهر فيه البواطن . أما حياة الأرواح فهى نهار مضىء تظهر فيه الأشكال . وههنا يظهر معنى هذه الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها . فاذا رأينا الانسان يقدّم نفسه وماله فى المنفعة العامّة باخلاص فهذا مطابق لفطرتنا الأصلية . واذا رأينا الأحبار والرهبان يزجون فى جهنم لأنهم يجمعون أموال الناس لأنفسهم . فمعنى هذا انهم سخروا المجموع لأنفسهم فحبتهم إذن لأنفسهم لا للمجموع وهذا مناقض لفطرتنا . هذا هو الذى أردت تبيانه بطريق عقلى نفسى

﴿ الجوهرة الثالثة ﴾

(معجزات القرآن التى ظهرت مطابقة لما تقدّم عند بعض علماء النصارى الذين حدّثوا الأرواح)

بين يدى الآن كتاب مؤلفه عالم مسيحى (عمانوئيل سودنبرج) عاش فى القرن الثامن عشر وقدولد فى مدينة (ستوكهلم) وأبوه كان (أسقفا) على وستروغوتيا له شهرة طويلة فى حياته وكان عضوا فى الجمعية الانجليزية لنشر تعاليم الانجيل وأقامه الملك كارلس الثانى عشر أسقفا على الكنائس الاسوجيه فى (بنسلفانيا ولندن) أما عمانوئيل سودنبرج الذى نحن بصدد الكلام عليه فانه زار انكلترا سنة ١٧١٠ وهولندا وفرنسا وألمانيا وعاد الى وطنه سنة ١٧١٤ وجعله الملك كارلس الثانى عشر فى رتبة مقدّر فى مدرسة المعادن و بقى فى هذه الوظيفة الى سنة ١٧٤٧ وقال انه استقال منها لأنه دعاه داع إلهى لنشر الحقيقة العامية فى العالم فعرض عليه الملك رتبة أعلى فرفضها خوفا من أنه يتيه غرورا وتكبرا وتعاظما . ثم أنعمت الملكة عليه بترقيته الى منزلة الأشراف ولقب بلقب (سودنبرج) فجلس فى مجلس الأشراف وحضر الجلسات الثلاث التى تعقد كل سنة وصار عضوا فى الجمعية العلمية فى (أستوكهلم) ولكنه يقول هذه الجمعية مبحثها لايناسبه لأنها تتعلق بهذا العالم المادّى ولذلك لم يبحث معهم وان كان عضوا منهم بالاسم . وقد تناول الطعام على سفرة الملك والملكة (وهو شرف لاينله غير أشراف المملكة) وقد قال ان هذه النعم ليست شيأ مذكورا بالنسبة لما دعانى اليه الله وألهمنى أن أحدث الناس بالحقائق التى شاهدتها فى عالم الأرواح لاظهار الحق للمسيحيين ليعرفوا الحقيقة . وقال انى تنقلت فى البلاد لهذه الغاية وابرازهذا العلم للناس لخلاصى وخلاصهم

هذا ملخص ما ذكره المؤلف فى خطابه لأحد أصحابه سنة ١٧٦٩ وقال ان تشنيع الناس علىّ وتشهيرهم بى واستهزاءهم لايهمنى مادمت قائما بالحق . ولما قال له أحد أصحابه انى أنصحك أن تعتزل تلك الكتابات التى تكتبها عما ترى وتسمع فى عالم الأرواح فانها تعرّضك لسهام ذوى الجهالة . وقد أصبحت هزوا وسخرية . قال قد بلغت من العمر الى درجة لايجسر فيها على الهزؤ بالامور الروحية وأن منتهى جهدى السعى وراء خلاصى غير ملتفت الى مايرى الناس فىّ . ثم قال أقسم بخلاص نفسى أن ما كتبته لم يكن مصدره التخيل بل حقيقة ماسمعت ومارأيت . وقد مات سنة ١٧٧٢ ودفن فى لندن بعد ما أصيب بالفالج وقد قابله قبيل موته كاهن يسمى (أرفيدفرليوس) وقال له لقد نلت مرادك من الشهرة والناس يزعمون

انك بهذه التعاليم أردت الشهرة فاذا كان زعمهم صادقا فمن الواجب عليك فى هذه الحال حبا فى العدل والصدق أن تكذب كل ما كتبته أو بعضه مادام لم يبق لك مأرب فى عالم عما قريب تفارقه فلما سمع ذلك منه انتصب فى فراشه جهد طاقته ورفع يده الصحيحة الى صدره وقال بلهفة ﴿ إن صدق ما كتبته حقيق كحقيقة رؤيتك إياى أمام عينيك ولو سمح لى لكتبت كل ما رأيت وقلت أكثر مما فعلت حتى الآن وسترى كل شئ بعينيك يوم تدخل العالم الأبدى حيث أجتمع بك للكلام فى أمور كثيرة ﴾ انتهى ملخصا

﴿ ماذا يحدثنا عمانوئيل الذى ذكرنا ملخص تاريخه . يحدثنا ﴾

(١) يقول فى صفحة (١٧٩) مانصه فى الترجمة أن الافريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع فى السماء (أى الجنة) لأنهم يقبلون خيرات وحقائق السماء بأوفر سهولة من الآخرين وهم يرغبون خصوصا أن يدعوا مطيعين . ويقول فى صفحة (١٨٠) انه رأى عباد الأصنام من الأمم بعد الطوفان وشاهد أرواحهم فرآها فى مكان مظلم وفى حال تعسة وقد حرموا من الفكر وقالوا له انهم أقاموا فى ذلك المكان قرونا كثيرة وانهم يخرجون منها بعض الأحيان ليقوموا بحاجات دنيئة للآخرين . قال فمن هذا حملت على التفكر فى كثير من المسيحيين الذين ليسوا فى الخارج عبدة أوثان ولكنهم فى الداخل كذلك إذ يعبدون ذواتهم والعالم ويرفضون الله . قال وأخذت أتفكر فى نوع النصيب الذى ينتظرهم فى الحياة الأخرى . وقال فى موضع آخر ان المسيحيين يعيشون عيشة شريرة ولهم ولوع بالزنا والبغض والخصام والسكر وذنوب متشابهة تأباها الأمم الوثنية

(٢) وهو يقول أيضا انه حادث الأرواح فقالت له ﴿ اننا فى السماء لانقول ان الله ثلاثة وانما نحن نعلم ونبصر أن الله واحد . ويقول انهم قالوا له إن الذين يعتقدون بآلهة ثلاثة لايمكن ادخالهم الى الجنة لأن أفكارهم يحصل لها تحير فلاتدرى أين الثانى والثالث . والمدار فى عالم الأرواح على الفكر . فالفكر اذا تصور ثلاثة آلهة فقول اللسان انه واحد نفاق لايفيد بل يظهر الباطن ويكون وبالا على صاحبه وذلك فى صفحة (٣) من الكتاب المذكور

(٣) ويقول فى صفحة (٨١) يعتقد البعض أن الأطفال الذين ولدوا تبع الكنيسة بسبب انهم متعمدون بماء المعمودية يدخلون فى الايمان . وأما الذين ليسوا تبع الكنيسة ولم ينلهم ماء المعمودية لا يدخلون فى الايمان . قال وهذا باطل لأن المعمودية تذكار . ثم قال فليعلموا أن كل طفل فى أى مكان ولد من والدين تقيين أومن والدين غير تقيين متى مات يقبله الله ويعلم فى السماء (أى الجنة) وهنا أخذ يشرح العناية بالأطفال شرحا مستفيضا على مايقول انه رآهم كذلك

(٤) ويقول فى صفحة (٩٢) رأيت قصورا سماوية ذات اتقان لايمكن وصفه أشرقت من فوق كالذهب النقى ومن تحت كالحجارة الكريمة يزيد بعضها عن البعض رونقا والغرف مزدانة بزينة يستحيل أن يصفها الكلام وفى بعض الأماكن ترى الأوراق كالفضة والثمار كالذهب والأزهار فى ألوانها أظهرت قوس قزح . ويقول ان الأرواح قالت له ان هناك أشياء كهذه لاتحصى وهى أعظم كمالا يعرضها الله أمامهم ومع ذلك هم يبهجون عقولهم أكثر مما يبهجون أعينهم وذلك لانهم يرون مطابقة فى كل شئ إلهى . ويقول ان هذه المظاهر تطابق بواطنهم فانها لطهارتها ظهرت لهم المحسوسات وتنعموا بها كما تنعم بواطنهم بالكمال

(٥) ويقول فى صفحة (٦٦) إن داخليات الانسان تعرف بالنظر لوجهه بحيث لايخفى منها شئ فأهل الجنة يحبون أن يظهروا لان بواطنهم جميلة . أما الفجار من أهل النار فان أحدهم يظهر للآخر كما يرى الناس بعضهم بعضا . أما أهل الجنة والملائكة فانهم يرونهم كالوحوش فى وجوه وأشكال مخيفة فى نفس شكل شرهم الذاتى فكل انسان يظهر شكله على هيئة باطنه فامّا جميل على قدر خيره وامّا قبيح على

قدر شره . ويصف فى صفحة ٣٧٥ و٣٧٦ جهنم يقول

إن مداخل جهنم تكون تحت الجبال والتلال والصخور وجميعها تظهر مظلمة ومغبرة . ولها نوع من النور كالفحم المشتعل . وأن الذين عاشوا فى الدنيا فى البغض والانتقام من الذين لم يعتبروهم ولم يقدسوهم ولم يعبدوهم فهؤلاء يوضعون فى أقصى جهنم ومن هؤلاء طائفة (الكاثوليكية الرومانية) وكذلك الذين جعلوا أنفسهم آلهة تعبد فهؤلاء اضطرموا بنار البغض والحقد ضد كل من لم يعترف بقدرتهم على نفوس العالم ولايزالون فى جهنم يعللون الأمانى التى عاشوا بها على الأرض فقلوبهم ملأى غيظا وحقدا وضغنا على من لايوافقونهم فى زعمهم فأصبحوا فى جهنم وقلوب كل منهم متجهة نحو ذوى صيته

وقال فى صفحة (٣٧٧) فى بعض جهات جهنم ترى خرابات ومنازل ومدن بعد شبوب نيران وفيها تسكن الأرواح الجهنمية فى خفية وفى النواحى المعتدلة من جهنم ترى أكواخ سيئة البناء بهيئة مدينة بالأزقة والشوارع وفى داخل هذه البيوت الأرواح الجهنمية دائما فى مشاجرة وعداوة ومضاربة وقتال . وفى الشوارع والأزقة لاترى إلا النهب والسلب . وقال ان أبواب جهنم حين تفتح لدخول أرواح شريرة جديدة يخرج منها بخار يكون إما مثل بخار النار مع الدخان كما يظهر فى الهواء من أبنية محترقة أومثل لهيب بدون دخان أونظير سخام كالذى يخرج من المداخن المشتعلة أونظير ضباب أوسحاب كثيف . قال وهذه الأشياء مناسبة لأخلاقهم ولكنها تظهر بهذا الشكل لغيرهم أماهم فلا يمكنهم أن تعيشوا خارجها

وصرح فى صفحة (٣٥٩) أن بعض الناس اذا سمع فى جهنم ذكر الله ازداد غيظه جدا حتى التهب راغبا قتله وهولو أطلق العنان لنفسه لأحب أن يكون ابليس حتى يزعم أنه يلحق الأذى بالله تعالى كما يتمناه بعض أصحاب الديانة البابوية عند ما يدركون فى الحياة الأخرى أن الرب كل القوة وليس لهم شئ منها على الاطلاق

(٥) ويقول فى صفحة (٥٨) ان الله يرى فى السماء (الجنة) كالشمس ويرى لكل أحد بمقدارمايقبله تعالى ومن رأوه لافاضتهم الخير على الناس ظهر لهم كالشمس لما عندهم من المحبة والخير للناس . أماالذين يرونه لأجل الايمان فانهم يرونه كالقمر

(٦) ويقول أيضا ان نصيب الأغنياء والفقراء فى الآخرة تابع لسرائرهم . فكم من غنى كان محسنا طاهر القلب فرأيته سكن القصور الجميلة . وكم من فقير كان ساخطا على الزمان غير راض بالقدر فهذا يعذب عذابا شديدا انتهى فاعجب من معجزات القرآن . أليست هذه المسائل التى لخصتها لك من كتابه هى عين تفسير هذه الآيات بل هى من آيات الله وهى بعض آيات ربك التى أظهرها للناس . فياليت شعرى . أليست الجنة والنار اللتين ذكرهما هما المذكورتان فى القرآن بالنص . أفليس الرجل أنكر التثليث . أوليس كلامه فى أهل افريقيا وانهم يسبقون الناس الى الجنة وأن الأمم الوثنية من نفس تلك البلاد قديما معذبون فى جهنم . أقول أليس هذا معجزة للقرآن فى هذا العصر لان أهل افريقيا مسلمون وأسلافهم عباد أصنام . وانظركيف صرح بما نصت عليه الآية وهو أن رؤساء دينهم لحبهم لاجلال الناس إياهم فى أسفل جهنم كنص هذه الآية . أوليس قوله ان أطفال جميع الامم يدخلون الجنة موافقا للأحاديث ولآراء أجل علماء الاسلام . أوليس تفضيله للغنى الشاكر هو عين ما أوضحه الامام الغزالى فى الاحياء ﴿ أن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ﴾

﴿ نتيجة هذا المقام ﴾

ألست ترى بعد هذا أن مانقلناه من هذا الكتاب انما هو بيان لسر هذه الآيات إذ ذكر أن التثليث يعذب عليه المسيحيون وأن عظمة رجال الكنيسة تطرحهم فى أسفل سافلين الخ

هذا هو سرّ هـذه الآيات ولاسيما قوله تعالى ـ ليظهره على الدين كله ـ انتهى ليلة الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢٧ . هذا ومن أعجب العجب أن يقع هذا الكتاب فى يدى وهذه السورة مقـدّمة للطبعة وأخر طبعها لأسباب عارضة حتى تمكنت من تلخيص ماتقدّم والحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات اهـ

﴿ ايضاح ﴾

بعد أن كتبت ماتقدّم بأسبوع اطلع عليـه أحد أهل الفضـل من الاخوان فقال . أبهذا القول تثق وهل مثل هذه الأقوال التى لاحظ لها من التحقيق يفسر القرآن . القرآن وحى وهذا الرجـل يدّعى أنه خاطب الأرواح

فهل النائحة كالثكلى * فاين الثريا وأين الثرى * وأين معاوية من على

أوكلما نعق ناعق أثبت قوله فى تفسير كلام الله . فقلت أنا لم أقل انى موقن أنه حادث الأرواح . كلا . قال ولم إذن نقلت كلامه . فقلت نقلته لثلاثة أمور ﴿ الأمر الأوّل ﴾ انى وجدت هذه الآراء فى فحواها وفى مقصودها تشـبه كلام الأرواح كما فى كتابى المسمى ﴿ كتاب الأرواح ﴾ فان تلك العوالم لما خاطبها القوم فى أوروبا كان ذلك أشبه بما جاء فى هذا الكتاب . فاذا كان هذا العالم من رجال القرن الثامن عشر موافق لمن جاؤا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين فهو جدير بالبحث والتحرّى ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن هذه الآراء كما تقدّم أيضا قد ذكرها خواص علماء الاسلام فى أسرار الدين الاسلامى وينحو نحوها الامام الغزالى ومحيى الدين بن عربى وكتاب (اخوان الصـفاء) ونحوهم ﴿ الأمر الثالث ﴾ انى أنا نظرت فى هذه الدنيا بعقلى فوجدتها كما تقدّم قد لازمتها الوحدة جملة وتفصيلا ولازمها الآحاد . فالشمس والسيارات والتوابع كالأرض والقمر وهكذا بقية الشموس كلهنّ متجاذبات متحابات متعاونات . وكل هذه ومامعها فى المجرة وهكذا المجرات الأخرى . هذه نراها فى نفوسنا عالما واحدا فهى فى نفوسنا واحدة والأعلى منها يمدّ الأسفل . فالشمس تمدّ الأرض وباقى السيارات بالضوء وهنّ مجذوبات لها كما تقدّم

ثم إنى وجدت هذا النوع الانسانى جعلت هيئته كهيئة هذه العوالم أى ان وضعه فى الوجود هو والحيوانات كلها كوضع اشتقاق هذه العوالم . فاذا رأينا الأرض (كما هو الرأى العام فى العالم الآن) مشتقة من الشمس دائرة حولها ملازمة لها والقمر مشتق من الأرض ملازم لها دائر حولها . هكذا نرى الناس جميعا قسمين أبوين وابنا وبنتا والأوّلان يعطفان على الأخيرين والأخيران مشتقان من الأوّلين تابعان لهما ثم نراهم من جهة أخرى ﴿ قسمين ﴾ قسم هم ذكور وقسم هم أناث وهما متعاشقان متحابان . ونرى عالما وحكيما ونبيا يعلمون تلاميذ وأمما . وهذه أيضا ولادة أخرى معنوية . يعجبنى هذا النظام . نظام يراد به التعارف والمحبة بحسب أصـله وهو قوله تعالى ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ وهذا هو الأصل الذى بنيت عليه كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ الذى سأذكر ملخصه الذى استخلصه منه الاستاذ (سنتلانه) التليانى فى (مجلة العلوم الشرقية) فى سورة الحجرات عنـد تفسير الآية المتقـدّمة فيها هناك . فاذن العالم الانسانى خلق أوّلا وبالذات للتفارف وللمحبة كما خلقت هذه العوالم للتجاذب وللاتحاد فاذا لم يوفق الانسان لذلك فى هـذه الحياة فما أحراه أن يتلكأ فى سيره ويوضع (الذين لم يصلوا الى هـذه النتيجة) فى عوالم منحطة ليدركوا بعد حين أنهم فى ضلال مبين ويعلموا أنهم فى السجن الجهنمى بغباوتهم كما قال تعالى ـ وقالوا لو كنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهـم فسحقا لأصحاب السعير ـ وهذا الأصل هو الذى يبنى عليه جميع هـذه الآيات فمن فضل ماله أوأهله على المجموع ومن أخذ المال وكان رئيسا دينيا وهو عليه حريص فقد أخطأ المرمى وغشّ المجموع فصار نجسا يحبس فى مكان محزن هو جهنم . فهذا هو رأيى فى هذه الدنيا فلذلك نقلت كلام الرجل لملاءمته لذلك أشدّ الملاءمة . فاذا لم يكن

مافهمته حقا فلماذا لم يخلق الانسان بصفة أخرى • ولماذا لم يخلق كالنبات يعيش ويموت ولانصب ولاتعب ولا ألم وكان فى الامكان أن يخلق الناس كما يخلق الشجر الى حين ثم يموتون • الشجر لايحتاج بعضه الى بعض كثيرا ولكن هم فى أشدّ الحاجة بعضهم لبعضهم • لعمر الله لم يكن ذلك إلا لأجل ماذكرناه وبيناه وفتح الله به • اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لايعقلون ولايدرسون هذا الوجود • لذلك أنزلت عليهم الديانات وخلقت الحكومات ليتفطنوا • هذا هو سرّ ذمّ الله للاحبار والرهبان الذين يحرصون على المال ويستعبدون الناس مع أن هؤلاء العلماء انما نصبوا لخدمة المجموع • هكذا علماء الاسلام ان لم يكونوا رحمة للسلمين فهم ملحقون بالأحبار والرهبان لحرصهم على الدرهم والدينار • هذا هو الذى أفهمه فى هذه الدنيا التى هى أكبر مدرسة لنا معاشر بنى آدم • فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا بيان يصلح أن يكون أسا تبنى عليه الحكمة والفلسفة والحياة • فقلت ونحن اذا فسرنا كتاب الله فهوأولى بالاصول الثابتة والعلوم الحقة وأن هذه الآراء شأنا فى الأمم بعد مغادرتنا هذه الدنيا • ويشير لما قلته الآن قوله تعالى ــ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ــ وقوله ــ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال ــ استوى الله الى السماء ودعا السموات والأرض فأتتا طائعتين • ولما سجد له من فى السموات والأرض انقسموا فريقين • فريق سجد طائعا وآخر مكرها وهذا يشهد لما ذكرته لك الآن • تجاذبت العوالم كلها نظمت بحساب جرت الشمس حول كوكب مجهول لنا وجرت الأرض حول الشمس وجرى القمر حول الأرض وجرت السيارات كذلك • وهكذا توابعها وجميع الكواكب كلها جرت جريا منظما لم يجدفيه العلماء خطأ وهذا فيه معنى الحب ويسمى الجاذبية * إن المحبّ لمن يحبّ مطيع * اما بنو آدم فليسوا جميعا راضين محبين بل سيأتون الى ربهم قوم طائعون محبون • وقوم عاصون مجرمون • والطاعة هنا ترجع الى الحبّ والشوق والغرام فمن أدرك جمال هذا العالم أحبّ صانعه فرضى بما يجريه عليه لعلمه أنه لحكمة ومن عاش غافلا ساهيا لاهيا لايحب الله ولايرضى عن فعله ويعترض فى قلبه عليه ويأتيه كارها لامحبا • ولن يكمل هذا النوع الانسانى إلا اذا كانت الأرواح متجاذبة متحابة كتجاذب وتحابّ الكواكب والشموس والأقمار • فاذا ذمّ الله الأحبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل فذلك لأنهم لم يوفقوا للنظام الأتم • نظام الجمال والكمال بأن يكونوا للناس آباء لا أن يكونوا غافلين يجعلون الدين وسيلة للخبز والملبس فعكسوا الآية وطمسوا الحقيقة فرجعت محبتهم لانفسهم لا للناس وطاش سهمهم فلم ينظروا الى الشمس والقمر والكواكب إذ يفيض النور بلا أجر ولا الى الآباء والامّهات إذ يفيضون النعم وأنواع البر على الابناء بلا أجر • هكذا الله يفيض الخير على الناس بلا أجر • ضرب الله الامثال للناس بالكواكب وبالآباء وبالانبياء فظلّ الناس تائهين غافلين حيارى سكارى فى شهواتهم وزهد الأحبار والرهبان فى الجمال العام وعكفوا على الشهوات البهيمية وتبعهم فى ذلك بعض رجال الصوفية فى الأمم الاسلامية فلقد رأيتهم يجوبون بلادنا المصرية ويطوفون على القرى والكفور ويتظاهرون بالصلاح والتقوى ويأخذون أموال الناس بالباطل وماهم بعلماء ولابوعاظ ولكن ساروا شوطا وراء الدرهم والدينار كما سار الذين من قبلهم من الاحبار والرهبان الذين أطلق الله أوروبا من قبضتهم بسبب اطلاع القوم على دين الاسلام كما قدّمناه عن السيدة الاوروبية التى أسلمت فهم أطلقوا من وثاق رجال الدين بسبب ديننا والمسلمون فى بلاد الغرب من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وفى مصر والشام والعراق وبلاد الهند وجاوه قد وقعوا فى شبكة هؤلاء الصيادين ممن اتسموا بسمات الصوفية ظاهرا وهم عنها غافلون • لا لا يامعاشر المسلمين • كلا • كلا والله انما رجال الدين هم الذين يسيرون على سنن أبى بكر وخلفائه من بعده هم الذين يقتفون آثار الانبياء ويكون مقصدهم المثل الاعلى كما أوضحه أفلاطون فى

جمهوريته إذ نقل عن أستاذه سقراط أن الذين يقومون بحكم الجمهور يجب أن يكونوا أعلم الناس وأذكاهم وأتقاهم وأزهدهم فى حطام هذه الدنيا وأقربهم من الله زلفى وقال ان علمهم هو الذى يجعلهم أعفاء عما فى أيدى الناس فهم وان كان لهم السلطان على الناس ممنوعون بورعهم وأدبهم عن مجاوزة الكفاف من المأكل واللباس • وهذه بعينها سيرة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى • ان الناس بعد الموت تجتمع أرواح الأخيار منهم فى عالم واحد وأرواح الأشرار فى عالم آخر • وكما أن الشموس تزداد اشراقا بازدياد حجمها هكذا الأرواح الفاضلة تلتئم التئام ذرات الشمس وتتحد وتزداد سعادة بازدياد الواصلين اليها من عالمنا • وهكذا يزداد المجرمون عذابا بوصول الفجار اليهم إذ يشعرون بآلام تزداد بازدياد من يصلون اليهم من الأشقياء كما يزداد الفجار عذابا فى الدنيا بتكاثرهم وازدياد فتنهم وشرورهم • لاسعادة لهذا الانسان ولاراحة إلا بالعطف العام فلامدنية براقية مادام أهل الأرض لايتحدون على منافعها العامة كما أوضحناه فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ولاسعادة فى الآخرة إلا لنفوس صار باطنها جمالا وكمالا وحبا للعلم وللانسانية وخيرها والله هو الولى الحميد

فلما سمع ذلك صاحبى قال لى يتبين من كل ماذكرته هنا أن أهل كل دين فى الأرض طغوا و بغوا • فهذه أمم النصرانية قد طغت فى المال وقد قال لها المسيح مانصه ﴿ لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض ﴾ وذلك فى انجيل متى (٦) ولما أرسل رسله أمرهم ألايحملوا عصا ولاحذاء وألايأخذوا مالا لأنهم مجانا أخذوا فليعطوا مجانا • وهكذا جاء فى القرآن ـ قل ما أسألكم عليه من أجر ـ ومع ذلك نرى الأمم الاسلامية تسارع فى خطاها الى اقتفاء آثار المسيحيين لاسيما بعض الشيوخ من رجال الصوفية الذين أشبهوا القسيسين فى أخذ أموال الناس بالباطل • فأجبته قائلا • نعم لقد صدقت ان أهل كل دين فى الأرض طغوا و بغوا وسأحدثك عن سبب ذلك • اعلم أن كل دين فى الأرض ينزل على أهله صافيا نقيا لاتشوبه شائبة • الله أكبر الله أكبر ظهر السر واستنارت السبل فى هذا التفسير وسيكون فى الشرق رجال يمتازون بعقولهم وبحكمهم و بتعاليمهم • أنظر أنظر • تجد أن كل دين ينزل الى الأرض يضيء كما تضيء الشمس والكواكب ويحيي كما يحيي الماء • أنظر فى دين الصينيين القدماء تجده فى صدقه وحسنه وجماله وجلاله يشبه الانجيل ويشبه القرآن فى حسن جماله وصدقه • لقد كان أقدم نبى عند الصينيين يسمى (يو الكبير) ظهر قبل المسيح بألفى سنة ثم جاء بعده بقرون الفيلسوف (ليوتسو) وهذا قبل الميلاد بمدة ٥٩٠ سنة وهو القائل ﴿ أسعف الناس فى حاجاتهم أنقذ من كان موجودا فى خطر ﴾ هذا الفيلسوف عدوه إلها متجسدا كما اعتقد النصارى فى المسيح • وكان (ليوتسو) معاصرا (لفيثاغورس) وسنة ٥٥٠ قبل التاريخ المسيحى ظهر (كونفيسوس) وهو أعظم فلاسفة الصين وعاش (٧٣) سنة وتخلى من الرذيلة وتحلى بالفضيلة مثل (بوذا) وكان يقول لتلاميذه ﴿ ان المحبة النقية التى أوصيكم بها هى انعطاف ثابت فى النفس وميل يوافق عليه الصواب يجردنا من الأغراض الذاتية و يضمنا الى الناس بأسرهم فنخالهم جسما واحدا معنا فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم ولامانع يمنع من ملكته هذه المحبة أن يسعى فى ترقيه الذاتى وطلب المعالى انما تكون غايته فى ذلك بذل النصح والمساعدة لانهاض من دارت عليه رحى الزمان وكان ضعفه وخموله حائلا دون نهضته وان من اطلع على حقائق الأشياء لايتحمل أن يبقى غيره متسكعين فى ظلام الجهل والحيرة منكسرين لمصاعب الحياة وهمومها بل ينجدهم و يعضدهم و يمهد لهم سبيل الخروج من ظلمات الجهل و يدخلهم مقدس العلوم ومتى ملكت هذه المحبة القلوب جميعا يصبح العالم بأسره أسرة واحدة والناس أجمعون كانسان واحد وبهذا الرابط العظيم السائد بين العظماء والضعفاء تصبح الانسانية كلها جسما واحدا ﴾ هذا هو كلام نبى الصينيين قبل المسيح وقبل سيدنا محمد ﷺ ولذلك تجد الأمة الصينية لها جمعيات من كل طبقة و بينهم جميعا تلك الروابط التى أشار لها دينهم • فهذا القول ومايشابهه من الانجيل والقرآن يدلنا أن الديانات تنزل من السماء متشابهة

ولكن هناك سرّاً مخبوأ يراه الناس بعيونهم ولكنهم لايفهمونه . ذلك السرّ هو السبب فى طغيان النصارى وجهل المسلمين . و بيانه أن الله أنزل النور وأنزل الماء فى الأرض قبل الأنبياء وقبل خلق الانسان فهذا النور يختلط بالنبات فيكون مساعدا للتفاح وللتمر وللعنب على حلاوتها ويكون مساعدا للحنظل على مرارته . ومساعدا للسنا المكى على شفائه لبعض الأمراض . ومساعدا للمواد السامة النابتة فى الأرض على حصد الأرواح . الضوء ينزل من السماء بهجة وجمالا ولكن المخلوقات الأرضية حينما تلتقطه وتشتمل عليه وتضمه لأنفسها تحوّله الى طباعها وأحوالها . هكذا الماء ينزل من السماء . فماذا يكون . نراه يسلك ينابيع فى الأرض فيكون على حسب الأصقاع التى يمرّ بها هناك فيكون ماء كبريتيا وماء جيريا وماء ملحيا . وهكذا من أنواع المياه التى لاتصلح للشرب وانما تصلح للأدوية ونحوها ﴿ بناء عليه ﴾ نقول ان الامور اللطيفة اذا اجتمعت بالكثيفة حوّلت الى طباعها . هكذا الديانات لما نزلت من السماء نزلت صافية ولكن عقول أهل الأرض حوّلت تلك الديانات الى طبائعها وقلبتها الى أهوائها فهاك الديانة المسيحية التى أخص خواصها المحبة العامّة كيف صار رجال دينها كما تقدّم هم أسرع الناس الى قتل آلاف الآلاف لأى ذنب صغير أوكبير . وهذا دين الاسلام . أنظر كيف نبغ أوائل رجاله فى الزهد والورع كما قرأته ههنا قريبا عن أبى بكر وعمر . ثم جاء بعد الصدر الأوّل قوم لايريدون إلا الدرهم والدينار والفخر والرئاسة وأخذ أموال الناس بالباطل . اللهم ان أكثر أهل الأرض يتبعون أهواءهم كما قال تعالى ـ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ـ

اللهم انك أنزلت آية الأحبار والرهبان وأكلهم أموال الناس بالباطل فى سورة التوبة النازلة أيام ظهور الاسلام وغلبته وارتقائه لتمهد السبيل للقائمين بالأمر ألا يجعلوا الرئاسة سبيلا للمال بل يكونون للأمم آباء ولكن أمم الاسلام المتأخرة نامت نوما عميقا . اللهم انى ألفت هذا التفسير وانى آمل أن يكون سببا فى ظهور جيل جديد يصلح لتلقى تعاليم القرآن التى قام بها أقطاب الصدر الأوّل من الصحابة رضوان الله عليهم ولا يكونوا كرجال النصارى المذكورين فى هذا المقام وأن يقطعوا دابر الرجال الذين يأخذون المال من المسلمين مثل ما يأخذه رجال الدين المسيحى . وانى آمل أن يكون هذا التفسير ممهدا لمزرعة اسلامية صالحة تصلح لتعاليم هذا الدين والله هو الولىّ الحميد . انتهى يوم الجمعة ضحى ٢٧ مايو سنة ١٩٢٧ والى هنا انتهى القسم الأوّل من سورة التوبة

(الْقِسْمُ الثَّانِى)

إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(الا تنفروا) أى الى الحرب (يعذبكم عذابا أليما) وجيعا (ويستبدل قوما غيركم) خيرا منكم وأطوع (ولا تضروه شيأ) ولايضرّ الله جلوسكم (الا تنصروه) أى ان لم تنصروا محمدا ﷺ بالخروج معه الى غزوة

تبوك (فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا) كفار مكة (ثانى اثنين) يعنى رسول الله وأبا بكر (إذ هما فى الغار) ثقب عظيم يكون فى الجبل * هذا الغار فى جبل ثور يقرب من مكة مسير ساعة (إذ يقول) رسول الله ﷺ (لصاحبه) أبى بكر (لاتحزن) يا أبا بكر (إن الله معنا) معيننا (فأنزل الله سكينته) طمأنينته (عليه) على النبى ﷺ (وأيده بجنود لم تروها) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه . وهكذا يوم بدر والأحزاب وحنين أيده بالملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا) أى دعوتهم الى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته الى الاسلام (هى العليا والله عزيز) يعزّ بنصره أهل كلمته (حكيم) يذل أهل الشرك بحكمته (انفروا) اخرجوا مع نبيكم الى غزوة تبوك (خفافا وثقالا) ركبانا ومشاة صحاحا ومراضا شبانا وشيوخا لاسلاح معكم أومعكم سلاح قلت عيالكم أومعكم عيال مهازيل وسمانا (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) معا ان أمكن أو بأحدهما على مقتضى الامكان (فى سبيل الله ذلكم) الجهاد (خير لكم) من تركه (إن كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا اليه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من سورة التوبة

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِنْ كَرِهَ اللّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا

وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ
لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا
لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ
يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ * إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ
وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا
مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ
مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ
وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ
مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ * وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا
نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ
اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ
وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * الَّذِينَ
يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ
سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ
مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * فَرِحَ
الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا
كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ
فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا

مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *
لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ
قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ
* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا
عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ
لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * الْأَعْرَابُ
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ
اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

نزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك (لوكان عرضا) وهو ماعرض لك من منافع الدنيا أى لوكان ما دعوا اليه مغنما (قريبا) سهل المأخذ (وسفرا قاصدا) وسطا مقاربا والقاصد والقصد المعتدل (لاتبعوك) لوافقوك فى الخروج (ولكن بعدت عليهم الشقة) المسافة الشاطة الشاقة (وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم) وهذا من دلائل النبوّة لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر أى سيحلف المتخلفون بالله عند رجوعك معتذرين يقولون ـ لواستطعنا لخرجنا معكم ـ (يهلكون أنفسهم) أى حال كونهم مهلكين أنفسهم (والله يعلم انهم لكاذبون) فيما يقولون • واعلم أن هؤلاء المتخلفين قد استأذنوا رسول الله ﷺ فى التخلف فعاتبه الله وقال (عفا الله عنك) كناية عن الزلة فان العفو من توابعها • يقول عفا الله عنك يامحمد ما كان منك فى أذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك • فهذا أحد الأمرين اللذين عوتب عليهما • والثانى أخذه الفدية من الاسارى وهو مجتهد فى ذلك وهذا العتاب لانه ترك الأفضل والانبياء يعاتبون على ترك الأفضل (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا (بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) وعدهم بجزيل الثواب (انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى المنافقين وهم تسعة وثلاثون رجلا (وارتابت قلوبهم) واضطربوا فى عقيدتهم (فهم فى ريبهم يترددون) يتحيرون فالمتحير من شأنه أن يتردد والمستبصر ديدنه الثبات (ولوأرادوا الخروج) معك الى غزوة تبوك (لأعدوا له عدة) أهبة لأنهم كانوا أغنياء (ولكن كره الله انبعاثهم) نهوضهم للخروج فاذن هم ماخرجوا (فثبطهم) فكسلهم وضعف رغبتهم فى الانبعاث * ويقال ثبط وقف عن الأمر بالتزهيد فيه (وقيل اقعدوا) أى قال بعضهم لبعض • أوقال الرسول ﷺ غضبا عليهم أى تخلفوا (مع القاعدين) مع المتخلفين بغير عذر • ثم بين حكمة عدم خروجهم فقال

(لو

(لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) إلا فسادا وشرا أى مازادوكم شيأ إلا خبالا (ولأوضعوا خلالكم) أى ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يطلبون لكم ماتفتتنون به كأن يقولوا للمؤمنين لاطاقة لكم بعدوكم وستهزمون منهم وسيظهرون عليكم (وفيكم سماعون لهم) أى مطيعون لهم قابلون لكلامهم (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم وزجر (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت أمرك وتفريق أصحابك (من قبل) يوم أحد فان ابن أبىّ وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ماخرجوا مع الرسول ﷺ بالقرب من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد (وقلبوا لك الامور) ودبروا لك المكائد والحيل ودوّروا الآراء فى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) النصر والتأييد (وظهر أمر الله) وعلا دينه (وهم كارهون) على رغم منهم . وهذا القول تسلية لرسول الله ﷺ والمؤمنين على تخلفهم و بيان مائبطهم الله لاجله وكره انبعاثهم له (ومنهم) ومن المنافقين (من يقول إئذن لى ولاتفتنى) كالجد بن قيس المنافق قال له رسول الله ﷺ لما تجهز الى غزوة تبوك يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد يارسول الله لقد عرف قومى انى رجل مغرم بحبّ النساء وانى أخشى ان رأيت بنات الاصفر ألا أصبر عنهنّ إئذن لى فى القعود ولاتفتنى بهنّ وأعينك بمالى فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال قد أذنت لك (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى وقعوا فى الفتنة العظيمة وهى النفاق (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم (إن تصبك حسنة تسؤهم) من نصروغنيمة تحزن المنافقين (وان تصبك مصيبة) القتل والهزيمة مثل يوم أحد (يقولوا) أى المنافقون (قد أخذنا أمرنا من قبل) تبجحوا بانصرافهم عنك واستحمدوا آراءهم فى التخلف عنك (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهلهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا) من خير أوشرّ (إلا ما كتب الله لنا) قضى الله لنا (هومولانا) الذى يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحق على المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون) تنتظرون بنا (إلا احدى الحسنيين) وهما الفتح والغنيمة أوالقتل والشهادة (ونحن نتربص بكم) احدى السوءيين اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) هلاككم (أو بأيدينا) بسيوفنا لقتلكم (فتربصوا) بنا ماذكرنا (إنا معكم متربصون) ماهو عاقبتكم (قل أنفقوا) فى وجوه البرّ (طوعا أوكرها) طائعين أو مكرهين أى غيرملزمين وملزمين (لن يتقبل منكم) ما أنفقتم طوعا أوكرها ونحو هذا قوله تعالى - استغفر لهم أولاتستغفرلهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم - . وقول الشاعر

أسيئى بنا أوأحسنى لاملومة * لدينا ولامقلوة ان تقلت

ثم علله فقال (انكم كنتم قوما فاسقين) متمرّدين عاتين (ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه أى ومامنعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) جمع كسلان (ولاينفقون الا وهم كارهون) لأنهم اعتقدوا أن الانفاق فى سبيل الله مغرم (فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) الاعجاب بالشئ أن تسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه أى لاتستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فانما أعطاهم ذلك ليعذبهم بالمصائب فيها (وتزهق أنفسهم) والزهوق الخروج بصعوبة أى وتخرج أرواحهم (وهم كافرون * ويحلفون بالله انهم لمنكم) لمن جملة المسلمين (وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل ومايفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام تقية (لويجدون ملجأ) مكانا يلجؤن اليه متحصنين من رأس جبل أوقلعة أوجزيرة (أومغارات) أى غيرانا فى الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدّخلا) أونفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول (لولوا اليه) لأقبلوا نحوه (وهم يجمحون) أى يسرعون الى ذلك المكان . يقول ان المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين لوقدروا أن يهربوا

منكم الى أحد هذه الأمكنة لصاروا اليه اشدة بغضهم اياكم (ومنهم) من المنافقين (من يلمزك فى الصدقات) يعيبك فى قسمها ويطعن عليك (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) اذا للمفاجأة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط مثل ذى الخويصرة التميمى المسمى حرقوص بن زهير أصل الخوارج اذ قال يارسول الله اعدل فقال ﷺ ويلك من يعدل اذا لم أعدل فقال عمر ائذن لى فأضرب عنقه فقال ﷺ دعه . الحديث فى البخارى (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) ما أعطاهم من الغنيمة وذكر للدلالة على أن فعل النبى ﷺ كان بأمره (وقالوا حسبنا الله) كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) صدقة أوغنيمة أخرى فننال أكثر مانلنا (انا الى الله راغبون) أن يغنينا من فضله . وهذه الآية كلها شرط لو والجواب محذوف أى لكان خيرا لهم * ثم أخذ سبحانه يبين مصارف الصدقات فقال (انما الصدقات للفقراء والمساكين) الفقير هو من لامال له ولا كسب يقع موقعا من حاجته من الفقار كأنه أصيب فقاره . والمسكين من له مال أوكسب لا يكفيه من السكون كأن العجز أسكنه . وكان ﷺ يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر والسفينة كانت لمساكين (والعاملين عليها) هم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم (والمؤلفة قلوبهم) قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فتستألف قلوبهم وأشراف يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم وأشراف يستألفون على أن يسلموا كعيينة بن حصن وعدى بن حاتم وصفوان بن أمية . فالأول لتقوية ايمانه . والثانى نيته قوية فى الاسلام ولكن يرجى أن يرغب فى الاسلام نظراؤه . والثالث كان يميل للاسلام فأعطى ليسلم . وهناك قسم رابع وهو أن يكون قوم من المسلمين بازاء قوم من الكفار لايبلغهم جيش الاسلام لبعدهم فيعطون من سهم المؤلفة قلوبهم أى يعطى المسلمون ذلك اذا ضعفت نيتهم فى القتال أوضعفت حالهم (وفى الرقاب) المكاتبين (والغارمين) الذين ركبهم الدين بأن استدانوا لأنفسهم فى غير معصية ولا اسراف وليس لديهم وفاء أولاصلاح ذات البين وان كانوا أغنياء لقوله عليه الصلاة والسلام « لاتحل الصدقة لغنى إلا لخمسة لغاز فى سبيل الله أولغارم الخ » وذكر من هؤلاء الخمسة العامل عليها (وفى سبيل الله) وللصرف فى الجهاد بالانفاق على المتطوعة أوابتياع الكراع والسلاح وبناء القناطير والمصانع وجميع وجوه البر كعمارة المساجد (وابن السبيل) يعنى المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق * سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق فرض (فريضة من الله) أى قسمة من الله لهؤلاء (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) فيما حكم لهؤلاء * ولما فرغ من الكلام على من يلمزون فى الصدقات شرع يتكلم على فريق آخر من المنافقين فقال (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) يسمع كل مايقال ويصدقه * جعل هو نفس الأذن كما يقال للجاسوس هو عين * روى انهم كانوا يقولون محمد أذن سامعة نقول ماشئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول (قل هو أذن خير لكم) لأنه يسمع الخير ويقبله وفسر ذلك فقال (يؤمن بالله) يصدق به لما قام عنده من الأدلة (ويؤمن للمؤمنين) ويصدقهم لما علم من خلوصهم (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو رحمة لمن أظهر الايمان حيث يقبله ولا يكشف سره فاذن ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) بايذائه * وجاء رهط من المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك بعد أن رجع النبى ﷺ يعتذرون الى المؤمنين ويحلفون فنزل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى يرضوه أى الله وكذلك رسوله وذلك بالتوبة والاخلاص (ان كانوا مؤمنين) أى ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة (ألم يعلموا أنه) أى ان الأمر والشأن (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف . وهى مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (ف) حق (أن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم) الهلاك الدائم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم) على المؤمنين (سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) أى بما فى قلوب المنافقين من الحسد والعداوة

للمؤمنين ولقد سميت السورة الفاضحة والمبعثرة * يقول ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لأن أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزئوا) أمر تهديد (إن الله مخرج ما تحذرون) مظهر ما كنتم تحذرون اظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفى استهزائهم بالاسلام وأهله حتى قال بعضهم ﴿ وددت أنى قدمت فجلدت مائة وانه لاينزل شئ فينا يفضحنا ﴾ ثم انه بينا رسول الله ﷺ يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا يانبى الله والله ما كنا فى شئ من أمرك ولامن أمر أصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر فنزل (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) لم يعبأ باعتذارهم لكذبهم واعتبروا أنهم معترفون بالاستهزاء فوبخوا بسبب انهم أخطؤا مواضع الاستهزاء (لاتعتذروا) أى لاتشتغلوا باعتذاراتكم وكيف تنفعكم بعد أن افتضح سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد ايمانكم) بعد اظهاركم الايمان (ان نعف عن طائفة منكم) جهين بن حمير لأنه لم يستهزئ معهم ولكن ضحك معهم أوكل من يتوب ويخلص الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة) وديعة بن جذام وجد بن قيس أوكل من يصرون على النفاق غير تائبين منه (بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق أومقدمين على الايذاء والاستهزاء الرجال (المنافقون و) النساء (المنافقات بعضهم من بعض) أى كأنهم نفس واحدة فهم متشابهون فى النفاق والبعد عن الايمان . وكان عدد الرجال منهم ثلثمائة والنساء مائة وسبعين (يأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المعروف) عن الطاعة والايمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمال أن ينفق فى البر وأنواع الخير (نسوا الله) تركوا أمره أوأغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله (إن المنافقين هم الفاسقون) هم الكاملون فى الفسق وهو هنا التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) كافيتهم فى التعذيب فلاحاجة لغيرها فى تعذيبهم (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين يلعنون كما تلعن الشياطين (ولهم عذاب مقيم) دائم بخوف الفضيحة بكشف سرهم اذا نزل الوحى به ومايقاسونه من تعب النفاق . ثم خاطبهم الله بعد الغيبة فقال فعلتم (كـ) أفعال (الذين من قبلكم) من الكفار فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف الخ ثم وصف هؤلاء الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر مالا وولدا فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة فالخلاق النصيب وهو ماخلقه الله للانسان وقدر له من خير (فاستمتعتم بخلاقكم) أيها المنافقون (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) وهذا كما تقول أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل . فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم (وخضتم كالذى خاضوا) أى وخضتم خوضا كالخوض الذى خاضوا * والخوض الدخول فى الباطل واللهو (أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) أى بطلت فى الدارين (وأولئك هم الخاسرون(١)) أى كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون . ثم رجع الى الغيبة بعد الخطاب لينشط السامع وليتنوع الأسلوب فقال (ألم يأتهم) أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) خبر (الذين من قبلهم) يعنى الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا (قوم نوح) بدل من الذين قد أهلكناهم بالطوفان (وعاد) أهلكوا بالريح العقيم (وثمود) أهلكوا بالرجفة (وقوم ابراهيم) أهلكوا بالهدم . وكان هلاك نمرود

بعوضة (وأصحاب مدين) أى وأهل مدين وهم قوم شعيب هلكوا بعذاب يوم الظلة أى بنار كانت فيها (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل أوقريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير الى الشر وانما ذكر الله هذه الأمم لأن آثارهم ظاهرة بالشام والعراق واليمن . وكل ذلك قريب من أرض العرب (أتتهم رسلهم بالبينات) بالأمر والنهى والعلامات فلم يؤمنوا فأهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الأنبياء وذلك لاستعدادهم النفسى الذى سبق به القضاء على مقتضى الفطر (والمؤمنون) المصدقون من الرجال (والمؤمنات) المصدقات من المؤمنات (بعضهم أولياء بعض) على دين بعض فى السر والعلانية يوالى بعضهم بعضا فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة (يأمرون بالمعروف) بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره واجتناب نهيه (وينهون عن المنكر) يعنى عن الشرك والمعاصى . والمنكر كل ماينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا فى مقابلة وصف المنافقين (ويقيمون الصلاة) المفروضة ويتمون أركانها وحدودها وخشوعها (ويؤتون الزكاة) الواجبة عليهم وهو فى مقابلة ـ ويقبضون أيديهم ـ (ويطيعون الله ورسوله) فى السر والعلانية (أولئك سيرحمهم الله) لامحالة لأن السين مؤكدة للوقوع (إن الله عزيز) غالب على كل شئ (حكيم) واضع كلا فى موضعه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة) يطيب فيها العيش * وعن الحسن رحمه الله هى قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد (فى جنات (١) عدن) أى فى بساتين خلد واقامة * يقال عدن بالمكان أقام به (ورضوان من الله) أى وشئ من رضوان الله (أكبر) من ذلك كله لأن الجنة وهى النعيم المقيم تصغر فى جانب خالقها كما يصغر قصر الملك وهداياه وتحفه فى جانب تقريبه لزائره واقباله عليه وتلطفه معه واكرامه له وهذا أمر يعرفه العقلاء فى الدنيا مع المخلوق فكيف ذلك مع الخالق (ذلك) الرضوان (هو الفوز العظيم) وحده دون ماعداه . ولذلك جاء فى آية أخرى ـ رضى الله عنهم ورضوا عنه ـ وفى آية أخرى أيضا ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ـ (يا أيها النبىّ جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) باللسان (واغلظ عليهم) فى الجهادين جميعا ولاتحابهم وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن (ومأواهم جهنم وبئس المصير) جهنم ولقد أقام رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم الجلاس ابن سويد فقال الجلاس والله لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فنحن شر من الحمير . فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شر من الحمير . وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر فحلف بالله ماقال فرفع عامر يده وقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) وهى ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير فقال الجلاس يارسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وكفروا بعد اسلامهم) وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم الايمان (وهموا بما لم ينالوا) وذلك أن الجلاس همّ بقتل الذى سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه (ومانقموا) وما أنكروا وماعابوا (إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وذلك أنهم كانوا حين قدم النبى ﷺ المدينة فى ضنك من العيش لايركبون الخيل ولايحوزون الغنائم فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله ﷺ بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى (فان يتوبوا) عن النفاق (يك) التوب (خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة) بالقتل والنار (ومالهم فى الأرض من ولىّ ولانصير) ينجيهم من العذاب . وقد تقدم أن الجلاس تاب (ومنهم) أى ومن المنافقين (من عاهد الله) حلف بالله كثعلبة بن حاطب بن أبى بلتعة (لئن آتانا) أى أعطانا (من فضله)

المال الذى له بالشام (لنصدقنّ) فى سبيل الله ولنؤدّين منه حقّ الله ولنصلنّ به الرحم (ولنكوننّ من الصالحين) باخراج الصدقة (فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم (بخلوا به) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد (وتولوا) عن طاعة الله (وهم معرضون) مصرون على الاعراض (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم) فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم لأنه كان سببا فيه (الى يوم يلقونه) أى الله سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) أى بسبب اخلافهم ماوعدوا الله من الصدقة والانفاق فى سبيله وبسبب كذبهم فى قولهم ـ لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين ـ * وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ﴿ آية المنافق ثلاث اذا حدّث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان ﴾ وقال أيضا ﷺ ﴿ أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدّث كذب . واذا عاهد غدر . واذا وعد أخلف . واذا خاصم فجر ﴾ ولاجرم أن هذه الخصال ماعمت فى أمّة إلا حلّ بها البوار . وأصبح رجالها غير مصدّقين فلاتكون لهم شركات ولاتجارات رابحة ولامودّة صادقة . وهذا هو الخراب العاجل للأمم . فأين الدين إذن . فليجتهد المسلم ألايخلف الوعد وألا يكذب وألايفجر فى خصامه وألا يخلف العهد (ألم يعلموا) أى المنافقون (أن الله يعلم سرّهم) أى ما أسرّوه من النفاق بالعزم على اخلاف ما وعدوه (ونجواهم) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين (وأن الله علام الغيوب) فلايخفى عليه شئ (الذين) محله النصب أوالرفع على الذم (يلمزون المطوّعين) يعيبون المطوّعين المتبرعين (من المؤمنين فى الصدقات) متعلق بيلمزون * روى أن رسول الله ﷺ حثّ على الصدقة فجاءه عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالى فقال عليه الصلاة والسلام بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا . وتصدّق عاصم بن عدى بمائة وسق * وجاء أبوعقيل الأنصارى بصاع تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير (الحبل) على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء . وأما صاع أبى عقيل فالله غنى عنه فنزلت (والذين لايجدون إلا جهدهم) إلا طاقتهم على الضم وهو على الفتح مصدر جهد فى الأمر بالغ فيه (فيسخرون منهم) فيهزؤن (سخر الله منهم) جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى ـ الله يستهزئ بهم ـ (ولهم عذاب أليم) مؤلم * روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل ﷺ فنزل قوله تعالى (استغفر لهم أولاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فقال ﷺ لأزيدن على السبعين فنزل ـ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ـ فكأنه ﷺ فهم أوّلا أن المراد بالسبعين العدد المخصوص فجاء البيان أن المراد التكثير والعرب تستعمل السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير . ذلك لأن السبعة فيها ثلاثة أوتار وثلاثة أشفاع . ومعلوم أن الواحد ليس من العدد لأنه أصله فالسبعة أوّل الكثرة من الشفع والوتر . والسبعون أبلغ من السبعة فقد ضربت فى العشرة (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين) المتمرّدين فى كفرهم كعبد الله المذكور لأنه يخفى الكفر ويظهر الايمان . وبهذا تبين أنه ممن لايرجى ايمانهم والاستغفار انما يكون لمن يرجى ايمانهم فهو كالتنبيه على عذر النبىّ ﷺ فى الاستغفار والممنوع الاستغفار بعد العلم أنهم مطبوعون على الضلالة كما تعالى ـ ما كان للنبىّ والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ـ (فرح المخلفون) المنافقون الذين استأذنوا النبى ﷺ وأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك كما تقدّم فى آيات كثيرة (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فلم يفعلوا مافعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم (وقالوا لاتنفروا فى الحرّ) أى قال

بعضهم لبعض ذلك (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) فكيف اختاروها بايثار الكسل والترف والتنعم (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون) من النفاق وهذا كناية عن السرور والغم ويراد بالقلة العدم (فان رجعك الله الى طائفة منهم) أى ردك الله الى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعنى منافقيهم (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة أخرى بعد تبوك (فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوّا) خبر معناه النهى (انكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة) فصار اسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم (فاقعدوا مع الخالفين) أى المتخلفين الذين لا يليقون للحرب كالنساء والصبيان (ولا تصل على أحد منهم) أى من المنافقين صلاة الجنازة (مات) صفة لأحد (أبدا) ظرف (ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل للنهى أى انهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم • وسببها أن عبدالله بن عبدالله بن أبىّ المتقدم ذكره طلب أن يكفن النبى ﷺ أباه فى قميصه ويصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضى الله عنه فى ذلك فقال ﷺ ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه * وروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى ﷺ وقوله ـ ولا تقم على قبره ـ أى ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) هذه الآية كررت للمبالغة ولتذكير الناس بأن ما على الأرض زينة الدنيا لا غير وبه العذاب فيها • وأيضا الآيتان نزلتا فى فرقتين (واذا أنزلت سورة) بتمامها أو بعضها (أن آمنوا) أى بأن آمنوا ويصح أن تكون أن مفسرة (بالله) متعلق بآمنوا (وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم) ذوو الفضل والسعة (وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) الذين قعدوا لعذر (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء جمع خالفة والخالفة أيضا الذى لا خير فيه (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ما فى الجهاد وامتثال أمر الرسول ﷺ من السعادة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) كأنه يقول ان تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم (وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) الفائزون بالمطالب (أعدّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) وهذا بيان لما لهم من الخيرات فى الآخرة • واستأذن رهط عامر بن الطفيل وأسد وغطفان فى التخلف عن الجهاد بغزوة تبوك التى نحن بصدد الكلام عليها وقالوا إن لنا عيالا وأن بنا جهدا فأذن لنا فى التخلف فقال لهم ﷺ ـ قد نبأنا الله من أخباركم ـ وسيغنى الله عنكم وهناك قوم آخرون قعدوا ولم يستأذنوا فهذا قوله تعالى (وجاء المعذرون) من عذر فى الأمر اذا قصر فيه وتوانى فهو يوهم أن له عذرا ولا عذر له (من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فهم بذلك كذبوا الله ورسوله فى ادّعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) وانما لم يقل سيصيبهم لأن منهم من سيخلص فى ايمانه فى علم الله وهؤلاء جميعا لا يقبل اعتذارهم * ثم أخذ يبين الذين أعذارهم صادقة فقال (ليس على الضعفاء) أى الأصحاء فى أبدانهم العاجزين عن الغزو مثل الشيوخ والصبيان والنساء (ولا على المرضى) ويدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة • وبالجملة كل من كان موصوفا بمرض يمنع من الجهاد (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) إثم وضيق فى التخلف فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجزين عن نفقة الغزو معذورون كفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة (اذا نصحوا لله ورسوله) بأن آمنوا فى السرّ والعلن وأطاعوا ولم يفشوا الأراجيف ولم يثيروا الفتن وقاموا بمصالح المجاهدين فى غيبتهم لأهلهم فى بيوتهم (ما على المحسنين) المعذورين الناصحين القائمين بشؤن المجاهدين فى بيوتهم (من سبيل) لا جناح عليهم ولا طريق لعتابهم (والله غفور) يغفر لهم تخلفهم (رحيم) بهم (ولا على الذين) يعنى ولا حرج ولا إثم فى التخلف عنك على الذين (اذا ما أتوك لتحملهم) لتعطيهم الحمولة ليبلغوا الى غزو العدوّ وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) أضمرت قد قبله

أى قد قلت أى اذا ما أتوك حال كونك قائلا - لا أجد ما أحملكم عليه - (تولوا) وهذا جواب الشرط (وأعينهم تفيض من الدمع) تسيل كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها . فالعين هنا جعلت كأنها كلها دمع فائض (حزنا) مفعول لأجله (ألا يجدوا) أى بأن لا يجدوا (ماينفقون) فى الجهاد (انما السبيل) الحرج والاثم (على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) ثم استأنف لبيان حالهم فقال (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى بالانتظام فى جملة الخوالف وذلك اشارة للدعة والترف والتنعم (وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون) أمر الله ولايصدقون (يعتذرون اليكم) يقيمون لأنفسهم عذرا باطلا (اذا رجعتم اليه) من هذه الغزوة (قل لاتعتذروا) بالباطل (لن نؤمن لكم) لن نصدقكم وهو علة للنهى عن الاعتذار (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء تصديقهم (وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه (ثم تردون الى عالم الغيب) ماغاب عن العباد (والشهادة) ماعلمه العباد (فينبئكم) يخبركم (بما كنتم تعملون) وتقولون من الخير (وممن حولكم من الأعراب) وهم أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم كانت منازلهم حول المدينة أى ومن هؤلاء الأعراب منافقون (ومن أهل المدينة) وهم جماعة من الأوس والخزرج عطف على خبر المبتدأ الذى هو - ممن حولكم - والمبتدأ (منافقون) وقوله (مردوا على النفاق) تمهروا فيه . فيه تقديم وتأخير وتقديره - وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق - (لاتعلمهم) فانهم بالغوا فى النفاق بحيث انك لاتعلمهم (نحن نعلمهم) يعنى لكن نحن نعلمهم إذ لاتخفى علينا خافية (سنعذبهم مرتين) مرة فى الدنيا بأن يعذبوا بأموالهم وأولادهم وتحيط بهم المصائب ويخرج لبعضهم مرض الدبيلة وهى جروح نارية تظهر فى أكتافهم حتى تخرج من صدورهم بأن يغاظوا بدخولهم الاسلام كرها للغلبة والقوة و بأن يهانوا بالفضيحة فان النبى ﷺ قام خطيبا فى يوم جمعة فقال اخرج يافلان . اخرج يافلان فانك منافق فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم . فهذا هو العذاب الأول . وهذه الفضيحة لهم بعد أن أعلمه الله بهم وسماهم له . وأما العذاب الثانى فهو عذاب القبر . وأما الثالث فهو عذاب النار وهو قوله (ثم يردون الى عذاب عظيم * و) قوم (آخرون) سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم) لم يعتذروا من تخلفهم بالأعذار الكاذبة كغيرهم وكانوا عشرة فسبعة أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين فرآهم موثقين فسأل عنهم فقيل له انهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذى يحلهم فقال وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فأطلقهم فسألوه ﷺ أن يتصدق بأموالهم فيطهرهم فقال ماأمرت فنزل - خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الخ - (خلطوا عملا صالحا) وهو اظهار الندم (وآخر سيئا) وهو التخلف وموافقة أهل النفاق والواو بمعنى الباء (عسى الله أن يتوب عليهم) يقول المفسرون عسى من الله واجب و يتوب عليهم أى يقبل توبتهم وقوله (إن الله غفور رحيم) أى يتجاوز عن التائب و يتفضل عليه وقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) من الذنوب أوحب المال المؤدى بهم الى المعاصى كالتخلف المتقدم (وتزكيهم بها) وتنمى حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين (وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم (ان صلاتك سكن لهم) تسكن اليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم (والله سميع) باعترافهم (عليم) بندامتهم (ألم يعلموا) أى المتوب عليهم وغيرهم ليتمكن فى قلوب الأولين قبول توبتهم وليحرص الآخرون عليها (أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) اذا صحت والقبول هنا مضمن معنى التجاوز (ويأخذ الصدقات) يقبلها قبول من يثيب عليها ويخلف بدلها (وأن الله هو التواب الرحيم) كثير قبول التوبة والتفضل عليهم (وقل اعملوا) ماشئتم (فسيرى الله عملكم) فانه لايخفى عليه خيرا كان أوشرا (ورسوله والمؤمنون) لأنهم يطلعهم الله على أعمالكم إما بالوحى فى زمن النبوة كما رأيتم . واما بالهام الناس ماخفى فى نفوسكم كما قيل

﴿ألسنة الخلق أقلام الحق﴾ ثم قال (وستردّون الى عالم الغيب والشهادة) يوم القيامة (فينبئكم) أى فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا . واعلم أن المتخلفين فى هذه الآيات على ثلاثة أقسام ﴿أوّلهم﴾ المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق ﴿وثانيهم﴾ التائبون المسارعون الى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وغيرهم وهم مختلفون فى عددهم من ٣ الى ٧ الى ٨ الى ١٠ ولايهم معرفة ذلك ﴿والقسم الثالث﴾ موقوفون ومؤخرون الى أن يحكم الله فيهم وهم المراد بقوله (وآخرون مرجئون) مؤخرون من ارجأته أى موقوفون وقرئ - مرجون - بفتح الجيم وسكون الواو وهما لغتان (لأمر الله) فى شأنهم (إما يعذبهم) ان أصروا على النفاق (واما يتوب عليهم) ان تابوا (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما يفعل بهم واما للشك وهو راجع الى العباد . وهؤلاء ثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقصتهم ستأتى فى قوله تعالى - وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت - فهؤلاء تخلفوا عن غزوة تبوك الخ ماسيأتى * وروى أن بنى عمرو ابن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنوغنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب الذى ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر . فلما قدم النبى ﷺ المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذى جئت به فأجابه ﷺ جئت بالحنيفية دين ابراهيم . فقال أبو عامر فأنا عليها فكذبه النبى ﷺ و بعد جدال قال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال ﷺ آمين . وسمى أبا عامر الفاسق فقال أبو عامر الفاسق لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك حتى كان يوم حنين فلما انهزمت هوازن فرّ هو الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء فذلك قوله تعالى (و) فيمن وصفنا (الذين اتخذوا مسجدا ضرارا) مضارّة للمؤمنين (وكفرا) وتقوية للكفر الذى يضمرونه (وتفريقا بين المؤمنين) أى الذين كانوا يجتمعون للصلاة فى مسجد قباء فأرادوا أن يتفرّقوا عنه وتختلف كلمتهم (وإرصادا) ترقبا (لمن حارب الله ورسوله من قبل) وهو أبو عامر الفاسق وقد قالوا للنبى ﷺ بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ونحن نحبّ أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة فقال انى على جناح سفر واذا قدمنا من تبوك ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشى قاتل حمزة ومعن بن عدى وغيرهما انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه فانطلقوا ففعلوا وأمروا أن يتخذوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام غريبا وحيدا وقوله - من قبل - أى من قبل بناء هذا المسجد . ألاترى أنه آلى على نفسه أن يحارب النبى ﷺ حتى كان يوم هوازن (وليحلفنّ) يعنى الذين بنوا المسجد (ان أردنا) يعنى ما أردنا ببنائه (إلا الحسنى) أى إلا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين الخ ماتقدّم (والله يشهد انهم لكاذبون) يعنى فى قولهم (لاتقم فيه أبدا) أى لاتصلّ فيه أبدا (لمسجد أسس على التقوى) وهو مسجد قباء وقد أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء من يوم الاثنين الى يوم الخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة (أحقّ أن تقوم فيه) مصليا (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) من المعاصى والكفر والنفاق واضرار المسلمين والتفريق بينهم ومن الحدث والخبث والنجاسة والطهارات الباطنة ومايتقدمها من الظاهرة هى التى تقرّب العبد من الله وتحببه فى الناس . ولايقترب العبد من الله إلا بصفاء الباطن وكلما صفا قرب وبقدر القرب يكون حبّ الله (والله يحبّ المطهرين * أفمن أسس بنيانه) بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان خير) على قاعدة محكمة هى التقوى من الله (أم من أسس بنيانه على شفا جرف

هار

هار) أى أم من أسسه على قاعدة ضعيفة وهو الباطل والنفاق الذى يشبه - شفا جرف هار - أى حرف مكان أكل الماء ماتحته فهو الى السقوط أقرب • فالشفا الحرف والشفير • وقوله - هار - من هار يهور اذا تداعى بعضه فى أثر بعض كما يهور الرمل (فانهار به فى نار جهنم) فطاح به الباطل فى نار جهنم (والله لايهدى القوم الظالمين) لايوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى لايزال هدم بنيانهم الذى بنوا حرارة وغيظا فى قلوبهم والحرارة والغيظ من رسول الله ﷺ يورثهم ريبة فى قلوبهم وهذه الريبة باقية فى قلوبهم (إلا أن تقطع قلوبهم) أى تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاؤها إما بالسيف واما بالموت أى فهى باقية الى أن يموتوا (والله عليم) بنياتهم (حكيم) فيما حكم به عليهم • انتهى التفسير اللفظى • وفى هذا المقام لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى - الاتنفروا يعذبكم الله عذابا أليما و يستبدل قوما غيركم -

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى - الاتنصروه فقد نصره الله - الآية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى - انفروا خفافا وثقالا -

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى - فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم - الآية

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فى قوله تعالى - انما الصدقات للفقراء والمساكين -

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ فى قوله تعالى - ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب الخ -

﴿ اللطيفة السابعة ﴾ فى قوله تعالى - ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم - الى قوله - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون -

﴿ اللطيفة الثامنة ﴾ فى قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم -

﴿ اللطيفة التاسعة ﴾ فى قوله تعالى - وهموا بما لم ينالوا الخ -

﴿ اللطيفة العاشرة ﴾ فى قوله تعالى - قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون -

﴿ اللطيفة الحادية عشر ﴾ فى قوله تعالى - وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون -

﴿ اللطيفة الثانية عشر ﴾ فى قوله تعالى - وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون -

﴿ اللطيفة الثالثة عشر ﴾ فى قوله تعالى - سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم -

﴿ اللطيفة الرابعة عشر ﴾ فى قوله تعالى - ومنهم من عاهد الله -

﴿ اللطيفة الأولى - الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما و يستبدل قوما غيركم - ﴾

حكم الله فى هذه الآية على الأمم الاسلامية أن تصبح فى عداد الأموات اذا هى نامت وادعة ساكنة ولم تسع سعى الأحياء • وأن تكون فى خبر كان • وأن يستبدل بها أمما أخرى تحل فى أماكنها • تهديد شديد ووعيد عظيم أنزله الله بمن يتركون الجهاد فى خفض من العيش ودعة • ولقد أطال فى ذلك أرسطاطاليس فيما كتبه الى اسكندر يحذره من ترك الممالك الفارسية وادعة وعلل ذلك بزوال الدولة وحلول الأزمة وأن الناس يتحملون النقم والشدائد ولايصبرون على النعم والدعة فان الناس أيام الحروب يكون عندهم من النشاط والحركة وظهور الغرائز والقوى الكامنة مايحرمون منه أيام سلمهم وفى وقت أمنهم ودعتهم وضرب الأمثال على ذلك بأمم خلت ودول مضت وأنهم بدعتهم وسكونهم وخفض عيشهم ذهبت ريحهم • ولقد تبين ذلك فى كل الأمم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن • هكذا هنا يقول الله - وان تتولوا يستبدل قوما غيركم - لأن الوجود فى ارتقاء وتنازع • وكل أمة أحاطت بها السآمة وحلت بها صفات الامن والدعة والكسل والبطر سلمت القياد لغيرها ممن هم أقدر على الحياة وأصبر على الجهاد وأولى بالقياد ووكلوا اليهم أمرهم لأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم والعالم فى صعود فمن وقف أورجع القهقرى حل محله من هو أحق منه بالحياة

ذلك هو النظام المستقيم والصراط السوى كما غلبت أمة الترك والفرس الأمم العربيـة فى القرون الأولى من الاسلام ثم غلب التتر عليهم أجمعين • ثم جاء الفرنجة فدخلوا فى ساحة الاسلام • ثم جاء دور الأمم الشرقيـة وهاهى ذه تريد أن تلعب دورها وتأخـذ من الحياة حظها – ذلك تقدير العزيز العليم – وهـذه هى الرحمة الالهيـة والنعمة الربانيـة أن يكون العالم فى ارتقاء وأن يولى زمامه الأكفاء وأن يغلب بخيلهم ورجلهم الأشداء ليقوموا بأمر ربهم ويحفظوا نظام ملـكهم فليس لله فى الأرض من ولد ولا والد ولا صاحبة ولا صاحب وانما هو عدل فى أحكامه لايبالى بأهل دين أولغة أوجنس بل حكمه قاهر على الجميع • خنس اليهود فأجلاهم وكسلت طوائف من المسلمين فأصماهم • وخنعت أمم ضالة غيرهما وأرداهم • – ذلك تقدير العزيز العليم – وهذه هى الرحمـة فى الوجود • يميت من لانفع له فى حياته • ويحيى من يسعى فى الوجود لدرس آياته • – إن ربك عزيز حكيم –

﴿ اللطيفة الثانية – الاتنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار الآيات – ﴾

روى أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين يوما لما اشتدّ بهم الـكرب من ظلم المشركين بمكة ﴿ إنى أريت دار هجرتـكم سبخة ذات نخل بين لابتين (وهما الحرّتان) فهاجر من هاجر الى المدينـة ورجع من كان بالحبشة الى أرض المدينـة ﴾ ولقد حبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر ثم جاء الأمر بالهجرة فأخبر أبا بكر فأخذ رسول الله ﷺ احدى الراحلتين بالثمن وقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فـبذلك سميت ذات النطاقين ثم توجه ﷺ هو وصاحبه الى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال وكان يأتيهما بخبر القوم عبد الله بن أبى بكر * واستأجرا رجلا من بنى الديل هاديا خرّيتا • والخريت الماهر بالهـداية وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال * وروى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ماظنك باثنين الله ثالثهما فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله * وقيـل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه ثم ان الدليل الديلى عاد اليهما بعد ثلاث فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة والدليل المذكور فأخذ بهم طريق الساحل ثم ان سراقة بن مالك بن جشم طمع فيما أعلنه كفار مكة من الجعل العظيم لمن قتل النبى ﷺ وأبا بكر وهو ديتهما فتبعهما يركض فرسه حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ غير ملتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسه فى الأرض حتى بلغتا الركبتين وارتفع من ذلك الأثر دخان ساطع فى السماء فنادى الأمان وأخبرهما بما يريد قومهما من قتلهما وعرض الزاد والمتاع عليهما فلم يقبلا وسأل النبى ﷺ أن يكتب له كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فـكتبه فى رقعة وكان أهـل المدينة ينتظرونه حتى نزل يوم الاثنـين من شهر ربيع الأوّل فى بنى عمرو بن عوف وبقى عندهم بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته حتى بركت عنـد مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلتـه هـذا ان شاء الله المنزل ثم ابتاع المـكان من صاحبيه الغلامين و بناه مسجدا اهـ

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى – انفروا خفافا وثقالا – ﴾

قد تقدّم معنى الخفاف والثقال ﴿وملخص المعانى التعميم﴾ • فعلى هذا يجب الجهاد على كل امرئ وهذا الأمر منسوخ بقوله – ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآيات – كما سيأتى و بقوله – وما كان المؤمنون لينفروا كافة – ومن العلماء من حمل الآية على أن الأمر للندب * وروى أن أبا أيوب الأنصارى لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون مع أنه شهد بدرا فقيـل له فى ذلك فقال يقول الله تعالى – انفروا خفافا وثقالا – ولا أجدنى إلا خفيفا أوثقيلا وكذلك سعيد بن المسيب ذهبت إحدى عينيه ولم يترك الجهاد وقال ان لم يمكنى

الحرب كثرت السواد . وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت ياعم أنت معذور عند الله فرفع حاجبه وقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا إلا أنه من يحبه يبتليه . هذا ملخص مايقوله العلماء . واعلم أن التحقيق فى هذا المقام أن الأمم كلها يجب عليها العمل العام . فأصحاب القوّة للدفاع . وأصحاب الصناعات لاحضار العدّة وكل امرىء فى الآية مكلف بعمل لأنه لادفاع بلارجال أقوياء ولادفاع للأقوياء بلاسلاح ولاوقوف لهم فى وجه العدوّ إلا بالغذاء واللباس والطرق المنتظمة . ولاطرق ولاغذاء ولا لباس إلا بأعمال هامّة ومدارس منظمة وحكومة قادرة وأمّة مستيقظة وادارة تامّة . وهذا ملخص دين الاسلام إذ يقول علماؤنا ان الصناعات كلها فرض كفاية . فنقول الآن أيها المسلمون أين الكفاية ولا كفاية لديكم ولاصناعة ولاعلم ولاحكمة فالجهاد واجب على الأمّة كلها . وعلى قادة الأمّة أن يجعلوا كل امرىء فيما استعدّ له من عمل نافع لافرق بين كنس الشوارع وتنظيف المساكن وتسميد الأرض و بين صنع المدافع والطيارات والكهرباء وما أشبه ذلك . كل هذا واجب على الأمّة كلها يجب أن تكون عاملة فان لم يفعلوا ذلك أثموا أجمعين وعذبوا فى الدارين وذاقوا العذاب الهون اه

﴿ اللطيفة الرابعة ـ فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم ـ ﴾

اعلم أن هذه الآية ذكرت فى هذه السورة مرتين فيقول هنا ـ فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم ـ و يقول بعد آيات ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم الخ وقد جاء فى أوائل هذه السورة ـ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم الخ ـ فذكر هناك ثمانية أشياء الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن وحكم على من يقدّم حبّ هذه على الجهاد بالهلاك والدمار والعذاب . و يقول أيضا فى هذه السورة ـ قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ـ فجعل القتل حسنى معادلا للنصر وجعل هلاك الأعداء بالقتل ثم موتهم وهلاكهم الأخروى عذابا . فملخص مارمى اليه هذه السورة بل كل دين صادق . بل كل حكمة وفلسفة احتقار اللذات والحياة وجعل ذلك كله مقدمة لولوج باب الكمال والسعادة . وعلى ذلك انقلب الأمر فأصبح مايفرح به الناس فى هذه الدنيا عذابا

﴿ ايضاح هذا المقام ﴾

اعلم أن الانسان فى الدنيا يظنّ أن سعادته فيها بما يناله من لذاته الحسية كالمطعم والملبس والمسكن والأبناء والآباء والأزواج والعشيرة . وبما ينفى عنه من الآلام والمصائب فيبقى حيا سليما مدى الحياة طويل العمر . ثم هو أبدا معذب بهذه الأثقال والأحمال فهو أبدا فى نصب بما يصيب الأهل والمال والولد وجميع ما حوله وبما يصيبه فى جسمه وهذا عذاب دائم . فبينما يظنّ نفسه فى سعادة إذ هو أبدا فى شقاء بما ظنّ أنه سعادة

ولقد تعزب عنه هذه الأثقال والأوصاب ساعة النوم والاغماء والسكر القوى والتنويم المغناطيسى فالنائم لايحسّ بما يناله من الغم بارتكاب الديون . وكذا المغمى عليه والسكران وهكذا المنوّم تنويما مغناطيسيا يخيل اليه وقت النوم مايريده منه المنوّم فيقال له أنت ملك كريم أوملك عظيم أو بهيمة أوغنى أوفقير فيتشكل كما يوحى اليه المنوّم بالكسر . ولقد شاهدت ذلك بنفسى فى مصر على مرأى ومسمع من العلماء والأطباء الذين شهدوا هذه الحقائق وأقرّوها . فها أنت ذا ترى أن ماتحمله من الأثقال قد زال عنا فى بعض الأوقات لعارض كما يزول عنا الألم اذا شاهدنا رجلا يقتل قصاصا أوصبينا يشرب شرابا مرا فانا لانتألم لعلمنا باستحقاق الأوّل ومنفعة الثانى . ونرى الطبيب يقطع عضو المريض لغرض الشفاء فنساعده ونشكره . ونحارب أمّة سطت علينا ونقتل رجالها ونحن فرحون . فهذه أحوال عرضت لنا غيرت أفكارنا فجعلت المكروه محبوبا وصيرت المؤلم لذيذا . ولطالما غيرت البيئات أحكامنا فجعلنا الضعة شرفا والشرف ضعة فيقول الفرنجى

لابدمن أن يرقص رجل مع امرأتى والا كان ذلك عارا علىّ . ويقول الشرقى ان حصل ذلك فهو عار علىّ كل ذلك فعل البيئة . فتعجب كيف انقلبت اللذات آلاما والآلام لذات بأحوال عارضة . فانظر كيف جاء القرآن بما هو أهمّ وأعمّ وجعل كل مانملكه ومايلذنا نقمة علينا ان أمسكناه لذاته ونعمة اذا جعلناه للنفعة العامّة وأفادنا أن ذلك فى كتاب ـ وأن ذلك على الله يسير ـ وقال ـ لاتحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ـ أنا وقت النوم أرحتكم من تبعة المصائب ووقت الاغماء والضعف العظيم المغير للقوى العقلية كحالة الهرم التام . وهكذا أجعل العاشق لايبالى إلا بأن يصل الى ماتمنى من محبوبه ولايبالى بغيره فى الدنيا . وربما عشق الانسان وطنه أوعاما من العلوم فذهل عما سواه . فبالنوم أرحتكم وبالاغماء وبالعشق العادى والوطنى والعامى غيرت أحوالكم القلبية

فهاأنا ذا أوجهكم بالدين الى الاجتهاد . واذا كان بعض عبادى يعشقون انسانا عشقا مفرطا فيغيبون عن كل ماسواه سواء أكان المحبوب ذاتا أووطنا أوعاما . فها أنا ذا فتحت لكم باب العشق العام فلجوه وطريق الحبّ الحقيقى فاقصدوه فلتكونوا آباء كراما لأممكم ولتكن أموالكم وأبناؤكم واخوانكم وعشيرتكم وهكذا علومكم وقوّتكم وجبلتكم وقفا على الجهاد فى سبيلى فاذا نصرتم فالنصرمنى واذا قتلتم فالىّ ترجعون

﴿ ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها الرحمة ﴾

إنّ هذه السورة نزلت للسيف وقد تركت البسملة فى أوّلها لأن التسمية للرحمة ولارحمة هنا . هذا ما قاله العلماء كما تقدّم . ولكنك اذا تأمّلت سورة الفاتحة وأن الانسان يقرأ صباحا ومساء ـ الرحمن الرحيم ـ ويحمد الله رب العالمين . اذا تأمّلت ذلك أيقنت أن الرحمة غالبة . وها أنت ذا تراها ظاهرة فى هذه السورة فانه وان طاب ضرب السيف فقدأزال أغلال الحياة عن الأعناق ووجه القلوب الى وجهة واحدة . ويقول علماء هذا العصر ان الأمّة وقت الحرب تحسّ بنشاط وفرح لاتحلم بهما وقت السلم فانظر كيف انقلب الأمر وأصبح الحرب الذى يكرهه الناس نعمة والسلم والدعة والنعمة التى لاحركة فيها نقمة . وهذا هوسرّ هذه السورة . فالمساكن والملابس والأولاد والمال كل ذلك مصائب عاجلة بالتوانى والكسل والنوم وهى نعمة باستعمالها فيما خلقت له . وان أردت تحقيق المقام فاقرأه فى سورة البقرة فى النصف الأوّل منها فافهم

السعادة لاتشرى بمال

﴿ رجل ينتحر وفى جيوبه ٦٠٠٠ جنيه ﴾

جاء فى بعض مجلاتنا المصرية فى ١٠ ابريل سنة ١٩٢٦ مايأتى

يرى زائر شواطئ بحيرة كومو الجيلة فى ايطاليا قصرا أنيقا يقع وسط حديقة زاهية مترامية الأطراف وانه ليمر البصر فيه طويلا ثم يتساءل لمن هذا القصر الباذخ والروض الناضر فى هذا الجوار الخلدى والبقعة المسروقة من الجنان ويتمنى لو قدر له أن يمضى بقية حياته فى ذلك النعيم الشامل . ثم يسأل أحد المارّة من الوطنيين عن اسم صاحبه السعيد ولكن ما أعظم دهشته عند مايرفع هذا أكتافه ويجيبه بأن صاحبه كان (جوزب بوجينى) الذى كان يعيش فيه وحده مع خدمه العديدين وكلابه التى كان يحبها . وكان أهل البقعة لايعلمون من أمره كثيرا ولكن كانت تسرى الاشاعة بأنه كان شيخا تعسا لايعرف السعادة رغم ثروته الطائلة

كان (بوجينى) وحيدا وحدة قاسية . وكان يمكنه أن يشترى الأصحاب بماله الكثير وبذخه الوافر . ولكنه ماكان يأبه لذلك فلم يكن له أصحاب حقيقيون وكان يندر أن يزوره زائر ولم يكن له أقارب ولم يتزوج وكانت حياته حياة عزلة ونسك . كان (بوجينى) فى وقت من الأوقات عاملا بسيطا فى نيويورك

حيث

حيث تجنس بالجنسية الأمريكية . وبمرور الزمن جمع ثروة تقدر بالملايين ثم رجع الى موطنه الأصلى ليتمتع بثمرة ماجمعته حياة الكد والاجتهاد . وظهرت له بحيرة كومو بعد غيبته الطويلة جنة خالدة لاينقص كمالها أى ترف أورغد يشترى به المال فآمن بالسعادة هناك . ولكن جاءت بعد حين ساعة الخيبة التى تنهار فيها صروح الآمال والأحلام فقد اشترى بماله القصر والروض وكل أسباب الراحة والكمال ولكنها لم تشتر له راحة الفكر والرضا بكل ذلك فمل كل ذلك وسئمه وحنت نفسه الى تلك الأيام التى كان يكد فيها ويكدح طول نهاره من أجل بضعة الدراهم القليلة التى كان يكسبها فى يومه . والآن قد أنهى (بوجينى) حياته القلقة الثائرة حيث وجده خدمه فى صبيحة يوم مشنوقا فى شجرة من أشجار روضه الزاهر . وبجانبه هذه الرسالة الوجيزة ﴿ لقد كشفت أثناء حياتى الطويلة أن أكوام المال لاتشترى السعادة الحقيقية وانى أذهب من هذه الحياة لأنى لا أقوى على احتمال وحدتها وما أشعر فيها من سأم عند ما كنت عاملا بسيطا فى نيو يورك كنت سعيدا جذلا . ولكن الآن مع هذه الملايين أشعر بحزن دائم وأفضل الموت ﴾

ووجد فى جيوبه ستة آلاف جنيه كتب عليها (الى الجحيم) ثم أخذ البوليس يبحث عن ورثته اه

﴿ جمال هذه الآيات ﴾

كثرت ذرية أدنى الحيوان وأغذيته ولم يجشم نصبا ولا ألما . والانسان ناله الألم بذريته مع قلتها و بما ملك من الأموال ليعلم أنه فى دار ليست بدار قرار وانه سائر الى ربه يعيش بجواره كما قال تعالى — ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا الى الله انى لكم منه نذيرمبين — لجمال هذه الآية — فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم الخ — هو الظاهر فى هذا الوجود المخبوء عن القلوب لأن أكثر الناس لايعلمون

اللهم انك أنت الظاهر بجمالك . العظيم بحكمتك . الجليل العجيب الصنع البديع الاتقان . اللهم انك أنت الذى ملأت السهل والجبل والنهر والحقل بذرية الذبابة والجرادة وحشرة أبى دقيق ولم تجشمها نصبا ولا ألما فى تلك الذرية وملكت بعض تلك الحشرات عيوننا وأجسامنا وأمتعتنا واللذيذ من أغذيتنا وسلطتها علينا بالعذاب فتلقى فى أغذيتنا وفى أجسامنا بذور الأمراض والحيات والمهلكات — إن ربى لطيف لمايشاء — أنت الذى جعلت الحيوان على ثلاثة أقسام . قسم يترك بيضه فى العراء كالجراد والذباب الخ ولكن هذا القسم أنت أعطيته إلهاما عجيبا ليضع بيضه فى أماكن تناسبه كأغذية الانسان وروثه وعيون صغاره والقاذورات وذلك فى الذباب وفى حقول مناسبة على بعد مخصوص فى الأرض وذلك فى الجراد وهكذا . ثم ان الذبابة والجرادة ونحوهما تموت . وأنت الذى تتولى شؤن ذريتها فتملأ السهل والجبل والناس يحاربونها ولكن تلك الحشرات وأمثالها غالبات قاهرات على طول الزمان . وقسم أمرته بأن يحضن بيضه الى أمد معلوم وذلك لأنه أرقى فألهمت الدجاجة والحمامة والاناث من أنواع الدراج والبط أن تحضن بيضها فاذا فقس أمرتها أن تلاحظها الى أمد قليل ثم تستقل الذرية وتفعل مافعل الآباء . ومع هذه العناية كانت الذرية أقل من ذرية تلك الحشرات كحشرة القز وحشرة أبى دقيق والذباب الخ . والقسم الثالث ما حكمت عليه بالحمل والارضاع وهى ذوات الأربع . وكلما ازداد هذا القسم كمالا زدته عذابا فى ذريته كالخيل والفيلة والقردة والانسان وهو أكثر تلك الحيوانات عذابا بذريته وماله . وكلما ارتقى فى سلم المدنية ازداد عذابا بالذرية فيعيش الانسان مجدا كادحا لتربية بنيه و بناته الذين قل عددهم ولايقتصر على الارضاع والكسوة والتغذية بل يدخلهم المدارس و يضيع حياته فيهم . وهو كلما كثرت آماله وأمواله وذريته ازدادت همومه . فاعجب لهذا الوجود . ذبابة تكون الأجيال الناشئة من ذريتها فى السنة تزيد عن مليون ذبابة وهى كلها تملك أجسامنا وأغذيتنا ولانصب يغشاها ولاتعب . وانسان يلد عدد أصابع اليد الواحدة أوأقل فيعيش فى نصب وتعب وهو مكدود وهوقليل المال كثير النصب والتعب لايتسنى له أن يدخل منزل جاره إلا باذن ولا

يأكل الابنصب وتعب . وهذه أبيحت لها الدنيا وغلبتنا وقتلتنا وأكلت زرعنا . هذه صورة الحيوان والانسان . فاعجب أيها الذكى . مى وتأمّل كيف تلد الذبابة مئات الالوف بالتناسل فى الأجيال كل سنة ويلد الانسان قليلا وهى لاتعذّب وهو فى العذاب مغمور . وكيف يشاهد الناس ذلك صباحا ومساء وهم لايعقلون

اللهم ان العلم مشاهد محسوس وأكثر الناس لايعقلون . أنت يا الله بسطت العلم أمام أعيننا وأمرت الذباب فباض فى أفنيتنا وأمرته أن يلقى علينا دروسا من الأمراض فى أغذيتنا وقلت له نبه هذا الانسان ياذباب وقل له هاأنا ذا منعم بمالك كثير الذرية وأنت تشقى بمالك وولدك قليل الذرية . سلطنى الله عليك لتبغض عالم المادّة وتحنّ الى عالم الأرواح وتبحث بعقلك عن حياة أسعد وهى التى بعد موتك بلقاء ربك والعالم الروحى . فهاأناذا أريك أيها الانسان انى أسعد منك حالا ومالا وذرية لأوقظك للخروج من حياة المادّة . ولما جهل الناس منطق الطير ولم يعقلوا ماحولهم من الضرّ والشرّ ألقاه على ألسنتهم فى محافلهم ومحاوراتهم بطريق الالهام

﴿ ألسنة الخلق أقلام الحق ﴾

لما حكم الله على الناس بعذابهم فى أموالهم وأولادهم ولم يفهموا منطق الطير كما قدّمنا ولم يدركوا سرّ هذا الوجود ولم يفقهوا أنه بذلك يريد احراجهم حتى يحنوا الى عالم أرقى خاطبهم بما يلقيه على ألسنة الرجال والنساء فى كل زمان ومكان فتراهم يتبرمون و يتأففون من هموم المال وهموم الذرية . وتقول المرأة ماذا أصنع يابنى وقد قلّ لبنى وقلّ مالى . و يقول الرجل ماذا أصنع انى لا أجد مالا لتعليم ابنى . واذا أصابه ألم ونصب بكى و بكت امرأته . وهكذا تراهم مغتمين اذا اجتاحت المال جائحة أوأصابته ملمة . كل هذا وهم يشاهدون الحشرات طائفات فرحات سعيدات كثيرة الذرية فكل ماتسمعه من تألم الرجال والنساء لأموالهم وأولادهم هونفسه مايشاهدونه فى الطبيعة فألسنة الخلق فى ذلك ناطقات بما خطه الله فى هذا الوجود وكتبه بحروف كبيرة مجسمة منظورة يشاهدونها ولكنهم لايعقلون وقرّبها اليهم بالألسنة صباحا ومساء . فاذا قال الرجال والنساء ما أتعس هذه الحياة الخ فهونفسه الذى ألقته الذبابة والحشرة عليهم وهم لايعقلون

﴿ظهور هذاالسرعلى ألسنة الشعراء﴾ ولما كان الشعراء هم أفصح هذا النوع الانسانى وهم الناطقون بماله من وجدان . أبرز الله هذا السر على ألسنتهم وتراه كثيرا فى الشعر العربى فترى المتنبى يقول

كل من فى الكون يشكودهره * ليت شعرى هذه الدنيا لمن

وترى الشاعرالانجليزى (ترنش) يقول ماملخصه ﴿ انالناس قسمان ﴾ قسم صفت الدنيا لهم فأقل ألم يزعجهم فهم دائما فى نصب وألم . وقوم عاشوا فى شظف العيش فأحسوا بأقلّ نعيم وانشرحوا صدورا . وهذا نص ما ترجته من شعره الى لغتنا العربية اجابة لطلب التلاميذ بالمدارس الثانوية فى كتابى المسمى ﴿ جوهرة الشعر والتعريب ﴾

﴿ أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الاغنياء ﴾

(من شعر ترنش الشاعر الانجليزى)

قوم صفت الدنيا لهم * وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر * لم تحجبهم عنها حجب
فاذا ما اغبرّ بأفقهم * مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم * ليل فيه السود النوب
فاذا لمحوا من بارقة * فرحواجذلاو بهم طرب

هـذا مثل فيه عظة * لذوى التوفيق اذا ضربوا
فانظر زمرا سكنوا مصرا * و بنوا قصرا ولهم ذهب
ولهـم نعم فيها نعم * فاذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا * ان شاكهم و برصخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا * مما من عليهم حرب(١)
وكأن المال جهنمهم * وثراء المال لهم عطب
وترى رهطا سكنوا الأكوا * خ فذا شعر هذا قصب
وحياتهـم فى مخمصـة * ومعيشتهم أبدا وصب
حمدوا الرحمن على نعم * و به فرحوا وله انتسبوا
فكأنهم لما سلبوا * ماأعطاهـم منه كسبوا
فالحب كساهم من حلل * و بكأس سعادته شربوا

وهاك موازنة بين أبى العلاء . و بين شارل وكذا شكسبير منقولا مما نظمته ترجمة فى ذلك الكتاب

* قال أبو العلاء

للحال بالقـدر اللطيف تغـير * فليناً عنـك تفاؤل وتطير
من أحسن الاحداث وصفك غابرا * فى الترب يا كله تراب أغـبر
ماقيل فى عظم الملوك وعزهم * فالله أعظم فى القياس وأكبر
وكـأنما دنياك رؤيا نائم * بالعكس فى عقبى الزمان تفسر
فاذا بكيت بها فتلك مسرة * واذا ضحكت فذاك عين تعبر
فالعين تبـكى فى المنام وتجتلى * فرحا وتضحك فى الرقاد وتعبر
والنفس ليس لها على مانالهـا * صبر ولـكن بالـكراهة تصبر
يغدو المدجج بازيا أوأجـدلا * فيروح محتكما عليـه القبر

وقال أيضا

آليت لاينفـك جسمى فى أذى * حتى يعود الى قـديم العنصر
واذا رجعت اليه صارت أعظمى * تربا تهافت فى طوال الأعصر
هوّن عليك أنلت نصرا فى الوغى * أم طال جـدّك صادقا لم تنصر
كسرى أصاب الـكسر جابر ملـكه * والقصر كرّ على تطول قيصر

وقال شارل

لاتفخرن بما أوتيت من نعم * ماذا التكاثر بالأوهام والعـدم
لايدفع القدر المقدور سابغة (٢) * من الدروع ولا حصن على علم (٣)
بل ينتضى الموت أسياف الفناء على * هام الملوك ذوى التيجان والأمم
والفأس والمنجل المعوج صفحته * كالصولجان وتاج الملك فى الرغم (٤)
كم فارس بطل بالسيف مشتمل * يسطو على أجل فى الحلّ والحرم
وحاصـد هام قوم من منابتها * فأنبتت أرضـها زهرا بسفح دم
فصار اكيـله فى يوم زينته * قد أبسلوا للمنايا فاقدى الشـمم

(١) سلب المال (٢) الدرع السابغة الضافية (٣) العلم الجبل (٤) جمع رغام التراب

إما على عجل للموت أومهـل * خروا جثيا (١) ونال الرغم كل فم
حتى قضوا نحبهم صفرا وجوههم * عبدان ذل فما يشكون من ألم
وزهر اكليلهـم ذاو ومنتثر * ولم يكن قبـل إلا عقد منتظم
لايعجبنك ما أوتيت من شرف * أونلت من ذهب أو بطش منتقم
وانظر الى القاهر المقهور كيف قضى * وهاطل الدم فى الأنصاب كالديم
وأودعوا حفرا يا بئسما نزلوا * عليهم سجف من دجيـة الظلم
لـكن على جدث الصدّيق قدعبقا * ريحان والندمن عدل ومن كرم

وقال شكسبير - كلّ من عليها فان -

إن الحياة وان غرّت مظاهرها * فانما هى وهـم ذائب الصور
قد مثلت فى خيال الوهـم بارزة * فى ساحة العـدم الممتدّ فى الفكر
كما ترى فى خيال الظلّ من صور * حتى اذا كملت بادت على الأثر
وكل قصر رفيع شاده ملك * فيه التمـاثيل تخشاها قوى العصر
كذا البروج مشيدات على صعد (٢) * مكللات بمـا فى السحب من أطر (٣)
وكل ما أورثته الأرض من عرض * تبيـدها عدما يوما يد القدر
وانما عنصر الأجسام من سـدم * مكوّنات من الأحلام والدعر (٤)

ضاع من المؤلف كتاب له فيه تعليق فقال قبل أن يعثر عليه

يقولون إن العـلم للهمّ دافع * فـكيف رأيت العلم يدنى من الهمّ
ألم ترانى ضاع منى مؤلف * نفيس فلم أصبر على ذلك الغرم
لأنى قـد نظمت بين عقوده * فرائد حتى لايشـذ عن الفهم
قضاء قضاه الله فى عالم الدنا * فرارا من الآساد نغرق فى اليم

هـذه أقوال المشهورين من شعراء الغرب والشرق . اتحد المتنبى وأبو العلاء من الشرق مع (ترنش وشكسبير وشارل من الغرب . بماذا نطقوا . نطقوا بما نطقت به هـذه المخلوقات حولنا . نطقوا بما نطقت به الطير والحشرات القائلات بلسان حالها أنتم أيها الناس مسجونون فى أموالـكم وأولادكم أما نحن فانا فى بحبوحة النعيم . نلد الالوف ولانحزن ولانجزع ولاننصب فى التربية والله تولاها عنا . هذا كلام حشرة أبى دقيق والجراد والذباب وحشرة دود القطن . إن العالم الذى حولنا كله ناطق ونطقه أفصح من نطق اللسان . إن العوالم التى خلقنا فيها جبلة وناطقة ولـكن أكثر الناس لايعقلون ولايفهمون . وبهذا نفهم قوله تعالى - ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلـكم تذكرون - فنحن خلقنا العوالم حولـكم أزواجا فتوالدت وكثرت ولم تعان ماتعانون مع قلتـكم . نريد بذلك أن تتذكروا وتعقلوا وتفهموا أن حياتـكم الحقة لاتـكون هنا على الأرض ولافى عالم المادّة التى ترونها بل فى عالم أجل . ولذلك رتب عليه قوله تعالى - ففرّوا الى الله - والآية هنا موضحة لذلك الفرار إذ أبانت أن الناس فى عذاب بأموالهم وأولادهم . فهذا هو سبب الفرار وطلبه . ويقول الله فى آية أخرى - وما أموالـكم ولا أولادكم بالتى تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا - فالمال والولد يعذبان وهما لايقرّبان الى الله لأنهما وسيلة والوسيلة لاتـكون مقصـدا فاذا جعلت مقصدا ساءت الحال وكانت سجنا وكفرا كما قال تعالى هنا - وتزهق أنفسهم وهم كافرون -

(١) جلوسا على الركب (٢) الصعد جمع صعود ضد هبوط (٣) أطر جمع اطار ما أحاط بالشئ (٤) الدعر الفساد

﴿ ايضاح ﴾

لما وصلت الى هذا المقام حضر أحد الفضلاء من أهل العلم . ولما اطلع عليه سألنى قائلا . أين النطق الذى فى المخلوقات حولنا والناس لايفهمونه كما تقول . فقلت نطق الطير ونطق المخلوقات كلها . فقال ما معنى هـذا القول الذى يشبه قول الصوفية والرموز التى لاتفيد . فقلت نحن الآن فى مقام الحكمة والعلم والبرهان . ان الطير ناطقات بما ذكرناه الآن . ولكن العامّة والجهلاء يظنون أن النطق هو ماتتغنى به أوتناغى به أمثالها . كلا بل نفس الطير والحشرات وجميع الدواب عبارة عن كتاب كتبه الله بيده . كتبه لنا وأكثر الناس لايعلمون . ألم تر الى ما ذكرته من حكم الحشرات وتبيان حياتها وموازنتها بحياة الانسان . ألم يكن هذا أفصح من نطق اللسان . أليس نظام ذرّيتها وتدبير الله فى حفظها وحبسه لنا فى أموالنا وأبنائنا كافيات فى فهمنا أن حياتنا عذاب فلما أن جهل الناس هذا الكتاب الذى كتبه بيده أنطق الله بهـذا المعنى الرجال والنساء وختم بالشعراء من العرب والعجم كما تقـدّم وأنزل فى القرآن ما تقدّم من الآيات يقول ـ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ـ ويقول ـ ومن كل شئ خلقنا زوجـين الخ ـ كما تقـدّم ويقول هنا ـ ولاتعجبك أموالهم وأولادهم ـ . أليس هذا هو الذى يقوله الطير فى جوّ السماء . فقال مامعنى هـذا . فقلت الطير مخلوق ترفع فى الهواء وتعالى عن الهوام فى التراب والسمك فى البحر والبهائم فى الأرض . نظر الطير اليها نظر احتقار وفارقها وساح فى الهواء والحرية . الناس يرون هذا وكأن الطير يقول أيها الناس اعبروا البحر وسيروا فى الأرض وطيروا فى الجوّ . فهذا كله لايغنيكم شيأ فأنتم محبوسون فى الكرة الأرضية وفطركم تحنّ الى عالم أرقى فاخرجوا الى عالم أعلى بالعمل كما خرجت أنا من عالم الماء والتراب وظاهر الأرض الى الهواء . هذا هو بعض النطق الذى نطقه الطير لسليمان عليـه السلام فى قوله تعالى على لسانه ـ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين ـ فهل ترى أن إيتاء كل شئ وايتاء الفضل المبين لمعان ضئيلات تخطر بغرائز الطيور فى جوّ السماء . أم هى هـذه المعانى وأمثالها التى نطق بها كل شئ قبل نزول القرآن كما قال تعالى ـ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ ـ فنطق الناس بالتبرم من الحياة . ونطق الشعراء كذلك . ونطق الطير فى الهواء . ونطق كل شئ هو الذى نزل به القرآن فقال لنا ماقالته الطيور والحشرات والهوام والشعراء . وذم لنا المال والولد اللذين هما وسيلتان لامقصدان . لماذا . لأن الاسلام دين الفطرة . فها أنت ذا رأيت الفطرة فى هذا المقال واطلعت عليها . وهذه الفطرة التى أبرزها الله بتنويعه لخلقه فى طير وحشرات وغيرها وفى كلام الناس والشعراء أبرزها فى القرآن . هذا معنى كون القرآن ـ ذكرى للعالمين ـ أى يذكرهم بما حولهم وما تحسّ به نفوسهم وهم عنه غافلون

﴿ غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم عامّة ﴾

قاعدة . قد يكون الناس أشدّ غفلة عن أعظم النعم وأوضح النطق وأبهر الجمال . ألاترى أنهـم لا يعتبرون الهواء نعمة مع انه أهم من الخبز والماء ذلك لأنه مبذول لهم وهم لايقدرون النعمة حق قدرها إلا اذا منعت وعلى قدر المنع يكون حفظ الجميل ولذلك يفرحون بالحلى من الذهب والفضة أكثر من الخبز وبالخبز أكثر من الماء . فأما الهواء فلا يذكرونه . إذن معرفة النعـمة معكوسة مقلوبة . ثم انهـم يخاطبون بلسان أفصح من المقال فى أنفسهم وفيما يتعلق بهم واللسان الذى يخاطبون به أفصح من اللسان المعتاد جدّا فالجوع والبرد والمرض والعطش وآلام الأم لبكاء الرضيع . كل هذه ألسنة ناطقة تحثهم على الأكل والشرب واللبس والتداوى وارضاع الولد فقد يمتثلون ولكنهم لايعقلون أن هذا افهام وتفهيم بل يساقون لها كما تساق الأنعام . واذا ساقتهم تلك الآلام التى جعلناها أفصح من الألسنة فانهم كثيرا ما يألمون ولايعقلون مثـل ما مايألمون من عموم الحياة فلايعقلون ما المخرج . ومثل مايحصل للمسلمين الآن من الذلة بسبب جهلهم وقلة اتحادهم

وتخاذلهم فأذلتهم الأمم . كل ذلك حاصل وهم لا يعلمون أن ذلك كله أفصح من اللسان وأوضح بل هو أفصح من منطق الجوع والمرض . لذلك أنزل الله فى كتابه - ففروا الى الله - وأنزل - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - وأنزل ماهنا وهو أن الأموال والأولاد عذاب . وكما غفلوا عما ينزل بهم من العذاب غفلوا عما حولهم من الجمال الذى يطالبهم بارتقاء نفوسهم . فبينما أموالهم وأولادهم تعذبهم يرون النجوم الجميلة الرائعة تنظر اليهم باسمة وتشرق حولهم ضاحكة وتشير اليهم مسلمة وهى باهرة الجمال حسنات الأشكال تناديهم أن انتهزوا الفرصة اليوم واجعلوا أموالكم وأولادكم معينين على اسعاد المجموع الانسانى حتى لا تسجنوا فيهما فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل المنافع العامة حتى تحظوا بالجمال الذى تجهلونه اليوم . إن من الناس من يدرك جمال النجوم وهو فى الدنيا فيعشق العلوم عشقا فيكون عنده المال والولد ولكنه مغرم القلب بالعلوم فلا يصده مال ولا ولد عن ذلك الجمال ويجاهد بنفسه وبماله فى سبيل المصالح العامة التى سيقت لها هذه الآية حثا لأصحاب النبى ﷺ على الجهاد والخروج من سجن المال والولد الى اسعاد المجموع

﴿ ظهور بعض سر هذه الآية فى هذا الزمان ﴾

لا تظنن أن النوع الانسانى غافل عما ذكرناه . فاعلم أن الحرب الكبرى انما جاءت من أجل المال والاستعمار والاستئثار بالسلطان . ظهرت الاشتراكية فانظر الكلام عليها فى سورة البقرة عند آية الربا . هناك تعلم أن القوم يريدون أن يكون كل امرئ مساعدا للمجموع أى أن يكون الناس كأعضاء جسد واحد وتكون المنافع أكمل . وهناك ذكرت لك أن الاسلام لم يقتصر على الزكاة بل جعل مال المسلم للمجموع طوعا لا كرها . ومن عجب أن هذه الفكرة منتشرة بين مئات آلاف الآلاف من الناس . فقد جاء فى الأخبار أيام كتابة هذا الموضوع فى أواخر شهر ابريل سنة ١٩٢٧ أن شابا فقيرا اشتراكيا لا يجد قوت يومه قد وفقه الله الى كشف حديث فى التصوير الشمسى أكثر اسراعا فى ابراز الصور بأعمال قليلة فباعه بنحو مائتى ألف جنيه فنزل عنه جميعه فبعضه الى المعوزين من المصورين وبعضه من غيرهم . إذن هذه التعاليم فى أصلها موافقة للفطرة لأنها تجعل الناس ينفع بعضهم بعضا ويخرجون من ذل المال بالمساعدة العامة . إذن القرآن نطق بما فى الفطرة . والفطرة أبرزت هذا المذهب . واياك أن تظن أنى أبيح الاشتراكية كلا وانما أقول معنى هذا أن الناس لما رأوا الشح المطاع والهوى المتبع خرجوا بعقولهم من ذلك بما يقولون ولسنا ندرى ماذا يصنعون . وانما المهم أن القرآن طلب أن يكون الانسان مساعدا للجميع فعرفناه . فاذا كان عملهم موافقا له كل الموافقة أقررناه وان انحرف عنه نبذناه أوهذبناه فليس المقام فى الاتباع وانما المقام فى الحكمة والعلم وموافقة القرآن لفطرة الانسان وهذا هو معنى كونه دين الفطرة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل اهـ

﴿ اللطيفة الخامسة - انما الصدقات للفقراء الآيات - ﴾

(١) لا يجوز صرفها الى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة والشافعى . وقد سقط سهم العامل وسهم المؤلفة قلوبهم اذا قسم المرء زكاته بنفسه ويعطى ثلاثة من كل صنف

(٢) لو صرف الكل الى صنف واحد أوالى شخص واحد جاز من هذه الأصناف كلها وهو قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثورى وأصحاب الرأى وأحمد بن حنبل

(٣) ان كان المال كثيرا يحتمل الأجزاء فرقه على الأصناف كلها وان كان قليلا وضعه فى صنف واحد

(٤) يقدم الأولى فالأولى من أهل الحاجة . فاذا رأى الفقراء حاجتهم أولى قدمهم وهكذا وهو قول مالك ومتى أعطى أحدا صدقة وجب أن لا يزيد المعطى عن أقل مقدار يسمى به غنيا فأقل الغنى لا تجوز الزيادة عليه . وللأئمة هنا مجال فى المقدار الذى يعطى وكل يرى بحسب اجتهاده . فالشافعى يقول بوجوب دفع

الحاجة

الحاجة من غير حدّ . وأبو حنيفة يكره أن يعطى رجل واحد مائتى درهم . وأحمد بن حنبل كره أن يعطى أكثر من خمسين درهما اه

واعلم أن الحق يؤخذ من مجموع هذه الأقوال . فعلى رجال الحل والعقد فى الأمم الاسلامية أن يؤلفوا لجانا تنظر فى أحوال الأمّة . وهناك توزع الصدقات توزيعا شريفا . وأهمها أن تصرف لأرباب الحرف الشريفة النافعة للأمّة فيكسبون من كدّ أيديهم . ويجب أن يمنعوها عن الكسالى ويأمروهم بالشغل ويعطوهم من الزكاة على مقدار مايساعدهم فى اجتهادهم ولايعطوهم جزافا . فالحق فى هذه المسألة قد تضمنه أقوال الأئمة رضوان الله عليهم وعلى الأمّة الاسلامية الجدّ والاجتهاد . وهاهم أولاء قد رأوا بأعينهم كيف أدّت الغفلة الى ضياع بلادهم وجهالتها العمياء والى الله عاقبة الامور

﴿ اللطيفة السادسة قوله تعالى ـ ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب الخ ـ ﴾

اعلم أن هذه السورة قد خالفت أكثر القرآن . ألا ترى أن الله ماترك صغيرة ولا كبيرة فى غزوة تبوك إلا أحصاها . فياعجبا ضحكة يضحكها الأصدقاء فينزل الوحى بالمؤاخذة عليها . ان هذا الأمر عظيم وقد عهدنا النبوّة لاتبالى بمثل هذه والنبى ﷺ عفو فكيف رأينا الله فى هذه السورة يحصى على الناس ضحكهم فى أوقات خلواتهم فاذا سئلوا قالوا ـ انما كنا نخوض ونلعب ـ ثم انهم يهدّدون بالهلاك العاجل والعقوبات العظيمة وانظر كيف يقال لهم ـ كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة ـ وذكر قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات . كل ذلك تهديد للمنافقين الذين يعدّ عليهم تلك الهنات والضحكات فياليت شعرى كيف انقلب الأمر فى هذه السورة حتى أصبح المسلم يؤاخذ على ضحكة يضحكها ويهدّد بانه أصبح كالأمم السابقة

﴿ الجواب ﴾

اعلم ألهمك الله الرشد أن هذا هو النظام الذى يجب اتباعه فان الأمّة اذا تركت بعض أفراد منها خارجين عن نظامها يحقرون دينها وعقائدها ويخرجون عليها كان هؤلاء جرثومة فساد يسرى فى غيرهم ومثل هذا الداء اذا انتشر فى الأمّة ضاعت قوّتها وذهبت ريحها . فالاتحاد لا يكون إلا بفكرة جامعة . ولاجامعة فى هذا المقام إلا الاسلام . فاذا سخروا منه فلا دولة ولانظام ولاحرب . انما يحاربون باسم الدين . فاذا سخروا منه فقد دلّ على كرههم له فاذن لاحرب ولانظام ولاغلبة على الأعداء . واعلم أن الأمّة الاسلامية اليوم لم يضعضعها إلا جهلها . فلاهى بالدين اتحدت ولابغيره اتفقت . وسيكون لها بعد اليوم شأن ورفعة ومجد ـ والله هو الولىّ الحميد ـ

﴿ جوهرة فى الكلام على قوله تعالى ـ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ـ ﴾

الكلام عليها ينحصر (١) فى الاستهزاء بالنبىّ ﷺ (٢) وفى الاستهزاء ببعض المنتسبين للدين (٣) وسبب ذلك الاستهزاء (٤) ونتيجته من ازدياد الجهل فى المستهزئ وازدياد العلم والسعادة فى الدنيا والدين للمستهزأ به

(١) أمّا الاستهزاء بالنبى ﷺ فقد علمته . وذلك أن بعض المنافقين أخذوا يخوضون فى الحديث فى غزوة تبوك . ويقولون انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام الخ ماتقدّم . ولاجرم أن ذلك الاستهزاء راجع لقصر النظر وضعف البصيرة

(٢) أمّا الاستهزاء بالمتدينين فذلك مستفيض فى الأمم الاسلامية المتأخرة . وبيانه أن المسلمين بعد العصور الأولى خارت عزائمهم وضلّ كثير منهم طريق التعليم بسبب الأحاديث التى وضعها الواضعون كما فى كتاب ﴿ الاتقان فى علوم القرآن ﴾ للسيوطى وغيره رحمهم الله تعالى فقد تطوّع قوم ووضعوا أحاديث فى

فضائل السور وقراءتها ترغيبا فى القرآن وتحبيبا فى تلاوته لزعمهم أن الأئمة رضوان الله عليهم مثل أبى حنيفة والشافعى قد صرفوا الناس عن القرآن الى مذاهبهم وقد أقروا بذلك وانهم يرغبون الثواب من الله بهذه الأحاديث فانقسمت الأمة الى ﴿ طائفتين ﴾ طائفة تحفظ القرآن عن ظهر غيب تعبدا أو طلبا للكسب أو للهرب من الجندية . وطائفة تحفظ كالأولين ولكنها تعرف العلوم العربية والفقه وأصوله وفنّ التوحيد والمنطق وما أشبه ذلك . وهذه الطائفة بقسميها ينظر لها بعض الأمة نظرة الاستهزاء . يقولون ان حفاظ القرآن ليسوا بمتعلمين فيعدّونهم فى مصاف الجهلاء . وعلماء الدين غالبا يجهلون نظام هذه الدنيا ويظنون الفقه والاصول والتوحيد هى كل مايطلبه الدين . فههنا يكون ﴿ استهزا آن ﴾ استهزاء من هؤلاء العلماء بجميع العلوم وتكبر عليها غالبا . واستهزاء من بعض الناس بهم لما يرون فيهم من قصور الباع فى نظام هذه الدنيا وعلوم الفلك والطبيعة وما أشبه ذلك . ومن أسباب الاستهزاء بحفاظ القرآن و ببعض علماء الدين كما قرّره ابن خلدون أن المتعلم على الطريقة القديمة كان يلقى اليه العلم ويضرب ويهان فيمرّن من صغره على الذلة والاستكانة والضعف فتموت فيه غريزة الشرف والنخوة والشمم والعزيمة وتخور قواه فلا يصلح للدفاع عن البلاد . ولذلك ينظر له الناس نظرة المستضعف المستكين الجبان . ذلك لما اعتاد من صغره على الذلة وانكسار القلب والضرب والخضوع الأعمى . هذا ملخص ما يقوله العلامة ابن خلدون فى المقدّمة . أمّا سبب استهزاء العالم الدينى نفسه بالعلوم الأخرى فذلك لنقص التعليم فيشب ويشيب معتقدا أن ماعدا فقه الشافعى والحنفى مثلا وما وراء الكتب الموضوعة فى التوحيد والاصول انما هو هراء لامحصل له

وأضرب لذلك ثلاثة أمثال ﴿ المثل الأول ﴾ أنه جاء الى مصر منذ نحو ٢٠ سنة أمير هندى يسمى جمال الدين وهو من مدراس بالهند ومعه مترجوه وقد مرّ على الاستانة وأخذ فتوى من شيخ الاسلام هناك ولما جاء الى مصر أخذ فتوى من شيخ الاسلام . ثم جاء الىّ ليأخذ منى كتابة عما يأتى . قال قد فتحت مدرسة فى مدراس على نفقتى الخاصة فحرّم علماء الدين التاريخ والجغرافيا . فكتبت أقول ﴿ إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون جميعا آثمون بتركها ﴾

﴿ المثل الثانى ﴾ جاء الى مصر سرىّ من سرة الهند . وقد أدخل ابنا له فى المدرسة التحضيرية بدرب الجاميز واتفق أنى كنت هناك فعرفوه بى . فقال لى ما يأتى . ان أسرتنا كبيرة جدّا فنها فى كل مدينة طائفة وهم جميعا يرون أن ادخال أبنائهم فى المدارس عار وعيب ومغاير للشرف فأنا لم أقدر أن أدخل ابنى فى مدارس الهند فأتيت به الى هنا بعيدا عنهم حتى لايسلقونى بألسنة حداد

﴿ المثل الثالث ﴾ جاء الى بلادنا منذ ثلاث سنين عالم صينى يسمى (وان وين كين) وقد قال لى مايأتى

انى أرسلت من قبل أربعة قوّاد من قوّاد المسلمين فى الصين لهم أمر مطاع . ولما فتحوا أعينهم الى بلادهم وجدوا أن المسلمين أجهل الخلق فى الصين على الاطلاق وكل علمهم راجع الى الطلاق والبيوع والحيض والنفاس وما أشبه ذلك . أما الوثنيون فقد ضربوا فى كل علم بسهم . قال فها أنا ذا مررت على بلاد جاوه والهند لأعرف كما طلبوا منى هل ديننا مجرّد من العلوم وقاصر على الفقه والعلم محرم على المسلم ولاينعم به إلا كل كافر بديننا . قال فلما مررت فى تلك البلاد لم أجد أثر العلم فوق ماهو معلوم بديارنا ولكن فى مصر وجدت حركة أخرى . وها أنا ذا ترجمت كتابك ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ وترجمت أيضا ﴿ تفسير الفاتحة ﴾ وسأرجع الى بلادى بذلك و بغيره من كتب العلماء بمصر . هذه أمثال ثلاثة تعرف بها كيف كان استهزاء علماء الدين فى أمة الاسلام بالعلوم فى زماننا وذلك بالمران والغفلة والسماع من الشيوخ الجاهلين والجاهل يكون تلميذه مثله

نتيجة

﴿ نتيجة الاستهزاء فى زمن النبى ﷺ وفى زماننا ﴾

أمّا نتيجة الاستهزاء فى زمن النبى ﷺ فهى واضحة فقد سماهم الله منافقين • ومعلوم أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار • أمّا عواقب الاستهزاء فى زماننا الحاضر • فاعلم أن عاقبة الاستهزاء بالشئ الانصراف عنه احتقارا واستكبارا • واذا كان الله يقول فى الكفار ـ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ـ

واذا كان سبحانه يقول ـ واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ـ فهذا وان كان فى الكفار فليس معناه أن يكون المسلم المنصرف عن العلم تكبرا واستهزاء واحتقارا قد انصرف عنه الذم والتقريع بل هو ملوم مذموم داخل فى العذاب الهون الذى ليس بمخلد ويلحقه شؤم عمله وذلك بطريق الاعتبار • واذا كان الله يقول فى الكافر ـ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء الخ ـ فهكذا المسلم القادر على العلم المحتقر له يلحقه الذم والتقريع بطريق الاعتبار وان كان موقنا مسلما • ولكن هذا رجل ناقص أوفاسق لأنه ترك فرض الكفاية أوفرض العين • فهؤلاء من أى دين ومن أىّ نحلة لاتفتح له طرق العلم التى لاتفتح أبواب السماء لهم الا بمفاتيحه

﴿ قاعدة ﴾

كلما زاد المستهزأ به كمالا يزيد المستهزئ وبالا • فاذا استهزأ عالم الدين الذى جهل علم الفلك وعلم النبات وغيرهما بمن يتعلم ذلك فانه لامحالة يقف فى موقفه ولا يتخطاه فيرى غيره سبقه الى تلك العلوم وأدركها

فكلما زاد غيره علما من العلوم زاد هو له احتقارا فيكون هو أكثر جهلا والذى كان موضع احتقاره أكثر علما • وهذا الاشارة بقوله تعالى ـ الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ـ فكما كان الصحابة يزدادون هدى بالآيات القرآنية كان الكفار يزدادون طغيانا بالكفر بها وجحودا • هكذا هؤلاء الناقصون فى العلم فى الاسلام كلما زاد غيرهم علما بجمال الله وآياته وعجائب سمواته وأرضه ازدادوا هم إثما وجهلا • ويرى بعض المسلمين بل السواد الأعظم منهم أن أهل أمريكا والصين واليابان وأوروبا والأمم الوثنية قد اغترفت من موارد رحمة ربهم وان كانوا منحرفين عن التعاليم الاسلامية وهم لايزالون مستهزئين بتلك العلوم محتقرين لها ظنا منهم أن الايمان يكفيهم والنسبة الى الرسول ﷺ وحدها تشفيهم بلا علم وفاتهم أن يقرؤا قوله تعالى ـ قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الخ ـ فالكفار ظنوا أنهم يحسنون صنعا فهم أخسرون أعمالا بكفرهم • هكذا المسلم اذا ترك أكثر الدين وظنّ أنه كامل فهو من الأخسرين أعمالا وان كان لايخلد فى النار لأنه يحسب أنه يحسن صنعا وهو غافل عن آيات ربه

الاستهزاء بالآيات المذكورة فى هذه السورة وضحت فى سورة ـ يس ـ والقرآن يفسر بعضه بعضا وعبر هناك بما هو أشدّ للاستهزاء وهو الحسرة إذ قال تعالى ـ ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن ـ ثم عدّد مايعتبرون به فذكر هلاك القرون الماضية • وذكر أن الأرض من آيات الله • وهكذا الحبّ والجنات من النخيل والأعناب والليل والنهار والشمس والقمر • وكذلك الحمل فى بطون الأمّهات أوحملهم فى سفن البحار وهكذا * فهذه مجامع الآيات المستهزإ بها وهى تشمل أكثر العلوم فهى عبارة عن العلوم الأرضية والعلوم السماوية • هذا هو الذى أخرجه الله فى معرض التحسر على عباده وهو آيات الله المذكورة هنا • فالمسلم وان كان لم يستهزئ بالرسول فقد أتى بأهمه وهو الجهل بهذه العلوم فالحسرة عليه كالحسرة على الكافر • وان كانت الحسرة على المؤمن لفسقه بالجهل اذا كان قادرا على العلم بجمال الله

وآياته وترك ذلك احتقارا له والحسرة على الكافر لأنه ترك الايمان والايمان رأس العلوم كلها

﴿ قاعدة ﴾

أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكابرهم . فما من رسول ولا نبى ولا عالم نافع إلا كان فى أول أمره موضع السخرية من عارفيه احتقارا لعلمه واستصغارا لشأنه ثم يظهر أمره ويعلو شأنه والمستهزئون فى غمرة ساهون ثم يموتون فلا تسمع لهم ركزا . وأكثر الناس استهزاء أقلهم علما وأحطهم شأنا . ولعل لذلك الاشارة بقوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن - وبقوله تعالى فى نوح - ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون الخ -

ومن أكبر العار والشنار على الأمم الاسلامية أنها تركت الصناعات التى ملأت الشرق والغرب استهزاء واحتقارا لشأنها . فأصحاب هذه الصناعات قد أحاطوا بنا من كل جانب . ولقد نشأت ببلاد الشرقية فى بلاد زراعية فلم أجد لأحد شرفا فى نظرهم فى قريتنا إلا أصحاب المزارع الواسعة . أما النجار والحداد وغيرهما فليس لهم احترام . مع ان أمريكا بلغ عدد الصناعات فيها (٧٠٠٠) صنعة

كل ذلك للعادة والالف والجهل والاستهزاء - بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه - . وملخص ماتقدم أن الاستهزاء لا يصدر إلا من نفوس ناقصة . وأن كثيرا من المسلمين يستهزئون بالعلم وبالصناعات وذلك كان من أهم أسباب الضعف والانحلال الذى عم الأمة . وليس يخرجها من مأزقها إلا تعميم التعليم وجعل التعليم الدينى بهيئة مشوقة فيها جمال العالم كله بحيث يحبها الأطفال فيرغبوا فى العلم شوقا ولا يرهبون ويضربون وليأخذ المتعلم من كل فن طرفا ولتوزع العلوم على مجموع الأمة وليكن رجال الدين جميعهم قادرين على حمل السلاح ليكون عندهم الشمم والاباء ويتعلموا علم الجندية . بل ليكن المسلمون جميعهم شجعانا مدربين وهم فى قراهم على الكفاح والجلاد . فهذا مجامع مايمنع الاستهزاء ويصرف الحسرة عليهم الى اغداق النعم لهم والحمد لله رب العالمين

﴿ آثار الاستهزاء فى بلاد الاسلام ﴾

مر فى بلاد الاسلام وسل عن الصناعات وقل لهم ان العالم قد ارتقى بالصناعات فلا تسمع إلا احتقارا

﴿ ايضاح أتم للاستهزاء بآيات الله ﴾

(ضرب مثل للاستهزاء بآيات الله . مواكب الله ومواكب الملوك والدول فى عصرنا)

(١) مواكب الملوك والدول هى الجيوش والسلاح تعرض على الجمهور

(٢) مواكب الله ﴿ ثلاثة صفوف ﴾

(ا) الشمس والقمر والنجوم (ب) الجبال والشجر والدواب (ج) المنطاد والطيارة والبريد البرقى (التلغراف الذى له سلك والذى لا سلك له)

﴿ شرح هذه المواكب وكيف يكون الاستهزاء بها والاعراض عنها ومانتيجة ذلك ﴾

(الكلام على مواكب الملوك والدول والاستهزاء بها وكيف يكون ذلك)

ان الله عز وجل أنزل القرآن وضرب الأمثال على أننا فى الأرض لانعقل المعانى الالهية الا بضرب الأمثال من أنفسنا كما قال تعالى - ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء الخ - أى ان الانسان اذا كان له عبيد فانه يأبى أن يشاركوه فى ملكه . هكذا ضرب مثلا لنوره بالمشكاة التى فيها المصباح الذى فى زجاجة الخ فها نحن أولاء نريد أن نعرف معنى الاستهزاء بضرب مثل مما نشاهد فى الدول الحاضرة لنعقل معنى الاستهزاء ونعمل بما نفهمه كما ضرب هو الأمثال فنشرح أولا كيف يكون الاستهزاء بالمواكب الدولية

لتقيس عليه الاستهزاء بالمواكب الالهية ليظهر لعلماء الاسلام فى الأرض أننا وقعنا فى هـذا الاستهزاء وان كنا به غـير عالمين • لقد جرت عادة الأمم الحاضرة أن تظهر عظمتها أمام الأمم المحكومة فتبعث الجيوش مدججة بالأسلحة وتأمر بمرورها فى الشوارع وفى الميادين العامّة فى عواصم البـلاد التى حكمتها أواحتلتها أوملكتها فتوقع الرعب والهيبة والاجلال والاعظام فى قلوب الرعايا فتحصـل النتيجة وهى الخضوع للأمّة الحاكمة • ولـكن فى عصرنا الحاضر لما تنوّرت العقول وأضاءت البصائر فـكرت بعض الأمم فى ذلك فقابلت تلك المواكب بالاعراض والاستهزاء • فانظر لما حصل فى الهند فى عصرنا الحاضر اذ أرسل الانجليز ولىّ العهد الى بلادهم فأعرضوا فى بعض العواصم وتولوا مدبرين وأقفلوا الحوانيت والبيوت كأنهم يقولون نحن لانأبه بولىّ عهدكم ولابجيوشكم • وهكذا فى ارلانده كانوا اذا أرسلوا فرقة وعرضوها بسلاحها أقفل القوم منازلهم وحوانيتهم وتركوا المرور فى ذلك الشارع الذى تمرّ فيه الجيوش • هكذا أمّتنا المصرية سنة ١٩١٩ م لما ثارت ثائرتها على الأمّة الانجليزية فانهم أرسلوا لجنة يرأسها عظيم منهم يسمى (ملنر) وهومن لوردائهم الفخام فقاطعه جميع أهل البلاد • وانما فعـل ذلك أبناء بلادى ذلك اتباعا لما يسمعون عن الأمم الأخرى العاقلة اذ يفعلون ذلك وهذه الأفعال تنتج نتائج • امّا تخفيف العبء عن المحكومين • وامّا ارسال المدافع لهـم واذلالهم • واذا عرفنا المثل الأوّل الذى يختص بأهـل الأرض فلنشرع فيما هو المقصود وهو الموكب الالهى والاعراض عنه فنقول

عرفت فى المثال الأوّل الذى ضربناه مثلا للاعراض عن مواكب الله تعالى وأن الاعراض والاستهزاء ليسا باللفظ وانما هو بالعمل • هذا هو الاستهزاء العـملى وهو أقوى وأشدّ وأسرع وأمضى من الاستهزاء اللفظى • فانظر مايقول الله فى الاستهزاء بمواكبـه • يقول الله فى سورة الجاثية ـ أفلم تـكن آياتى تتلى عليكم فاستـكبرتم ـ الى أن قال ـ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ـ الى قوله ـ ذلـكم بأنـكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتـكم الحياة الدنيا ـ الى قوله ـ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الـكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحـكيم ـ وقال فى سورة أخرى ـ وقد نزل عليكم فى الـكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها فلاتقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غـيره ـ وقال فى آية أخرى ـ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ـ

علم الله أن المسلمين سيغفلون عن آياته و يظنون أن النطق بالشـهادتين والاعتقاد بالله وأنبيائه كافيان لحفظ أمّة الاسلام فى الدنيا والدين • فـماذا فعل الله • هاهوذا أبرز لنا الصفين المذكورين فى مواكبه • صف الشمس والقمر والنجوم • وصف الجبال والشجر والدواب • هـذان الصفان معروضان لأنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها • عرضها الله علينا جميعا وخلق لنا الأسماع والأبصار ورأيناها بأعيننا ففعلنا مع هذه المواكب مافعله أهل ارلانده مع الجيوش الانجليزية وما فعله المصريون أهل بلادى معهم • وهكذا بعض أهل الهند • أرانا الله هـذه المواكب وهى ﴿ ستة أنواع ﴾ أربعـة منها نهارا وهى الشمس والجبال والشجر والدواب • واثنان منها ليلا وهى القمر والنجوم وقال لنا ـ ومن آياته الشمس والقمر ـ وقال ـ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتـكم وألوانكم ـ وهكذا وأفادنا أن هذه آياته كلها فالشمس آية والقمر آية والنجوم آية وهكذا • فهاهوذا عرضـها علينا فرأيناها بأبصارنا وأسمعنا بالآيات القرآنية أن هذه آياته • لماذا قال ذلك • ليسجل علينا أن الاستهزاء بها والاعراض عنها استهزاء بآياته فانطبق على أكثرنا قوله تعالى ـ وقد نزّل عليـكم فى الـكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها الخ ـ وقوله ـ ذلـكم بأنـكم اتخذتم آيات الله هزوا الخ ـ فهذه آيات الله بنص القرآن وهى مواكبه التى عرضها علينا • علم الله أن بعض الأمم ستقابل حكامها بالاعراض فيكون ذلك علامة على العصيان فأنزل

قوله تعالى ـ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهـم عن آياتها معرضون ـ فجعل مجرّد الاعراض كافيا لعقاب الكفار • وهاهوذا الاعراض عرفناه بأنفسنا في الأرض من الأمم المحكومة وترتب عليـه ماعرفه الناس أعرض المحكوم عن الحاكم وموكبه فأوجب الاعراض أثره • هكذا أعرض المسلم عن مواكب ربه فحصل أثره اعراضه في أحوال الحياة • قد عرفت آية الجاثية إذ يقول ـ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا ـ ثم أتبعها بذكر أنه له الحمد وأنه رب العالمين وأن كبرياءه في السموات والأرض • فاذا استهزأ الناس بآياته فهو متصف بوصفين • وصف الكبرياء والتعالى • ووصف التربية • هو المربى وهو المتكبر • فماذا يفعل المربى المتكبر المتعالى بمن يستهزئ به ممن رباهـم على موائد كرمه واحسانه وعرفت أنه حفظ السماء التي أعرضنا عنها وانما حفظها من ﴿ أمرين ﴾ ادراك أسرارها والعروج من أهـل الأرض اليها • فأما ادراك أسرارها فلم يعرف الناس منه الا النزر اليسير وأما العروج اليها فان الطيارات في وقتنا الحاضر ترتفع الى حدّ معين وأعظمها وأقواها لاتتجاوز حدّا محدودا ثم لاتقدر أن تتجاوزه • اذن السماء حفظت من صعودنا اليها ومن ادراكنا لأسرارها ولم يكن لنا منها الا أنها مواكب قد عرضت علينا فكنا عنها معرضين

حفظت السماء وحرست بالشهب وحرم على الناس أن يعرفوا الا ما وصـل اليهم • تكبر الله وتعالى وتعاظم وعلم أننا أعرضنا عن آياته فأرسـل لنا الصف الثالث من مواكبه وهو الطيارة والمنطاد والتلغراف • هذه مواكب غير طبيعية بل هي صناعية ألقاها الى العقل الانساني من وراء الحجب والأستار التي أسدلها على علوم السموات والأرض وأنزلها الينا مع كبريائه • فالكبرياء هي الصفة التي اقتضت حجب العلوم عنا ولاينزل علامنها الا بالجدّ والتعب والتشمير إذلم يعلم الناس الطيارة والمنطاد والبريد البرقي بقسميه الا بعد الجهد والنصب والتعب • انه متكبر وانه مرب • فلكبريائه حرس السموات وعلومها فمنعها • ولتربيته أعطانا منها ما اجتهدنا في البحث عنه • وسترى الكلام على الطيارة والمنطاد الخ في سورة النحل عنـد قوله ـ ويخلق مالاتعلمون ـ والكلام على الشمس والنجوم والشجر قد مرّ في سورة الأنعام وغيرها • وسيأتي الكلام على الجبال في سور كثيرة كسورة الغاشية وكسورة الرعد وغيرها

ها أنا ذا قد أوضحت لك بفضل الله كبرياء الله بأن حرس السماء وجعلها سقفا محفوظا وتربيته فانه يعطينا بعد التعب وكيفية الاستهزاء الفعلي الذي ظهر نظيره في الأرض • اذا علمت هـذا فاعلم أن الله لما عرض الصفين الأوّلين من المواكب وهي الشمس ومابعدها والجبال ومابعدها ونحن لانستيقظ بهما أردفهما بصف ثالث وهو الطيارة والمنطاد والبريد البرقي فأصبحنا نرى ثلاثة صفوف لا صفين • فالله عامل المسلم الآن معاملة الدولة القوية المتكبرة القاهرة إذ ترسل المدافع للمعرضين عن مواكبها • اننا بجهلنا بما في السموات والأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب قد عصـينا ربنا بالاعراض عن معرفة كماله وجماله وحكمه • وهذا نوع من الاستهزاء العملي بالاعراض وكفى به ذنبا ولاينفع المسلم مايتعلل به من أن الايمان كاف فان هذه حيلة العاجزين • ألم تسمع قول الله تعالى ـ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ـ فالايمان وحده ليس يكفي الأمّة الاسلامية ان الله فتننا وامتحننا بعرض السموات والأرض والجبال فأعرضنا فعرض علينا الطيارات فقربت منا بخلاف النجوم والشمس والقمر التي هي بعيدة عنا • يقول الله لنا أيها المسلمون ان آياتي العظيمة الكونية أعرضتم عنها فهلا تفهمون آياتي الصناعية التي قربت منكم تتلقون رصاصها وقنابل مدافعها وآثار ضربها • وأنا أقول • أيها المسلمون كفى استهزاء بآيات الله • يقرأ المسلم القرآن وهو عن العلم معرض • وينظر في مواكب الله وهو لايعقل • ويرى أمم الأرض اغترفت من أنهار أنعمه فلايبالي كأننا لم نخلق في هذه الأرض أوكأننا ميتون • هاأناذا أقول لكم (أخاطب قراء هذا التفسير لأنهم هم أصحابي الذين عليهم أعوّل في ايقاظ المسلمين • بهم تشرق شمسها ويضيء نهارها ويفلح جمهورها)

ان

إن الفقيه والأديب والعالم المسلم الذى يعيش و يموت وهو لايفرح ولايعقل ولايتفكر فيما ذكرناه كالمستهزىء وهو معرض عن آيات ربه بل هو ليس بعالم البتة هو جاهل وانما هو صاحب صناعة يعيش منها كالقضاء وكالتدريس • هل يرضى المؤمن أو العالم أن يتصف بأنه مستهزىء بآيات ربه • أيها المسلمون اقرؤا هذه العلوم ولتكن عامّة فى الأمّة كل بقدره والا فقد صدق علينا قوله تعالى ـ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ـ وصدق علينا قوله تعالى ـ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ـ ولامعنى للاعراض من أهل سبأ الا أنهم تركوا سدّ العرم ولم يصلحوه ولم يحافظوا على نظام البلاد وقوله ـ فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون ـ هذا هو الذى فهمته فى معنى قوله تعالى هنا فيما نحن بصدده من هذه السورة ـ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ـ اه

﴿ اللطيفة السابعة ـ كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة ـ الى قوله ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ ﴾

تقدّم الكلام عليها فى اللطيفة قبلها • وأزيد عليه • ان الله فى هذه السورة يقول للسلمين ماملخصه أنى أهلكت الأمم السابقة بظلمها وأنزلت عليها المصائب والخزى ببغيها فلاتظنوا أنكم باسم الاسلام ناجون ولاباتباع نبىّ بحسب الظاهر من العذاب خارجون • وكيف ينفعكم اسم الاسلام اذا غاب مسماه • ألم أقل لكم فى أوّل سورة الأعراف ـ كتاب أنزل اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين ـ فذكرت فى السورة هناك هلاك الأمم وخراب الدول من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وقوم شعيب • فكما ذكرت تلك الأمم هناك مخاطبا الكفار ذكرتها هنا مع زيادة ونقص فليكن الخطاب مع المسلمين الذين نافقوا ايذانا بأن اسم الاسلام لايمنع العذاب • وهاهوذا قد حقت كلمة العذاب اليوم على كثير من المسلمين لاعراضهم عن فضائل دينهم وهم نائمون فحقت عليهم كلمة العذاب

فتعجب كيف قدّم فى سورة الأعراف أنه أنذر الكفار بعذاب كعذاب هذه الأمم ثم جاء فى سورة التوبة وأوعد المسلمين أنفسهم أى المنافقين منهم بنفس ما أوعد به الكفار وقال هناك ـ وذكرى للمؤمنين ـ ولم يقل للسلمين • إن المسلمين ﴿ قسمان ﴾ منافقون أنذروا فى سورة التوبة • ومؤمنون ذكروا فى سورة الأعراف بما أصاب الكفار قبلهم • فالكفار منذرون • والمنافقون منذرون • والمؤمنون يذكرون • وكل بنى آدم فى الدنيا لحوادث الأيام متعرّضون

﴿ اللطيفة الثامنة ـ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ـ ﴾

قوله ـ ذلك ـ راجع لرضوان من الله • اعلم أن أحوال الانسان كلها ترجع الى مافى نفسه فلاجنة ولا نار ولالذات ولانعيم ولاحور ولاولدان ولاغيرها فى الدنيا ولافى الآخرة لا ألم لها ولالذة إلا اذا استعدّت نفسه لقبول ذلك فالنفس مركز الآلام ومهبط اللذات ومنبع النعيم ومقام الجحيم فمن وضع فى الجحيم أوالجنة وفقد الاحساس بما حوله بل هو فى غفلة عنه فلانعيم له ولاجحيم وكل نعيم وكل جحيم وكل لذة وكل ألم صادرة بارادة خالق العالم • فاذا أيقنت النفس أن لها بربها صلة وأنه راض عنها كان ذلك غاية الأمانى ونهاية السعادة لأن القلب محل السعادة والشقاوة • وهاهوذا قد أيقن بالرضا وأنه مقبول وأن العناية الالهية رمقته فهوذو صلة قلبية . وهناك يحسّ بلذة لانتصوّرها نحن فى الدنيا الابضرب مثل كأن ننظر الى من يتقرّبون من الملوك و يرضون عنهم كيف يحسون بسعادة • وكأن تنظر الى العاشق اذا علم أن معشوقه راض عنه لاصدود ولاهجر كيف يحسّ بلذة وسعادة لايشعر بها بقية الناس • فأما مقام الرضا من الله فهذه درجة يعرفها من صرفوا أعمارهم فى الاخلاص والذكر والفكر والعبادة مع الفضائل النفسية ـ ولكل درجات مما عملوا ـ وهؤلاء لايبالون بجنة ولايخافون من نار لأن رب البيت أشرف من البيت والنظر الى خالق الجنة أشرف وألذ من النظر الى الجنة • كما أن محادثة الملوك ومجالستهم ألذ وأشرف من التمتع بطعامهم وشرابهم عند ذوى النفوس

الشريفة والعقول المنيفة . هذا مايشير اليه قوله تعالى ـ ذلك هو الفوز العظيم ـ

﴿ اللطيفة التاسعة قوله تعالى ـ وهموا بما لم ينالوا ـ ﴾

قد تقدّم تفسيره * ويقال أيضا ان اثنى عشر رجلا من المنافقين هموا بقتل رسول الله ﷺ فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فارسل حذيفة لذلك * ويقال ان حذيفة لما سمع وقع أخفاف الابل وقعقعة السلاح قال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا * ويقال أيضا ان المنافقين قالوا اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبدالله ابن أبى بن سلول تاجا فلم ينالوا . أقول وكل ذلك محتمل والآية لاتمنع

﴿ اللطيفة العاشرة ـ قل نار جهنم أشدّ حرا لوكانوا يفقهون ـ ﴾

ياليت شعرى أين الفقه وأين كون نارجهنم أشدّ حرّا من حرّ الشمس على المسافرالى تبوك . فما للفقه ومالذلك . الانسان يتأذى من حرّ الشمس وهو مسافر ولاسيما اذا كانت الشقة بعيدة . فأين نار جهنم حتى ننظرها ونقول انها أشدّ حرا من هذه الحرارة الشمسية . هذا هو السؤال الذى يختلج فى العقول وان لم تنطق به الألسن

﴿ الجواب ﴾

اعلم أن الفقه لايذكر الا فى الامور الدقيقة وهذا المقام دقيق لايعقله الا المفكرون فان التوانى والتكاسل والتباطؤ عن الحرب داع الى اجتماع الأمم التى حول الكسالى عليها فيطؤن أرضها ويذيقونها العذاب الهون وأيضا قدّمنا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة أن الأمم التى لم تحركها عواصف الدهر ولم تهجها مصائب الزمان ولم تهذبها الحروب يحيق بها الهلاك . فاذا شئت أن توقظ أمّة فحرك فيها حركة الحرب والجهاد فانها تنشط من عقالها وتقوم من سباتها وتستيقظ من غفلتها . واذا رأيت أمّة هادئة ساكنة عاكفة على تقاليد عتيقة نائمة فاعلم أنها صائرة الى الزوال ولاتغرّنك ظواهرالأحوال . وقد قدّمنا خلاصة رسالة أرسطاطاليس الى الاسكندر فى هذا المعنى فلانعيدها . فاذا كان ترك الحرب فى الدنيا هكذا شأنه فما بالك بالآخرة وقدقال تعالى ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ـ ومن أصابهم الجهل والكسل فى الدنيا فانه يكون طبعهم الملازم فى الآخرة فيرسلون الى دار تليق بهم . وهذا هو عذاب النار . فهل هذه المعانى التى لاتعرف إلا بمزاولة العلوم يعرفها إلا كل فطن لبق فهيم . هذا هوالمراد بقوله ـ لوكانوا يفقهون ـ

﴿ اللطيفة الحادية عشر . والثانية عشر . والثالثة عشر ﴾

(فى قوله ـ وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون ـ وفى قوله ـ وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ـ)

(وفى قوله ـ سنعذبهم مرّتين ثم يردّون الى عذاب عظيم)

يقول فى المخلفين تارة ـ وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون ـ وتارة ـ وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ـ نفى عنهم الفقه مرة والعلم أخرى وحكم عليهم بأن قلوبهم منعت الحكمة بما طبع عليها فهى لاتعى مايرد لها من معقول ولامنقول . وهذا يكون الكلام فيه كالكلام فى الذى قبله سواء بسواء فان الكسالى عن الحرب تأخذهم صاعقة العذاب الهون ولعذاب الآخرة أشدّ (راجع اللطيفة المتقدّمة) وأماقوله تعالى ـ سنعذبهم مرّتين ثم يردّون الى عذاب عظيم ـ ولقد تقدّم أن العذاب ﴿ عذابان ﴾ عذاب الدنيا بالمصائب الكثيرة وعذاب القبر . والعذاب العظيم عذاب جهنم . واعلم أن الظلمة والقتلة والفتاك وجميع أرباب النفوس الشريرة لهم أنفس تطالبهم بالكمال وتهدّدهم وتذيقهم ألوان العذاب كما نص عليه سقراط فى جمهوريته إذ قال ﴿ ان أولئك الملوك الظالمين والناس من حولهم يئنون يحسون بألم فى نفوسهم على مقدار ما أجرموا جزاء وفاقا وحياتهم شقاء وويل ﴾ هذا معنى ماقاله سقراط . وأقول زد على ذلك فى هذا المقام

ان

أن هؤلاء ظلموا بترك الجهاد فيحسون بوخس فى ضمائرهم وانهم عالة على غيرهم ولا أحد فى الدنيا إلا وهو معذب بما فيها من المصائب فى الأموال والأولاد والصالحون والطالحون سواء . ولكن اذا كان للنفس مشرب دينى ومنهج أخلاقى احتسبت ثواب مافاتها من أهل أومال عند ربها وانقلب الحزن بالرضوان سعادة وأصبحت هموم الدنيا لاقيمة لها ويصبح الانسان كأنه ملك عند ربه وكأنه رضى عنه . فانه اذا رأى المال والولد والرزق والذكر الحسن والصيت وكل مايناله من خير وكل مايصيبه من شر من عند ربه وما فاته من الخير يعتقد أن له عوضا فى الآخرة وما أصابه من الشر يعتقد انه تكميل لنفسه فى الدنيا وثواب له فى الآخرة . فهذه الاعتقادات هى سبيل للرضا . وقد تقدم أن الرضوان هو الفوز العظيم . وهذه الدرجة قد حرم منها المنافق فهو أبدا مضطرب لفقد مال أوولد أوصديق ولايؤمن بالآخرة . فانظر كيف كان الفرق بين النعيم والعذاب فكرة المفكرين . فالجاهل معذب بالنعيم والعالم الحكيم سعيد على كل حال

﴿ اللطيفة الرابعة عشرة ﴾

وقد أخرت لطول الكلام عليها . اعلم أن الله ذكر أصنافا من المنافقين فنهم (١) المستأذنون فى التخلف ليكونوا مع القواعد وهم أغنياء (٢) ومنهم من يقول ائذن لى (٣) ومنهم من يلمزك فى الصدقات (٤) ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن (٥) ومنهم من عاهد الله الخ (٦) ومنهم الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين الخ (٧) ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما (٨) والذين اتخذوا مسجدا ضرارا (٩) وممن حولكم من الأعراب منافقون (١٠) ومن أهل المدينة الخ

فهذه عشرة أصناف أهم من ذكر من أهل النفاق فى هذه السورة والمهم فى هذا المقام قوله تعالى — ومنهم من عاهد الله — * روى أكثر المفسرين قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى على غير الوجه الذى ذكرناه أنه سأل رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالا فقال له رسول الله ﷺ ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ولما كرر ذلك قال له أمالك فى رسول الله أسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت فلم ينثن عن الطلب وعاهد الله أن يعطى كل ذى حق حقه فدعا الله رسوله فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فبعد أن كان يصلى الظهر والعصر مع النبى ﷺ تباعد عن المدينة لكثرة غنمه حتى صار لايصلى إلا الجمعة ثم صار لايشهد جمعة ولاجماعة ثم سأل عنه فأخبروه فقال ياويح ثعلبة . ولما نزلت آية الصدقة أرسل له النبى ﷺ عاملين للصدقة فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية ثم قال اذهبا حتى أرى رأيى فلما رآهما رسول الله ﷺ أخبرهما بالذى صنع ثعلبة بطريق الوحى فنزلت الآية — ومنهم من عاهد الله — الى قوله — بما كانوا يكذبون — فأخبر ثعلبة بذلك فجاء ومعه صدقته فلم يقبلها النبى ﷺ فجعل يحثو التراب على رأسه . ولما تولى أبو بكر لم يقبلها كذلك وكذلك عمر

ثم اعلم أن المقصود من هذه الآية أن نقض العهد ونحوه من اخلاف الوعود أمر عند الله عظيم جدا حتى أنه ورد فى الحديث ﴿ آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب . واذا وعد أخلف . واذا ائتمن خان ﴾ وعدها فى حديث آخر أربعة ﴿ اذا حدث كذب . واذا عاهد غدر . واذا وعد أخلف . واذا خاصم فجر ﴾ واعلم أن علماء المسلمين لم ينبهوا الأمة لمثل هذه الامور وتركوا الأمة تكذب وتخون وتخالف العهد ولم يشيعوا بينها هذه الانذارات والعظات كما أشاعوا نواقض الوضوء وشروط البيع وعدد الطلاق مع ان هذه المسائل أهم وأولى وأقرب الى أصول الدين من غيرها ويجب على العلماء أولا أن يتخلقوا بها ثم ليشيعوها بين الشعب

ومن كان فى شك مما قلت فليتأمل حال الأمة الاسلامية اليوم أولايرى أن تجارتهم بائرة وجماعاتهم متنافرة وأموالهم خاسرة . أليس اخلاف الوعد وكذب القول والغش فى البيع كل ذلك نفر بعضهم من بعض فضاعت الأمانة وصدق الفرنجة فصاروا هم القائمين بالأعمال ولم يزالوا هكذا حالا بعد حال حتى احتلوا البلاد

واستولوا على العباد واستعبدوا الناس فى عقر دورهم . ما هكذا يكون المؤمنون

إن اخلاف الوعد والكذب والخيانة جعلت الناس أشبه بالمنافقين حتى أصبحنا فى مصر نرى أن العامة لايعتبرون الصادق ذكيا بل يقولون انه غبى جهول . اللهم اصلح أحوال العلماء والأمة الاسلامية بالصدق والأمانة ــ إنك أنت السميع العليم ــ

ولتعلم أرشدك الله أن هذه الأخلاق التى فشت فى المسلمين اليوم وأوقعتهم فى براثن الفرنجة جاءت مصداقا لهذه السورة . ألاترى أنه تعالى قد أوعد المنافقين بتذكيرهم بقوم نوح وعاد وثمود الخ وهذه الأمم عذبت بألوان من العذاب وما ذلك الوعيد للمسلمين إلا على النفاق كما أوعد الكفار فى السور الأخرى . وهاهوذا يقول فى الحديث ان الكذب والخيانة ونقض العهود وما أشبه ذلك نفاق وأنت تعلم من الآية أن النفاق يضيع سلطان الأمم فيجعلها فى قبضة أخرى ويهلكها . وهذا هو عذاب المؤتفكات أى المنقلبات وهذا انقلاب للأمم من حال الى حال فتصبح فى ملك أعدائها وتستخدم كالدواب فبعد أن كانوا سادة أصبحوا عبيدا . فانظر كيف نص الحديث على أن الكاذبين الخائنين الغادرين منافقون . وانظر كيف أوعد الله المنافقين فى الآية بعذابهم وضياع دولهم وتمزيق شملهم ولم يعين نوع العذاب . وانظر كيف حصل الأمران فى أمة الاسلام نفاق كما فى الحديث وتمزيق الشمل كما فى الآية . وهذا هو القول الحق . ولهذا جاء القرآن وبهذا وأمثاله فليفهم المسلمون الدين فلترتعد الفرائص ولتتمزق الأفئدة وليتعظ العلماء وليصدقوا هم أولا فى كلامهم ولايخلفوا وعدهم ولايخونوا أحدا ولايفجروا فى الخاصمة ثم ليحملوا الأمة على ذلك وليبلغوها أمثال هذه المعانى التى هى حقائق ثابتة ومعجزات للقرآن واضحة حتى تلم الأمة شعثها وترجع مجدها وتروج تجارتها ويكون تجارها من الصادقين كما قال تعالى ــ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ــ ولما ترك بعض المسلمين الصدق بارت تجارتهم وذهبت ريحهم وقد أذن الله اليوم باسترداد مجدهم وتمكين أمرهم وصدقهم وسيكون فى هذه الأمة عاجلا من يرشدونها والله هو الولى الحميد . انتهى الكلام على القسم الثالث

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ * لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ
مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ
خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ
مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ * مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ
يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا
نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا
كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ
الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ
نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ * لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) تمثيل لاثابة الله لهم الجنة على بذل نفوسهم وأموالهم * ومرّ اعرابى برسول الله ﷺ وهو يقرؤها فقال بيع والله مربح لانقيله ولانستقيله فخرج الى الغزو واستشهد ثم استأنف لبيان مالأجله الشراء فقال (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون) ثم أكده فقال (وعدا عليه) فهومصدر مؤكد لما دلّ عليه الشراء (حقا) واجبا (فى التوراة والانجيل والقرآن) أى ان وعد الله للمجاهدين بالجنة مذكور فى الكتب السابقة من التوراة والانجيل كما هو مذكور فى القرآن

وقد علمت فيما تقدم أن الجهاد هو المرقى للانسانيـة كلها فهو معها يوم أن وجدت على الأرض (ومن أوفى بعهده من الله) تقريراً لكونه حقا (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى افرحوا به غاية الفرح فانه أوجب لكم النعيم المقيم (وذلك هو الفوز العظيم) من أهـل الجنة (التائبون) عن الكفر وعن المعاصى فتحزن قلوبهم على المعاصى ويندمون ويعزمون على الترك ويكون لهم على ذلك رضوان الله لامدح الناس وذمهم فهذه شروط أربعة لتوبة العاصى (العابدون) الذين عبـدوا مخلصين (الحامدون) لنعمائه ولما نابهم من السراء والضراء (السائحون) (١) الصائمون لأن الصيام عائق عن الشهوات وأيضا من الصائمين من وصلوا فى رياضتهم الى الاطلاع على خفايا الحقائق (٢) والسائحون للجهاد (٣) والسائحون لطلب العلم . وأعلاهم الثالث وأوسطهم الثانى وأقلهم الأول فهؤلاء كلهم سائحون (الراكعون الساجدون) فى الصلاة (الآمرون بالمعروف) بالايمان والطاعة وحفظ الأمة ونشر العلم (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصى (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه وهذا مجمل الفضائل والسبعة قبله مفصل . ثم ان عادة العرب أنهم بعد السبعة يأتون بواو ويقولون انها واو الثمانية ولذلك قال ـ والحافظون ـ ولم يقل الحافظون (وبشر المؤمنين) المتصفين بهذه الصفات * يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب لما حضره الوفاة قل كلمة أحاج لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه فنزل ـ إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ـ وكان ذلك فى مكة ولازال يستغفر لأبى طالب حتى نزلت هذه الآية فى المدينة مع السورة وهى (ما كان للنبى والذين آمنوا) معه (أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى ماجاز لمحمد والذين آمنوا به أن يدعوا للمشركين ولوكانوا ذوى رحمهم من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك . أما الأحياء فالاستغفار لهم جائز ليطلب به توفيقهم للايمان * وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ قال له ﷺ ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذم أفلا نستغفر لهم فقال النبى ﷺ بلى والله لأستغفرن لأبى كما استغفر ابراهيم لأبيه فأنزل الله هـذه الآية ـ ما كان للنبى والذين آمنوا الخ ـ ثم عـذر الله ابراهيم فقال تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) وعدها ابراهيم أباه بقوله ـ لأستغفرن لك ـ أى لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للايمان (فلما تبين له أنه عدوّ لله) بأن مات على الكفر أو أوحى اليه بأنه لايؤمن (تبرأ منه) قطع استغفاره (إن ابراهيم لأوّاه) لكثير التأوّه وهذا كناية عن كثرة ترحمه ورقة قلبه (حليم) صبور على الأذى وهذه الجملة لبيان ماحمله على الاستغفار . وقد خاف جماعة من المؤمنين أن يكون استغفارهم قبـل المنع معصية فأنزل الله (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهـم) للاسلام يسميهم ضلالا ويؤاخذهم مؤاخذة الضالين (حتى يبين لهم مايتقون) أى حتى يبين لهـم خطر مايجب اتقاؤه سواء كان ذلك فى الاستغفار للمشركين قبل المنع أم فى شرب الخمر قبل العلم بتحريمها من قوم بعدت ديارهم عن النبى ﷺ أم فى التوجه لبيت المقدس وقد حوّل الى الكعبة والقوم لايعلمون لبعد الديار فكل ذلك قد ذكر فى سبب هذه الآية . فالمراد كما قال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايأتون ومايذرون (إن الله بكل شئ عليم) من المنسوخ والناسخ وماخالط نفوسكم من الخوف عند مانهاكم عن الاستغفار للمشركين ومايبين لكم من الأوامر والنواهى (إن الله له ملك السموات والأرض) ملك السموات كالشمس والقمر والنجوم . وملك الأرض كالشجر والدواب والجبال والبحار (يحيى) للبعث (ويميت) فى الدنيا (ومالكم من دون الله) من دون عذاب الله (من ولىّ) قريب ينفعكم (ولانصير) مانع . ولما كان ماتقدم يقتضى البراءة من ذوى القربى اذا كانوا مشركين بين الله بهذه الآية أن الله هو مالك الخزائن كلها فلتتوجهوا اليه وهو الناصر وحده (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) وهذا كقوله ـ وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون ـ يأمر الله جميع الناس

ان

أن يسعوا للارتقاء فى الدرجات فكما ينتظم حالهم من صبا الى شباب الى كهولة الى هرم الى موت هكذا يجب أن يترقوا فى أحوالهم المعنوية من كمال الى أكمل منه • وكل من كان فى درجة من درجات الكمال يشرئب الى ماهو أعلى منها • ومادام فى الدرجة الدنيا فانه مطالب بالرقى الى ماهو أعلى فيكون الارتقاء عن المرتبة الدنيا الى العليا توبة من النقيصة واعتناق للكمال • وهذه هى التوبة المذكورة فى هذه الآية وهى المرادة بقوله ـ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ـ وهذا معنى توبة الله على النبىّ والمهاجرين والأنصار (الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى فى وقت الشدّة فهم جميعا ينتقلون من حال الى حال أكمل وهذه الشدّة والعسرة كانت من الزاد ومن الحرّ ومن العدوّ ومن بعد الطريق فكان ذلك كله ضيقا وشدّة وغزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيها كان يسمى جيش العسرة فكان منهم عشرة يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم لاك التمرة حتى يجد طعمها ثم يشرب عليها جرعة ماء وهكذا صاحبه حتى تأتى على آخرهم ولايبقى من التمرة إلا النواة (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) عن الثبات على الايمان أوعن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه وفى ـ كاد ـ ضمير الشأن والجلة بعده فى موضع النصب • وقرأ حمزة وحفص ـ يزيغ ـ (ثم تاب عليهم) كرره للتأكيد (إنه بهم رؤف رحيم * وعلى الثلاثة) أى وتاب على الثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأوائل أسمائهم مضبوطة بلفظ ﴿مكة﴾ وآخرها بلفظ ﴿عكة﴾ ثم قال (الذين خلفوا) تخلفوا عن غزوة تبوك وهم المذكورون فى قوله تعالى ـ وآخرون مرجون لأمر الله ـ فيما تقدّم (حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى برحبها أى مع سعتها كأنهم لشدّة حيرتهم وفرط قلقهم لايجدون ملجأ يلجؤن اليه فمثل ذلك بأن الأرض الواسعة الأرجاء البعيدة الأطراف لاتسعهم * وللنابغة فيما يقرب من هذا

فانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت أن المنتأى عنك واسع

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم لايسعها أنس ولاسرور من فرط الوحشة والغم (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه) وعلموا أن لاملجأ من سخط الله إلا الى استغفاره • وقد كان النبى ﷺ منع أصحابه أن يكلموا هؤلاء الثلاثة ولبثوا على ذلك خمسين ليلة • ولقد زادت الشدّة عليهم أن أمروا أن يعتزلوا نساءهم بعد أن مضى أربعون يوما من الخمسين • وكان أحدهم يطوف السوق والمساجد فلا يكلمه أحد • قال كعب بن مالك آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا • ومن حديث كعب بن مالك أيضا أنه قال جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون الى رسول الله ﷺ ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم على نياتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى حتى جئت فسلمت فتبسم تبسم المغضب وصدقت رسول الله ﷺ وقلت والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت • وفى الحديث طول قد ذكرت مايهم منه وقوله تعالى (ثم تاب عليهم) بالتوفيق للتوبة (ليتوبوا) ليكونوا من جملة التوابين (إن الله هو التوّاب) لمن تاب وان عاد فى اليوم مائة مرة (الرحيم) المتفضل عليه بالنعم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فيما لايرضاه (وكونوا مع الصادقين) فى ايمانهم وعهودهم وفى دين الله نية وقولا وعملا والمراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة وأمثالهم ممن صدقوا فى نياتهم واستقامت قلوبهم ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة • ومن ألطف ما يكون أن أبا بكر يوم السقيفة • إذ قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير • قال يامعشر الأنصار يقول الله ـ للفقراء المهاجرين ـ الى قوله ـ أولئك هم الصادقون ـ من هم قالت الأنصار أنتم فقال أبو بكر ان الله تعالى يقول ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ـ فأمركم أن تكونوا

معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء (ما كان لأهل المدينة) أى لساكنى المدينة من المهاجرين والأنصار (ومن حولهم من الأعراب) أى سكان البوادى من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وغيرهم (أن يتخلفوا عن رسول الله) يعنى اذا غزا أى ليس لهم ذلك (ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى ولايرغبوا بأنفسهم أن تصيبهم الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله فى مشقة السفر ومقاساة التعب * و بعبارة أخصر ولا يكونوا على أنفسهم أشفق من نفس النبى ﷺ * ويقال ولايرغبوا بصحبة أنفسهم عن صحبة النبى ﷺ فى الجهاد * روى أن أبا خيثمة بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ فى الضح والريح ماهذا بخير فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله ﷺ طرفه الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكان هو ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له (ذلك) الخروج ووجوب المتابعة (بأنهم) بسبب أنهم (لايصيبهم ظمأ) شئ من العطش (ولانصب) تعب (ولامخمصة) مجاعة (فى سبيل الله ولايطؤن موطئا) ولا يدوسون مكانا (يغيظ الكفار) يغضبهم وطؤه (ولاينالون من عدو نيلا) كالقتل والأسر والنهب (إلا كتب لهم به عمل صالح) إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المتابعة (إن الله لايضيع أجر المحسنين) على احسانهم تنبيه على أن الجهاد احسان لأنه تكميل للكفار وصيانة للمسلمين عن استيلاء الكفار وهذه الجملة تعليل لقوله ـ كتب ـ (ولاينفقون) فى سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) أى تمرة فما دونها أو أكثر منها (ولايقطعون واديا) أى ولايجاوزون فى سيرهم واديا (إلا كتب لهم به) إلا أثبت لهم ذلك (ليجزيهم الله) بذلك (أحسن ما كانوا يعملون) أى يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق مادونه به اكثارا لأجرهم وتوفيرا لثوابهم واسعادا لهم . واعلم أن هذه الآية قد حتمت على جميع الناس أن ينفروا للقتال و يتركوا الأعمال الأخرى فاذا جمعت الجموع ورفعت البنود واصطف العسكر للجهاد وجب على جميع المسلمين السفر معهم وهذا أمر يوجب ضياع المدن لأن الناس اذا غزوا جميعا فمن لمدارسهم وطرقهم وزرعهم وتجاراتهم لذلك أعقبه بما يفيد أن أعمال الأمة يجب أن توزع على الأمة وعلى كل مايناسبه . فالعلماء يعلمون . والخطباء يعظون والحكماء يؤلفون . والزراع يزرعون . والسواس يفكرون . وهكذا كما قدمناه مرارا فى التفسير وكما أوضحته فى أواخر سورة البقرة . وقد قلنا مرارا ان الجهاد أمر دائم فالناس اذا رجعوا من الغزو فالحياة كلها جهاد . بل ان الجهاد بالحجة أبلغ من الجهاد بالسيف . والتفقه فى الدين هو الجهاد الأكبر فاذا سمعت الله فى هذه الآيات يقول ولايفعلون كذا وكذا إلا كتب لهم كذا وكذا فاعلم أنك الآن وأنت تقرأ هذا التفسير وفى غد وأنت تنظر فى أمر الأمة وتنظم شؤنها وتربى أبناءها وتنصح جماعاتها . فى عمل من هذه الأعمال بل هو الجهاد الأكبر . وكيف لا يكون أكبر وهو اللب . ومن عجب أن الجمعيات المسيحية تعتمد فى نشر دينها على التعليم وفتح المدارس فكأنهم عملوا بما قاله علماؤنا من أن تعليم العلم هو الجهاد الأكبر وهو المقصود الأعظم . أنظر كيف يقول الله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أوطلب علم كما لايستقيم لهم أن يقعدوا جميعا فان ذلك يخل بأمر المعاش ولتوزع الأعمال عليهم كما أوضحناه فى قوله تعالى ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل مصر أوقرية جماعة قليلة (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا ويتجشموا مشاق تحصيل الفقه (ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) أى وليجعلوا غاية سبيلهم ومعظم قصدهم من تحصيل الفقه أن يرشدوا قومهم ينذروهم لا انهم يترفعون على الناس و يتبسطون فى البلاد (لعلهم يحذرون) ارادة أن يحذروا عما ينذرون . وانما خص الفقه بالذكر لأنه أهم . وهناك

وجه آخر وهو أن الآية من بقية أحكام الجهاد . وذلك أن هذه الآيات لما فضح المنافقون فيها و بعث رسول الله ﷺ السرايا نفر الناس كلهم للغزو ولم يتخلف أحد فنزلت هذه الآية وهى تقتضى أن ينقسم المسلمون ﴿ قسمين ﴾ قسم يكون مع النبى ﷺ يسمع مايتجدد من الوحى . وقسم يسافر للجهاد فاذا رجع الغزاة أخبرت الطائفة القاعدة من رجعوا بما سمعوا من الحديث والقرآن والأحكام الشرعية ويصير معنى الآية فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد أى وقعدت طائفة ليتفقهوا أى القاعدون فى الدين ولينذروا قومهم المجاهدين اذا رجعوا اليهم أى الى القاعدين لعلهم أى لعل أولئك الراجعين يحذرون مخالفة أمر الله . وهذا واضح وليس فى مرجع هذه الضمائر منافاة للفصاحة لأن المقام يفهم المقصود منها . واعلم أن التفسيرين يرجعان لغرض واحد فالمقصود توزيع الأعمال بين الناس . وقدكان أهم عمل بعد الغزو تلقى العلم عن النبى ﷺ فأما اليوم فالأمر جدير بالعناية لجميع العلوم واجبة وقراءتها وفهمها من فروض الكفايات سواء أكان ذلك العلم فقها أم حديثا أم تفسيرا أم هندسة أم طبا أم علم المعادن أم الطبيعة أم الفلك أم صناعة الحرب أم بناء السفن أم الكهرباء أم علم المرائى . كل ذلك لابد منه لقيام أمر الأمة . وهذه الآية واضحة ذكرت بعد الجهاد ليعرف المسلمون أمر دينهم . فكل المسلمين يجب أن يكونوا فى جهاد ليلا ونهارا بل النوم نفسه جهاد لأنا به تقوى أجسامنا على العمل والطعام والشراب والرياضة البدنية . كل ذلك متى قصدنا أنه مقوم لصحتنا نافع فى قيامنا بأعمالنا كان جهادا . فعلى المسلمين جميعا أن تكون أوقاتهم كلها عملا وعلما

وحرام عليهم أن يتركوا فنا أوعلما أوصناعة وكل ذلك جهاد فقد اتضح أن توجيه المدفع والبندقية والديناميت لصفوف العدو ليس هو كالجهاد بل أفضل من هذا اقامة الحجج وابانة السبل وايضاح الحقائق ولقد سمى ذلك علماؤنا الجهاد الأكبر كما قال رسول الله ﷺ ﴿ رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس ﴾ فتأمل وتعجب كيف نام العلماء فى سائر الأقطار عن مثل هذه الآيات ولم يوضحوها للعامة والخاصة ولم يفهموا الأمة أن الأعمال العلمية والعملية جهاد . واذا كان المسلمون فى القرون الأخيرة لايصدقون إلا بكلام العلماء السابقين فأنا أقول لقد أقاموا الحجة و بينوا فى كتبهم ذلك فليس للمتأخرين عذر . ولقد قال القدامى بفصيح العبارة ان تعلم العلم والتفقه فى الدين هو الجهاد الأكبر . وقالوا أيضا انه فرض كفاية وهكذا بقية العلوم والصناعات . فكيف نام الوعاظ والعلماء عن ايقاظ الأمة واشاعة هذه الأقوال وتنبيه النفوس واثارة الحمية فى القلوب وابلاغ الناس وعد الله وثوابه وتفهيمهم أن الحياة كلها جهاد حتى اذا مات الانسان أحس براحة ونعمة بعد ماقاسى من المشاق . وانى أطلب منك أيها الذكى القارىء لهذا الكتاب أن تدل الأمة على هذه المقاصد وتوصى الناس بها وأقسم لك بالفجر والشمس والضحى ــ والعصر * انّ الانسان لفى خسر ــ لأنه يظنّ أنه يعيش كالحيوان يطلب أنثاه و يلد ثم يموت ــ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ــ فارتقوا عن تلك الطبقات وعرفوا أن الانسانية لها مطالب سامية وسعوا فى الأعمال النظامية العامة ــ وتواصوا بالحق ــ ولم يبالوا بما يصيبهم فى سبيله ــ وتواصوا بالصبر ــ على الأذى . فكن أنت من هؤلاء فالأمر عظيم ثم قال (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) اعلم أنه كما أمر رسول الله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقر بين أمر أن يغزو الأقرب فالأقرب من الأمم فقاتل ﷺ أوّلا قومه فسائر العرب فأهل الكتاب من بنى قريظة والنضير وخيبر وفدك . وغزا الروم فى الشام ثم فتح الصحابة الشام فالعراق ثم سائر الأمصار (وليجدوا فيكم غلظة) شدّة وقوّة وشجاعة وصبرا على الجهاد (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصر ثم ذكر المنافقين فقال (واذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا) أى تصديقا ويقينا وقربة من الله أى اذا أنزلت سورة من سور القرآن يقول بعض المنافقين لبعض ذلك القول استهزاء فأجابهم الله بأن الذين آمنوا تزيدهم هذه السورة المنزلة ايمانا لأن الآيات المتجدّدة تزيد المؤمن ايمانا . وأما الكافر

فانه بها يزيد كفرا لأن عدد ما كفر به قد زاد كما زاد عدد ما آمن به المؤمن وهـذا قوله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) تصديقا (وهم يستبشرون) يفرحون بنزول القرآن شيأ فشيأ (وأما الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق (فزادتهم) سورة من القرآن (رجسا الى رجسهم) شكا وكفرا الى شكهم وكفرهم لأن الخبائث يتبع بعضـها بعضا والشك يستتبع الشك . والقلوب اذا خلت من الحكمة وابتليت بالجهالة وأحاط بها سوء الظن وأقلق مضاجعها جهل الحقائق والوساوس فأصبحت فى شك من الليل مظلم زادها مايرد عليها من المسائل جهالة وظلمة خلك ليلها وأظلمت سبلها . وما مثل الشك والحيرة والاضطراب إلا كمثل المرض يزداد سوأ بتطاول الزمن ويتشعب ويقوى وينمو كما ينمو النبات والحيوان . فهذا تفسير قوله تعالى ـ فزادتهم رجسا الى رجسهم ـ كما فى قوله فى سورة البقرة ـ فى قلوبهم مرض ـ أى شك ونفاق ـ فزادهم الله مرضا ـ على قاعدة النمو والتشعب واستفحال الداء وتفاقم الأمر . فالشك والحيرة يكونان فى أول الأمر بذرا ثم ينبت فى القلب ثم يثمر كفرا عظيما فاستحكم (وماتوا وهم كافرون) ثم أبان ذلك وأوضحه بأنهم فى كل عام يغزون مع النبى ﷺ ويعاينون مايظهر عليه من الآيات ومع ذلك لايتوبون لأن النفاق استحكم فى قلوبهـم والمرض غشى على أفئدتهم فلا تصلح قلوبهم للايمان وهذا كالدليل على ماقبله وهذا قوله تعالى (أولا يرون أنهم) أى المنافقين (يفتنون) يبتلون ويختبرون بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون مايظهر عليه من الآيات (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) لايتوبون من نفاقهم ولا يعتبرون (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) تغامزا بالعيون انكارا لها وسخرية (هـل يراكم من أحد) ان قمتم من حضرة الرسول فان لم يرهم أحد قاموا وان رآهم أحد أقاموا (ثم انصرفوا) عن الايمان بتلك السورة لما تقدم من المرض الذى نما فأثمر هـذا الانكار فزادهم الانزال كفرا وهـذا كله ايضاح وتفصيل لزيادة المرض فى قلوبهم ثم دعا عليهم فقال (صرف الله قلوبهم) أى أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بأنهم) أى بسبب أنهـم (قوم لايفقهون) أى لسوء فهمهم وعدم تدبرهم . ثم أخذ يبين عدم تفقههم وبلادتهم فقال كيف تعرضون عن رسول منكم أيها العرب جاء لهدايتكم وسعادتكم وسعى لجمع كلمتكم وهو رحيم بالمؤمنين . وان من أعرض عن هديه فقد أعرض عن سعادة نفسه . ومن أعرض عن سعادة نفسه فقد كره نفسه وجمع فى نفسه ﴿خصلتين﴾ يحب نفسه طبعا وهو قد كرهها بالبرهان فهو كاره محب فى آن واحد وهذا أعظم البلادة فأين الفقه فهذا هو تقرير ـ انهم قوم لايفقهون ـ ولو فقهوا لأدركوا أن اجتماع كلمة العرب تخيف الأمم حولهـم فيحصل لهم عز الدنيا الذى هم به مغرمون وهو كظل لعز الايمان والدين فهو وان جاء للايمان بالله والتقوى أصالة فقد جاء بعز الدنيا تبعا كما ظهر حالا فى تلك الأيام وهذا قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) من جنسكم عربى مثلكم (عزيز عليه ماعنتم) أى شديد شاق عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه وذلك المكروه انما يكون بترك الجهاد والأعمال النافعة والعلوم والفقه فلذلك طلب منكم الجهاد (حريص عليكم) على ايمانكم وايصال الخير لكم وهدايتكم وصلاح شأنكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) والرأفة وان كانت أشد من الرحمة قدمت محافظة على الفاصلة (فان تولوا) عن الايمان بك (فقل حسبى الله) فانه يكفيك شرهم ويعينك عليهم ثم استدل عليه بقوله (لا إله إلا هو عليه توكلت) فلا أرجو الا هو ولا أخاف إلا منه (وهو رب العرش العظيم) الملك العظيم * وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن آخر ما نزل هاتان الآيتان

﴿ لطيفة ﴾

قد كنت كتبت عدة مقالات خطابا للمسلمين فى الجرائد وفيها ما يناسب قوله تعالى ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ـ فهاهى ذه المقالة السابعة

قد ثبت فى المقالة السابقة أن فرض الكفاية ظاهر واضح من قوله تعالى - فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الخ - ونحن بحمد الله ذاكرون فى هذا المقام كيف كانت درجات العلماء السابقين فى البحث وانحطاط العلماء المتأخرين فى ديار الاسلام . وكيف قصرت عقول كثير منهم فهم لايعلمون . أقول لما وصلت الى هذا المقام . قال لى ذلك العالم صديقى . ان علماء الاسلام لم ينكروا فرض الكفاية وعمموه فى كل شئ . قلت لم ينكروه علما اجماليا ولكن عند العمل يسكتون عنه وقد كان المتقدمون مدققين باحثين مفكرين فأما الآخرون فانهم ناموا وعكفوا على القليل من العلوم كأنهم لايعلمون . قال فاذكر مسألة واحدة لتبين بها تقصير المتأخرين . قلت ألم تقرأ مذهب الامام الشافعى . قال بلى . قلت ألم تقرأ فى كلام الأئمة السابقين منهم وتبعهم اللاحقون فقد قالوا ان الانسان يجب عليه أن يغسل جزأ من العضد اذا غسل الذراع مع المرفق وعللوا ذلك بقولهم مالايتم الواجب إلا به فهو واجب فاذا كان المتقدمون عنوا أشدّ العناية بالدين . ولما سمعوا قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين - أقول لما سمعوا ذلك قالوا علينا أن نحتاط ونغسل جزأ من الساق وراء الكعبين وجزأ من العضد وراء المرفقين فانه لايتحقق تمام غسل المرفقين وغسل الكعبين إلا بغسل جزء مما فوقهما لأن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب

هذه مسألة يعرفها صغار الطلبة فى الأزهر والمعاهد الدينية . فياليت شعرى كيف يعرفون هذا ولا يفكرون فى أمر الجهاد . يا سبحان الله . أفليس الجهاد واجبا كما وجب الوضوء . فلماذا لم يتابع المتأخرون هذه المباحث بعناية أشدّ ويقولوا ان الجهاد لايتم إلا بالطرق الحديدية وبالزراعة التامّة وبالصناعات وبالأمانات وبالأخلاق وبنظام البلاد حتى تضارع وتفوق أهل أوروبا . فقال العالم الدينى صديقى . ان هذه الآراء مذكورة فى ثنايا الكتب . فقلت وهل هى أقلّ وجوبا من وجوب الوضوء . ان الوضوء فرض عين ووجوب هذه العلوم كلها فرض كفاية وفرض الكفاية اذا لم تقم به جماعة عذبت الأمّة كلها فى الدنيا والآخرة وفرض العين يعذب عليه تاركه وحده . ان فرض الكفاية هو القلعة والسياج الذى لا يكون فرض العين إلا بعد وجوده والا فكيف يصلى الناس أو يتوضؤن أو يحجون أو يزكون أو يصومون وبلادهم محتلة وحكوماتهم معتلة . ففروض الكفايات بتركها تخرب الأمم وتذل لغيرها ولاتستطيع القيام بالفرض العينى فاذا عرف كل طالب فى بلاد الاسلام أن غسل جزء من العضد وجزء من الساق وراء المرفقين ووراء الكعبين واجب . فلماذا لايعرف كل طالب أن العلوم التى فى أوروبا وفى أمريكا وفى اليابان وفى الصين يجب على المسلمين جميعا أن يعرف كل طائفة منهم قسما منها حتى يكون المسلمون كأهل أوروبا فى علومهم ومعارفهم ونظمهم . ولعمرى اذا عرف كل طالب وجوب غسل جزء من العضد وجزء من الساق احتياطا لدينه فبالأولى يجب عليه قبل كل شئ أن يعرف أن البلاد لاحياة لها والدين لا بقاء له إلا بدراسة جميع العلوم وتعميم القراءة والكتابة فى بلاد الاسلام . أقول ولقد أنذرت أمّة الاسلام بالقرآن وحذرتها وأوضحت لها طرق الواجبات . وانى أطالب كل مطلع على قولى هذا أن يفكر فيه وأن يقوم بنشره عند من يفقهون

ان الأمة الاسلامية لما تركت هذه العلوم لم تبشر بالنصر ولم تكن مهدية الى أقوم طريق ولم يكن كثير من هداتها رجالا من أولى الألباب . يقول الله تعالى - فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب - فاستماع القول واتباع أحسنه عام شامل لجميع العلوم والصناعات والأحوال . فقال انك اذا عممت هذه الآية هدمت الدين وخالفت المتقدمين والمتأخرين وكأنك بهذا تقول للمسلمين اذا استحسنتم أمرا فاتبعوه واتركوا دين الاسلام من الكتاب والسنة فأنت بفهمك هذا هدمت جميع الدين ولايرضى بهذا المسلمون . فقلت ان أحسن القول المذكور لايصادم الدين ولايخالفه

بل هو مايجب فيه لأن أحسن الأحوال هى التى يطلبها الدين . فقال لو استحسن رجل أن لا يصلى اذن يكون من أولى الألباب . فقلت له ليس هذا قولا حسنا وانما هو هوى وشهوة وغرض فكل صناعة أو زراعة أو علم وجدنا فيه خيرا فى حياتنا فلنتخذ أسهل الطرق لحوزه لنستخلص أجله ونقرأه ولنعمل به . فقال وكيف السبيل الى معرفة هذا القول الأحسن . فقلت ﴿لتشكل لجنة فى مكة وليرأسها عظيم من عظماء الاسلام﴾ فكما أن لدول أوروبا جمعية أمم فليكن لأمم الاسلام جمعية علم . وليكن فى هذه الجماعة من كل طائفة من المسلمين من الترك والهند والأفغان ومصر وسوريا الخ . وليكن فى هؤلاء متضلعون فى علوم فهذا فى الطب . وهذا فى العلوم الرياضية . وهذا فى العلوم الطبيعية . وهذا فى التاريخ الخ . وليكن فيهم عارفون بأهم اللغات . ثم ليدرسوا نظم الأمم الاوروبية والأمريكية ثم ليبحثوا عما عندهم من العلوم وليأخذوا منها أجل مافيها ومن الصناعات ثم لتنشر فى بلاد الاسلام . فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم ـ فبشر عبادى الذين يستمعون القول ـ فانهم استمعوا القول بلغات مختلفة ـ فيتبعون أحسنه ـ فلذلك وصفهم بأنه هداهم ووصفهم بأنهم أولو الألباب وانما كانوا أولى ألباب لأنهم استخلصوا لب الأشياء . ولاجرم أن اللب أحسن من القشر فانه هو المقصود . فاللب اذن أحسن من غيره فلذلك وصفهم بأنهم أولوا الألباب فهؤلاء بشرهم الله بالنصر وبالجنة و بالنعمة فى الدنيا والآخرة . فقال ذلك العالم صديقى لم يبق الا شئ واحد وهو هل عندك من دليل يؤيد أن المسلم يستخلص من كلام الكافرين و يتبع أحسن ما يقولون . ان المفسرين لم يقولوا ذلك فان أوسع قول عندهم يرجع الى أقوال علماء الاسلام . فأما أخذ الأحسن من قول الفرنجة وعلماء اليابان فهذا لايقبله المسلمون . قلت له قال الله تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ـ . فقال فهل أهل الذكر هم أهل أوروبا . فقلت له الذكر فى كل شئ بحسبه . فعلم الفقه عن الفقهاء . وعلم الحساب عن العلماء به ولو كانوا كافرين . وعلم الزراعة عن العلماء بها وهكذا . فقال لايزال المقال يحتاج الى دليل . قلت أفيكفيك عمل رسول الله ﷺ قال وماذا يكفينى اذن . قلت ألم تعلم أنه ﷺ والمدينة قد حاصرها الأحزاب من كفار مكة وغيرهم جاء له سلمان الفارسى وأخبره بأن الفرس كانوا يحفرون الخنادق حول مدنهم اذا هاجمهم العدو فلما سمع النبى ﷺ ذلك أمر بحفر الخندق ولم تكن العرب يوما ما تعرف الخندق ولاحفره . فهذا القول قاله سلمان الفارسى وهو مسلم ولكنه نقله عن أمم مجوسية يعبدون النار فلو كان الأخذ عن أوروبا وأمريكا غير حسن ولو كان اتباع الأحسن مما يوافق ديننا غير مرغوب فيه لكان ﷺ نهى سلمان الفارسى عن هذا وقال له ان هؤلاء كافرون فلانسمع قولهم ولانتبع طريقهم . ان رسول الله ﷺ استمع القول عن عباد النار وعن غيرهم فاتبع أحسنه فهناك طريقتان ﴿الأولى﴾ أن يقف الرجال حول المدينة ويدافعون عنها وهى طريقة العرب الجاهلة ﴿الثانية﴾ أن يحفروا خنادق وهى طريقة عباد النار فاتبع الأخيرة وهى أحسن القول فبشره الله و بشر أصحابه ونصرهم وأعزهم وهداهم وهؤلاء هم أولوا الألباب . أفلا يسع المسلمين ماوسع رسول الله ﷺ . أفما آن الأوان أن يتذكروا و يعتبروا . لقد شددت أيها الاستاذ فى قولك وسرنى منك ذلك التشديد تريد بذلك أن لايبقى لأحد من المسلمين مطعن فى القول ولاشبهة وانى أحمد الله عزوجل أن وفق لهذه الرسالة وأرشد الى مايجب على المسلمين فى مستقبل الأيام لحفظ كيانهم إذ لم يبق عذر لمعتذر . وحرام واثم عظيم على من قرأ هذه الآراء وأمثالها فلم يتناقش فيها ولم يفكر ولم ينشر مايماثلها ان كان قادرا بين جماعة المسلمين فى الأمم الاسلامية لاسيما الأمم العربية والله هو الولى الحميد

فهذه هى المقالة التى اخترتها من تلك المقالات فى هذا المقام . وهناك مقالات نشرتها فى الجرائد أيضا بمناسبة ماجاء فى الأخبار أن دولة (هولانده) قد حتمت على المسلمين من رعاياها أن لا يصلوا إلا برخصة فى

بعض الأوقات . وأيضا راقبت التعليم مراقبة شديدة فكتبت هذه المقالات الستة الآتية فى جرائدنا المصرية قبل أن يلغوا هذا الأمر . و بعد كتابتها جاءت الأخبار أنهم قد أرادوا محاسنة المسلمين . وهذه المقالات تو بيخ للمسلمين على ترك العلوم الذى أورث الذل المذكور . وهذا المقام هو المناسب لهذه الآية التى أوجبت فروض الكفايات

﴿ الاسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين ﴾

(المقالة الأولى)

فى شهر يونيو سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة الهولاندية قانونا فيه اثنا عشر فصلا تتضمن الشروط التى بمقتضاها يجوز مباشرة التعليم الاسلامى أهمها ما يأتى

(١) من أراد أن يباشر التعليم فى العلوم الاسلامية فعليه أن يرفع ذلك الى أمير البلد أوالوزير و يشرح له مقاصد التعليم

(٢) وأن يتخذ دفترا مخصوصا للتلاميذ وشرح أحوالهم ولايلقى عليهم شيأ إلا بعد مصادقة الحكومة عليه

(٣) ورجال الحكومة لهم أن يتفقدوا ذلك فى كل وقت لينظروا هل قال لهم شيأ غير ماصادقت عليه الحكومة المذكورة

(٤) ولرجال الحكومة أن يحضروا مجلس التعليم ويسألوا عما يشاؤن من الامور المتعلقة بمهمة التعليم ولهم أن يدخلوا متى شاؤا المدارس أوالأقسام الداخلية . واذا رأت الحكومة أن التعليم مخالف لما تقدم فلها أن توقف التعليم الى مدة سنتين

(٥) تسجن الحكومة ثمانية أيام على الأكثر أوتغرم ٢٥ روبية على الأكثر كل من ارتكب الأعمال الآتية (ا) من يعلم العلوم الاسلامية بغير اذن من الحكومة (ب) من يقدم للحكومة تعريفات كاذبة بشأن تعليمه (ج) من يتهاون فى املاء الدفتر المذكور

(٦) تسجن الحكومة شهرا على الأكثر أوتغرم ١٠٠ روبيه كل من ارتكب الأعمال الآتية

(ا) من يلقى التعاليم فى مدة ايقاف الحكومة اياها (ب) من يرتكب الأعمال المتقدمة أعلاه

هذا هو أهم مافى هذا القانون لخصته

هذه هى أحكام (هولانده) التى لاتبلغ عدّ الأصابع من الملايين فى أربعين مليونا من المسلمين . بماذا تعاملهم . لايصلون فى الصحراء الا برخصة . لايعلمون فروض الوضوء الا اذا سمعها الحاكم العام وأقرها لاينطقون فى منازلهم وفى مزارعهم الا بما يقرّ عليه الحاكم العام لأنه اذا حرم عليهم نفس الدين الا باذن فبالأحرى لايتمتعون بعلم البتة مادام فيه حياة للمجموع

ألا قاتل الله الجهالة العمياء . جهالة المسلمين . أيها المسلمون . اسمعوا . أتدرون لماذا حلّ بنا ماذكرناه . ذلك لغرور الأمراء والعلماء فى الأعصر الغابرة ورؤساء الدين جميعا . ان رؤساء الدين سواء أكانوا صوفية أم علماء فقه أم أمراء فى الأعصر الغابرة . كانوا يفهمون المسلمين أن ليس عليهم سوى مايقرؤنه لهم من العلوم ومايدرسون لهم من مقدّماتها خوفا من أن ينبغ الشبان ويظهر العلم فيمقتوا الجاهلين من رؤسائهم . وظلت الحال على هذا المنوال آمادا وآمادا حتى أصبح ذلك خلقا راسخا وسجية ثابتة وعادة متبعة . ومن خالف تلك العادة عدّ فاسقا أومبتدعا الخ

ولكم قام فى المسلمين قبلنا من دعاة للاصلاح أى تعميم العلوم كالعلامة ابن رشد بالغرب فحكموا عليه بالالحاد فمات شريدا وحيدا ونقل تلاميذه من اليهود علمه الى أوروبا فأيقظها من رقدتها فارتقت وأخرجت

من الأندلس المسلمين الذين كانوا لهم معادين . ولقد فعل قبل ذلك أهل الشرق بتعاليم الغزالى فأصبحوا بها جاهلين . لم يكن هذان العالمان وأمثالهما مارقين من الدين . كلا بل كانا يأمران بتعليم جميع العلوم الطبيعية والفلكية فأبى الرؤساء خيفة على رئاستهم فظلوا جاهلين

ذلك تاريخ اسلافنا فى العصور المتأخرة . جهل عميم . وغرور كبير . وذل مهين

أيها المسلمون . لم يكن الله ليعطيكم أرضه وأنتم بها جاهلون . ولا ليهبكم الأعضاء والحواس وأنتم عنها غافلون . إن الله لايعطى إلا لمن يشكر النعمة ولاشكر لمن غفل عن استعمالها

أيها المسلمون . أتظنون أن الله يلهم الأمم التعليم العام فى (هوالانده وسويسرا وأمريكا واليابان) ثم يبقى المسلمون جامدين عاكفين على الغرور . أيها المسلمون ليعم التعليم أبناءكم فى الحجاز . فى العراق . فى الشام . فى مصر . فى بلاد شمال افريقيا . فى بلاد جاوه

ليعم التعليم . أقول هذا واجب شرعا وجوبا كوجوب أركان الصلاة . وأقول فوق ذلك يجب تعليم الصناعات والعلوم التى أبرزها الله فى الأرض وألهمها للأمم . أقول يجب ذلك وجوبا شرعيا

سيقول قائل إن هذا الوجوب لم يرد فى كتاب ولاسنة . فأقول . كلا لقد أجمع علماء المذاهب أن الصناعات واجبة وجوبا كفائيا . ومعنى هذا أن كل صناعة يجب على المسلمين أن يقوم بها جماعة دون الباقين وتكون أعمالهم كافية للمسلمين فهذه الكتابة والقراءة احدى الصناعات . ولقد ظهر فى عصرنا الحاضر أن الأمم التى عمّ التعليم بها جميع الأفراد أرقى من غيرها . وأما الأمم الجاهلة فهى ذليلة حقيرة غبية جامدة . فاذن ان لم تعم القراءة والكتابة فى أمم الاسلام فهى فى خطر . فاذن لا كفاية لأمم الاسلام إلا بتعميم القراءة والكتابة . وهكذا يجب أن تخصص جماعة فى كل أمة كمصر لكل علم ولكل صناعة بحيث يكون أطباء الأسنان يكفون البلاد وأطباء العيون وأطباء الأجسام وهكذا الزراعة والتجارة والحدادة والكهرباء وما أشبه ذلك ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يجب أن يجدّ المسلمون فى جميع الصناعات والعلوم والا فالاثم عام على كل فرد . وانى أرفع صوتى لأمّة الاسلام مبينا لهم الحقيقة فلا فرق بين التبحر فى علم الفقه وعلم الطب وعلم الهندسة وجميع العلوم وجميع الصناعات فان لم يقم فى الأمّة من يغنيها عن الأجانب فيها فالأمة كلها مذنبة . ففى ترك أى صناعة يكون العقاب على المجموع . أما من ترك الصلاة فالعقاب عليه وحده أوعلى من رضى بتركه . هذا وساوضح هذا المقام فى المقال التالى

﴿ المقالة الثانية ﴾

(خطاب الى أمراء الاسلام المستقلين . ومن هم تحت سيادة الأجانب . والى جميع زعماء الاسلام وعظمائه)

إن الله أوجب علينا النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين . اننا معاشر المسلمين مقصرون جدّا فى أمور ديننا . ان العاكف على علم واحد أوعبادة واحدة أو ورد واحد أوما أشبه ذلك وظنّ أن هذا وحده فيه رضا الله فهو مغرور جهول

إن الله أنعم عليكم بأممكم و بأرضكم . وخلقكم وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات . فهل أعطاكم هذه المواهب لتنيموها . أومنحكم هذه الأرض لتعطلوها . كلا . ألم يقل الله ـ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ـ ألم يقل ـ وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمردائبين * وسخرلكم الليل والنهار ـ فهل خص الله هذه المنح بأمم غيرنا . أم نحن داخلون فى الخطاب . فوالله عار على أمّة الاسلام أن تكون أوّل الجاهلين بهذا الدين

ربما كان يغتفر بعض الجهل اذا كان المتقدّمون ساكتين عن هذا الموضوع مغفلين له ولكنهم أوجبوا جميع الصناعات . وأقلّ التفاتة تعرفنا قيمة الصناعات والعلوم اليوم . فياليت شعرى من هذا الذى أفهم المسلمين

ان

أن علوم الدين خاصة بالفقه ومقدماته . من ذا الذى قال به . ان من يقول ان الفقه وحده هو الواجب وبقية العلوم غير واجبة غير موجود فى أمة الاسلام إلا اذا كان لاقيمة لقوله . أيجمل فى دين الاسلام أن يكون المسلمون وحدهم هم المتقاعدون عن العلم . أيجوز هذا . أين دعاة الاصلاح . فوالله ليسألن الله كل عالم بقولى هذا ولايرفع صوته . وليسألن الله كل من عرفه . نعم ان كثيرا من الناس عن هذا غافلون وغفلتهم ناشئة من العادة والتقليد والا فالعلوم كلها والصناعات واجبة وجوبا كفائيا . اللهم لا كفاية إلا بتعميم القراءة والكتابة جميع أفراد الأمة بقدر الامكان . اللهم لا كفاية الا بنشر جميع العلوم من رياضية وطبيعية وفلكية وسياسية وصناعية . اللهم ان هذا صار معروفا عند الخاص والعام

فياعجبا لأمة الاسلام . تلك الأمة التى تخطت البحر الأبيض الى عدوة الأندلس وعلمت أوروبا ورجعت بخفى حنين خائبة اذ قدر لها قادة جهلاء فى تلك القرون وعلماء غافلون فأقعدوهم وأناموهم حتى ذهبوا طحين الرحى بمزق الاشلاء وهم خامدون . أيجمل هذا أيها المسلمون

أيها العلماء . أيها القادة لاعطر بعد عروس . ولامخبأ بعد بوس . قد حمّ الأمر واقترب الوعد الحقّ والأبصار شاخصة . وهل يجمل ذلكم بكم أيها المتعلمون . انى أذكر علماء الاسلام بقول الله تعالى ـ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ـ فهل لكم أن تبينوا للناس أن العلوم كلها واجبة وأن أرض الله يجب أن يعمرها عباده ويستخرجوا منافعها والا سلبها منهم وهم صاغرون . أيها الأمراء . أيها العلماء . أما آن لكم أن تتذكروا . أومارأيتم كيف أذل الله الأمم الجاهلة وحفظ العالمة

يا أمراء العرب . يا أبناء الأبطال . ألا أذكركم بمجدكم القديم . أنظروا فى التاريخ تجدوه ناطقا بأن آباءكم هم الذين قلبوا الكرة الأرضية فامتلأت علما بعد أن كانوا بالجهل قانعين وقدخلعنا عليهم ملابسنا العامية وأصبحنا منها مجرّدين . لعمرى لئن اختلف الشيعى والسنى والوهابى فى أمور فرعية فهل يختلفون فى التوحيد . وهل يختلفون فى العلوم . وهل يختلفون فى وجوب مايلزم الأمة من العلوم والصناعات

لحى الله الجهالة الخرقاء . لحى الله الجهالة التى أسدلت الحجاب على وجوه العلم ومعاهده الباسمات وحجبت ذلك الشعاع الباهر والحسن الناضر والجمال الساحر عن عيون العاقلين . لحى الله أياما قضت على بناة المجد أن يرزحوا تحت أثقال الرؤساء الجاهلين . أما والله لئن لم ينته الأمراء عن التقاعد وأهل الفطنة عن التغافل لتنزلن الصواعق على الغافلين ولتقطعن رؤس أينعت اذ حان قطوفها وليحقق الله وعيده فى المسلمين اذ قال ـ وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ـ

من الآن فصاعدا يجب أن يكون قوّاد هذه الأمة وأفرادها من المطلعين على سائر العلوم ومن المفكرين فالرئيس الصوفى أوالدينى أوالأمير اذا لم يكن ماما بالعلوم فان أتباعه غالبا على شاكلته ـ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوىّ عزيز ـ اهـ

﴿ المصلحون فى الاسلام اليوم ﴾

(المقالة الثالثة)

أكثر المصلحين من الأمم الاسلامية اليوم انما يوجهون وجوههم الى مقصد واحد وهو خلوص العقائد من الزيغ وطهارتها من الضلال . وتراهم يقصرون على ذلك هممهم وينصرفون اليه وكدهم قرونا وقرونا .

وما مثلهم فى ذلك إلا كمثل من أخذ يقول لابنه ﴿ اياك والسرقة والكذب والفسوق ثم عطله من جميع المكاسب ﴾ واعلم أن أحوال العقول الانسانية ﴿ ثلاث ﴾ اما أن تكون ملوّثة بالعقائد الزائغة كأرض الزراعة السبخة لاتنبت إلا مالانفع فيه من النبات . وامّا أن تكون طاهرة خالصة من الزيغ ولكنها معطلة كأرض

صالحة للزراعة وأهلها لايزرعون . وامّا أن تكون غنية بالعلوم مزدانة بالحكمة كأرض تنبت كل نبات وفاكهة ونخل ورمان

فاذا دأب المصلحون فى الاسلام على قولهم دعوا الزيغ والالحاد وطهروا العقائد ثم تركوا العقول خالية من العلم . بعيدة عن الحكمة . غافلة عما أبدعه الله فى الأرض والسموات . غير عالمة بما أحاط بها فى الشرق والغرب من الأحوال ضرب بينها و بين العلم بسور عظيم فانما مثلهم كمثل الفلاح الذى نقى أرضه وأصلحها وجعلها أهلا للزراعة ثم أخذ يفتخر بما صنع فهو لامحالة حاصد بعد ذلك زرع الندامة والخزى والتقهقر المبين هكذا دعاة الاسلام المصلحون اذا كان هذا دأبهم فليعلموا أن الأمر يخرج من أيديهم . وليعلموا أن وقت حساب الأمم قد آن وأن الله سبحانه قد أنزل القصاص فى الأرض ليطهرها من المقصرين

أيها الرؤساء والعلماء ورجال الصوفية اتقوا ربكم وحرضوا الأمّة على التعليم واعلموا أن عز الانسان بعز أمّته وذله بذلها . فكم من عقول دفنت . وكم من مواهب ذهبت ضحية الجهالة . وكم من قوى قيمة عظيمة ابدعها الله فى أبناء الفلاحين فى القرى والكفور ثم طاحت وضاعت وسال دمها على مذبح الجهالة والغفلة والتقصير . الله قسم القوى والقدر على عدد الناس ولم يذر قوّة صناعية أوقوّة علمية الا خلق لها فى كل أمة من هم أهل للبراعة فيها . وهل يستخرج تلك الكنوز الا التعليم

أيها المسلمون . أيها الأمراء فى الاسلام . أيها القادة أقول لكم قولا حقا مادام المسلمون يحتاجون الى ابرة أومفتاح أومدفع أومحراث أوأى شئ من الخارج وهم مقصرون فى صنعه فهم معذّبون يوم القيامة جميعا . والعذاب اليوم ظاهر فى الدنيا فان اذلال الأمم اذا نزل بها عم سائر أفرادها — ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى —

ايها المصلحون فى الاسلام بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين ولم يبق فى القوس منزع وحم الأمر فماذا أنتم فاعلون . أيسركم أن يكون فريق من المسلمين كالأمة العربية متجاورة البلاد متحدة اللغة والدين لا فاصل بينها الا الحدود الطبيعية تسرى متنافرة جاهلة لايعرف المراكشى منها السورى ولا العراقى منها المصرى بل هم مشتتو المشارب . مقطعو الأوصال . فلماذا هذا . أقول انهم لم يتعلموا والمتعلمون منهم تعليمهم غالبا أبتر وناقص . والا فبالله خبرونى كيف يكون ممالك تعدّ بالعشرات تدخل فى مملكة واحدة وهى الممالك المتحدة بأمريكا و بينهم من سائر الأجناس والأمم والأديان فيهم اليهودى والمسيحى والمسلم فيهم الألمانى والسورى والهندى واليابانى . فيهم من كل أمة وهم متحدون . أما أبناء الاسلام المتجاورون فلجهلهم ولقلة علمهم لم يعرف بعضهم بعضا . ألا ساء مايفعل الشرقيون . اجتمعت الممالك المتحدة بالعلم وافترق المسلمون بالجهل سوأ كانوا عربا أم غير عرب

أيها المسلمون . عمموا التعليم واجعلوه على أساس متين . فليكن التعليم الأولى عاما . ولتكن جماعات تختص بكل علم أوصناعة و بغير ذلك لاحياة ولاشرف ولاحرية ولاسعادة . ألم تقرؤا قول الله تعالى — إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم — فانظروا كيف قرن الله العلم والقلم بخلق الانسان فى أوّل سورة نزلت . أنظروا كيف يقول — هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون — فقد ذكر العلم ولم يذكر العلوم ليكون التعليم على حسب مايقتضيه الزمان

ان الله يسال العلماء والرؤساء والأغنياء فى مصر وفى سوريا وفى العراق وفى أفغانستان والترك عن مجموع الأمّة والله المستعان

﴿ الاسلام والاستعمار . المقالة الرابعة ﴾

(تهافت الآراء فى بلاد الشرق ولاسيما فى بعض البلاد الاسلامية)

ان العلم الناقص يؤدّى الى الاختلال والخبال و يضيع الأمم و يؤديها الى دار البوار . ان المتعلم الناقص

أضرّ على الأمة من الجهلاء الأغبياء . فالمتعلم الدينى والمتعلم المدرسى كلاهما اذا كانا ناقصى العلم ألدّ أعدائها وأقوى مخربيها فان أعينهم فى غطاء فهم ــ الأخسرون أعمالا * الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ــ يسيؤن حيث يحسنون . ويهدمون حيث يبنون . ويخرقون حيث يرقعون . ويقطعون حيث يصلون . ألا أحدّثك ﴿ حديثين ﴾ حديثا اتفق لى مع قاض عظيم ومؤلف كبير قد مضى الى ربه وذكره مشهور فى أقطارنا المصرية وغيرها وهو المتعلم المدرسى بالعلم العصرى . ثم أتبعه بحديث الامام الغزالى عن علماء الدين فى زمانه أيام عصر الدولة العباسية فى الأيام الخالية والقرون الماضية لتعلم الى أى حدّ يصل الجهل والضلال . والى أى مدى يصل الغرور بالجهال

﴿ حديثى مع ذلك القاضى الشهير ﴾

منذ بضع عشرة سنة عهد الىّ من قبيل وزير المعارف أن أطالع كتاب ﴿ الرسالة القشيرية ﴾ فى علم التصوّف مع عظيم من عظماء الفرنجة ليترجمه الى اللغة الفرنسية . والذى أمره بترجمة ذلك الكتاب أستاذه الألمانى المسمى (ماركس) فلما أخذنا فى فهم تلك الرسالة التى ألفها الاستاذ القشيرى الصوفى سنة ٣٥٠ ﻫ تقريبا وجعلها رسالة منه الى الصوفية فى بلاد الاسلام . قال لى ذلك الافرنجى يوما . انى أودّ أن أرى فلانا القاضى لشهرة اسمه فى بلادنا فأرسلت اليه فحضر له وكلمه بالفرنسية . ثم ان ذلك الافرنجى أخذ فى بعض أعماله فسألنى ذلك القاضى قائلا . أنت من دار العلوم . فقلت نعم . فقال هى مدرسة حسنة وقد خرج منها عظماء . فقلت نعم ولقد أفادت البلاد بالمدرسين والمفتشين ولكن بقى شئ . قال وماهو قلت ان أستاذنا المرحوم على مبارك باشا قال لنا انكم انتخبتم من الأزهر والأزهريون اذا قرؤا علوم أوروبا وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الاسلام وأينعت وأخذت زخرفها وازينت . ومادام العلم فى ناحية والدين فى ناحية فان بلاد الاسلام تبقى وحوشا يبابا وقاعا صفصفا وصعيدا جرزا تذروه الرياح . ذلك لأن هذه الأمة تعتقد بدينها وتتمسك به وهذا التمسك يوجب الضدّين ويحدث النقيضين فان عالم الدين ان كان جاهلا فهم له تابعون وان ارتقى فى العلم كانوا عالمين . فالأمّة الاسلامية اليوم لقلة العلم بهذه الدنيا ونظامها وجهل القائمين بارشادها واقعة فى براثن الاستعمار والاذلال . فاذا قام فريق من أهل العلم الدينى وكانوا على نور من ربهم فى العلوم العصرية اتبعتهم الأمّة وأسرعوا الى الرقى أكثر من جميع الأمم لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر فى العلوم وتحصيلها عظيم . فقال القاضى وماذا تقصد بذلك . قلت أقصد اننا معاشر المتخرجين من مدرسة دار العلوم قد وضعت فى أعناقنا هذه الأمانة وهى تطبيق العلم على الدين كما قاله أستاذنا المرحوم على مبارك باشا وهذا فرض كفاية علينا لأننا قرأنا الدين وقرأنا قسطا من العلوم المعروفة اليوم . فقال (وكنت أنا أعلم أنه ينكر جميع الديانات) أما أنا فانى أقول العلم شئ والدين شئ آخر . فقلت له ليكن ذلك فسرأنت بعلمك وعقلك ولأسرأنا بدينى فعلم أنت الناس الامور المعقولة وأنا لقلة علمى أعلمهم أشياء ليست من الدين وأدخلها عليهم وأنا الغالب لأن الناس يتبعونى وأقلهم هم الذين يعقلون . فأنا يتبعنى ٩ وأنت يتبعك واحد . ولاتزال الأمّة فى ارتباك الى ماشاء الله . فقال ان الخرافات الملصقة بالعقول تزيلها العلوم الرياضية والطبيعية . فقلت نعم ولكنى أقول انى لا أمكنهم من قراءتها وأقول لهم هذا كفر فيتبعنى الناس ويتركونك فسر بعقلك ولأسربما عندى وأنا الغالب . فقال وما الذى فى القرآن . أليس الذى فيه (الجوّجميل) يريد بذلك أن الذى فى القرآن انما هو التشويق للعلوم . فقلت نعم واذا ظهرت أمة وأريد رقيها وقيل لها أيتها الأمّة ان ربك يقول لك ﴿ الجوّجميل ﴾ فهذه الجملة يكفى أن تقود الأمّة متى كان هناك قوّاد . قال وكيف ذلك . قلت هذه الجملة تجعل كأنها عصا يساق بها الناس الى العلم ويجب أن تصقل وتوضع بين السماء والأرض ويقال انظروا جمال الجوّ بجمال النجوم وجمال الزهر ومن هنا يدور البحث

وتقرأ كل العلوم لأن العلوم كلها ترجع الى ما فوق الجو وما تحت الجو . ثم قلت من العجب العجيب أن أرباب الفكر فى الاسلام غاب عنهم أن أوروبا لما أرادت الارتقاء لم تقل نترك ديننا فأما نحن فاننا نريد تركه . قام لوثر المصلح العظيم فأنعش العقول والاسلام لايحتاج إلا الى نظرة بسيطة وقراءة العلوم لاغير ياعجبا . لقد قال علماء الاجتماع ان الاصلاح الدينى أسرع لرقى الأمة من الاصلاح السياسى . فكيف غابت هذه عن عقول الشرقيين . قام المصلحون فى أوروبا منذ ثلاثة قرون وهم مصلحون دينيون ولم يقولوا نترك الدين فيجئ الشرقى ويقول . كلا أنا لا أنظر فى الدين بل أتركه . فنقول له هلا فكرت فيما يطلب من العلوم . وهل أوروبا تركت دينها الى الآن

فلما سمع منى ذلك . قال ـ الحق أحق أن يتبع ـ أنا جادلت الشيخ فلان وأشار الى عظيم دينى متوفى يحترمه أكثر المسلمين فما أقنعنى ولكنى الآن مقتنع . كل ذلك وذلك العالم الافرنجى مشغول بعمله فلما رجع ودّعه القاضى المصرى وانصرف . فقال العالم الافرنجى ان هذا مغرور . فقلت له لماذا . قال ألم ترنا رفعنا أصواتنا ونحن نتكلم . قلت بلى . قال لقد سألنى ما الذى تدرس لى أنت . قلت ﴿ الرسالة القشيرية ﴾ فاستهزأ بعلوم الاسلام فحقرته وقلت له قد أخطأت وعرفت أن الغرور فى بلادكم عظيم ويظهر أن العلم عند هؤلاء قليل ولقلة العلم يدعون أنهم تركوا الديانات احتقارا لها ولكنهم هم أنفسهم لاهم فلاسفة ولاهم مفكرون . انتهى حديث القاضى والافرنجى

والآن أذكر آراء الامام الغزالى منذ نحو ٩٠٠ سنة

﴿ الاسلام والاستعمار . المقالة الخامسة ﴾

ذكرت فى المقالة السالفة حديثى مع قاض عظيم مصرى مضى الى ربه لتعرف مقدار آراء بعض من لهم الزعامة فى بلادنا المصرية آنفا . والآن أنقل لك رأى الامام الغزالى فى القرون الأولى والدولة الاسلامية لم يكن لها نظير فى الشرق والغرب . ولم تخلق إذ ذاك انكلترا ولافرنسا ولا ألمانيا ولاغيرها أى لم تظهر تلك الدول العظيمة بل كانوا فى غيابات الجهالة يرتعون . وفى حندس الظلام يهيمون . وفى فيافى الهمجية يرتعون . ولم يكن للأمم الاسلامية إذ ذاك من يعلوها فى العلم والحكمة . فانظر الى مايقوله الامام الغزالى عن أهل زمانه من رجال الدين الذين انكبوا على علم الفقه جهالة وغباوة وتركوا بقية العلوم التى لاتأتى بالمال ووبخهم وذمّهم وحقر شأنهم وجعلهم طلاب مال لاطلاب دين . فاذا كان ذلك فى زمان عز الاسلام فمابالك بهذا الزمان الذى أصبحت أقل دولة فى أوروبا أقوى من كثير من الأمم الاسلامية . فلأنقل لك ماقاله ذلك الامام مما كتبته فى سورة البقرة وأتبعته بما يناسبه فأقول

قال الامام الغزالى فى الاحياء . ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التعريفات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولايحتاج الى شئ منها . وان أحتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها فلايزال يتعب فيها ليلا ونهارا فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهمّ فى الدين . واذا روجع فيه قال أشغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية . ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه . والفطن يعلم أنه لوكان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين بل قدّم عليه كثيرا من فروض الكفايات . فكم من بلدة ليس فيها إلا طبيب واحد من أهل الذمّة . ثم لانرى أحدا يشتغل به من علماء الدين ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع . فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة واهمال مالاقائم به . هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به الى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء . هيهات هيهات

قد

• قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء • فالله المستعان • واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن و يضحك الشيطان • انتهى المقصود منه

وأنا أقول • أيها الامام • قد مضى نحو ٩٠٠ سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون جاهلون • ومصر التى ظهرت فى طليعة البلاد الاسلامية لاتزال كالعهد الذى تركت الاسلام عليه

فيها معاهد دينية ولاتزال تلك المعاهد فى التلبيس وتبعهم رجال المدارس الذين لايحلو لهم إلا مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعى • كل هذا للظهور وتولى الحكم والمحاماة • أما الصناعات والعلوم الأخرى فهى منبوذة إلا قليلا • فليس عندنا مبرزون فيها الا قليلا • أما أوروبا فقدقهرتنا بآلاتها القاتلة والجارثة والطاحنة وسبقونا فى الاقتصاد والسياسة • ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظى ظاهرى لايعشق الشبان فى العلوم والبحث فهو تعليم خال من الروح • ولذلك سقطت الأمة فى هاوية الاحتلال الأجنبى

﴿ الواجب على المجالس الشورية أوالنائبة عن الأمة ﴾

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلبا تاما فى المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل مايرغب فى حب الأمة ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية وعلم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن • وليس يجوز أن يكون التعليم بلاضابط وانما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور فى قوله تعالى ـ لايكلف الله نفسا الا وسعها ـ • ولعلك تقول كيف تذم التعليم فى مصر وفيها نبوغ ظاهر لذى عينين • فأجيبك بمقال سيأتى فيما يلى تحت هذا العنوان

﴿ هل فى الاسلام نابغون ﴾

(المقالة السادسة)

لقد سألتنى قائلا فى المقال السابق • كيف تذم التعليم فى مصر وفى بلاد الاسلام وعندنا نابغون

أقول • ان هؤلاء النابغين فى الأزهر والمدارس (ولعل الاصلاح الحديث فى المعارف وفى الأزهر ينمو) انما جاء نبوغهم من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة و بيئاتهم • أما مستوى التعليم فانه ناقص جدا وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه الى ماتحتاج اليه الأمة • الامام الغزالى يقول لنا فى المقال السابق ان البلاد مشحونة بأهل الفقه وهى خالية من الأطباء و يندد على علماء الدين و يقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع • لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة • وأنا أقول ياضياع المسلمين اليوم • ياضيعة الاسلام • أيها الامام • المسلمون لايزالون كما تركتهم • فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملئون بلاد الاسلام وكذلك المحامون والقضاة فى مصر • أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء طبقات الأرض وعلماء الأجنة وعلماء الميكروب وعلماء الحشرات وعلماء السياسات وهكذا فأوروبا هى التى أنجبتهم فى بلادها وليسوا عندنا الا قليلا • وأنت أيها الامام تقول ان الدين ضاع وأنا أقول ان كثيرا من أهل بلادى يجهلون أن هذا من الدين ولايعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولايتصور أكثرهم أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذى به يكون القضاء • وأقول فوق ذلك أنه قدأخبرنى عالم صينى أن علماء الاسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثنى فأصبح الاسلام فى زماننا مانعا من العلم فى نظرهم • والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليونا • ولقد جاء من الهند أمير يقال له جمال الدين من مدينة مدراس من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ وقد أفتى عليها شيخ الاسلام فى بلاد الترك قائلا ان هذه العلوم لابأس بها • فقلت له هذا تساهل من شيخ الاسلام بل العلوم كلها فروض كفايات والمسلمون جميعا مطالبون بتلك الواجبات • فكل صنعة وكل علم تلزم المسلمين

جميعا فعليهم أن يكلفوا طوائف منهم باتقان تلك العلوم والصناعات المختلفة • ثم قال لى ان جميع علماء بلدى حرّموا هذه العلوم • أقول وقد أخبرنى صديق لى من علماء تونس قائلا ان بعض العلماء فى بلادهم يقولون انه لايجب شئ غير علم الفقه • أما النظر للعالم العلوى والسفلى فيكفى أن ينظر الانسان بعينيه • فالاسلام اليوم أضعف منه فى كل زمان

وقد جاء فى الجرائد منذ أيام (يوليه سنة ١٩٢٧) أن ملك الأفغان أقفل مدارس البنات لأن علماء الدين حرّموا تعليمهنّ حتى استفتى علماء الأزهر وعلماء الهند فأفتوه بتعليمهنّ ففتح المدارس كرة أخرى كل ذلك لقصور التعليم الدينى فى بلاد الاسلام وعكوفهم على علم خاص ومقدّماته

وانى أطالب كل من وقع هذا فى يديه (هذا فى كتاب التفسير للمؤلف نداء للعقلاء فى الاسلام) أن يبحث فى هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرفعها لولاة الامور فانه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هى الحياة الانسانية • وكل ماعندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة • فليقلب التعليم فى المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك فى المدارس العصرية • ولتكن للأمّة حال جديدة فهذه الحال لايجوز ابقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامّة • فالاسلام وأمة الاسلام اليوم فى خطر ولانجاة منه إلابما ذكرنا واتباع قوله تعالى — لايكلف الله نفسا إلا وسعها —

(الأوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية فى البلاد الاسلامية) اذا تقرّر أن فروض الكفايات تشمل العلوم والصناعات وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علم النحو والصرف والمعانى وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه . وكذا الحساب والهندسة والنظر فى الكون • أفلا ينبغى أن ينظر فى أمر الشهادة النهائية ويقال ان هذه العلوم كلها فروض كفايات لافرق بين مايسمى علوم الدين ومانسميه علوم الدنيا إذ ظهر أن هذه التسمية غلط وخطأ من المسلمين

فاذا نظر رجال الحلّ والعقد فى المجالس النيابية والوزراء والأمراء فى أمر ماتحتاج اليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرّروا أن يكون فى تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب وللصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وأن كثرة المتعلمين فى البلاد من نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا اذا حصل ذلك فاننى أراه موافقا للدين بل أقول فوق ذلك ان مخالفة هذا تنافى الدين كما قرّر الامام الغزالى من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء فى زمانه

الله الله عباد الله اتقوا الله فى دينكم وأمّتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوّع شهاداتهم مع انهم منسوبون للدين فمن أخذ الشهادة بالطب لايكون أقلّ ممن أخذها بالفقه لأنهما درسا معا هذا الفنّ ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمرّ بحسب استعداده فى الفقه وكذا الهندسة وأمثالها ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم فى الامتحان التحريرى بالأكثر

ثم ينظر أهل الحلّ والعقد والأمراء فى مختلف البلدان فى الأوقاف الاسلامية وتنظم نظاما تاما فلاتبقى مبعثرة كما هى الآن • ويحرم الانفاق على العاطلين القادرين على العمل بل توجه لما هو أصلح لرقى الأمّة واستخراج ما كمن من القوى والقدر فى نفوس الناشئين

﴿ تبيان معنى التفقه فى الدين ﴾

ولما أتممت هنا كتابة هذه المقالات فى جريدة (كوكب الشرق) على الملأ من علماء الاسلام واطلع عليها الأخ المتقدّم ذكره قال حسن ماكتبت ولكن هل هذه الآية تحتاج الى هذه المقالات كلها • يقول الله تعالى — وما كان المؤمنون لينفروا كافة — ثم أمرهم أن يكونوا ﴿ فريقين ﴾ فريق للجهاد • وفريق

للتفقه فى الدين . فهل التفقه فى الدين هو هذا الذى ذكرته كله . فقلت اعلم أن تقسيم الأعمال على الناس مأخوذ من هذه الآية بطريق الاستنتاج والقياس وان أبيت إلا أن يكون بطريق النص ففكر فى معنى التفقه فى الدين . فقال علم الفقه معروف . فقلت ان القرآن نزل على نبينا العربى ﷺ بلسان عربى مبين فأما هذا المعنى الذى ذكرته أنت فهو اصطلاحى والاصطلاحى غير اللغوى فالقرآن لم ينزل على قلوب علماء الفقه الاصطلاحى بل أنزل قبل وجودهم فستحيل أن يكون الفقه المعروف هو المقصود . فقال مامعنى الفقه فى اللغة بالتحديد . فقلت قال فى القاموس المحيط الفقه بالكسر العلم بالشئ والفهم له والفطنة . ثم قال وفقهه كعلمه كتفقهه وفقهه تفقيها علمه كأفقهه وفاقهه باحثه فى العلم اه

فاذن الفقه هو نفس العلم وقد يلاحظ فيه الفطنة فيكون من فقه الشئ أدق واوفى علما من غيره فقوله تعالى — ليتفقهوا فى الدين — اما المراد العلم به واما المراد العلم الأتم مع الفطنة وهذا المعنى ليس خاصا بالأحكام الشرعية . فالعلم الذى يورث خشية الله والخوف منه فقه . والذى به الوعظ فقه . وتدبر القرآن فقه . وعدّ نعم الله فقه . والعلم الذى به الورع والعفة فقه والعلم بالله وآياته وأفعاله فى عباده فقه لأن العلم والفقه بمعنى واحد كما عرفت . قال إذن كل ماعليه المسلمون خطأ وأنت بهذا تخطئ أمة بتمامها وهذا لايقرك عليه أحد. فقلت لم أقل هذا بل لايخطر لجاهل . قال ألم تعلم أن علم الفقه خاص بهذا الذى دوّنوه ولم يقل منهم أحد بما ذكرته أنت . فقلت هذا كما قلته لك اصطلاح والاصطلاح غير اللغة ولامشاحة فى الاصطلاح والا فالآية تعطى هذه المعانى التى ذكرتها لك . فقال لئن تخلصت بهذا القول فلن تفرّ مما بعده . قلت وماهو . قال وهل جميع العلماء السابقين كانوا فى غفلة فلم يقولوا ماقلته أنت . إن هذا لعجب عجاب . فقلت أنا لست مخترعا لهذه المعانى بل هى نفس ماقاله الامام الغزالى فى الاحياء . فقال اذكر ماقاله بالنص . فقلت قال فى الربع الأوّل مانصه

﴿ بيان مابدل من ألفاظ العلوم ﴾

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة الى معان غير ما أراده السلف وهى خمسة ألفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة . فهذه أسماء محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ولكنها نقلت الآن الى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الأسامى عليهم

﴿ اللفظ الأوّل . الفقه ﴾

فقد تصرّفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه . ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأوّل مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوّة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدّة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله عزوجل — ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون — وهى الآية التى نحن بصدد الكلام عليها . ثم قال ومايحصل به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة فذلك لايحصل به انذار ولاتخويف بل التجرّد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له وقال تعالى — لهم قلوب لايفقهون بها وأراد به معانى الايمان دون الفتاوى . ولعمرى ان الفقه والفهم فى اللغة اسمان بمعنى واحد وانما نتكلم فى عادة الاستعمال به قديما وحديثا قال تعالى — لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله — الآية فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه . فانظر أكان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتعريفات

الفتاوى أوهو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم * وقال ﷺ ﴿ علماء حكماء فقهاء ﴾ للذين وفدوا عليه * وسئل سعد بن ابراهيم الزهرى رحمه الله أى أهل المدينة أفقه فقال أتقاهم لله تعالى . فكأنه أشار الى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية * وقال ﷺ ﴿ ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى قال من لم يقنط الناس من رحمة الله . ولم يؤمنهم من مكر الله . ولم يؤيسهم من روح الله . ولم يدع القرآن رغبة عنه الى ماسواه ﴾

ولما روى أنس بن مالك قوله ﷺ ﴿لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة الى طلوع الشمس أحبّ الىّ من أن أعتق أربع رقاب . قال فالتفت الى زيد الرقاش وزياد النمرى وقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا وانما كنا نقعد فنذكر الايمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعدّ نعم الله علينا تفقها ﴾ فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقها * قال ﷺ ﴿ لايفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ﴾ وروى أيضا موقوفا على أبى الدرداء رضى الله عنه مع قوله ﴿ ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشدّ مقتا ﴾ وقدسأل فرقدالسبخى الحسن عن شئ فأجابه فقال ان الفقهاء يخالفونك فقال الحسن رحمه الله ثكلتك أمّك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك انما الفقيه الزاهد فى الدنيا . الراغب فى الآخرة . البصير بدينه . المداوم على عبادة ربه . الورع . الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين . العفيف عن أموالهم . الناصح لجماعتهم ولم يقل فى جميع ذلك . الحافظ لفروع الفتاوى ﴾ ولست أقول أن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فكان اطلاقهم له على علم الآخرة أكثر فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرّد له والاعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع فان علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به الى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك فى القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذى هو اسم محمود فى الشرع . انتهى ماقاله الامام الغزالى

فأفهم هذا المعنى أن الفقه يشمل ﴿ أمرين ﴾ أحدهما تعداد نعم الله وهى العلوم كلها التى تدرس فى مدارس أهل الأرض اليوم وعلوم تهذيب النفس الذى سماه علم الباطن ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ علم النفس وعلم الآفاق . هذا هو مايطلق عليه الفقه . وفى هذا التفسير الاهتمام أكثر بعلم الآفاق الذى هو تعداد النعم وبه خشية الله تعالى كما قال تعالى – انما يخشى الله من عباده العلماء – بعد ذكر ألوان الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام . فقال صاحبى قد ذكرت كلام الامام الغزالى فى الفقه . فماذا قال فى العلم . قلت قال انه يطلق على العلم بالله وبآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه . وذكر أن هذا تسعة أعشار العلم التى كان يحملها عمر رضى الله عنه قال ثم خصصوه بالفقه ونحوه كسابقه وقال ان ذلك صار سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم . وجعل التوحيد أن يرى الانسان الامور كلها من الله تعالى فيترك الانسان شكاية الخلق ويرضى و يترك الغضب ولايتبع الهوى لئلا يكون تاركا للتوحيد . ويرجع التوحيد لظواهر القرآن التى تتسابق للأذهان فكان العلم بالقرآن هو العلم كله * وقال فى الذكر والتذكير انهما يرجعان لمعرفة عيوب النفس وحقارة الدنيا والتذكير بنعم الله تعالى وتقصير العبد فى الشكر . وقال فى الحكمة نحو ذلك . ثم قلت له فهل أدلك على ملخص ذلك كله . قال نعم . قلت هو مجمل فى سورة الفاتحة مفصل فى القرآن

ان العلم والفقه والتذكير والتوحيد والحكمة يرجع أغلبها الى ﴿ أمرين ﴾ كما قدمناه أوّلهما علم نعم الله وهى العلوم كلها من الطبيعيات والرياضيات وهى التى يعرف بها جمال الله تعالى ﴿ ثانيهما ﴾ معرفة جمال الباطن وسلوك النفس . فمهما اختلفت العبارات فالمرجع لجمال أنفسنا بالصفاء وتهذيبها حتى تقبل معرفة العلوم التى ملأت

الكرة الأرضية اليوم وهذان الأمران مذكوران فى الفاتحة ﴿الأمر الأول﴾ أن الفاتحة فيها ذكر الحمد على نعمة تربية هذا العالم كله والعلوم كلها هى معرفة هذه الدنيا ولا يتم الحمد إلا بمعرفة النعمة ولذلك صرح بها فقال ـ صراط الذين أنعمت عليهم ـ والانعام هنا يرجع الى نعمة العلم والعمل لأن المنعم عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون . وهؤلاء نعمهم علمية عملية والا فالبهائم والجهال والعصاة منعم عليهم بلا علم ولا عمل . فالله لما ذكر الحمد أتبعه بذكر النعمة ﴿وبعبارة أخرى﴾ أن يدرك المرء هذه النعم ويعرفها وذلك بالعلوم كلها ﴿الأمر الثانى﴾ لتهذيب الباطن وتطهير النفس وهو المقصود من هداية الصراط المستقيم . هذا هو إجمال معنى التفقه فى الدين فى آيتنا التى نحن بصدد الكلام عليها

﴿ تفصيل هذين الأمرين فى سور القرآن ﴾

ثم قلت اعلم أن هذا المجمل فى سورة الفاتحة فصله الله فى القرآن فأنزل نحو ٧٥٠ آية فى معرفة العوالم المحيطة بنا فى السموات والأرض . وذكر بنحو عددها أيضا آيات لأجل تهذيب النفس وعلم السلوك والتطهير وآيات القسمين مذكورات بنصها فى كتاب ﴿جواهر القرآن﴾ للامام الغزالى . ثم اعلم أن هذا التفسير قد قام ببيان أهم ماذكرناه الآن بفضل الله تعالى . ولقد ظهر فيه أن بقية آى القرآن تنحو هذا المنحى فانك اذا نظرت الى القصص التى لم تدخل فى تهذيب نفس ولا ترغيب فى علم قد رجعت الى هذين الأمرين كما تطلع عليه فى هذا التفسير بايضاح فآيات القرآن كلها ترجع لتهذيب النفس ولتعليم العلوم الكونية وهما الأمران المذكوران فى الفاتحة وهذا كله يسمى تفقها فى الدين ويسمى علما ويسمى بعضه توحيدا ووعظا وتذكيرا وحكمة . ثم قلت له فتبين لك أيها الفاضل أن لفظ التفقه فى الدين تشمل العلوم التى بها نعرف الله والعلوم التى نهذب بها نفوسنا . فأما ماعدا ذلك من الصناعات المنتشرة فى الأرض فانها تسمى فروض كفايات وهى تعين على الأمرين المذكورين . فلما سمع ذلك قال لقد استوفيت المعانى استيفاء ولكن نقلك كلام الامام الغزالى فيه اعتراض . فقلت قل مابدا لك . فقال أكثر أحاديثه ضعيفة . فقلت انما طلبت منى ما يأتى . هل قال هذه المعانى أحد . فقلت لك نعم وذكرت ذلك . أما ضعف الأحاديث فليس يضرنى لأنه يقول المعانى الشائعة عند الصدر الأول فضعف الحديث ليس ينقض موضوعنا . قال حسن . ثم قال لماذا لم تنتشر هذا بين الأنام وتبين كيف يعلم المسلمون هذا فى مدارسهم حتى يتفقهوا فى الدين . فقلت أما النشر فان هذا التفسير قد قام به على مقدار طاقتى وهذا هو الممكن لى . فقال فلتكتب فى الجرائد . قلت قد كتبت بضع عشرة مقالة فى جريدة ﴿كوكب الشرق﴾ فى نحو هذا المعنى بعنوان ﴿خطاب الى الأمم الاسلامية﴾ وقد أدرجت منها فيما تقدم المقالة السابعة . وسأذكر هنا المقالة الرابعة المنشورة يوم ١٦ نوفبر سنة ١٩٢٧ م الموافق ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ هجرية وهذا نصها

من هم الأولى أن يسموا علماء الاسلام

قال الله تعالى ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ـ

يخاطب الله كل عاقل مقررا له أنه أنزل من السماء ماء ومن هذا الماء خلق الله الثمرات المختلفات الألوان والأشكال والطعوم والروائح . وذكر أن الجبال بها طرائق مختلفة الألوان كاختلاف ألوان الأثمار . من طرائق بيض وأخرى حمر وثالثة سود شديدة السواد . وهكذا الدواب من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الابل والبقر والغنم . كل هذه مختلفات الألوان كالثمار والجبال . ثم قال بعدها ـ إنما يخشى الله من

عباده العلماء ــ فياليت شعرى أى علماء يخشون الله . أعلماء الطهارة والنجاسة والبيوع والميراث . أم العلماء الناظرون فى ملكوت السموات والأرض الذين آتاهم الله الحكمة . وتفكروا فى خلق السموات والأرض تفكيرا مبنيا على براهين ثابتة فى علم الحكمة

ألا قبح الله الجهل والغرور . ألا قاتل الله الكبرياء . لقد صرف الله المتكبرين عن آياته فقال ــ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ــ

يقول الله فى القرآن ــ إنما يخشى الله من عباده العلماء ــ بعد ذكره عجائب الأرض والسموات فيقول بعض الزعماء فى الاسلام العلماء أى بالفقه ويكتفون من التوحيد بتلك الكتب التى وضعت للرد على قوم كانوا ضالين

أيها المسلمون انى أنصحكم أن علم التوحيد هو جميع العلوم من الفلك وعلم النبات والحيوان والانسان وطبقات الأرض وجميع ماخلق الله . يقول الله ــ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شئ ــ يوبخ الناس على تقاعسهم ووقوفهم عن النظر فيما خلق الله فى السموات والأرض . يسمى الله هذه الطائفة المفكرة فى بديع صنعه علماء وانهم يخشون الله

ولعمرى لايخشى هؤلاء الناظرون الله إلا اذا كانوا ينظرون من طريق الدين . فالدين الاسلامى يحرض على النظر . ومن فكر فى هذه العجائب التى خلقها الله فانه يحس فى نفسه لله بالعظمة التامة والحب العظيم وهناك ينبغ فى الاسلام ــ رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ــ هؤلاء هم العلماء الذين اذا كثروا فى أمة الاسلام أضاءت بهم الأرض وازينت وأشرقت بنور ربها

أيها المسلمون . أليس هذا كلام ربنا . أفليس هذا قول الله تعالى . يقول الله تعالى ــ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ــ (بكسر اللام) فجعل فى خلق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان دلالات للعلماء لا للجهلاء وأى علماء هؤلاء . أهم علماء الفقه أم علماء الجدل المسمى بالتوحيد . لا . لا هو العلم بالفلك وعلم المواليد الثلاثة من معدن ونبات وحيوان وعلم طبقات الأرض وفروعها

إن علم الفلك ليس يكون إلا بعد علم الحساب والهندسة والجبر فهذه العلوم لايتم علم الفلك إلا بها وهكذا علوم عجائب الخلق فى الحيوان والنبات والانسان لاتتم إلا بالعلوم الرياضية أيضا والعلوم كلها شجرة واحدة أصلها ثابت فى القرآن وفروعها فى جميع أعمال الحياة وعنان السماء وأطراف هذه الدنيا

العلوم كلها متصلة متحدة متآلفة فمن عطل بعضها حرم الجميع ولم ينل إلا ظواهرها . فياليت شعرى ألم يقرأ علماء الاسلام قوله تعالى ــ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ــ ابتدأ الآية بجملة اسمية تفيد التأكيد وجعل تسخير البحر لنا وجعل فوائده ﴿ أربعا ﴾ أكل لحم السمك منه . واستخراج الدر والمرجان ليكونا حلية منه . وأن الفلك تجرى فيه بين أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا . يقول العلماء اننا نستفيد بذلك التجارة وتبادل المنافع فى الأقطار المختلفة . هذه عناية الله بخلقه ورحمته بهم وتكريمه لبنى آدم . كرم الله بنى آدم فحملهم فى البر بالدواب والقطر . وفى البحر بالسفن ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه . فالله جعل من تكريم بنى آدم حملهم فى البر والبحر المذكور فى هذه الآية آية تسخير البحر فقد سخر لتجرى السفن فيه بأمره وهى تحملنا وتحمل بضائعنا . هذه بعض عناية الله بالأمم ولكن المسلم لما كرمه الله بهذه وأباح له استخراج الدر والمرجان من البحر ولى بجانبه

واعرض

وأعرض عن نعمة ربه وقال مالى وللدر والمرجان ومالى وللسفن فى البحار فلتصنع السفن ألمانيا وأمريكا وفرنسا ولتحملنا عليها اذا سافرنا . أما الدر والمرجان فهما لافائدة فيهما فنقول

أيها المسلم . أيها العاقل . أيها الفقيه . أنظر بعقلك أولا وانظر فى الآية ألم يفتح الله لك خزائنه البحرية . ألم يقل لك هاهو مرجانى فى البحر فلك أن تستخرجه . فيقول فقيههم وهو متكبر محتقر أىّ فائدة من هذه . أليس المرجان خرزات تنظمها النساء يجعلنها زينة وأىّ فائدة فى هذه . نقول له اقرأ علوم الأمم الحاضرة . اطلع على كتب الأمم العظيمة وانها دخلت فى قوله تعالى ـ فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ـ فاذا استهزأت بهذا وأمثاله اتبعك الشبان وهم الذين يصيرون قادة فتكون عقولهم كعقلك فيموت العرب و بقية أمم الاسلام وذلك من كبرك وعظمتك والله يقول ـ فبئس مثوى المتكبرين ـ ويقول ـ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ـ ويقول ـ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ـ فالاستهزاء والتكبر سبب خراب بلاد الاسلام الآن

فربما يجيبك بعد هذه الكبرياء و يقول لك حدّثنى عن منافع هذا المرجان . اذا قال لك ذلك فقل له ان المرجان عبارة عن هياكل حيوية ترسب فى أبدان حيوانات دنيئة جدّا شكلها كشكل الأزهار ذات ألوان مختلفة كاختلاف أزهار الأرض نظاما وبهجة وهى أجمل منها بما لايقاس وهو يوجد حول جزائر بحر الروم فى قاع البحر من ٣٠ قامة الى ١٣٠ قامة وهو أشبه بشجر قائم فى البحر لايزيد ارتفاعه عن قدم وأهمه يكون أمام تونس والجزائر ومراكش و بقرب نابولى وجنوى وسردينيا وكورسكا

أتدرى من يغوص على هذا المرجان . يغوص عليه الفرنجة وهو ينمو فى عشر سنين وكل سنة يغوصون على قسم منها ففى بعض السنين كانت الزوارق الايطالية ١٥٠٠ زورقا وفيها ٤٢٠٠ نوتى وكسبوا فى تلك السنة أربعة ملايين ومائتى ألف فرنك والفرنسيون والاسبانيون فى تلك السنة كسبوا مليونا وخمسمائة وخمسين ألف فرنك . أليست تونس والجزائر ومراكش بلادا اسلامية . يأخذ الاوروبيون المرجان من بحرهم وهم لايعلمون شيأ . وياليت شعرى أليس الله يقول فى آخر الآية ـ ولعلكم تشكرون ـ وكيف يشكر المسلم على نعمة لم يعرفها . نعمة فتحت لأهل أوروبا بسبب علمائهم وأقفلت على المسلمين بسبب جهل بعض رجال دينهم ألا ساء مثلا القوم المتكبرون الغافلون

إن الله سيسأل كل من يقرأ هذا المقال من العقلاء فى الاسلام ولايفكر فيه ولايجدّ فى البحث والتنقيب لأن هذا فتح لباب الفكر فى آيات القرآن كلها ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ـ

فلما سمع ذلك صاحبى قال عرفت نوع الكتابة للعموم فى هذا المعنى فأرجو أن تفى بما وعدت به من كيفية التعليم فى مدارس الاسلام لبلوغ السعادة حتى يتفقه الناس فى الدين . فقلت قد علمت فيما سبق أن النظر فى عجائب السموات والأرض هو العلم الواجب شرعا فأرى أن يبتدأ فى القسم الابتدائى فى المعاهد الدينية فى بلاد الاسلام بمجموعة من المعادن والنبات والحيوان ويذكر فيها نبذ من تلك العجائب والحكم الغالية بحيث تكون سهلة التناول كأن يذكر الدرّ والمرجان و يبين مثلا أن أنفس الزينة وهو الجوهر من حيوان بحرى وهو المحار . وأن ألذ المطعومات من حشرة فى البرّ وهى النحلة الطائرة فى الهواء . وأن أجل مايلبسه الناس من صنع دودة فى الأرض وهو الحرير فيقول المعلم مثلا . أنظر كيف جعل الله عز وجل أجل زينتنا وألذ مطعومنا وأبهج ملبوسنا مصنوعات بدواب البحر والأرض والهواء . وهذه الصانعات من أضعف الحيوانات فى الممالك الثلاثة الماء والتراب والهواء ويكثر من أمثال هذا وتكون جميع الدروس على هذا النمط و يسير على هذا المنوال ويذكر آية من القرآن و يترك الطالب يستنتج ويؤمن بالله و يفرح به بهذا وحده يتربى الشعب الاسلامى وبهذا وأمثاله يخرج نابغون وهذا هو الذى جاء له القرآن ثم يسير مع

الطالب فى كل المعادن من الحديد والنحاس والقصدير والذهب وغيرها مبينا فوائدها معظما خالقها مظهرا حكمته وبدائع صنعه فيذكر قوله تعالى مثلا فى الحديد ـ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ـ ولا يكثر من الاعراب ولاصنعة الكلام بل يقول انظر الى هذه القطعة من الحديد وهوالمسمى بالزهر وهذه تسمى بالحديد المطاوع وهذه تسمى بالحديد الصلب وانظر الفرق بين الحديد الزهر والحديد الصلب ألاترى أن الصلب يقبل الطرق والسحب والزهر ليس كذلك . وترى الصلب يقبل القوّة المغناطيسية أما الزهر فليس كذلك لأن الصلب نقى مما يداخله والأوّل مخلوط بأشياء غريبة عنه ثم يقول وهذا التنوّع فى الحديد لفوائد ويشرحها ويذكر أنه من الجبال وكيف خزن فيها وكيف كان بمقدار الحاجة وكيف هدى الله الناس لاستخراجه وكيف كانوا قبل ذلك لاعمل لهم إلا بالحجر أونحوه . ثم ينتقل الى مجموعة من علم النبات ويشرح الزهر وجماله وكيف يكون الالقاح فى زهر الحدائق والمزارع . ويبين كيف كان الريح والحشرات مسخرات لذلك الالقاح وأن ذلك من عجائب القرآن إذ قال تعالى ـ وأرسلنا الرياح لواقح الخ ـ وهكذا يريه عجائب الحيوان البرى والبحرى كالحوت المسمى (بالقيطس) الذى يكون طوله عظيما ورأسه فيه الزيت المسمى (بزيت الحوت) وهو عشرات من البراميل فيتعجب الطالب من حكمة ربه وغير ذلك من العجائب . وهذا العلم هو المسمى علم الأشياء كان يدرس فى مدارس مصر قبل الاحتلال وفى أوائله ثم رفع بعد ذلك ورجع اليها الآن

هذا فى القسم الأوّلى فى المعاهد الدينية . أما فى الثانوى فيقرؤن نفس علم النبات وعلم المعدن وعلم الحيوان والنظام العام فى علم الفلك حتى يشهد الطالب عجائب الابداع والتكوين ويتأمّل كيف تطلع الشمس وتغرب بمواعيد محدّدة لاتخس ثانية واحدة ليفهم قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ ويفهم أيضا قوله تعالى ـ الشمس والقمر بحسبان ـ ولايعرف الطالب ذلك إلا اذا أخذ نموذجا سهلا جدّا من الحساب وقرأ نظام الكواكب السيارة والثوابت وعددها وانها مئات الملايين وفهم أقدارها وأبعادها الذى يعدّ بمئات الآلاف من السنين بسير الضوء . هنالك يظهر فى الاسلام ـ رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ـ وكيف تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله وهم يشهدون صنعه وآثار جماله وحكمته وبدائع صنعه فى النجم والقمر والشمس والزهر والبرّ والبحر . فاذا انتقل الطالب للقسم العالى فى المعاهد الدينية فليخصص بعلم من العلوم العالية التى هى فرض كفاية كالعلوم العربية أوالفقه وأصوله أوالتفسير والحديث مثلا كالهندسة أوعلم النبات والحيوان أوعلم الكيمياء والطبيعة أوعلم الطب أوالبيطرة . كل هذه يطلبها الدين بصفة انها فرض كفاية

وعلى أولياء الامور أن يجعلوا القسم العالى للاختصاص ويجعلوا العلوم موزعة على قدر الحاجة فلايطغى الفقه على الهندسة ولاعلم الطب على العلوم الرياضية . وكما يجب أن يعتدل المرء فى أحواله فيربى القوى التى فى نفسه تربية متساوية فلا الذاكرة تطغى على المفكرة ولا المفكرة على المخيلة . هكذا يجب أن يكون أفراد الأمّة متعلمين بقدر الحاجة اليهم

هذا هو الصراط المستقيم ـ والله يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب ـ اهـ

ولما أتممت هذا المقال قال صاحبى المتقدّم من أهل العلم والصلاح لما اطلع عليه . لقد أجدت كل الاجادة وفتحت بابا واسعا لرقى الأمم الاسلامية فى المستقبل . ولكنى أريد أن أسألك . هل كانت الأمم المحمدية نائمة عما تذكره أنت الآن . فقلت كيف تقول عما أذكره أنا الآن . ألم تقرأ ماتقدّم فى سورة المائدة عند قوله تعالى ـ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ـ وانى ذكرت هناك كلام الامام الغزالى فى أن فروض الكفايات تشمل أعلى الامور الدنيوية كالسياسة وأوسطها كالحياكة وأدناها كالزبالة والكناسة

فالحرف

فالحرف كلها والعلوم كلها فروض كفايات . إذن ليس هذا الرأى حديثا . وأذكر لك أيضا الآن ماجاء فى كتاب ﴿ جمع الجوامع ﴾ للامام ابن السبكى وشرحه للجلال المحلى فقد قال ان فرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله وزعمه الاستاذ أبو اسحق الأسفراينى وامام الحرمين والشيخ أبو محمد الجوينى أفضل من فرض العين لأنه يصان بقيام البعض به الكافى فى الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الاثم المرتب على تركهم له وفرض العين انما يصان بالقيام به عن الاثم القائم به فقط

هذا نص كلام المتن والشارح . فاذن فرض الكفاية عند هؤلاء الأعلام وان خالفوا غيرهم أفضل من فرض العين . فاذن يكون الملوك المنظمون للأمم أفضل من العلماء الذين قاموا بامور العبادات . وعلى ذلك جاء فى بعض كلام علمائنا ﴿ أيهما أفضل العالم أم الملك ﴾ فكان الجواب هكذا ﴿ من كان أثره للناس أكثر انتشارا فانه أفضل ﴾ فلما سمع ذلك قال هذا كلام العلماء ولكنى أريد العمل فهل قام المسلمون قديما بفرض الكفايات . فقلت إن المسلمين هم الذين بعثهم الله نورا للناس كما بعث نبينا ﷺ نورا لنا فقال هذه عبارات شائعة على الألسنة وقد عوّدتنا أن يكون كلامك مبرهنا عليه . ومن ذا الذى يوافقك على أننا بعثنا لرقى الناس مع اننا اليوم أقل الأمم علما وعملا . فقلت نحن اليوم كما تقول ولكن أسلافنا كانوا كذلك . فقال هذه دعوى لادليل عليها . فقلت قال الله تعالى لرسوله ﷺ ـ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ فلم يجعله رحمة للمسلمين وحدهم بل جعله ـ رحمة للعالمين ـ . وليس يمكن أن يرحم ﷺ الفرنجة مثلا وأهل أمريكا واليابان والصين إلا بواسطة أمته . قال هذا اغراق منك فى القول ورجوع عن طريق التحقيق الى الخيال فاما أن تقول هذا كلام سماعى فحسب واما أن تأتى بقول يقنع الناس قاطبة . فقلت له سأسمعك الساعة مايقنع الناس قاطبة وأقدّم قبله مقدّمة فأقول

إن الله عزّ وجل يقول فى آخر هذه السورة ـ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم الخ ـ فلحرصه ﷺ أنذرهم بالقرآن وخوّفهم العاقبة فقرؤا علوم الأمم وأفادوا أهل أوروبا وأهل أوروبا أفادوا العالم بعد ذلك . ثم قلت وهل يقنعك فى ذلك شهادة علماء أوروبا . قال نعم . قلت هاك ماقاله العلامة (سيديو) أحد مشاهير علماء فرنسا المولود بباريس فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٠٨ م الموافقة ١٢٢٣ هجرية فقد جمع فى عشرين سنة تاريخا فى سفر من مؤلفات من يوثق بهم من العرب والفرنج ونشره فى أوروبا فتحوّل الناس هناك عما رسخ فى أذهانهم وأخذوا يقدّرون العربية وعلماء العرب حق قدرهم وظهر فضل العرب لدى الفرنج وأنشأوا فى ممالكهم مدارس لتعلم اللغة العربية وأخذوا يسارعون الى حيازة الكتب العربية ويبذلون فيها النفيس . ولم يقتصروا على ذلك بل رغبوا فى حوز صور مبانيهم وجميع ماكان لهم من الزينة ونحوها وآلات الملاهى وغير ذلك . ولذا أخذ السياحون يجوبون البلاد الدانية والقاصية ليعثروا على ذلك غير مبالين بما يلقون من المشاق الهائلة فحصلوا على مافى بيوت التحف والآثار من الأمثلة المتنوّعة بقدر تنوّع الحرف والبضائع وعلى مافى خزائنهم من الكتب التى هى فى جميع ماكتبه الانسان من هزل وجد . هذا هو نص ما قاله أستاذنا منشئ مدرسة دار العلوم قبل اليوم بخمسين سنة المرحوم على مبارك باشا فى مقدّمة ترجمته لهذا الكتاب من الفرنسية الى العربية . وهاك مقدّمة الكتاب للمؤلف المذكور الذى هو المقصود الذى به تعرف أيها الفاضل بأن العلوم والصناعات التى هى فروض كفايات لولا آباؤنا من الأمّة المحمدية لكان العالم كله اليوم فى ظلام

قال العلامة سيديو المذكور ﴿ مازلت منذ نيف وعشرين سنة أبين ما للعرب من توسيع نطاق العلوم والتقدّم فى القرون التى بين عصر يونان اسكندرية مصر وأعصر الدول الحديثة الافرنجية ورأيت أن أذكر مجمل أخبار هذه الأمّة المحتقرة لدى الفرنج من أمد بعيد وأن أضاهى ماجمعته بما أذاعه غيرى لأكون أوّل

من دون تاريخا عاما فى أخبار العرب وهو ميدان عام واسع المجال ربما كان فوق طاقة الواحد من الرجال ﴾

ثم أخذ يمدح الأمة العربية بجميل أخلاقها واستقلالها الى أن قال . ثم أتى النبى ﷺ فربط علائق المودّة بين قبائل بحيث جزيرة العرب ووجه أفكارها الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدّت سلطنتها من نهر التاج المارّ باسبانيا وبرتغال الى نهر (الكنج) أعظم أنهار الهندستان . وانتشر نور العلوم والتمدن بالمشرق والمغرب وأهل أوروبا إذ ذاك فى ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسيانا كليا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان . واجتهد العباسية ببغداد والأموية بقرطبة والفاطمية بالقاهرة فى تقدّم الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية فاقتصروا على السلطة الدينية التى استمرّت لهم فى سائر أرجاء ممالكهم . وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاستكشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الأتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم وأدّوا اليهم مرتبات ولما انحصرت العرب فى (بحيث) جزيرتهم وصحارى أفريقية عادوا الى عيشتهم البدوية مستقلين عمن عداهم حتى ألزمتهم الدولة العثمانية الانقياد وأجحفت بهم فانقادوا منتظرين فرصة أراد الوهابية انتهازها فى غرّة هذا القرن التاسع عشر من الميلاد لعتق رقاب الأمّة العربية من تسلط الأجانب عليهم فلم ينجحوا ولبثوا مستعدّين للعصيان باشارة من كبرائهم ولامانع من حصول ذلك فى ممالك تونس ومراكش وكذا الجزائر التى حكمتها فرنسا فان جميعهم على غاية من الاستعداد لاجابة رؤسائهم . وهنا ذكر المؤرخين من الفرنجة قبله مثل (بوكوك) و (شولتنس) وغيرهما الى أن قال . والمستمدّات الأصلية المشتملة على سير العرب لم تزل الى الآن كنوزا مغلقة فانا معشر الفرنج وان وقفنا على حقيقة تواريخ أبى الفداء وأبى الفرج والمسين النصرانى المعروف بين أهل المشرق بابن العميد . لكن ليس عندنا الآن إلا تراجم قطع من تواريخ ابن خلدون والمقريزى وابن الأثير وتواريخ كثير من المؤرخين من العرب والفرس . ولعلنا نحوز جميعها مترجما باللغة الفرنساوية ومع ذلك يكفينا مالدينا من تواريخ السلف فى ضبط الحكايات الكاذبة وتحقيق الحق فيها بل نقتدر بها على فهم ما كان عليه النبى ﷺ غير مغترّين بما اعتاده المؤلفون من ستر خلقه الباطنى كالقائل إنه كان رجلا مجذوبا محتالا طماعا يتعذر حصر هواتفه . والقائل انه كان ذا قريحة لانظير لها وانه من نوادر الوجود التى يحدثها الله لاصلاح الدنيا فان هذين القولين لايلتفت اليهما بل يجب رفضهما . والمعوّل عليه فى وصفه ﷺ ما قاله العلامة (أولسنير) فانه فهم حقيقة الرسول وحكم دين الاسلام على جميع الممالك التى انتشر فيها على ماقاله فى تذكرته التى وقعت موقع القبول سنة ١٨٠٩ ميلادية لاشتمالها على المأمول لدى أرباب مدرسة العلماء المشتغلين بالعناوين والكتابات على الآثار القديمة ثم بالعلوم الأدبية

وأما تواريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية فى دمشق وقرطبة والعباسية ببغداد والفاطمية بمصر ووصف تمزيق الممالك الاسلامية المشرقية التى أغار عليها الأتراك ثم المغول فدوّنها الفرنج تدوينا حسنا وأضفنا اليها ماتركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربى الذى تمكنت أصوله فى آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن . ولانزال الى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادى مانحن عليه من المعلومات الاوروباوية فان العرب فى غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا بحوز المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقة وأصفهان وسمرقند تفاخر بغداد فى حيازة العلوم والمعارف وقرئ ماترجم الى العربية من كتب اليونان فى المدارس الاسلامية وبذل العرب همتهم فى الاشتغال بجميع ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا فى غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف . ولنا شاهدا صدق على علوّ شأنهم الذى تجهله الفرنج من أزمان مديدة ﴿ الأوّل ﴾ ما أثرعنهم من تواريخ القرون المتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس ما اشتهر

من

من الأمكنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة (والثانى) ما كان لديهم من الصناعات الفائقة والمبانى الفاخرة والاستكشافات المهمة فى الفنون وما أوسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء الصحيحة والفلاحة والعلوم الصحيحة التى مارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر من الميلاد (من سنة ٢٨٨ الى سنة ٩٠٧ هجرية) وزعم المؤلف (شليجل) سنة ١٨٣٢ ميلادية الموافقة سنة ١٢٤٨ هجرية أن الهنود والصينيين أعلم من العرب وأخبر أنه سيقف على كنوز معارف هاتين الأمّتين مع انه لم يحصل بعد دعواه بعشرين سنة أجلّ الفوائد الفلكية والرياضية والجغرافية إلا من الكتب العربية القديمة . نعم ألف الفرنج الباحثون عن الامور الهندية كتبا كثيرة لكن لم يحصل منها أدنى تقدّم فيما هى بصدده كما أن الفرنج المستخرجين فوائد من تواريخ المملكة الصينية التى هى أقدم الدول لم ينجحوا إلا فى اشهارهم الصينيين بأنهم أجهل أهل الأرض كالترك كما قاله المؤرخ أبو الفرج وأما المدرسة البغدادية المدوّنة للعلومات التمدينية فى الفترة التى بين عصر يونان الاسكندرية والأعصر الأخيرة فكانت مساعدة على استيقاظ أهل أوروبا من رقدة الجهالة ونشر أنوار المعارف فى جميع ممالك آسيا فقد انتشر علم العرب (الفلك) فى الهندستان بواسطة العلامة البيرونى المغمور بمكارم السلطان محمود الغزنوى حين انتقل اليها سنة ١٠١٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٠٧ هجرية كما نشره بين السلجوقيين العلامة عمر خيام سنة ١٠٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٦٩ هجرية و بين المغول العلامة نصير الدين الطوسى مؤسس الرصدخانة بمدينة المراغة سنة ١٢٦٠ ميلادية الموافقة لسنة ٦٥٩ هجرية وانتشر بين العثمانيين سنة ١٣٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٧٣٨ هجرية ونشره بين الصينيين العلامة (كوشيوكنغ) تلميذ الاستاذ جمال الدين سنة ١٢٨٠ ميلادية الموافقة سنة ٦٧٩ هجرية فى عهد السلطان كوبلاى خان كبير عائلة الملوك اليوانية وشيد (أولوغ بغ) لعلم الفلك رصدخانة بسمرقند سنة ١٤٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٨٤١ هجرية وانتهى اشتغال المشرقيين بالعلوم والفنون عقب زمان (أولوغ بغ) ثم اطلع أهل الغرب من أوروبا على أسرار تلك العلوم فأخذوا يشتغلون بها حتى جدّدوا فى البلاد الافرنجية التمدين واللغة العربية وفنونها الأدبية التى أخذت كل يوم فى زيادة الانتشار بين الفرنج ومازلنا الى الآن نستكشف أمورا مهمة من الكتب العربية القديمة وان عزى ابتكارها زورا الى بعض المتأخرين من الفرنج . ولاشك أن فتح أمّتنا الفرنساوية ايالة الجزائر المغربية وكثرة علائقها بمسلمى افريقية (ممالك المغرب) يزيد فيما اهتم به الفرنج المولعون باللغات والآثار المشرقية من البحث عن كتب المعلومات العربية التى لم يحسن سلف الفرنج مافيها من جواهر المعارف الثمينة . وما أعظم اشتغالنا بتلخيص جميع تاريخ الأمّة العربية التى ظهرت أخبارها أعجب مظهر و بهرت أنباؤها دون غيرها من التواريخ كل من قرأ وتبصر . ولذلك نلفت أبناء أوروبا على ممر الزمان الى تلك الآثار الجليلة التى خلفتها هذه الأمّة

هذا ما قاله المؤلف فى المقدّمة . ثم قال فى صفحة ٢٣٥ عند الكلام على العلوم الطبيعية ما يأتى

باب فى العلوم الطبيعية التى كانت عند العرب وفيه مقدّمة وأربعة مباحث

(المقدّمة)

قد اتسعت العلوم الطبيعية زمن اتساع العلوم الرياضية ولكن لانعرف عصر نشأتها لتسلسل التصوّرات فى جميع الأشياء التى يجول العقل فيها . نعم الاشتغال بمعرفة حقائق الكائنات العلوية والسفلية وتفصيل ما يتعلق بها وضبط قياس الحركة والفضاء الذى تتم فيه بواسطة التأمّل فى الطبيعة حدث زمن أرسطاطاليس على أن ذلك البحث كان فى الغالب متعلقا بالأجسام العضوية وهى الحيوان والنبات ثم ارتقى ذلك زمن العرب الى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأوّلية التى تحلل لادخالها فى مركبات أخرى لأنهم كانوا يسكنون بحيث جزيرة العرب مابين مدينة مسكات ومكة الذى به كثير من البهارات والصموغ البلسمية والجواهر

النافعة والضارّة بالانسان فالتفتوا الى مزايا ما بارضهم من النباتات النافعة فى الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور ومثلهم من فى سواحل مالابار وسرنديب (سيلان) والسواحل الشرقية من قسم أفريقية فتحصل كل على مزية لم يعلمها الآخر إلا بواسطة تجارات أتت من مخزن (جرها) الذى بين الخليج الفارسى واليمن وجابت بحيث جزيرة العرب حتى بلغت كنعان والشام . وأما البحث عن الجواهر الطبية الذى مدحه ديوسقوريدس لأهل مدرسة الاسكندرية . فمن مخترعات العرب أنهم المنشؤن للأجزاخانات الكيماوية والموروث عنهم مايسمى الآن بقواعد تحضير الأدوية الذى انتشر بعد من مدرسة (سالرنه) فى الممالك التى فى جنوب أوروبا

﴿ المبحث الأوّل فى علم الكيمياء ﴾

قد أدّى انشاء الأجزاخانات والمادّة الطبية اللتين هما أوّل مايلزم لفنّ الطب الى الاشتغال بعلم الكيمياء الذى كان ابتداء العرب فى التمدن مبدأ للاشتغال به وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب لا تركيب الذهب والفضة المسمى بالكيمياء السرّية والاكسير والحجر المكرم وقد أوصلت العمليات الهرمسية وهى تراكيب الملاغم والمخلوطات المعدنية التى عملت فى المعادن المطروقة الى أبدع الاستكشافات المعدنية وعرف تركيب الكبريتيك والماء المعشر والماء الملكى وتحضير الزئبق وتخمير الجواهر الكؤلية وغير ذلك من مؤلفات أبى موسى جعفر الكوفى المشتهر فى القرن الثامن من الميلاد والفخر الرازى المتوفى سنة ٩٢٣ من الميلاد

﴿ المبحث الثانى فى علم النباتات والمادّة الطبية والاقتصاد الزراعى ﴾

لسعة اطلاع العرب على مزايا النباتات أدخلوا فى الأدوية نباتات جهل اليونانيون خواصها كالراوند وشحم التمر الهندى وخيار شنبر وورق السنا المكى والاهليليجات والكافور وعرفوا أنواع الطيب الزكية كجوز الطيب والقرنفل وغرسوا عدّة أشجار من ذوات الزهور المذكرة والمؤنثة وعرفوا ما يتعلق بخصب آلات الذكورة والانوثة ورأوا استعمالهم السكر فى الطب أفضل من استعمال القدماء العسل فأدخلوه فى مركبات كثيرة كشراب الورد وأشربة جلابية (بضم فشدّ) ومعاجين كثيرة واشتغلوا بعلم الجيولوجية وهو معرفة تركيب طبقات الأرض . وتكلم ابن سينا فى المادّة الطبية على شجرة الارز المسماة (ديودقارة) النابتة فى جبال (هماليه) وجعلها نوعا من الشجر المسمى (جونيبيريس) الداخل فى تركيب زيت الترمنتينا . وقد أنشأ عبد الرحمن الأوّل خليفة قرطبة بستان نباتات بقربها وبعث الى الشام وغيره من الممالك المشرقية سياحين لجمع البذور النادرة وكان قد غرس بقرب قصره فى الرصافة أوّل نخلة فى قرطبة . وبالجملة بذل العرب صادق الهمة والعزيمة فى تعلم وتعليم جميع فروع العلوم المتعلقة بالمولدات الطبيعية . ولذا أنصفهم المؤلف (ليبل) فى كتابه الجديد بما حكاه من اشتغالهم بعلم الجيولوجيا . ونقل (دساسى) عدّة فصول من كتاب القزوينى المشهور باسم (بلينن المشارقة) واشتهر حياة الحيوان للدميرى الذى هو عند العرب بمنزلة (بوفون) عند الفرنج وبلغت العرب فى علم الزراعة أقصى درج الكمال . وأحدثوا فى اسبانيا الدواليب ذات القواديس المعتادة الآن . وكان عندهم فى الاقتصاد الزراعى معلومات شيبت بأوهام فاسدة إلا أنهم كانوا يعرفون طرقا عملية تستحق التفات الفلاحين اليها

﴿ المبحث الثالث فى علم الطب والمدرسة اليونانية العربية والفخر الرازى وابن سينا ﴾

أحضر ملوك الفرس الأكاسرة من ابتداء القرن الثالث بعد الميلاد العيسوى أطباء اليونان فنشروا فى البلاد المشرقية آراء أبقراط الطبية حتى سابقت المدرسة التى بجنديسابور مدينة الاسكندرية أيام البطالسة ثم فتحت العرب البلاد فكان مركز التعليم (أنطاكية وحران) وظهر منهما أطباء جامعون فى الغالب بين العلوم الرياضية والفلسفية عارفون باللغة اليونانية كالعربية التى ترجموا اليها كتب أرسطو واقليدس وبطليموس

منهم

منهم يحيى بن ماسويه طبيب هارون الرشيد ألف فى الطب كثيرا من المؤلفات المعتبرة عند المشرقيين . منها شرحه المشتمل على ثلاثين كتابا . وكتاب فى تحضير الأدوية . ورسائل فى أصناف الحمى والأغذية والنزلات والحمامات وأنواع الصداع والشقيقة وغير ذلك ترجم كثير من مؤلفاته الى العبرانية و يوجد بكتبخانات أوروبا كثير منها بالعبرانية والعربية . مات سنة ٨٥٥ ميلادية وله ثمانون سنة فخلفه تلميذه حسين . وأخذ من المأمون على كل كتاب ترجمه من اليونانية الى العربية زنته ذهبا . ترجم كتابى جالينوس وأبيقراط وغيرهما . وألف كتبا كثيرة فى الطب والمنطق الفلسفى . واختبره المتوكل حيث سأله عن سم قاتل بمجرد تناوله فقال لا أعرف إلا الأدوية الحافظة للصحة فاتخذه طبيبا وأغدق عليه . توفى سنة ٨٧٤ ميلادية . ومنهم جبرائيل المشتهر فى علاج كثير من الأدواء . والفخر الرازى محمد بن زكريا قام بادارة المستشفيات فى بغداد والرى وجنديسابور وهو أوّل من أحدث المسهلات اللطيفة فى الأجزاخانات والتراكيب الكيماوية الطبية واستعمال الخزام وأوّل من ميز القصب الحنجرى عن القصب الراجع الذى يكون أحيانا مضاعفا من جهة اليمين . وكان يرى أهمية التشريح فى الطب الذى ألف فيه أ كثر من مائة مؤلف منها كتاب ضخم سماه ﴿ الحاوى فى علم التداوى ﴾ ورسالة فى الجدرى والحصبة استمدّ منها سائر الأطباء وأهدى الى الأمير المنصور حاكم خراسان فى القرن العاشر من الميلاد أحد أبناء العائلة السمانية عشرة كتب حسنة الترتيب والاسلوب طبعت فى مدينة (ونديق البنادقة) سنة ١٥١٠ ميلادية وهى أوّل مابحث فيه عن الحرة عمى كبيرا فمنع أن يعالجه من الأطباء إلا من عرف عدد أغشية العين وساح فى الشام ومصر واسبانيا . توفى سنة ٩٣٢ ميلادية واشتهر بعده بخمسين سنة على بن عباس الفارسى المجوسى ألف فى الطب كتابا عشرين مجلدا . عشرة فى قواعد الطب . وعشرة فى عملياته سماه ﴿ الملكى ﴾ وأهداه الى السلطان عضد الدولة البويهى ترجه الى اللاتينية اصطفان الانطاكى سنة ١١٢٧ ميلادية وطبعه ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ فى مدينة ليون بفرنسا ولم يكن فى حكماء العرب مثل الفخر الرازى وأبى على الحسين بن سينا المولود فى (افشانه) من ضواحى شيراز سنة ٩٨٠ ميلادية كان والده حاكما على شيراز وتعلم هو الطب فى بخارى وعالج وهو ابن ١٨ سنة الأمير نوح السمانى وشفى من مرض عظيم فتقدّم عند الملوك السمانية ووعده محمود الغزنوى الاغداق عليه ان أقام عنده فأبى ودام على التغرب فى البلاد وأقام عند قابوس حاكم اقليم جرجان وجدّد فى ديوانه أعمال الطبيب اليونانى (ابراز سستراطس) وجدّد له موئلا فى مدينة الرى حين كان سلطانها مجد الدولة ثم فى مدينة همدان حين اختاره ملكها شمس الدولة أن يكون وزيرا وطبيبا له ثم دعاه علاء الدولة للقيام بوظيفتى الوزارة والطب بأصفهان ألف كتبا من أجلّ المؤلفات منها (القوانين) وهى خمسة كتب ترجمت وطبعت مرارا وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازى تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا . مات سنة ١٠٣٧ ميلادية

﴿ المبحث الرابع فى مدرسة اسبانيا وابن القاسم وابن زهر وابن رشد وغيرهم ﴾

ظهر أيضا فى مدرسة اسبانيا من الأطباء جمع منهم أبوالقاسم خلف بن عباس المعروف عند الفرنج بالبوقاريس وضع علم الجراحة ووصف آلاتها وكيفية استعمالها وما يحصل فى بعض الكيفيات من الأخطار وعين لاخراج الحصوة موضع البضع الذى عينه متأخرو الجراحين من الفرنج ولم تعرف مؤلفاته بين الفرنج إلا فى القرن الخامس عشر من الميلاد . مات سنة ١١٠٧ ميلادية . وأبومروان بن عبد الملك بن زهر ولد فى بلدة (بنافلور) أدخل فى المادة الطبية عدّة أدوية وأحدث فى علم الجراحة فتح شعبتى التنفس ووصف أمراضا لم تكن موصوفة قبل مثل المرض المعروف بالتهاب الحجاب المنصف للتامور المحيط بالقاب وتعيين لردّ العظام المنتقلة الى مواضعها وجبر المنكسر منها ترجمت كتبه الكبيرة الى اللاتينية غيرمستوفاة الترجمة استخدم عند الأمير يوسف بن تشفين صاحب مراكش فأغدق عليه . ومن تلامذة ابن زهر أبوالوليد محمد بن

رشد اتبع أصول الفلسفة الأرسطاليسية . وألف رسالة فى الترياق وكتابا فى السموم وأنواع الحمى وشرحا على كتاب أرسطاطاليس . وشرحا على قوانين ابن سينا . وكتابا ضخما مشهورا (بالكليات) طبع فى مدينتى ونديق وليون وغيرهما . وكان عبد الله بن أحمد بن على البيطار أعلم الأطباء بعلم النباتات ساح فى البلاد المشرقية زمنا طويلا وأكرمه السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى والكامل صاحب دمشق اشتمل مجموعه المسمى (بالأدوية المفردة) المقسم أربعة أقسام على وصف جميع النباتات والأحجار والمعادن والحيوانات ذات الخواص الطبية . أصلح فيه غلطات ديوسقوريدس وجالينوس وأوريان . وبالجملة كان ملوك الشرق يدعون العلماء الى دواوينهم ويستقبلونهم بأنواع التشريف والأموال الجزيلة فكان منهم عدد لا يحصى حفظت أسماؤهم فى التواريخ اشتهر منهم فى الطب ثابت بن قرة الطبيب الفلكى سنة ٨٥٠ ميلادية وأبو جعفر أحمد بن محمد الطالب الذى ألف سنة ٩٧٠ ميلادية فى داء البرسام والسرسام وغيرهما وعلى بن رضوان سنة ١٠٦٠ ميلادية وجزلة بن جزلة سنة ١١٠٠ وعبد الرزاق سنة ١١٥٠ وهبة الله سنة ١١٥٥ والجلدكى الذى ألف سنة ١٢٥٢ كتابا فى الحجر المكرم المسمى أيضا (بالكيمياء السرية والصنعة الالهية) وأبو الفرج سنة ١٢٨٦ واسحق بن ابراهيم سنة ١٣٠٠

﴿ باب فيما كان عند العرب من الفلسفة والالهيات والفقه والمعارف الأدبية ومخترعاتهم وفيه مباحث ﴾

(المبحث الأول فى عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس)

زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وما ذاك إلا لجهلهم بأشغال العرب فان جميع الدروس بمدارس أوروبا فى القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية وكانت ترجمة حسين الطبيب ويحيى النحوى كتب أرسطاطاليس مبدأ لاشتغال العرب بالمعلومات الفلسفية التى كان من رجالها الكندى ومحمد بن مسعود وأبو تمام النيسابورى وأبو سهل البلخى والأسفراينى والعميرى ثم ظهر الفارابى وابن سينا فكانا أشهر رجال الفلسفة لتدوينهما لها على الصورة المذهبية التى نقلها عنهما ابن باجه واثير الدين الأبهرى وعلى الخونجى وابن رشد وأبو الصلت ونصير الدين الطوسى ثم جالوا فى مدارس المغرب . ولا تظن أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو بل كانوا يعرفون تأليف أفلاطون لاسيما كتابه الأكبر المؤلف فى الشرائع وعدة كتب منسوبة الى (فيثاغورس) وكانوا يذكرون من قدماء اليونان كثيرين أورفيه وأوميروس المحتوية أشعاره على الفلسفة الدينية والفلاسفة السبعة وانكزا غورس وايرا قليط وديمقراط والالياطيه وسقراط وتلامذته واقليدس والفلاسفة الاسطوانية وكان عندهم فى الجزء الثانى من تاريخ علم الفلسفة مسائل فيمن كمل فلسفة أرسطو ومن شرحها وفيما يخص مدرسة الاسكندرية . وكانوا يعتمدون أقوال (بلوتين) و (برقلوس) ويلهجون كثيرا بالقضايا العلمية . وكانوا واسطة بين زمن الفلسفة القديمة والفلسفة المدروسة فى أوروبا وكانت المجادلة بين أهل الظاهر منهم والباطن عدة قرون فضل فيها بعض أهل المدارس المشرقية على بعض وكان منهم معتزلة بصرية ومعتزلة بغدادية وحكماؤهم الفلاسفة الذين ظهرت فلسفتهم على علماء الفرنج فى القرون المتوسطة بل وعلى أرباب الأسرار الروحانية ومثل مارى بوناقنطور . انتهى

فلما سمع صاحبى ذلك قال ياعجبا كل العجب هذا القول لم أسمعه إلا الآن وكيف يكون أسلافنا من الأمة المحمدية هم آباء العالم كله . وكيف يكون ذلك شأنهم ونحن اليوم على مانحن عليه جهال غافلون . فقلت . ذلك لثلاثة أسباب ﴿ السبب الأول ﴾ أن ملوك الاسلام ان كانوا صالحين صلحت الأمة وان كانوا طالحين ضلت الأمة لافرق بين الأمويين والعباسيين فى الشرق والأمويين ومن بعدهم فى بلاد الأندلس فهؤلاء الملوك جميعا ان استقاموا استقامت الأمة واذا فسدوا فسدت لجهلهم وظلمهم فتضيع العلوم والصناعات التى هى فروض كفايات ﴿ مثال ذلك ﴾ من كلام المؤرخ المذكور أن محمدا الجار فى الأندلس بعد ماظن

المسيحيون أنهم كادوا يطردون العرب من الأندلس أخذ يثير الهمة والتنافس بين أهل الصنائع و يشوّقهم الى الاختراع و يعطى مكافآت لمن أتى بشئ من ذلك فنجحوا و برعوا فى نسج أقمشة الحرير وغيره . وكذا فى النبات براعة أهل قرطبة وكفى بقصر السباع المعروف بالحمراء شاهـدا على ما كان لأهل غرناطة من الغنى والمهارة فى فنّ البناء مع ماهلم من الاجتهاد التام بعلوم الفلك والطب والكيمياء والرياضة والنحو والمنطق

وأخذ هذا الملك يعمل بغرناطة أعيادا لتمثيـل الوقائع الحربية وأعيادا لمناضـلة الفرسان ومواسم لمقاتلة الأثوار وأخرى للتسابق ولعب أخـذ الخاتم و يدعو أعيان الرعيـة الى الأعياد والولائم العظيمة ولم يكن ذلك نتيجة جوره بل رفاهيـة المعيشة فى سائر الرعية . ولذا كانت مدينة غرناطة كرسى مملكته مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة جميع من لم يرد الاقامة تحت حكم نصارى اسبانيا وكثرت المهاجرة اليها حين أخذ الملك (چاك) يطرد المسلمين من مدينة (والنسة) سنة ١٢٤٩

ولم يزل ملوك غرناطة متولين الحكم بها من سـنة ١٢٣٨ الى سنة ١٤٥٢ ميلادية محسنين ترتيبهـم السياسى فقد رتبوا فى كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحا يستعملونه حالة هجوم العدوّ فرفعوه مرات على ملوكهم المتمنعين من أداء واجباتهم الملوكية أوالذين لا يعبأون بمشاورة الأمّة وجعلوا للعساكر المحافظين بالثغور اقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلاتهـم لتبعثهم على الوقاية من الأعداء وألزموا أنفسهم مثـل ملوك الأقاليم المغربية بالقيام بما يلزم طوائف الفقراء من نحو المأكل والمشرب وأكثروا فى الأسواق المبيع الضرورى ورتبوا فى غرناطة التى دائرها أكثر من ثلاثة فراسخ ضـبطية وفى كل ثمن منها ضابطا ورتبوا عساكر تدور ليلا فى الأماكن التى لم يكثر طروقها وعملوا قوانين لزمن اغلاق المحال العامّة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة وعاقب كثير منهـم من أفرط فى شرب الخمر وأمروا اليهود أن يتميزوا بعـلامة من غير اساءة معاملتهم ومنعوا الربا فى النقود وابتكروا فى كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة وشغلوا العلماء بتأليف رسائل فى الصنائع العملية واتقاد الأمّة والفقهاء لقوانينهم النظامية بعد أن كانوا الى زمن هذه السلطنة مطلق التصرف يفعلون ماشاؤا . وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنبئ عن كمال ايمانهم وعلوّ أفكارهـم وشرف التأديب والتهذيب الدينى منها انعزال النساء عن الرجال فى المساجد وخروجهنّ قبل الرجال واكثار الطاعة فى رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء وأهلها أوابقاؤها لتنفق فى عمـارات عامّة النفع . ومنع اجتماع الناس ليلا وابطال الندب على الأموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم ودفن الموتى عارين عن التمائم و باقات الأزهار المعتادة قبل هؤلاء الملوك . وكان المستعمل فى قوانين العقوبات على الجنح والجنايات الضرب بالسوط والنفى عن الأوطان واشهار المذنب بوضعه على خشبة فاستبدل هؤلاء الملوك ذلك بحبس المذنبين فى مكان يشتغلون فيه . وأبطلوا رجم المذنبين . وأمروا بدفن من يقتص منه بالقتل مثل دفن سائر المسلمين

و بما سلف يعلم أن مملكة (غرناطة) نظرا لما كانت عليه من الامور الجليلة تستحق أن تعتبر فى التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقررا على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديرين بتعجب الأجيال المستقبلة من عدلهم وحسن سياسـتهم ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التى عجلوا زوالها من بحيث جزيرة اسبانيا

فلما سمع ذلك صاحبى قال قد عرفت السبب الأوّل وهو أن المسلمين لما جعلوا الملك ميراثا تولاه ملوك جهلاء وأضاعوا ما أسسه الفضلاء . قلت ﴿السبب الثانى﴾ أن هذه العلوم التى بها حياة الاسلام حقيقة ما كان الناس يدرسونها باعتبار أنها دين بل كانوا يدرسونها بأمر الملوك وتقربا اليهم كما تقدّم آنفا إذ كان المأمون يعطى زنة الكتاب ذهبا لمن يترجمه ولذلك كنت تجد أكثر المترجمين من المسيحيين كأن المسلمين ظنوا أن هـذا مخالف للدين مع أنه هو قوام الدين ﴿السبب الثالث﴾ أن علماء الدين كانوا لا يتكلمون على فرض

الـكفاية بتوسع بل ترى ذلك فى كتاب ﴿ جمع الجوامع ﴾ المنتشر فى بلاد الاسلام فى علم الاصول لم يذكره إلا فى الكلمات اليسيرة التى رأيتها حتى نسى المسلمون عماد ديننا فقعدوا عنـه وذلك للجهل التام فى الأعصر المتأخرة • فقال صاحبى زدنى من هذا • فقلت أما الآن فلا وان أردت المزيد فسترى هـذا المقام جيل المحيا باهرالطلعة باسم الثغر شريف المنقبة فى سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بمناسبة قوله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله ـ فهناك ترى أن موسى عليه الصـلاة والسلام أرسـل ليخرج قومه من الظلمات الى النور ونبينا ﷺ أرسل ليخرج قومه من الظلمات الى النور فى نفس الآيات وأن موسى ذكر قومه بأيام الله كما أمره الله فذكرهم بخروجهم من ذل فرعون والمصريين وما بعـد ذلك وأن نبينا ﷺ ذكر قومه كما تقدم فى سورة الأنفال وفى كثير من الغزوات مثل قوله ـ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ـ الى آخر ماذكرناه من النعم التى هى (١٤) نعمة وانه يجب علينا فى هذا الزمان أن نذكر أمة الاسلام بالحوادث السابقة من عصر النبوّة الى الآن وستراه هناك مفصلا مع الايجاز وترى عصر النبوّة ومابعده من العباسيين والأمويين وخراب بغداد والأندلس وانتشار العلوم وتقاصها واذلال العلماء كابن رشد وانتقال العـلم الى أوروبا وضياع بلاد الاسلام بعد عزها ثم ذكر علماء أوروبا فى القرن السادس عشر ومابعده الى نهاية التاسع عشر وانهم حلوا العلم الذى أعطاه آباؤنا لهـم وانا يجب علينا أن نسترجع المجد ونخدم الانسانية لأننا لهـذا خلقنا فلنرجع الى سـيرتنا الأولى • فلما سمع ذلك صاحبى قال سأنتظر حتى أقرأ تفسير سورة ابراهيم ولـكن بقى عندى سؤال وهو • لماذا نرى بعض المتعلمين من أبناء مصر وغـيرها من المسلمين يعتقدون أن المسلمين الأوّلين ماعملوا شيأ • ما السبب فى ذلك • فقلت السبب فيه أمران ﴿ الأوّل ﴾ أن بعضهم بذلك يظهر تفوّقه وعظمته على أبناء بلاده • وهذه العظمة لاتظهر إلا بطمس معالم الأجداد وجحدالديانات ليقول الناس انه فيلسوف عظيم ﴿ الثانى ﴾ أنهم لم يطلعوا على مثـل مانقلناه لك عن الفرنجة حتى يعرفواماعرفته الآن من هـذا المقام بل ان أكثر هؤلاء يجهلون تلك العلوم فلا يعرفون إلا لغـة من لغات الفرنجة ويأخذون شهادات فى تاريخ أوأدب أونحوذلك فيفرحون بما نالوا ويموتون شهداء الجهالة والغرور اه

﴿ حديث جيل ﴾

(فى عجائب القرآن ومدهشاته إذ يشبه فيه الدين بشجرة ذات فروع)

قال صاحبى قد فهمت ذلك ولـكن أرجو أن تحدّثنى حديثا جيلا يكون فيه سمر للبادى والحاضر أعرف به أن جميع العلوم يطلبها القرآن غير ماذكرته سابقا حتى أزيد اطمئنانا وعلما ويثبت فى قلبى أن مافعله آباؤنا من التقاعس عن العلوم العصرية خطأ وأن ديننا يطلبها جميعها لا فرق بين دنيوى وأخروى • فقلت اعلم أن جميع العلوم كشجرة أصلها ثابت فى العقول وتستمدّ من النور الالهى وفرعها يسمو الى العلا ويمتدّ على طول الزمان • واذا نمت الشجرة الى أعلى فان فروعها تكون ﴿ قسمين ﴾ قسم منها فى القلب • وقسم منها فى الأطراف • والقسم الذى فى القلب عليه مدار الشجرة • والقسم الذى فى الأطراف يحيط بالقلب وأنت اذا بحثت الشجر كله وجدته على هذا النمط • ولاجرم أن القلب فى فروع الشجرة أهم من الأطراف أفتوافق على ذلك • قال نعم • قلت انظر • أليست العلوم فى الدنيا كلها على ﴿ قسمين ﴾ قسم به حياة الأمم وسعادتها وهى العلوم الطبيعية والفلـكية والرياضية • وقسم به حفظ البـلاد والعباد كالقوانين وكالطب وما أشبه ذلك • قال نعم • قلت فدين الاسلام له قلب كقلب الشجرة وأطراف كأطراف الشجرة • قال نعم • قلت والقلب هى علوم الفلك والطبيعة من معدن ونبات وحيوان وانسان وعلم النفس • وهكذا علم طبقات الأرض • وكذلك علوم الحساب والهندسة والجبر التى لاتتم حياة إلا بها ولايعرف الفلك إلا بدرسها وعلم الفلك لابد منه لامور كثيرة منها سـير السفن فى البحار وهكذا • قال نعم وهذه العلوم بها شكر الله

وبها التوحيد • وبها معرفة جمال الله • فبها حب الله • وبها عبادة الله • وبها شكر الله • وبها توحيد الله • والزيادة فى التوحيد والزيادة فى الشكر واجبان عينيان على كل قادر • وقد أجمع العلماء على أن شكر المنعم واجب • ولامعنى للشكر إلا على نعمة • ولاشكر على نعمة لانعرفها • ولامعرفة لنعم الله حقا إلا بدراسة ماحولنا من السماء والأرض • وعلى مقدار دراسة ذلك يكون الشكر إذ لاشكر على مجهول ولاحب لله بغير سبب وأهم الأسباب الوقوف على دقة صنعه وجمال وضعه وبديع حكمته • قال صاحبى • إذن هذه العلوم واجبة على كل مكلف وهذا محال • قلت نعم محال • بل أنا أقول كل من قدر على المزيد منها بحيث لايخل ذلك بأحواله وجب عليه لقول الله تعالى — وقل رب زدنى علما — وقوله — واشكروا لى — ولاشكر إلا بما علمت • فهذا هو قلب دين الاسلام • وهو نفس علم التوحيد • وهو الذى به تحفظ الأمة نفسها وتنفع الأمم وتعلو • وهذا سر قوله تعالى — ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين — • فمن عكف على علم الفقه وهو قادر أن ينظر فى جمال النجوم وبهجة القمر والشمس وجمال الزرع والزهر وبهجة الأنهار والبحار فهو غير شاكر لله بل هو غافل نائم ساه • وهذه حال أغلب المسلمين اليوم فلاعلم بالله ولاسعادة فى الحياة ولاثروة ولا استقلال لأنهم أعرضوا عن هذه العلوم • وهذا نفسه هو معنى قوله تعالى — ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى — فقال صاحبى واها لك واها لك واها أتتلو آيات سيقت فى الكفر فتجعلها فى المسلمين • فقلت له ياعجبا لك • أليس يقول الله — ومن أعرض عن ذكرى — هو لم يقل كفر بى بل قال تعالى — ومن أعرض عن ذكرى — والمسلم بجهله هذه العلوم أعرض عن ذكر الله الحقيقى • ألم تسمع قوله تعالى — الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك الخ —

فقال • إذن أغلب المسلمين يحشرون عميا • قلت لست أقول هذا بل أقول الايمان بالله يورث دخول الجنة ولكن عمى البصيرة يؤخر الدخول فيها • فاذا كان شكر الله واجبا وزيادة التوحيد واجبة فان تركهما حرام • وهذه معصية من الكبائر والسبائر القلبية أعظم جرما من الكبائر الجسمية • وعليه يكون الضنك الذى حل بالمسلمين اليوم هو الذى جاء فى قوله تعالى — فان له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى —

إن الله عز وجل سيعذب المسلمين حقا بعد الموت ويوم القيامة كما عذبهم فى الدنيا على ترك علوم تعد بالعشرات • وعلى ترك صناعات تعد بالآلاف • أمرهم الله بها فناموا عنها وبعضها واجب عينا وأكثرها واجب وجوبا كفائيا وأعظم المصائب على المسلمين ترك الواجب الكفائى • فالمسلم الواحد منا يعذبه الله يوم القيامة وفى الدنيا بترك أمته صناعة واحدة أوعلما واحدا • هذا هو ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى • فاذا مات أحدنا وهو يحمل من الأوزار بعدد العلوم والصناعات • أفليس يكون أعمى يوم القيامة • وكيف يكون بصيرا والله يقول له — أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى — فالمسلمون الذين يسمعون هذا القول ولايقومون بنشره يحشرون يوم القيامة عميا على مقدار تقصيرهم وهاهم الآن يعذبون فى الدنيا باذلال الأمم لهم فان تابوا وقاموا بذلك خفف عنا عذاب الخزى فى الدنيا بازاحة الأمم الظالمة عنا وفى الآخرة بالخروج من جهنم • فقال صاحبى عرفت الكلام على قلب الشجرة الاسلامية فأحب أن أسمع الكلام عن القسم الثانى وهو الأطراف • فقلت أما أطراف الشجرة الاسلامية فهى الفروع الفقهية والعلوم الالهية من النحو والصرف وأمثالها • فهذه العلوم مكملات ومتممات للقسم الأول محيطات به كاحاطة فروع الشجرة الجانبية بالفروع

القلبية . ولاسبيل للقضاة أن يحكموا بالشريعة إلا بسياج يحفظ البلاد والسياج الذى يحفظها هو الصناعات والعلوم الطبيعية والرياضية التى بها تنمو مصالح البلاد والا فهل يقضى القاضى بين خصوم لايعيشون وانما الخصام لموجودين احياء . قال حسن ماقلت

﴿ بيان أن تشبيه الاسلام بالزرع والشجر سيأتى فى سورة ابراهيم وسورة الفتح ﴾

فهل ورد فى القرآن مايشير الى هذا التشبيه الذى ذكرته . فقلت نعم سترى فى سورة ابراهيم وفى سورة الفتح أن الله يقول — ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها — ويقول — ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه الخ —

إنّ الله عزّوجل علم قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سيقعون فى هذا الجهل والذل المشين فأنزل هذين التشبيهين اللذين أبرزا العلوم كلها كأنها فروع لشجرة واحدة فالاخلال بالقلب أهمّ من الاخلال بالاطراف وسترى هذا المقام واضحا فى السورتين إن شاء الله تعالى

﴿ حسن نظم القرآن فى هذا التمثيل ﴾

ومن عجب أنّ الله عند الامور المهمة يوقظ النفوس لها بالتعبير فهاهو ذا فى سورة ابراهيم يقول — ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة الخ — فانظر كيف قال — ألم تركيف الخ — كما قال فى سورة البقرة — ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه — فالاتيان بألم ايقاظ لنا نحن كأنه يوبخنا على عدم العناية بالعلوم المكنونة المخزونة فى التعبير بالشجرة الطيبة ذات الفروع المذكورة كما وبخنا على عدم التفكر فى عظام الحمار كيف تكسى باللحم أى على جهل علم التشريح ونحوه كما تقدّم فى سورة البقرة موضحا هناك . فأنا أذكر المسلمين أن ينظروا فى سائر العلوم كما أذكرهم بعلم التشريح الذى هو أحدها

﴿ ذكر حديثين ﴾

(أحدهما بينى و بين عالم مسلم عظيم . والثانى بينى و بين الاستاذ (ادواردبراون) الانجليزى)

وها أنا ذا أيها الأخ أحدثك حديثا دار بينى و بين أحد أفاضل علماء الشيعة من جهات حضرموت مشهور الاسم عظيم المقام . وانما لم أذكر اسمه لأنى لم أستأذن منه فى ذلك لأنه مسافر وقت كتابة هذا الموضوع فى يوم العيد الأكبر من سنة ١٣٤٤ هجرية زرت رجلا عظيما ردّا لزيارته بمنزله بالعباسية ومنزله محط رجال العلم والأدب من سائر الأقطار فما استقرّ جلوسى حتى قدم ذلك العالم الحضرمى الكبير وكنت لم أره من قبل وقد بلغنى عنه قبل ذلك بأسبوع أنه يعترض على ما أكتبه فى هذا التفسير . فلما جلس أخذ يذكر المجلس بما لديه من علم جم و براعة فى الحديث والعلم فأعجبت أنا وأعجب الحاضرون به . ثم دار الحديث بينى و بينه على ما يأتى

ماتقول فى الوهابية الذين هم قد استولوا على الحجاز ورأيت من كلامه أنه يبغضهم وهكذا جرّ الحديث الى الشيعة وأهل السنة . فقلت له ان جميع هذه الأمّة على حقّ فالوهابية والشيعة وأهل السنة قوم مخلصون وليس عند أحدهم إلا ما اعتقده هو وعلم الفقه عند الجميع قد قام بما هو منوط به . إنّ علم الفقه به تحفظ العبادات والحقوق وتحفظ البلاد بالقضاء . ولاجرم أن هذه الطوائف كلها قد حافظت على بلادها وعلى عباداتها ولكنهم جميعا مقصرون . قال جميعا . قلت نعم جميعا . ألاترى أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذى جرى عليه المسلمون منذ ١٣ قرنا لامعنى لتكراره الآن . ومن اطلع على كتاب المواقف وغيره من كتب العقائد عرف كيف كان القادة يكيد بعضهم لبعض لأجل الملك . وهكذا ترى الملوك العباسيين قد فضلوا مذاهب أهل السنة حتى لايتبع الناس آل البيت ويبقى الملك لهم . هذا الخلاف الآن

مضى زمانه . ومن المحزن أن يعيش المسلم فى القرن الرابع عشر ويتخيل نفسه فى القرن الأوّل الهجرى

وها أنا ذا أقصّ عليكم قصصا مع عالم انجليزى شهير جاء الى مصر فى سنة من سنى العشرة الاول من القرن العشرين المسيحى أى منذ نحو (٢٠) سنة يسمى (ادوارد براون) وقابلنى وحادثنى فى أمور الاسلام وكان يجيد العربية والتركية والفارسية ولغات أخرى . فقال قد كلفتنى دولتنا الانجليزية أن أبحث فى أهل السنة والشيعة من المسلمين هل يتفقون فسافرت الى تركيا وجلست بين ظهرانيهم مدّة وهكذا الى بلاد فارس وعاشرتهم فرأيت مدهشات . رأيتهم جميعا يكرهون أهل السنة . يتخيلون أنهم هم الذين قتلوا الحسين رضى الله عنه مع أن الحسين مضى له (١٣) قرنا ولقد قال لى طالب من طلابهم اننى قد حاربت مع الروس ضدّ الترك . حاربتهم بسيفى هذا لأنى أفضل الكلب على التركى لأنه سنى . قال الاستاذ وأنا موقن أن هذا الجبان ما ذبح دجاجة مدّة حياته ولكن البغض ملأ قلبه . ثم قال فعلمت من هذا أنّ هذين الشعبين لايتحدان . قال وعجبت كل العجب من هذه البلاهة الحمقاء . كيف يرى هؤلاء أن قيصر الروس يجوس رجاله خلال ديارهم ويتغلغلون فى البلاد ويوشك أن يبتلعوها ثم هم يرجعون الى (١٣) قرنا مضت فهل الحوادث التى مضى عليها تلك القرون كلها تهمهم أكثر مما يبصرونه داخل بيوتهم وماهو محيط بهم من كل جانب . فقلت له ذلك لأن المسلمين أكثرهم تركوا عقولهم ومواهبهم التى وهبهم الله تعالى وتركوا القرآن الذى قال الله فيه فى مثل هذا المقام ـ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون ـ . قال الاستاذ ادوارد وقدّمت تقريرا لحكومتنا وسردت فيه هذه الوقائع وقلت هذان الشعبان لايتحدان . انتهى

هذا رأيه إذ ذاك . ثم قلت بعد ذلك فهذه الحادثة تبين مصائب المسلمين المقصرين فى العلوم . فقال بعض الحاضرين أىّ العلوم تعنى . قلت إنّ فى القرآن (٧٥٠) آية كلها فى معرفة العلوم المحيطة بنا فى الأرض وفى السماء وماهى إلا العلوم الرياضية والطبيعية . فلماذا تركوها وحصروا عقولهم فى علوم جدلية وظنية أليسوا جميعا ملزمين بالتوحيد . قالوا بلى . قلت أليسوا جميعا مأمورين بشكر الله . قالوا بلى . قلت كيف ناموا عن هذه العلوم . نعم ناموا عنها لأنها صعبة عليهم تحتاج لزمن عظيم ومشقات فاستسهلوا الجدال والطعن والذم والقدح والرجوع الى الوراء وتركوا علوم آبائنا الى أوروبا . علوم آبائنا التى لولاها ما كانت أوروبا ولا أمريكا ولا اليابان الحديثة ولا الصين الحديثة كما رأيته فى كتاب (سديو) الفرنسى (وقد تقدّم فى هذا المقام) أمّة تنام عن الحقائق وتقتنع بالجدل والشقاق والخلاف جهالة فاشية وموت أدبى . الله الله فليقرأ السنى كالوهابى والشافعى والحنفى وليقرأ الزيدى والامامى . ليقرؤا كلهم هذه العلوم . ألم يقرؤا قوله تعالى ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ـ ألم يعلموا أن هذه العلوم هى حياة أممهم . فقال بعض الحاضرين . ألست تخشى أن يردّ عليك بعض المشهورين فى الفقه الاسلامى . فقلت له اعلم أنه لن يقدر عالم أن يدفع ما قلته لأنى أقول قال الله وأقول ان العقل قضى بكذا وأقول ان علماءنا السابقين نصوا عليه فى كتبهم فأىّ حجة لقائل بعد ذكر هذا

العلوم شجرة متفرّعة عن أصل ثابت وفرع فى السماء ولم ينزل دين من السماء ولاحدث علم فى الأرض إلا كان أوّلا أصلا منتظما ثم تفرّع على مدى الزمان . وهاهوذا الفقه أصله من العصر الأوّل ثم تفرّع طرقا ومذاهب والفقه كله من مائة وخمسين آية فأين التفرّع فى سائر العلوم التى آياتها كثيرة جدّا تعدّ بالمئات . فأقرّ الحاضرون جميعا ماقلته واستحسنوه بل فرحوا به بل صاروا من أنصار هذه الدعوة اهـ

ثم قلت لصاحبى هذا وانى موقن أن هذا الذى أذكره سيعم أقطار الاسلام جميعها وسيكون لهذا القول أنصار وأنصار ورجال عظماء يقومون به وسينشره الله هذا فى القريب العاجل ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ

﴿ خاتمة ﴾

ختمت هذه السورة بقوله تعالى - وهو ربّ العرش العظيم - وقيل أيضا فوق ذلك انها خاتمة ما نزل على رأى . والحكمة فى ذلك أن هذه السورة جاءت للقتال والجهاد والبراءة من المشركين . وقد جاهد المسلمون بتبوك بعد غزوات أخرى . وهذا فيه ابتداء سقوط عروش لملوك العالم المعروف إذ ذاك وقد وعد النبى ﷺ المسلمين بفتح فارس والروم . ولم يفتحا فى زمانه . فهاهوذا يقول - عليه توكلت - ومن توكلت عليه له العرش العظيم . وهذه الأمم التى أحاربها لها عروش أقلّ من عرشه . فهو لامحالة غالبها وستسقط تلك العروش فى سلطان أمّتى وتصبح فى عداد قوّتها . وسيأتى فى سورة (النمل) حديث الهدهد ومافى قصته من ذكر العرش إذ جاء فيها - انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم - الى قوله - ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لااله إلا هو ربّ العرش العظيم - فنكر عرشها وعرف عرش الله اشارة الى أنه أعظم من عرشها . ولذلك نقل عرش بلقيس فأصبح أمام سليمان الذى هو مرسل من عند رب العرش العظيم فالعرش الذى هو لمخلوق أصبح فى ملك من أرسل من عند رب العرش العظيم فى سورة النمل . فهاهنا ذكر العرش العظيم فقيل - لااله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم - ولم تذكر العروش الأخرى بل اكتفى فيها بالحضّ على الغزوات لاغير . ويفطن الأذكيا الى أن هذه العروش ساقطة لامحالة فى يد المسلمين كما أصبح عرش بلقيس بين يدى سليمان عليه السلام . وهذا من لطائف القرآن وعجائبه وهى الحكمة فى اختتام السورة بهذه الجوهرة الثمينة.ومن المناسبات قوله - ثم استوى على العرش - بأوّل يونس

﴿ تذييل لتفسير سورة التوبة وأنّ الرحمة فيها من أسرار الصلاة ﴾

اعلم أن سورة التوبة فيها سرّ الرحمة المتجلية فى الصلاة . إنّ المسلم فى صلاته يناجى ربه بالفاتحة والتشهد وبعض الأدعية وكلها مرجعها الرحمة العامّة وارجاع الامور لله . ففى الفاتحة يقول المسلم ان المحامد كلها لله على تربيته للعالم العلوى والسفلى الذى شملته الرحمة وعمه الاحسان والعدل فى الجزاء فله وحده الخضوع والتوجه . وبه وحده الاستغاثة . ومنه تكون الهداية للصراط السوىّ . صراط المنعم عليهم الذين هم وسط بين طرفين . وفى تشهده يفوّض كل شئ لله . فالثناء فى الفاتحة . والتعظيم فى التشهد خاصان بالله تعالى . وهكذا سائر الامور . وكما أنه طلب الهداية من الله فى الفاتحة أقرّ هنا بأن السلام عام من الله على الأنبياء وجميع الصالحين . ثم هو يناجى ربه طالبا ازدياد الرحمات على النبىّ ﷺ وصالحى أمّته والتحاقهم بالصالحين من الأمم السابقة . ثم يستعيذ بالله من العقبات التى تعوقه عن القربى لربه . وترى المسلم فى الاعتدال من الركوع يقول نحو ذلك فيحمده حمدا يملأ السموات والأرض وغيرهما ويبالغ فى التبرّى من الحول والقوّة فلاعطاء لغيره ولامانع لعطائه وهناك لاينفع الاجتهاد بلا اعانة وهكذا

فلخص مايقول المؤمن فى صلاته التبرّى من الحول والقوّة والاعتماد على الرحمة الواصلة من الله اليه وتفويض الامور له وتسليمها اليه . هذه هى المقصود من الصلاة وهى لاتصح ولابقاء لها ولاثواب إلا اذا حضر قلب المصلى فيها . ومتى حضر أشربت هذه المعانى فى قلبه ولابدّ من العمل بها لأن الانسان يعمل بما يعتقده واعتقاد المسلم إذن أنّ الله هو المربى وهو المستعان وله الخضوع وله العبادة ومنه الهداية ولاعطاء لغيره ولاعمل للعبد . وهذا كله تفويض تام . هذه هى صلاة المسلم يكررها طول النهار وطول الليل وأعماله الدنيوية تتخلل هذه الصلوات واذا تخللتها أثرت فى أحواله وأعماله وأقواله مادام حاضر القلب فى الصلاة . وهنا بيت القصيد . هنا تجلى ما أريده فى هذه الخاتمة فلقد رأيت كيف تخلى المسلم عن الآباء

والابناء

والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن وقيل له إياك أن تكون هذه الثمانية أحبّ اليك من الله فانها منه واليه . وفيها يرى المسلم أنه ان قتل فالقتل مغنم وان نصرفهومغنم وان عاش عدوّه أومات فذلك كله مغنم للمسلم لأن صدره اشتفى من عدوّه بعذاب جهنم أوعذاب القبر إن مات أو بموته قتلا بيد المسلم . فالحياة فى نظر المسلم كلها سعادة . فلافوات المال يحزنه ولاذهاب العمر يؤذيه وان افتقر فالله سيغنيه إمّا فى الدنيا واما فى الآخرة فاذن يكون قلبه غنيا وهو منشرح الصدر . فانظر كيف أصبح هذا الوجود كله والأحوال جميعها فى حق المسلم رحمة وسلاما تحقيقا للرحمة المقروءة فى الفاتحة المتكررة فى كل صلاة وللسلام الذى يرفرف عليه فى كل تشهد . فالمسلم إذن فى رحمة وفى سلام دائمين وأصبحت الرحمة فى العقيدة الراسخة التى تغذيها تلك التلاوات . فالحرب والفقر والموت والهزيمة والنصر والحياة والغنى كل هذه المتناقضات يصحبها الرحمة والسلام للمؤمن . واذا أصابه النصب والتعب والمخمصة والفقرفهو فى رحمة وسلام لأن المسألة حوّلت من المادّيات الى المعنويات ومن الظواهر الى البواطن واذن سرّ الفاتحة وسرّ الصلاة قد تجلى تجليا أعظم فى سورة التوبة

هنا ظهر سرّ الصلاة . وسرّ الفاتحة . وسرّ التشهد . وسرّ الصلاة على النبى ﷺ وعلى صالحى أمّته . وسرّ القنوت وغيره . ولعمرى إن هذا كله هو سرّ الحياة وسرّ السعادة . أتدرى أيها الذكى ماذا قال الحكماء والفلاسفة فى هذا المقام . أتدرى ماذا صنف الفلاسفة المتقدّمون فى هذه المسائل . انى أحيلك على ماتقدّم فى سورة البقرة فلقد ذكرت لك هناك أن فيلسوفا يسمى (قابس) قبل الميلاد بخمسمائة سنة ألف كتابا يسمى ﴿ لغز قابس ﴾ لخصته لك هناك ويرجع الأمر فيه الى أن السعادة ليست فى المال وجمعه ولا الجمال وبهجته ولا الولد وكثرته ولا العلم وعزّته ولا الصيت وشهرته ولكن فى الصبر والثبات والرضى فى مختلف الحالات فان شئت فارجع اليه وان شئت زدتك اليوم بيانا وأفدتك يقينا وحكمة وايمانا

تعجب كيف اتفق العلم والدين . وكيف صنف الفلاسفة بعقولهم ما أنزل الوحى على نبيه . وكيف يرى بعض الناس أن هذه المواعيد الايمانية والآيات القرآنية والبشارات الأخروية انما جعلت لترغيب الجاهلين والضحك على أذقان الغافلين ﴿ ذلك ﴾ لأنهم يظنون أنهم امتازوا بعلمهم عن بقية المسلمين اذا هم لافى العير ولافى النفير فلاهم بقوا مع العامّة المقلدين ولاهم وصلوا الى رتبة الحكماء المحققين . فياعجبا كيف يضلّ العلم أكثر المتعلمين . وكيف يكون العلم ضلالا والتنوّر به سرابا

إن الذين يسعدون فى الدنيا ﴿ رجلان ﴾ جاهل له ايمان . وعالم تام الحكمة والعرفان . وأمّا المتوسطون فهم الذين قتلتهم الحيرة والشك فى هذه الحياة فهم أبدا معذبون ويتلهون بالشهوات الجسمانية فى هذه الحياة ظانين أنها هى السعادة إذ لاسعادة فى سواها . وما الشهوات إلا ــ ظلّ ذو ثلاث شعب * لاظليل ولايغنى من اللهب ــ فهم يتقون الحرّ بالنار * كالمستجير من الرمضاء بالنار * فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون

﴿ حكاية الكوخ الهندى ﴾

ألف عالم من علماء أوروبا لا أذكر اسمه الآن كتابا يسمى ﴿ الكوخ الهندى ﴾ جعلهسياحة من الغرب الى الشرق فطاف مصر وسوريا وسائر البلاد باحثا عن الحق أين هو فوجد المسيحيين والمسلمين واليهود جميعا مختلفين فقال فى نفسه أين السعادة إذن فوصل الى الهند واتصل بالبراهمة فلم يبيحوا له الاتصال برئيسهم بل ألزموه أن يجلس فى مؤخر المجلس بعد أن اغتسل فأخذ يلقى أسئلة على آخر رجل فى المجلس وهذا يلقيه لمن يليه وهكذا حتى وصل الى رئيسهم وصورة السؤال ﴿ أين الحق ﴾ فكان الجواب أنه عند البراهمة وبعد أخذ وردّ وجدال هزئ الجمع بهذا الفرنجى فخرج يتعثر فى أذيال خيبته . وبينما هو سائر إذ عثر بامرأة

تبكي حظها وتنـدب أيامها فسألها ماذا دهاك فقالت إن زوجي مات ولم أحرق معه وكل امرأة مات زوجها ولم تزج نفسها معه فى النار فتموت تعتبر نجسة فأنا نجسة فلايكلمنى أحد فقال لها وأنا مثلك لأنى رجل مسيحى يعتبرونني نجسا فاصطلحا أن يتزوّجا وعاشا فى القفر يشاهدان جمال الله فى طلوع الشمس وغروبها وجمال النجوم والقمر وبدائع الطبيعة فى النبات والأنهار والحيوان والهواء الطلق ثم رزقا ولدا

ومما اتفق لهذا الرجل أن مرّ به سائح فأخذ يحدّثه وقال له أنت سعيد قال إنى لم أحس بالسعادة إلا فى هـذه الحياة فجمال الله مشرق علىّ أطالعه فى نجومه وشمسه وقمره وزهره وشـجره ونهره ومائه وهوائه وتغريد طيره وحسن صنعه فأنا فى أنوار وجمال وبهاء وهذا ولدى قرّة عيني وعين أمّه وقد ابتعـدنا عن ضوضاء المدن ودخانها وآلامها وكذبها وقضاياها ونفاقها الخ فقال له كيف نلت هذه السعادة قال له بعد أن كملت نفسى بالمصائب وصبرت على النوائب فالمصائب هـذبتها والنوائب صـقلتها وحوادث الأيام كملتها وقوارع الدهر شذبتها فأصبحت نفسى كالجلد المدبوغ ذهب نتنه وصلح عمله . فأما الذين لم تهذبهم الأيام ولم تصهرهم المصائب فهم أبدا فى حزن وألم فلا المال يغنيهم ولا الجمال وحده يرضيهم ولا الصيت يسعدهم ولا الولد يكفيهم فهم عرضة للهوان والذلة فى كل حال . فقال له أيها الأخ كيف تقول ان احتمال النوائب يسعد مع ان النوائب هى الشقاء وهى المذلة وهى الهوان وهى العذاب واذا لم تكن هى عذابا فأين العذاب إذن . لقد جعلت الجحيم نعيما والفقر غنى وقلبت القضايا ولم تصب الحقيقة . فهل يكون الليل نهارا . أم يكون الظلام ضياء . أم الموت حياة . إن هذا هو العجب العجاب

فقال اسمع ياصاح . ان الجبـل صعب المرتقى فاذا تحققت أن فوق هذا الجبـل حديقة غناء وطيورا مغرّدة وأنهارا جارية فأنت لامحالة مرتق اليـه فما دمت فى الارتقاء فأنت فى عناء ولا يكون العناء الا حيث لم تصل الى قمته ومتى وصلت الى أعلى الدرجات فهناك لا ألم ولاشقاء بل هناك مايسرّ القلوب ويشرح الصـدور . هكذا يكون المرء فى الحياة . فمادامت نفسه لم تصـقل بالنوائب فانه لايزال فى نصب وتعب ويهتمّ لها كثيرا فأما اذا استكملت نفسه بها فانه لايهمه أمرها وتمرّ عليـه اللذات والآلام كما يمرّ الليـل والنهار والصباح والمساء . فحمد صاحبه له هذا البيان وأدرك مالم يعلم فى المدارس من قبل

فانظر أيها الذكى لدين الاسلام كيف رأيت فى هذه السورة أصحاب نبينا ﷺ بلاتعلم ولافلسفة ولاحكمة عقلية قد نالوا هذه الأمنية وأصبحوا لايبالون بالأهل والاخوان والحياة حتى قال أبوخيثمة ﴿ ظلّ ظليل . وتمر يانع . وماء بارد . وامرأة حسناء . ورسول الله فى الحرّ وشظف السفر والله لا يكون ثم ركب ناقته ﴾ وكيف رأيتهـم يتذوقون التمرة ليشربوا الماء عليها . وكيف رأيتهم راضـين فرحين مبتهجين فى قلوبهم . وكيف رأيتهم يتقدّمون للموت . فالمال مبذول والعمر مبذول . كل هـذا بشئ واحد وهو الايمان . فانظر كيف فعل الايمان ماعجز عنه العلم والفلسفة والحكمة . وكيف جهل أكثر الناس أن السعادة راجعـة للوجدان والفلسفة شرحتها والقرآن أبرزها . انظر كيف كان أكثر الناس لايعلمون . ــ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ــ وهم عن سعادة هذه الحياة نفسها معرضون . وبأسرارها جاهلون . وعن الحقائق غافلون . ــ والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ــ اه

﴿ ذكر المناسبة بين سورة التوبة والسورة التى بعدها وهى سورة يونس ﴾

اعلم أن المناسبة بين السورتين من ثلاثة وجوه ﴿ الوجه الأوّل ﴾ أن سورة التوبة لآداب الجهاد وهداية الكافرين وقسم الغنائم وأكثر ذلك فى السفر . أمّا سورة يونس فانها لتعليم الناس وهم آمنون مطمئنون ﴿ الوجه الثانى ﴾ اعلم أن الله عزوجل علم قبل أن ينزل القرآن أن الأمم الاسلامية ستنبذ العلوم وبدائع آياته فى سماواته وأرضـه ظهريا وبذلك يذل كثير منهـم للأمم المحيطة بهـم فلذلك أخـذ يقول فى آخر التوبة

وما

ـ وما كان المؤمنون لينفروا كافة الخ ـ فأمرهم أن ينقسموا ﴿ فريقين ﴾ فريق للسفر والجهاد ، وفريق للتفقه فى الدين . وعلم سبحانه أن هذه الكلمة سيصطلح الناس قرونا متطاولة بعد الصحابة والتابعين على اختصاصها بفروع من المسائل ليست هى كل الفقه كما تقدم بأوضح عبارة . فلذلك جعل هذه الكلمة فى أواخر هذه السورة وأعقبها بسورة يونس وشرح فى أوّلها مايفيد ذلك التفقه . شرحها شرحا مستوفيا . يقول الله هنا لتبق طائفة يتفقهون فى الدين ولينذروا قومهم الخ وينكر على الناس تعجبهم من ارسال أحدهم لينذرهم ويبشرهم . ثم أخذ يبين خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش وتدبير الأمر وأنه أضاء الشمس ونوّر القمر وقدّره منازل ليعلم الناس الحساب وأبان اختلاف الليل والنهار وحذر من اليأس من الآخرة والاكتفاء بالدنيا والاطمئنان اليها والغفلة عن هذه الآيات السماوية والأرضية وغيرهما ومدح الصالحين المهتدين . وختم هذه الجمل بأن أهل الجنة يختمون دعاءهم بتنزيه الله وبحمده على تربيته للعالمين . لاجرم أن هذه هى مجامع التفقه فى الدين . هذا الشرح المذكور فى أوّل سورة يونس هو عينه ماذكرناه سابقا ونقلنا معناه من كتب اللغة ومن كلام الامام الغزالى . إن الله عزوجل ليس عن الخلق غافلا كما قال ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ وسترى إن شاء الله عند تفسير هذه الآية كيف عرف علماء الغرب عجائب هذه الدنيا التى هى داخلة فى هذه الآيات القرآنية . وعسى أن تطلع هناك على بدائع ألوان الحيوان وأشكاله التى عرفها القوم وعرفوا أن تلك الألوان وتلك الأشكال انما خلقت لتكون وقاية لتلك المخلوقات الضعيفة من أعدائها القاتلات . فترى الحشرة تخلق على هيئة حصاة من حجر الصوّان مثلا ليجهلها الطائر الذى يعيش عليها فتبقى محفوظة الى أمد . فهكذا هنا ألهم الله الامام الغزالى قبل نحو ٩٠٠ سنة أن يذكر العلماء بعده بأن الفقه الذى لم تعرفوا سواه انما هو فقه اصطلاحى ولكن التفقه المذكور هنا غير ذلك وقد عرفته وعرفت أيها الذكى أنه يرجع فى أكثره الى ﴿ أمرين اثنين ﴾ تهذيب النفس واشراقها بالعلم . وهذان الأمران هما المذكوران فى سورة الفاتحة التى ابتدئت بهذه الجملة ـ الحمد لله ربّ العالمين ـ ولفظ ـ العالمين ـ يشمل العالم العلوى والسفلى . وهو مبسوط فى تفسير الفاتحة . فجميع العلوم التى عرفها أهل أوروبا وأمريكا وبلاد اليابان هى الداخلة فى قوله ـ الحمد لله رب العالمين ـ أفلا تتعجب معى كيف ذكرت الجملة بتمامها هنا فى دعوى أهل الجنة ولم تذكر بهذه الهيئة بعد الفاتحة الا هنا وفى أثناء سورة الأنعام التى ذكر فيها عجائب السموات والأرض . لايحمد الناس محسنا عليهم الا اذا عرفوا نعمته وعلى مقدارها يكون اعظامهم له بقلوبهم وقيامهم بقضاء حوائجه بجوارحهم وثناؤهم عليه باللسان

فههنا ﴿ ثلاثة أمور ﴾ اعظام بالقلب وحبّ وهذا بالنسبة لله مطلوب ولكن ليس هذا بالتكاف وانما هو نتيجة الشعور بالنعمة والقيام بقضاء الجوارح والأعمال هنا فى حق الله مستحيل فيرجع ذلك الى الاخلاص فى خدمة الناس والعمل لاسعادهم . أما الثناء باللسان فانما هو وظيفة اللسان . فاللسان هو آخر أنواع الشكر الثلاثة . اذن الحمد نتيجة من نتائج الانعام المذكور فى قوله تعالى ـ صراط الذين أنعمت عليهم ـ ولما أنعمت عليهم وعرفوا النعمة قاموا باعظامك بقلوبهم وخدموا أممهم ونطقوا بالثناء عليك فقالوا ـ الحمد لله رب العالمين ـ وهذه الجملة مذكورة هنا لتذكيرنا بنعم الله ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لتذكير المسلمين بقراءة عجائب السموات والأرض التى ذكر منها هنا الشمس والقمر والحساب وتقدير المنازل الخ

فهذه كلها من تربية الله للعالمين . فسورة الفاتحة ثناء ودعاء . والثناء فى أوّلها بالحمد وفى قسم الدعاء سبب الحمد وهو النعمة ففى الفاتحة ذكر السبب بعد المسبب . ثم أقول هنا فكما لم يغفل الله عن الحشرات وأنواع الحيوان فخلقها على أشكال وهيئات تكون سببا فى بقائها الى أمد . هكذا هو نظر للأمم الاسلامية الحالية قبل أن يخلقها فهيأ لها الأسباب ونظم الكتب وألهم العلماء فشرحوا لفظ التفقه مثل ما رأيته عن

الامام الغزالى و بقى ذلك فى الكتب مذكورا والناس عنه غافلون و بقى الخلف يتبع السلف تسعة قرون والأمم من حولهم يعلمون وهم نائمون • وأوّل ضربة وقعت على عالم بعد موت الامام الغزالى تلك الضربة التى وجهت الى العلامة ابن رشد إذ كفروه لأنه مع ماينه و بين الغزالى من الخلاف وافقه فى أن هذه العلوم كلها هى التوحيد وهى المطلوبة فآذاه المسلمون وأهانوه • ويقال انهم بصقوا فى وجهه • ومرة طردوه من المسجد • وأمر الملك بنفيه من العاصمة إذ ذاك بالأندلس . و بقى فى بلدة لايسكنها إلا اليهود احتقارا لشأنه ثم رضى عنه ومات بعد قليل فتناقص العلم من بلاد الاسلام وذلّ المسلمون فى أقطار الأرض ذلا عظيما ذلك لأنهم جهلوا التفقه فى الدين الذى أمر به أصحاب النبى ﷺ ولم يعرفوا كيف ينذرون قومهم و يبشرونهم بل عكفوا على قشور من العلوم • يقولون للصبى اذا دخل المدارس الدينية إقرأ فروض الوضوء و يطيلون فى ذلك اطالة و يجعلون كل حياته فى ذلك ولايظهرون له جمال الله وعجائبه و بدائع صنعه ولايشرحون له شرحا مستفيضا اخلاف الوعد والحقد والحسد وما أشبه ذلك ولايهذبون نفسه وصار ذلك خلقا فى الأمّة الاسلامية فذلوا ذلا عظيما وفقدت الانسانية العامّة هذه الأمّة المسكينة فلم تنفع نفسها ولم تنفع الناس وصارت عالة على الأمم فأذلوها كما فعلت النحل فى قفيرها اذ ترى ملكتها القائمة بتدبير ملكها قدحصل لقاحها فحملت وهناك فى القفير ذكران النحل فتحمل سكان القفير من النحل المذكور على أولئك الذكران فتبيدهم من الوجود لأن الله لايبقى فى خلقه مالاعمل له • هكذا الأمم التى خلقها الله لما رأت الأمم الاسلامية غافلة جاهلة حملت عليها فأخذت بلادها وجعلتها تحت امرتها الا تلك الأمم التى استيقظت كالترك وكالفرس وكالأفغان فانها لما استيقظت هذه الأيام أخرج الله منها الفرنجة _ وان عدتم عدنا _

أقول فمعنى التفقه الذى شرحه الامام الغزالى بقى فى الاحياء وقد نام عنه المسلمون • ناموا عنه نوما عميقا لموت العلماء والمفكرين و بقى المسلمون بعد تلك القرون مكتفين بعلوم الصوفية حتى انك ترى العلامة محيى الدين بن عربى قد أدخل جلّ الفلسفة والدين فى كتابه « الفتوحات المكية » وخلطه بالتصوّف حرصا على العلم ولم يرد أن يعلمهم الفلسفة والعلوم الحكمية و بدائع السموات والأرض لأنها كفر عندهم وقد رأوه فوق طاقتهم فانحط المسلمون حتى جاء العصر الحاضر فأعان الله على هذا التفسير وأعان غيرى على تأليف كتب فى ذلك وهذا أوان مرقى المسلمين

فلن يقدر صغار العلماء على الطعن فى عالم ولامفكر لأن الأمم المتعلمة أحاطت بالمسلمين من كل جانب فليس يقدر أحد من جهلة المسلمين على مناوأة ما يكتب الآن لنشر العلوم والتفقه فى الدين الذى شرحه أسلافنا وغفل عنه من بعدهم فنحن نستأنس بكلامهم ليعلم المسلمون أن هذه الآراء التى أذكرها فى هذا التفسير ليست حديثة بل قالها آباؤنا ونام عنها من بعدهم وأنّ الله عزوجل أراد ايقاظ الأمّة اليوم ولا رادّ لما أراد وستبقى هذه الأمّة أمدا يعلمه الله وسيحفظها كما حفظ تلك الحيوانات الضعيفة فانه يقول _ وما كنا عن الخلق غافلين _

وانى أسأل الله عزّوجل أن يوفق عند تفسير هذه الآية برسم صور تلك الحيوانات التى حفظها الله بسبب أنه خلقها مشاكلة لما حولها من شجر أوحجر أومدر لتعلم أنه هكذا سيفعل بأمة الاسلام فيحفظها لأنها ستكون مشاكلة للأمم فى علومها ومعارفها بل ستكون هى الأرقى

فتبين بهذا أن التفقه فى الدين قد جاء ملخصه فى أوّل سورة يونس ليعرف هذا المعنى المسلمون و يخرجوا من جمودهم القديم الى مجدهم الحديث و يقرؤا جميع العلوم و يعرفوا آيات ربهم و يفرحوا بجماله وتعمر بلادهم وهم مبتهجون • وسترى أيها الذكى فى سورة يونس من عجائب اتقان الصنعة الالهية مايبهر الأبصار كالصور الكوكبية المرسومة بالمصوّر الشمسى وكذلك الصناعة البشرية التى وضعها قدماء المصريين فى معابدهم وفوق

جثثهم المحنطة • وكيف أبدع الله مئات آلاف من المجرات التى كل منها تشتمل على مئات آلاف الآلاف من الكواكب وعرف الناس أبعادها اجمالا • وكيف عرفت ذلك الأمم حولنا فرسمت بعض الصور السماوية بهيئة جميلة تسرّ الناظرين • وكيف حذر الله من الغفلة عن آياته سواء أكانت بصنع يديه كالصور السماوية أو بصنع عباده كمنطقة فلك البروج التى ستراها برسم قدماء المصريين • وهذا قوله تعالى فى سورة يونس ـ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ـ • هذا تمام الكلام فى الوجه الثانى من وجوه المناسبة بين السورتين ﴿ الوجه الثالث ﴾ ختم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من نوعهم تعز عليه مشقتهم حريص على ايمانهم رؤف رحيم بالمؤمنين منهم • ثم تلا ذلك فى أوّل يونس بأن هـذا الكتاب الذى جاء به كتاب ذو حكمة وقال ـ أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس ـ فهذه الآية تكملة وتتميم لآية آخر السورة هنا • وليس فى القرآن من سورة مبدؤها يوافق نهاية التوبة إلا سورة يونس فظهرت المناسبة بين السورتين • وهذه المناسبة كالتى بين سورتى الطور والنجم • ففى آخر الأولى ـ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ـ وفى الثانية ـ والنجم اذا هوى ـ وكآخر المائدة وأوّل الأنعام إذ يقول فى آخر الأولى ـ تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ـ الى قوله ـ لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ وهو على كل شئ قدير ـ ويقول فى أوّل الثانية ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ـ الى قوله ـ يعلم سركم وجهركم الخ ـ فخلق السموات والأرض راجع لقوله ـ لله ملك السموات والأرض ـ و ـ يعلم سركم وجهركم ـ راجع لقوله ـ تعلم مافى نفسى الخ ـ وهذا القرآن لا تنقضى عجائبه ولا تنتهى غرائبه والحمد لله رب العالمين اهـ

﴿ تكملة للكلام فى مناسبة آخر سورة التوبة بأوّل سورة يونس ﴾

(الفقهاء فى الاسلام فى الماضى وفى الحال والاستقبال)

مرّ بك أيها الذكى الكلام فى هذه المناسبة وأنها من ثلاثة وجوه • ومن أهمها أن التفقه فى الدين جاء فى آخر التوبة • وجاء بعدها فى الترتيب سورة يونس • وجاء فى أوائلها ذكر ضوء الشمس ونور القمر الى آخر مامرّ • وأتبعه الآن بذكر ماضى الفقهاء وحاضرهم ومستقبلهم

اللهم إن الحكمة والعلم أثمن مافى هذه الدنيا وخير العلوم مابه يعرف الانسان قيمة نفسه وخير ما يكتبه المفكرون فى الاسلام البحث فى أحوال أمم الاسلام وعاداتها وأخلاقها • وها أنا ذا باحث فى الفقهاء بما يناسب المقام

﴿ الفقهاء فى عصر الصحابة ﴾

لقد كان أصحاب النبى ﷺ كما مرّ بك من كلام الامام الغزالى يعدّون الفقهاء أنهم هم أولوا الألباب ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ ويعدّون نعم الله عليهم ـ ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ـ وهم الذين ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا الخ ـ

﴿ الفقهاء بعد الصدر الأوّل ﴾

ذهب الصدر الأوّل فتضاءل التفقه فى الدين وانحاز الى ماهو معروف اليوم من الفروع العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية • فأما ماعدا ذلك من خشية الله وحبه والولوع به والتفكر فى جماله فذلك قضى عليه القضاء الأكبر وصار نسيا منسيا • وهذا هو العصر الذى كان فيه الامام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى وقبله وبعده للآن

﴿ الفقهاء فى زماننا ﴾

قد قلت لك قبل هذا ان أكابر علماء الاسلام قاموا على تلك الطريقة العقيمة المنتشرة فى انحاء الاسلام الى اليوم وذمّوها وشنعوا على القائمين بالدين ولكن رؤساء الدين فى الاسلام لم تزعجهم تلك الصيحات ولم توقظهم تلك المنبهات ولم يغيروا نهجهم بل الخلف يتبع السلف ـ وكل حزب بما لديهم فرحون ـ فتبع السنى السنى والشيعى والشيعى فالحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى والامامى . كل هؤلاء عاكفون على مادرسوه عن أشياخهم موقنون أنهم أهدى من غيرهم عملا وأشرف أملا نابذين ماعدا ذلك مما ليس لهم به علم فحافظت الأمّة على حصر أفكارها فى واد ضيق فنام المسلمون نوما عميقا أدّى الى اضمحلالهم إلا قليلا منهم فهم مستيقظون

ثم اتسع نطاق التسمية بالفقيه فلم يقتصر الناس فى التسمية به على من يحفظ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والرهن والسلم والاجارة والوديعة والهبة والميراث والدعاوى والعتق والحيض والنفاس الخ بل صار هـذا الاسم يطلق على كل من حفظ القرآن عن ظهر قلب وان كان من أجهل الجاهلين . وهذه طريقة منتشرة فى بلادنا المصرية يسمون من حفظ القرآن فقيها وان لم يدرك من معانيه حرفا واحدا

والله يقول ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ـ * وفى الحديث ﴿ إقرأ القرآن مانهاك فان لم ينهك فلست تقرؤه ﴾ وهـذه التسمية لهذه الطائفة التى هى أعمّ من سابقتها قد تكون مصحوبة باحتقار نوعا ما وباستهزاء لسببين ﴿ السبب الأوّل ﴾ أن هؤلاء غالبا كانوا قبل الآن يعلمون بالعصا والاذلال فتذل نفوسهم وتخنع ﴿ والثانى ﴾ أن النفوس الانسانية فيها نور إلهى عام تخترق الحجب وتعرف بعض الحقائق وان لم تحسن التعبير عما تعقل فههنا يظنّ العامّة أن هذا الفقيه لحفظه القرآن عنده علم وفى الوقت نفسه تعلم نفوسهم أن قيمته العلمية منحطة ولكن لايحسنون أن يعبروا عن ذلك

﴿ آثار ماتقدّم فى الاسلام ﴾

فانظر كيف كانت الأمم الاسلامية صورة مكبرة لفقهائها . فلما كان فى الصدر الأوّل أمثال أبى بكر وعمر كانت الأمّة شامخة الرأس عزيزة الجانب . ولما صار الفقيه محصورا فى الفروع فى الأزمان المتأخرة أوحافظا للقرآن صارت الأمم الاسلامية كلها صورة مكبرة لفقهائها . فكما عكف الفقهاء على حفظ السور أوعلى حفظ الفروع وغفلوا عما سواهما . هكذا الأمّة غفلت ونامت ثم ذلت وخضعت . ذلك هو تاريخ الأمم الاسلامية وفقهائها قديما وحديثا

﴿ الفقهاء فى مستقبل الزمان ﴾

أما الفقهاء فى مستقبل الزمان فى أمم الاسلام فانهم سيكونون أشبه بالحكماء فى أمّة اليونان فيكون الفقيه فى دين الاسلام هو المتمكن من العلوم المطلع على حقائقها الباحث المدقق . فاذا قرأ سورة يونس بعد التوبة كما تقدّم بحث فى الشمس والقمر والمنازل المذكورات فى أوّل السورة وأتبع ذلك بفهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويتمادى فى فهم يونس الى أن يرى فى آخرها أن الله نجى أجساد بعض الفراعنة لتكون تلك الأجساد البالية والعظام النخرة المحفوظة فى الأبنية المشاهدة عبرة للأمم المتأخرة فيدهشه مايرى فى مصر (كما ستراه موضحا فى سورة يونس قريبا) من اقبال الأمم من أعيان أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا على الاعتبار بتلك الجثث المحنطة والتفكر فى تلك الصناعات العجيبة والدروس الشائقة المنيفة وغرائب العلم وعجائب الحكمة والرسوم الفلكية المرسومة فى محال عباداتهم وعلى الصناديق التى فيها أجسامهم (وستنظر هذا هناك قريبا) واذ ذاك يقول هـذه من

معجزات القرآن لأن الله لم يذم المعرضين عن آيات الله إلا فى موضعين فى يونس ﴿الأول﴾ عند ذكر السموات والأرض فى أوّل السورة ﴿والثانى﴾ عند ذكر الاعتبار بأجساد الفراعنة وانها من آيات الله . وهذه الآيات لم يفكر فيها الناس إلا فى هذه الأيام . إذن هذه معجزة قرآنية . ثم ينتقل من ذلك الى أن يحضّ الأمّة على الاغتراف من بحور علم الأوائل من أىّ دين ونحلة وأمة حتى أنهم يدرسون خرافات الأمم وأساطيرها ليستخلصوا منها الأخلاق والآداب التى كانت عليها تلك الأمم فتزيد العقول حكمة والنفوس عظة فبالأولى يدرسون رسوم مبانيها وهندستها وعلمها وحكمتها ويفعلون ماتفعله ألمانيا اليوم وبقية أهل أوروبا فان هم طوائف خصصوا كلا منهم لعمل أولعلم أولتاريخ أمّة كما نعلم علم اليقين أن أهل ألمانيا عندهم قوم مختصون بالبحث عن علماء الشرق الأدنى مثلا وهكذا فالمسلمون أولى بهذا لأن الله يقول ـ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس الخ ـ

﴿نظر الفقيه فى مستقبل الزمان فى سور أخرى من القرآن﴾ ثم اذا قرأ سورة هود بعد سورة يونس وجدها قد جاء فى أوائلها شئ عجب ﴿ذلك﴾ أن الله ضرب مثلا لتدبيره فى خلقه بالملك على عرشه . فاذا كان الملك يدبر أمر الرعية ويحافظ على ثغورها وتجاراتها وزراعاتها وسياساتها . فههنا قبيل ذكر العرش يقول ـ ومامن دابة فى الأرض إلا على رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين ـ فيضاهى الفقيه إذن بين عرش الملوك وعرش ملك الملوك . فعرش الملوك لتدبير الجيوش وحفظ الثغور والبلاد الخ وعرش ملك الملوك لنظام السموات والأرض واغداق الرزق على الحيوان والاحاطة به علما والمحافظة على حياته والتكفل به فى غدوه ورواحه ثم يرى هذا المعنى يدخل فى قصص السورة كقول هود ـ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ـ ومن استقامة صراطه أن يأخذ بناصية الدواب وبناصية الانسان . فكلّ حىّ تكفل الله به لافرق بين الانسان والحيوان . ثم يتأمّل الفقيه اذ ذاك فيقول . لماذا ذكرها هود وقد ذكرت فى أوّل السورة ثم يجيب على ذلك بأن علوم الحيوان فى زماننا مدهشة عجيبة . مثال ذلك ماستراه فى سورة المؤمنون فى قوله تعالى ـ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ـ فانك سترى هناك مالا عين رأت من عيون الغافلين ولا أذن سمعت من آذان المتكبرين ولاخطر على قلب الجاهلين من حكم غالية وجواهر باهرة وغرائب مدهشة . اذ ترى هناك رسوما شمسية لأشكال حيوانية (١) كفراش ذى أجنحة تشبه فى صورتها ولونها وشكلها أوراقا جافة منبوذة (٢) وكنوع من الحشرات قد وقع على جذع شجرة عتيقة والتصق بها فيظنّ من يراه أنه غصن ضخم من أغصانها قد قطع من أعلاه حديثا (٣) وكدود الفراش الملون باللون الظاهر الباهر حتى يتبينه كل ناظر ويعرفه كل صادر ووارد وهكذا من كل شاردة غريبة ونادرة عجيبة ستراها هناك برسمها ان شاء الله وتطلع على سرّ هذه الأشكال وضرب تلك الأمثال وتفهم فهما حقا معنى ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ وأن الفراش ذا الأجنحة التى تشبه الورق الجاف انما خلقت على هذه الصفة لتكون تلك المشابهة وقاية لها من الطيور التى تصطادها فتعيش عليها فتى مرّت عليها لم تميزها من الورق الجاف فلا تصطادها ولاتفترسها . وأما الحشرات الواقعة على جذوع الأشجار المناسبة لأغصانها فكذلك للاحتراس من أعداء تلك الحشرات . وأما المسألة الثالثة فذلك أن هذا الدود الذى ظهر وانكشف بلونه وجسمه وتميز عن الشجر المحيط به فانما ذلك لأنه كريه الطعم قد جرّبه الطير المفترس قديما فكرهه فلذلك منحه الله لونا زاهيا ليكون ذلك اللون علامة للطيور الآكلة للحشرات تعرّفها أن هذا طعمه كريه فتجتنبه لمجرد منظره ولولا هذا اللون الذى به امتاز ذلك الدود لكان دائما محط أنظار تلك الطيور فتأتى اليه فتذوقه وتريد أكله فلاتقدر فيكون الطير فى شغل بما لاينفع وذلك الدود دائما خائف وجل من ذلك

بهذا يفهم الفقيه قوله تعالى فى سورة هود ـ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ـ ويفهم لماذا أعاد هـذا المعنى هود فى قوله ـ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ فمن درس هذه العلوم وأتقنها أيقن أن الله نظر لكل حيوان نظرة خاصة وأعطاه شكلا ولونا وحجما يوافق كل الموافقة حاله • فاذا عرف ذلك الفقيه عرف أننا معاشر بنى آدم لسنا فى حجاب عن نظر الخالق لنا • فاذن هو يعامل كلامنا معاملة خاصة تناسب أحواله نتيجتها نافعة له • فاذا رأينا لون الحيوان لحكمة وشكله لحكمة حتى انك ستري فى تلك الآية أن من الحشرات ما اذا جثم على ورقة أوغصن يرى على شكل زرق الطيور وذلك الشكل جعل وقاية له من الطيور الآكلات له فهذه الحشرات حين وقوعها على شجر أوورق أوحجر لاتلتقمها الطيور وكيف تلتقم مالاتشك فى أنه زرقها فبهذا يتبين الفقيه أن الله حقيق بالتوكل عليه وأن كل مانحن عليه من عز أوذل أوحزن أوفرح أواقامة أوحال لله فيه حكمة تضل عنا كما تضل تلك الحكمة عن تلك الحشرات التى أشبهت زرق الطيرلوكانت ذات عقل وقالت ﴿ لم خلقتنى يارب على شكل زرق الطيور ولم تخلقنى بهيئة بهية كالحباحب المضيء فى ليالى الظلام ﴾ فبهذا يفهم الفقيه الاسلامى لماذا قال هود بعد قوله ـ إنى توكلت على الله الخ ـ • ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ فان أخذه بنواصى الدواب كما علمت وكما ستعلم عند تفسيرآية سورة ـ قد أفلح المؤمنون ـ دليل على أنه آخذ بنواصى كل امرئ من بنى آدم وأن كل عمله فينا لحكمة تضل عنا فلنتوكل عليه

وذلك الفقيه اذا قرأ أمثال ماسمعته الآن فى الطير وغير الطير فى موسوعات الكتب الفرنجية كما اتفق لى فى هذا المقام يأخذه العجب كل مأخذ لأمرين ﴿ الأول ﴾ أن أمم الفرنجة المتأخرين قد برعوا فى تلك المعانى التى هى حقا وصدقا تضمنها القرآن والمسلمون غافلون ﴿ الثانى ﴾ أنه يدهش حينما يرى القوم يشرحون تلك العلوم لذات العلوم فتتسع قرائحهم وتنمو دولهم ويزيد رزقهم ولكنهم (كما رأيت أنا) لا يكترثون بذكر أنها فعل الخالق ولابأن ذلك دال على جماله وحكمته إلا قليلا جدا مثل مايذكره (اسبنسر وأوليفر لودج) و (اللورد افبرى) وأمثالهم فهؤلاء يذكرون الخالق تبارك وتعالى عند ذكر بعض هذه العجائب • وأكثر القوم لايهتمون بذلك • وعليه سيكون فقهاء الاسلام مخالفين للأوروبيين فى طريقة تدريس هذه العلوم ويصنعون فى العلوم كما صنعنا بوجه ما فى هذا التفسير فيحب الناس صانع العالم ويفرحون بالعلم غراما دائما هذا ما يراه الفقيه المستقبل فى سورة هود

﴿ ماسيراه الفقهاء الاسلاميون فى سورة يوسف بعد هود ﴾

فاذا قرأ ذلك الفقيه سورة يوسف سمع الله يقول ـ لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين ـ وأخذ يسرد نظام آداب يوسف فى بيت العزيز إذ عف عن الشهوات وهذا هوتهذيب الشخص وآدابه فى السجن اذ أحسن المصاحبة مع المسجونين من المصريين وأخذ يعظهم ويدعوهم للايمان وهذا أشبه بتدبير المنزل ثم قبض على أزمة الأعمال العامة فى الأمة المصرية والاقتصاد وتدبير الدولة • فكأن هذا هو السياسة العامة وهذه هى نصف علم الفلسفة لأن الفلسفة ﴿ قسمان ﴾ قسم علمى • وقسم عملى • والقسم العلمى هى الرياضيات والطبيعيات والالهيات • والقسم العملى تهذيب الشخص وتدبير المنزل وتدبير المدينة • فهذه الثلاثة هى القسم العملى وهناك يسمعه يناجى ربه شاكرا له انعامه عليه بالملك وبالحكمة الخ وطالبا منه وفاته على الاسلام ولحوقه بالصالحين • ومعنى هذا أن الفقيه يقتدى بيوسف فى الحكمة العملية بأقسامها وبعد تمام النعمة يشكرالله على نعمه التى أفاضها عليه ويشهد له بابداع السموات والأرض ثم يطلب الثبات على الايمان واللحوق بالصالحين

فاذا عرف هذا الفقيه فى الاسلام أخذ يبحث فى تلك الآيات فى أوّل السورة والآيات فى آخرها أى الآيات

التى قبل قصص يوسف والآيات التى بعد قصته بتمامها فيجد عجبا • يجد أن التى فى أوّل السورة جاء فيها أن هذه القصة فيها آيات للسائلين وأن التى فى آخرها جاء فيها ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ هنالك يأخذ فى الفهم و يقول • يقول الله تعالى إن قصص يوسف انما هو آيات للذين يسألون ولكنه فى آيات أخرى يقول ـ إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين ـ و يقول إن خلق السموات والأرض من آياته واختلاف الألسن من آياته واختلاف الألوان من آياته والشمس من آياته والقمر من آياته وهكذا كل مخلوق هو من آيات الله • و يقول تارة انها للمتفكرين • وتارة للمؤمنين • وتارة لمن يعقلون • وتارة يقول انها آيات لقوم يعلمون أو يقول ـ للعالمين ـ بكسر اللام • وتارة يقول بعدها ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ولكن فى هذا القصص لم يذكر معه إلا السائلين عنه واذن يفهم الفقيه أن هذه القصة اذا كانت آيات للسائلين فهنا لك آيات لاتخص السائلين بل تعم العلماء والعقلاء والمؤمنين وهى التى فى السموات والأرض والناس يمرّون عليها وهم عنها معرضون • إذن الآيات ﴿ قسمان ﴾ قسم مسموع وهذا لمن اعتادوا أن يأخذوا العلم بالسماع والتقليد والاعتبار • وهذا القسم من العلم المسموع يفرح به الجاهل و يعتبر به العالم • فهو للجاهل علم • ولذى العقل اعتبار كما قال تعالى ـ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ـ أما القسم الآخر وهى الآيات المعقولة فهى درجات بعضها فوق بعض للمؤمنين تارة وللعقلاء أخرى وللعلماء آونة • ثم ينظر فى سورة يوسف فيجد أن هذه القصة ليست كل آيات الله بل هناك من الآيات مئات ومئات فى مئات لاتحصى قد أعرض الناس عنها • بل من الآيات مايختص بالعلماء الذين يدرسون العلوم كما سيأتى ذكره فى سورة الحجر فى قوله تعالى ـ وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ـ إذ نظام الأوراق وانه موضوع بحساب رياضى هندسى له جداول متناسقة بديعة تشمل أوراق الفصائل النباتية مرتبة كترتيب تلاميذ المدارس فى الفصول كما ستراه مرسوما مشروحا موضحا • هنالك يأخذك أنت و يأخذ الفقيه العجب إذ يرى نظاما يجهله جميع أهل الأرض إلا علماء النبات • فهؤلاء عرفوا نظام الأوراق وجداوله المنظمة والدوائر المشتملة على عدد من الأوراق معلوم مرسوم بأشكال حلزونية لها أعداد خاصة متناسبة كل المناسبة مع أوراق وأشكال النباتات الأخرى • ثم يرى هو وترى أنت أن هذا كله معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى ومن الأدلة البديعة على ابداع واحكام صانع هذه الدنيا

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى فيقول • اللهم ان هذا العلم اليوم غير معروف فى بلاد الاسلام اللهم إلا لمن تعلموا علم النبات تعلما تاما • وهؤلاء لايعرفون شيأ من الدين ان وجدوا فى الشرق واختصت هذه المعرفة بالعلماء بهذه العلوم • اللهم ان قوله تعالى ـ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ـ لم يظهر أكبر سرّه الا فى عصرنا فان اختلاف الألوان والألسنة لم تظهر خبايا سرّه الا فى هذه الأيام اذ استبان أن ألوان الحيوان لها آثار فى حياتها كما تقدّم بعضه فى هذا المقال وكما سيأتى فى قوله ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ وفى غيرها • اذن سرّ القرآن يظهر فى هذا العصر • من ذا الذى كان يظنّ أن للألوان أثرا فى حياة الحيوان • ومن ذا الذى كان يعرف أن جمال الزهرة سائق وداع للحشرة أن تدخل الزهرة فتشرب عسلها • من ذا الذى كان يعرف أن الحشرة التى تماثل زرق الطير لونا وشكلا قد جعل ذلك فيها لحمايتها وحفظها و بقائها • حقا حقا انّ هذا لايفهمه الا علماء قد اختصوا بهذا الفنّ • اذن هذا سرّ قوله تعالى ـ ان فى ذلك لآيات للعالمين ـ

ولاجرم أن هذا من الآيات التى ليست للسائلين الذين لم يشترط فيهم أن يكونوا علماء بل هى آيات للعلماء بهذه العلوم • وهذه معجزة جديدة يسجلها العلم للاسلام • هذا ما يفهمه الفقهاء فى المسلمين بعدنا فى سورة يوسف

﴿ نظر الفقيه الاسلامى فى سورة الرعد بعد سورة يوسف ﴾

ثم ينظر نظرة فى سورة الرعد فيجد أن الآيات الالهية التى لم يذكر منها فى سورة يوسف الا التنبيه عليها والحث على الاقبال عليها قد كثرت فى سورة الرعد كرفع السموات بغير عمد . ثم تمثيل عظمة الله وسلطانه بما يشاهد الناس فى الدنيا من عروش الملوك وتدبير الجمهور ونظام المدينة فقال ـ ثم استوى على العرش ـ ثم أخذ يفصل تدبير المملكة وحسن نظامها فأبان أنه ليس هذا العرش كعروش ملوك الأرض الذين ينظمون الممالك الى آخر ما تقدم فى السور السابقة فى هذه المقالة بل هنا ـ سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ـ فأما ملوككم فأعلى ماتطلبه عروشهم وغاية مايقصده وزراؤهم أن يسخروا الأمم لشهواتهم و يقودوا الجنود لتسخيرهم فلامناسبة بين الملكين كما لامناسبة بين التسخيرين

ثم ذكر أنه مد الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا ونباتا مكونا من ذكر وأنثى . وفى الأرض أماكن متجاورة مختلفة التربة للنظام العام . ثم ذكر البرق والرعد والسحاب وأنه اذا كان الناس يخضع بعضهم لبعض بحسب القوة والضعف حتى أن الذليل ليخضع للقوى منكم . فهاهو الله يسجد له من فى السموات والأرض وطائفة من الناس كما فى ملوككم . وهناك سترى و يرى الفقيه الاسلامى بعدنا قوله تعالى فى تلك السورة ـ وكل شئ عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ـ و يطلع على المقادير الحسابية والهندسية فى العوالم المختلفة مابين علوية وسفلية لاسيا (القطع الثلجية) التى لحظها القوم فى الجهات الشمالية اذ أنك سترى هناك أشكالها الهندسية المسدسة البديعة النظام المتلألئة المبتهجة التى عدوها بنحو الألف وقد رسموا منها جملة صالحة وهذا الذى رسموه ستطلع عليه وتعجب من أن التسديس تام فى كل شكل مع ان كل واحد من تلك الأشكال اختص بحكمة بحيث انك لاترى شكلا منها مع اتحادها فى التسديس يوافق الآخر فى ابداعه ونقشه ورقشه و بهجته وحسن نظامه فبعضها ترى أضلاعه كأنها أغصان محلاة بالأوراق متقنة الصنع مع ان كل مسدس من تلك المدسات فيه ٦ مثلثات متساويات الزوايا كل زاوية ثلثا القائمة (١٢٠) درجة

وهكذا سترى هناك عجائب القطع المتجاورات حتى أن امتزاج الرمل ببعض المواد كانت منه أنواع الزجاج المقعر والمحدب فى وجه أوفى وجهين ونتائج ذلك فى منافع الانسان من تقريب الأشكال تارة وتكبيرها أخرى ومنافع ذلك فى اصلاح خطأ الأنظار فى عينى الانسان . وهكذا ترى رسوم تلك الزجاجات وعجائبها مما يشرح الصدر و به يهنأ الحكماء

﴿ نظر الفقيه فى سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴾

ثم ينظر الفقيه الاسلامى فى سورة ابراهيم فيجد أنه تعالى فى أول السورة أفاد أنه أرسل نبينا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات الى النور . ولم يخص الناس بالعرب بل الأمم كلها هم الناس . وقال فى هذا الصدد ان الله أمر موسى أن يخرج قومه من الظلمات الى النور اذن موسى لقومه . وهذا هو الذى حصل الآن فان الذين يتبعون موسى فى شريعته هم قومه وحدهم الآن وان كان التوحيد ليس خاصا بهم فنحن اتبعناه واتبعنا رسولنا ﷺ فى التوحيد . أما نبينا ﷺ فقد قال الله فيه ـ لتخرج الناس من الظلمات الى النور ـ فاذن نحن جئنا فى الأرض بعد نبينا للناس كافة لالأمتنا وحدهم . لهذا انتشر المسلمون فى الصدر الأول فى الكرة الأرضية ولم ينتشر الدين اليهودى الا فى بنى اسرائيل مع انه قد نسخ بالبعث المحمدى . وسترى فى تلك السورة عجائب التذكير . جاء موسى لاخراج قومه من الظلمات الى النور بنص الآية وجاء نبينا ﷺ بعده كذلك لاخراج الناس من الظلمات الى النور . ثم ان موسى ذكر قومه بأيام الله وهكذا سيدنا محمد ﷺ مأمور أن يذكر قومه بأيام الله . وسترى و يرى الفقيه فى سورة ابراهيم ما الذى به ذكر سيدنا محمد ﷺ من أيام الله المسلمين كما ذكر موسى قومه بأيام الله من أنهم كانوا أذلاء عند فرعون

وقومه ثم نجوا من ذلك وأنعم الله عليهم ثم ما الذى يجب على علماء الاسلام بعدنا من تذكير شعوبهم بأيام الله فى كل أمة بحسب الوقائع التى حصلت لها وكيف تعتبر الأمم الاسلامية بتاريخها وسترى هناك النموذج الذى ذكرته للأمم الاسلامية من تاريخها العام من عصر النبوّة الى الآن . وكيف كان جهل ملوك الاسلام وعلماء الاسلام فى القرن السادس والسابع إذ هجم التتار والمغول على المسلمين وهم قد جهلوا علم الجغرافيا وعلم تعداد الأمم وأحوالها كما ظهر جهل أمتنا المصرية من أمرائها وعلمائها إذ دخل نابليون البلاد وهم كانوا يظنون أنهم أقوى من أوروبا كلها لجهلهم علم الجغرافيا وقد فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فهزم جمعنا فى أقل من ساعة من الزمان . ذلك كله للجهل العام ـ فبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ـ هكذا سترى هناك كيف أراد الفرنسيون أن يحتاطوا للناس عند وقوع الطاعون الذى هو من تربيتنا ومن نظام ديننا وله فى الأحاديث النبوية والآيات القرآنية شأن عظيم فأخذ الناس يفرون من القاهرة لاعتقادهم هم وعلمائهم أن هذا ليس من الدين مع أنه فى الحديث مذكور فى قصة سفر عمر رضى الله عنه فى بعض غزواته وكذلك فى قوله تعالى ـ ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ـ ثم سترى ويرى الفقيه الاسلامى بعدنا فى سورة ابراهيم المذكورة ذكر العلماء من أوروبا بعد ذهاب دولة الاسلام الذين علموا الناس علوما وصناعات نفعتهم من ابتداء نهضتهم التى جاءت على أنقاض دولتنا الاسلامية العلمية الى زماننا الحاضر . كل ذلك هناك لنذكر الناس بأيام الله فى زماننا كما ذكر نبينا ﷺ الأمم فى زمانه وكما ذكر موسى قومه وكما يذكر فقهاء الاسلام بعدنا أممهم ـ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ـ والحمد لله رب العالمين

هذا ماقصدت ذكره هنا من آراء فقهاء الاسلام الذين سيكونون بعدنا وهم الذين سينير الله بهم أمم الاسلام وغير أمم الاسلام تحقيقا لقوله تعالى ـ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس من كتاب ﴿ الجواهر ﴾ فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء السادس وأوله سورة يونس عليه السلام)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه • وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٣	ثلاثة	ثلاث
١١	٢٧	واحيائها	واحياءها
١١	٣٢	عمره	غمره
١٣	٣	إلا قليلا	الا قليل
١٥	١٨	قسمين	على قسمين
٢٦	١٨	القصر	• النصر
٣٢	١٤	والعالى	والعامى
٣٢	٢٨	رجلان	رجلا
٣٩	٢	ينقوش	بنقوش
٤٤	١٠	ازويت	زويت
٤٦	٢٤	ثيب	تيب
٥٣	٢٠	أعدّ	واعد
٥٨	١٣	بامارت	بامارات
٥٩	٥	فيترغبون	فيرغبون
٦٠	٢١	وجود الشروط	الشروط
٦٢	١	شعور	أن شعور
٦٤	١٤	يعتبره	يعتبر
٦٦	٤	وأظهر أثرا	وأظهر أمرا
٦٦	٩	اجتبوا	اجتنبوا
٦٨	٤	واز ينت	فاز ينت
٧١	٧	لم ينلها	لم ينمها
٧٢	١٦	يوم الفناء	بوم الفناء
٧٦	١٣	فى هذا المقام	فى هذا المقام أن أقول
٧٧	٤	دونكم وخواص	دونكم خواص
٨٥	١١	الأولى على الثانية	الثانية على الأولى
٨٦	٢٧	رد عليه	ورد عليه
٨٧	١٤	أليف	أليق
٩٣	١	يالعز	بالعز
١٠٢	١٢	انكسر	أنكر
١٠٢	٢١	غريقوريوس	غريغوريوس
١٠٣	١٦	البصابات	اليصابات
١٠٤	٢٣	وغيرهم	وغيرهما
١٠٥	٤	أعوذ	أعود
١٠٥	٣٣	حفت	حفيت
١١١	١٤	تعيشوا	يعيشوا
١١٢	٢٩	للتفارف	للتعارف
١٢١	٣٣	يعور	يغور
١٢٢	٣١	أى يرضوه	
١٢٣	٢٦	الشهرات	الشهوات
١٢٣	٣٠	(١)	
١٢٤	١٥	(١)	
١٢٥	١٤	على الذم	
١٣١	٢٦	إذ هو	اذا هو
١٣٢	١٧	طلب	طلب فيها
١٣٨	١٣	والاستئثار	والاستئثار
١٤٠	٢١	سرة	سراة
١٤١	٢٣	وجدها	وحدها
١٤١	٢٧	وعير	وعبر
١٤٢	١٦	فيرغبوا	فيرغبون
١٤٤	٤	أثره اعراضه	أثر اعراضه
١٤٥	١٣	اليك	اليك الى قوله
١٥٣	١٦	كالجهاد	كل الجهاد
١٥٩	٢٤	قطونها	قطانها
١٦١	٩	قبيل	قبل
١٦٦	١٤	نفه	نفسه
١٦٧	٦	اتهذيب	تهذيب
١٧٠	١٩	الذى يعد	التى تعد

﴿ فهرست الجزء الخامس من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

ثمانية وعشرة آلاف الخ • وقتل من المسلمين مائة ألف بايعاز رئيس أساقفة بأسبانيا • وقتل فى انكلترا وايكوسيا لأجل الدين فى مائتى سنة ألفى ألف نفس الخ

١٠٤ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت تحت عنوان ﴿ رجال الدين ﴾ قد ذكرت ظلم رجال الدين فى أوروبا وأن (فولتير وروسو) وأمثالهما لم ينشروا مبادئهم إلا بعد أن قرؤها فى كتب المسلمين فأعتقت أوروبا من ذل رجال الدين بفضل الاسلام • تنبؤها بأنه سيأتى وقت قريب تسلم فيه أوروبا وأمريكا تذكر أن عمر كان عادلا والله يقول — وشاورهم فى الأمر الخ —

١٠٥ القانون المدنى • صورة محوّرة من الشريعة الاسلامية • تحسرها على الشرق وعلى الاسلام • ذمّها لعلماء المسلمين فى مصر والحجاز وفى بنى غازى الخ

١٠٦ (المظهر الثانى) ماجاء عن علماء الأرواح حديثا بأوروبا • معجزات القرآن فى هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا للقرآن • (الجوهرة الأولى) • مجمل هذه الآيات

١٠٧ (الجوهرة الثانية) فى تحليل النفس الانسانية وكيف قبلت جميع الموجودات وشاركت كل حىّ وتوقفت على كل موجود وتودّ لو ابتلع العالم كله وشرح هذه الأربعة شرحا مستفيضا

١٠٩ (الجوهرة الثالثة) معجزات القرآن التى ظهرت مطابقة لما تقدّم عند بعض علماء النصارى الذين حدّثوا الأرواح • وذكر (عمانوئيل سودنبرج) وتاريخ حياته ومنزلته فى المملكة

١١٠ ماذا يحدّثنا عمانوئيل • يقول ان الافريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع فى الجنة • ولاجرم أن الافريقيين مسلمون وذمّ المسيحيين وقال إن نصيبهم فى الآخرة مزعج محزن ويقول إن الأرواح أخبرته بأن الله واحد وأن اعتقاد الثلاثة محير فى الآخرة وأن الأطفال يدخلون الجنة ولاعبرة بمسألة ماء المعمودية عند النصارى وهكذا

١١١ كلامه فى جهنم وأن أبوابها تحت صخور وفيها خرابات ومنازل بعد شبوب نيران • وقال انه رأى الأرواح الشريرة تدخلها • وقال إن الله يرى كالشمس وكل ذلك موافق تمام الموافقة للقرآن

١١٢ اعتراض على المؤلف بأن هذا لادليل عليه جوابه بانه ذكره لثلاثة أمور • أوّلا هذه الآراء توافق كتاب الأرواح • ثانيا توافق آراء خواص علماء الاسلام • ثالثا انى نظرت فى هذه الدنيا بعقلى الخ

١١٣ تبيان نظام هذا الوجود • وكيف كان كله متحدا واذن لايتمّ نظام الانسانية إلا اذا أصبحت كلها نظاما واحدا مشاكلا لنظام هذا الوجود والا فهى انسانية حقيرة دنيئة كما هى الآن

١١٤ بيان سقراط أن الذين يحكمون الجمهورية يكونون أعفّ الناس وأعلمهم • وبيان أن أهل كل دين فى الأرض طغوا وبغوا كالمسيحيين وكالمسلمين وغيرهم وذكر آيات من القرآن والانجيل ودين الصين القديم للنبى (يوالكبير) ثم الفيلسوف (ليوتسو) ثم (كونفسيوس) وبيان أن الناس هم الذين يجعلون الدين الطاهر جاريا على حسب أخلاقهم فينزل صافيا من السماء وهم يجعلونه كدرا

١١٥ ﴿ القسم الثانى ﴾ — إلا تنفروا يعذبكم — الى قوله — ان كنتم تعلمون —
التفسير اللفظى — إلاتنفروا يعذبكم الخ —

١١٦ ﴿ القسم الثالث ﴾ — لوكان عرضا قريبا — الى قوله — والله عليم حكيم —

١٢٠ التفسير اللفظى لهذه الآيات

١٢١ — لوخرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا الخ —

١٢٢ — ومنهم من يلمزك فى الصدقات الخ —

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)